

ندوة
التحركات البشرية والهجرات اليمانية

إلى الشام وشرق وشمال أفريقيا
قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره

الرباط - المغرب



تحرير:

د. محمود أحمد أبوصوة

د. سعيد بنسعيد العلوي

د. يوسف محمد الصواني

المركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

المكتبة التاريخية اليمنية

www.yemenhistory.org

ندوة:

التحركات البشرية والهجرات اليمنية

إلى بلاد الشام وشرق وشمال أفريقيا

قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره



المركز العربي
للدراسات الاستراتيجية



كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس



المركز العالمي
لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

ندوة:

التحركات البشرية والهجرات اليمانية

إلى بلاد الشام وشرق وشمال أفريقيا

قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره

تحرير:

د. محمود أحمد أبوصوة

د. سعيد بنسعيد العلوي

د. يوسف محمد الصواني

التدوة العلمية حول :

التحركات البشرية والهجرات اليمنية ، إلى بلاد الشام وشرق وشمال أفريقيا

قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره

23 - 24 / 11 / 2004 الرباط - المغرب

نظمت بالتعاون بين :

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر ، طرابلس - الجماهيرية العظمى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط - المملكة المغربية

المركز العربي للدراسات الاستراتيجية ، دمشق - الجمهورية السورية

الطبعة الأولى - 2005

حقوق الطبع محفوظة



منشورات



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



رقم الايداع : 6518 - 2005

ر.د.م.ك 5 - 108 - 26 - 9959 I.S.B.N

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد

دار الكتب الوطنية - بنغازي



تنفيذ



تانيت

tanit@afriamail.com

المحتويات

- كلمات الافتتاح 9
- تقديم
- د. محمود أحمد أبوصوة 17
- تقرير مقرر الندوة
- محمد فتيحة، وعبد الحفيظ الطبايلي 23
- المحور الأول**
وحدة اللغة والأصل
- الصلات الثقافية بين اليمن والمستوطنات الحضرية في شرق أفريقيا
- د. عبده علي عثمان 35
- في الأسماء الجغرافية - التاريخية ومدلولاتها: نموذج التفاعل البشري بين عرب اليمن والشام وسكان الجناح العربي الأفريقي عبرالعصور.
- د. محمد محفل 49
- مقاربات جنيا لوجية في اللغة والحراك السوسيوثقافي الأفروآسيوي
- د. عبد المتعم المحجوب 61
- القبائل الليبية العربية القديمة.. هل من صلة؟
- د. علي فهمي خشيم 73
- العلاقة بين اللغة الليبية القديمة (الآمازيغية) ولغات الشرق الأدنى
- د. محمد علي عيسى 121

المحور الثاني

الهجرات اليمانية قبل ظهور الإسلام

- الصلات بين جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين خلال الألف الأول ق.م
- 147 د. جياغ سيف الدين قابلو
- الهجرات العربية اليمانية إلى بلاد الشام قبل الإسلام
- 153 د. محمود فرعون
- الهجرات اليمانية حتى نهاية القرن الثالث الميلادي
- 161 د. رفعت هزيم
- أثر هجرة قبيلتي حبشت والأجاعز من اليمن إلى شرق أفريقيا قبل الإسلام
- 173 الأستاذة. هدى عبد الرحمن العلام
- الهجرات القديمة إلى شمال أفريقيا
- 201 الأستاذ محمد المختار العرياوي

المحور الثالث

الهجرات اليمانية والتحركات البشرية بعد ظهور الإسلام

- الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا ودورها في نشر الإسلام والعروبة
- 239 د. علي حسين الشطشاط
- الهجرات اليمنية إلى موريتانيا: قراءة في الأنساب والتاريخ
- 273 د. حماد الله ولد السالم

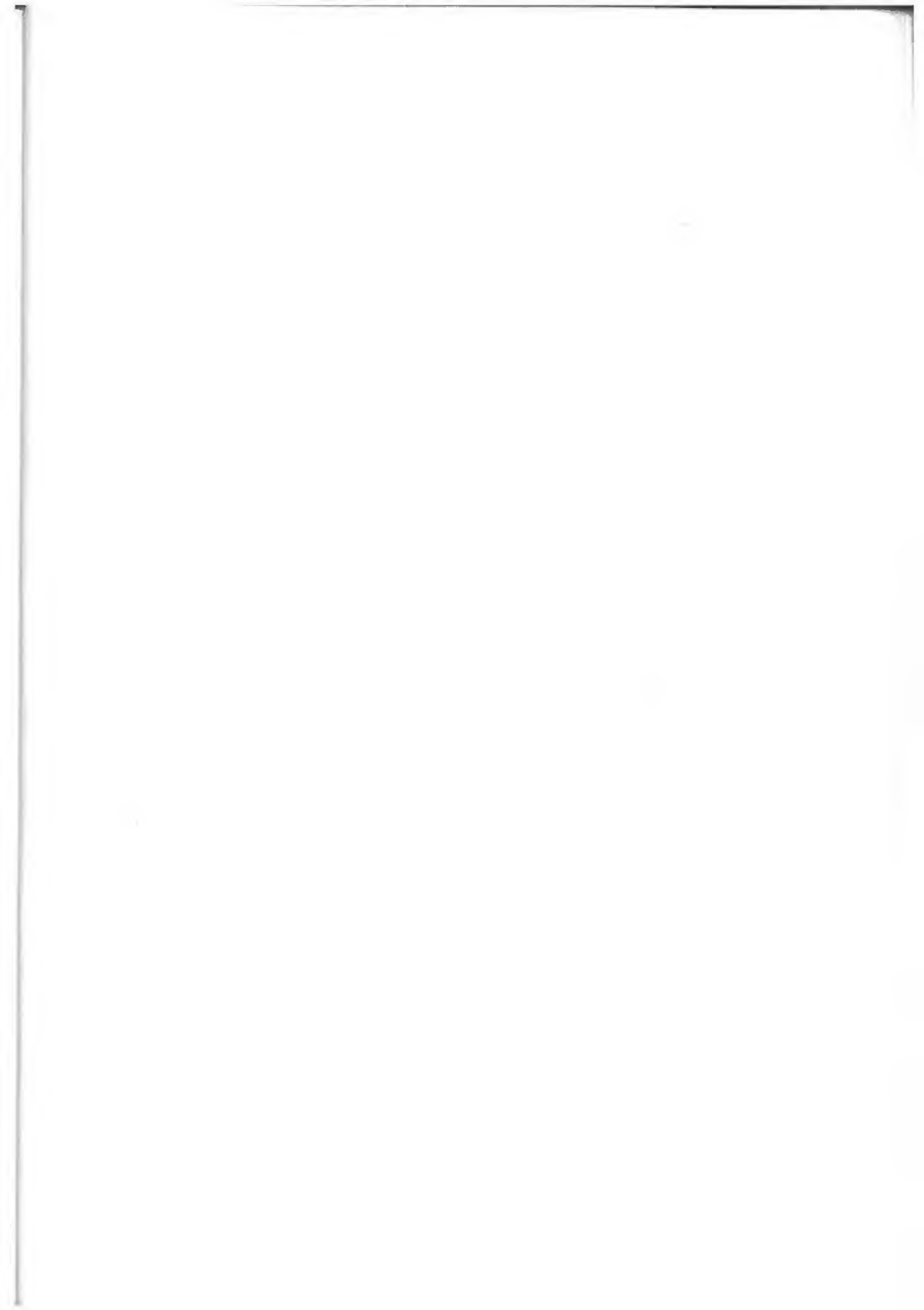
- دور القبائل الليبية واليمنية في عروبة تشاد

- 291 د. محمد أحمد الطوير
- المنصور بن أبي عامر والبربر بالأندلس في آخر عصر الخلافة
- 299 د. محمد حناوي
- الهجرة العربية الكبرى إلى المغرب الأقصى في عهد يعقوب المنصور الموحدي
- 311 د. محمد المغراوي
- استقرار قبائل صنهاجة بتانسيغت : الحدث وبعض أبعاده المجالية
- 323 د. محمد رابطة الدين

المحور الرابع

التمازج البشري وأهميته في ربط المغرب بالشرق

- الوجود اليمني بالأراضي الليبية ودوره في ربطها بالشرق
- 341 د. محمود أحمد أبو صوة
- اليمانيون في إفريقية (البلاد التونسية) في القرن الأول والثاني للهجرة
- 365 د. راضي دغفوس
- التواصل الفكري بين المشرق والمغرب وأثره في بناء دول المغرب خلال العصر الوسيط : الدولة الموحدية نموذجاً
- 377 د. صالح معيوف مفتاح
- الهجرات الهلالية من خلال بعض الدراسات الفرنسية المعاصرة
- 395 د. محمد الشريف



كلمة د. عبدالله عثمان عبدالله

أمين اللجنة الشعبية للمركز العالمي

لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

حضرات السيدات والسادة

السلام عليكم ، وبعد...

فيشرفني المشول أمامكم في هذا الجمع الكريم والأساتذة والعلماء الأجلاء ، وهذه المناسبة الطيبة حيث نلتقي للحوار حول قضية من قضايا أمتنا في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، والعالم من حولنا يصطبغ بشئى التيارات ومختلف الإيديولوجيات ، بل والسياسات والبرامج المعدة أوالتي تعد من قبل التكتلات الإقليمية والقارات المتعددة النوايا والاتجاهات.

وانكم لتعلمون جيداً أنه لا حياة حرة كريمة في هذا العصر العولمي المتماوج لأية أمة لا تحصن نفسها ضد الغزو والخارجي في أية صورة من صورهِ كانت ، وضد عوامل التحلل الداخلي ، في أي شكل كان ، وأنه لا بد من الوعي الكامل بحقائق التاريخ وواقع الجغرافيا وما يتبعهما من تفاصيل وتفريعات. من هنا كانت هذه الندوة المباركة بتعاون محمود ما بين المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر في طرابلس والمركز العربي الاستراتيجي بدمشق وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس في رباط الفتح ، لتجمع ثلة من العلماء والباحثين الجادين المُجدِّين ممن سنستمع إلى بحوثهم وأفكارهم ونتائج دراساتهم ونستفيد من خلاصات جهودهم المشكورة.

وإن كان لي من كلمة هنا عن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر فهي توضح ان هذا المركز الذي أتشرف بأمانة إدارته ليس مجرد أداة درس في موضوع واحد معين بذاته وإنما هو أداة بحث شامل في مختلف الموضوعات التي تهتم أمتنا بالدرجة الأولى وتهتم

الإنسانية قاطبة، فهو مركز منفتح ومتفتح ومفتوح الأبواب على مصاريعها باعتباره مركزاً عالمياً لا يخص قطراً بعينه ولا مجموعة خاصة، وإن كان لابد أن تكون متخصصة.

إن فكرة (العالمية) مبدأ عربي إسلامي منذ مئات السنين وديننا الحنيف جاء للناس كافة ودعوته إلى إسلام الوجه لرب العالمين تقوم على الإقناع والاقتناع في أساسها المتين، ومن المؤسف حقاً أن يحول بعض من يروم الهيمنة على مصائر البشر أجمعين هذه الفكرة العظيمة إلى (عولة) تفرض فرضاً بقوة الاقتصاد أوقرة السلاح، الأمر الذي يجب أن تقف شعوب العالم في وجهه حتى تحافظ على حريتها وهويتها وكيونيتها بل ووجودها المادي والمعنوي معاً.

سيداتي سادتي

إننا أبناء الأمة العربية مستهدفون جميعاً باستراتيجيات وتكتيكات بات واضحة أنها لا تريد لنا خيراً وهي تترصد بنا وتحيك المكائد من حولنا وفي داخل قلاعنا. وما قد اتضحت النوايا واتضحت الصورة ليس فقط عن سبيل ما يحدث في العراق وفلسطين بل في أجزاء كثيرة من وطننا العربي الكبير ولعل من أسوأ الخطط وأبلغها أثراً تلك التفرقة المفتعلة ما بين المشرق والمغرب، وتلك النزعات التي تظهر هنا وهناك داعية إلى مزيد من الفرقة والتمزق وصرف النظر عن الخطر الخارجي المحدق بنا من كل جانب. ولعل هذا ما يحفزنا إلى مزيد من الحذر والبحث العلمي الموضوعي الجاد في ما يجمعنا ويوحدنا كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

نعم.. أيها السيدات والسادة، إن الحرية بكل معانيها ومقوماتها، هي المطلب الأول لكي يحقق الإنسان وجوده وكرامته، وإن حرية التعبير عن الذات ضرورة لا غنى عنها لخلق مجتمع متوحد متوازن، ولكن هناك أسساً ومبادئ كبرى يجب أن تكون منطلقات مسلماً بها لأية جماعة متفقة تكون أمة بالمعنى الواسع الشامل المحيط. وهذا في تصوري، ما تسعى إليه هذه الندوة وأمثالها لكي يترسخ في أذهان الأجيال المتعاقبة ذلك الشعور الواعي بالانتماء والإحساس المدرك بالاعتزاز لهذا الوطن الكبير الذي يتشكل من مجموعة أوطان صغيرة،

وهو أمر طبيعي . تماماً كما تشكل لوحة المسيفساء الجميلة من قطع صغيرة إنه التنوع في الوحدة والوحدة في التنوع.. سنه الله " ولن نجد لسنة الله تبديلاً ولن نجد لسنة الله تحويلاً " .

سيداتي سادتي..

أبارك هذه الندوة ، وأشكر للباحثين جهودهم المحمودة ، وأشكر لكم حضوركم وتبشعكم عناء السفر والحضور إلى أرض المملكة العربية الرابطة ، واحمد لكم كل سعي في سبيل الحق والخير والجمال.

ولا يفوتني أن أوجه الشكر أيضاً إلى الأخ د. سعيد العلوي ، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس ، وكل العاملين بالكلية على ما وفروه من جهد لإنجاح هذه الندوة.

كلمة الرئيس علي ناصر محمد

رئيس المركز العربي للدراسات الاستراتيجية¹

أيها الحضور الكريم..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بدأ التفكير بإقامة هذه الندوة منذ عام 1995 ، وفي عام 1997 تم الاتفاق بين المركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق ومركز دراسات البحر المتوسط في طرابلس على إقامة هذه الندوة وحددت أهدافها بموجب محضر اجتماع مشترك على أنها:

- بناء محاور تأسيسية لتجذير الثقافة العربية ، وتوطيد الصلات المعاصرة للأمة ما بين أقطار الوطن العربي اعتماداً على السمات العربية المشتركة لموروثها الحضاري.
- إبراز الدور الحضاري المتبادل بين الوحدات الجغرافية والديمقراطية العربية عبر العصور وتقليل فعاليات الحدود السياسية في العزل التجزيئي للجماهير العربية.
- تصعيد الدور العربي . المتوسطي للمشروع الحضاري من خلال تعزيز الفعاليات الثقافية ، والطبيعية من أجل العمل على تأكيد وحدة الانتماء القومي للأمة العربية.
- تجذير الثقافة العربية ، وبناء مدرسة عربية لكتابة التاريخ ، وبرؤية تتطلع لصياغة المستقبل العربي ، تعتمد الموروثات الحضارية ، مما فيها النقوش العربية القديمة.
- ورغم الاتفاق على أسماء المشاركين والمحاضرين ، وعلى محاور البحوث التي ستقدم إلى الندوة ، فقد حالت ظروف ومعوقات دون انعقادها في ذلك الوقت.
- وتحددت المساعي في العام الماضي لعقد هذه الندوة ، في لقاء تم بدمشق بين المركز العربي

1 - قدّمها الدكتور منير الحمّش المدير العام للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية

لدراسات الاستراتيجية والمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتب الأحصر وبالتحديد في 2004/2/4 حيث تم الاتفاق على عنوان الندوة ومحاورها، وب في ذلك تحديد المواعيد المسبقة وتقرير ما يتم الاتصال مع الجهات الأكاديمية في الجزائر والمغرب لاستضافة الندوة، ووضع بصورت محاور الندوة التي تلبي لهدف النهائي من إقامتها ولنعطي كبر مساحة من هذا الموضوع الهام، وهي خمسة محاور:

المحور الأول: الهجرات اليمنية قبل الإسلام.

المحور الثاني: الهجرات اليمنية بعد الإسلام.

المحور الثالث: اثر الهجرات في العمران الحضري.

المحور الخامس: علاقة لهجرات بالمشروع الوحدوي في الحقب التاريخية المختلفة من لعصر الإسلامي

وكانت حلقت هذه المحاور تهدف إلى إبراز الهجرات والتحركات الشريعية اليمنية باتجاه بلاد الشام وشمال أفريقيا قبل الإسلام وبعده، وأثرها في حركة لتواصل التاريخية بين سبلان العربية وإبراز دور اللغة والأدب والفكر والعلوم والعادات والتقاليد في تمييز أواصر العلاقات بين السكان التي تعزز عمر أسس حضري في العمران وإقامة شبكة لمواصلات والمدن والاقتصاد والتجارة.

وقد تكللت لاتصالات بالنجاح حين تم الاتفاق مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، على عقد الندوة في هذا الوقت وفي هذا المكان بالذات.

أيها الأخوات والأخوة..

يكسب انعقاد هذه الندوة في المغرب الشقيق أهمية خاصة، في الوقت الذي تعمل بعض القوى على طمس نهوية الثقافية العربية الإسلامية وإحلال هوية وثقافة معادية لطبيعة شعوبنا وتراثنا فضلاً عن إثارة البعرات والخلافات الطائفية والعرقية، مما يبعدها عن معالجة مشكلاتنا الحقيقية ولنهوض بمجتمعاتنا ولتصدي لتحديات التنمية ورفع مستوى المعيشة

والخروج من دائرة التخلف والجهل والبطالة والفقر.

أن ما يجري الآن على الساحة العربية إنما هو حلقة من سلسلة طويلة من الممارسات الخارجية التي تستهدف وجود هذه الأمة وهويتها. ومن هنا تأتي أهمية انعقاد هذه الندوة من حيث كونها تأكيداً للروابط البشرية ما بين البلدان العربية على نحو يضرب بجذوره في أعماق التاريخ فقد أرسى الامتزج السكاني والحضاري في المنطقة العربية من خلال الحركات البشرية والهجرات، حقائق وثوابت تاريخية وطبيعية وثقافية وروحية عميقة. الأمر الذي يشكل رداً حاسماً على المخططات الهادفة إلى طمس الهوية الثقافية - العربية - الإسلامية، وإلى عزل المغرب العربي عن المشرق العربي.

ولا ريب أن التحركات البشرية والهجرة لعربية، واليمانية منها على وجه الخصوص، قد أرسيت الثوابت البشرية والروحية والحصارية لوطننا العربي. وعندما فتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ العرب، لم تكن هذه الصفحة معرلة عن التاريخ العربي القديم. ذلك أن تأثير الحضارة العربية الجنوبية في اليمن، كان أوسع بكثير مما يبدو في تطور المجتمع الإسلامي. وقاد هذه التأثيرات الهجرة اليمانية إلى الأمصار المفتوحة بعد الإسلام. حاملة معها مضامين حضارية سامية وأهداف تحررية نبيلة. فقد كان الفتح العربي الإسلامي، إلى جانب أهدافه في نشر الدعوة الإسلامية، ضرورة لمواجهة التحديات الخارجية، وتأكيداً على أهمية وجود استراتيجية إقليمية في مواجهة الأخطار التي تهدد المنطقة، من الشرق والغرب.

وتكتسب الهجرات اليمانية إلى بلاد الشام والعراق وشمال وشرق أفريقيا، أهميتها التاريخية من دورها الرئيسي في وحدة المنطقة جغرافياً وتاريخياً وحضارياً، وفي تأكيد وحدة النسيج الوطني داخل الوطن الواحد الذي يحترم جميع الثقافات والتوجهات التي يجمعها الوطن. إلى جانب التأكيد على وحدة الأرض والإنسان، التي صيغت عبر تاريخ المنطقة الصويل، وقد كانت منطقة الشمال (العراق - الشام - مصر) والشمال الإفريقي مجالاً حيوياً لهجرة سكان الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ، حيث تم تثبيت أبعديات الهوية والحضارة لامتنا العربية الإسلامية.

إلا أن هذا يجب ألا يسيينا حقائق تاريخية أخرى ، تتمثل في هجرات وتحركات من الشمال الأفريقي نحو الشرق وهذا ربما يكون محوراً لندوة أخرى تستكمل ما بدأناه في هذه الندوة.

أخيراً..

أوجه من هذا المنبر تحية امتنان وشكر إلى جلالة الملك محمد السادس وحكومته لاستضافتهم انعقاد هذه الندوة الأكاديمية في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس.

كما أوجه الشكر والامتنان إلى جامعة محمد الخامس ورئيسها وأساتذتها ، وإلى الأساتذة الدكتور سعيد بن سعيد العلوي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مشيراً إلى الجهود التي بذلها الأستاذ الدكتور عبدالله عثمان والأستاذ الدكتور يوسف الصواي في تذليل العقبات والعمل الدؤوب من أجل انعقاد هذه الندوة. كما أشكر جميع من أسهم في تنظيم وترتيب انعقادها من الجهات الثلاثة المنظمة ، على أرض المغرب الشقيق.

وإليكم وإلى جميع المشاركين والباحثين جزيل الشكر والامتنان. راجياً لكم التوفيق فيما تسعون إليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تقديم

د. محمود أحمد أبوصوة

لقد أشار السيد رئيس المركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق في كلمة الافتتاح إلى أنه كان من المفترض أن يعقد هذا المؤتمر منذ عشر سنوات تقريبا! ولا أعتقد بأن المجال مناسب هنا للتطرق لأسباب هذا التأخير؛ فإلهم أنه، وبمضل جهود الجهات الثلاث المنظمة له، رأى النور أخيرا. ففي مدينة الرباط بالمغرب الشقيق، وطوال يومي الثلاثاء والأربعاء 23 و24 نوفمبر، سنة 2004، تم عرض ومناقشة ما يزيد عن العشرين دراسة تقدم بها أساتذة من سوريا واليمن، وليبيا وتونس والمغرب وموريتانيا. ولكن الأمر الذي في حاجة للتنبؤ به هو لماذا موضوع الهجرات والتحركات البشرية؟ ولماذا الآن؟

من المنطقي أن تقام المؤتمرات، ولكنه من غير المنطقي أن لا تكون لهذه المؤتمرات أسباب؟ كأن تكون الأسباب علمية مثلا، أو سياسية/ استراتيجية. صحيح أن لهذا المؤتمر "رائحة" أوفلنقل "نكهة" سياسية! ولكن منذ متى كان السياسي والعلمي على غير وفاق! فقد كان على العلمي، وعبر العصور، الانصياع للسياسي! فالعلم، يقول المثل، يتبع الراية! بناء عليه فإنه من حق الكثيرين أن يشككوا في طبيعة ودوافع هذا النوع من المؤتمرات التي تبدو في ظاهرها علمية، ولكن باطنها يعكس أيضا رؤى سياسية تدعولها أنظمة بعينها وتؤازرها. وهذه بالمناسبة واحدة من الانتقادات التي وجهت لهذا المؤتمر علنا مرة، وخلف "الكواليس" مرات. فقد رأى البعض في هذا المؤتمر مجرد استجابة لمسعى أيديولوجي مفاده إلغاء التنوع الإثني في بلاد المغرب وحصره في أصل واحد، أي في الأصل المشرقي فبعد أن سعت مدرسة الإستشراق الفرنسية، يقول هؤلاء ولعقود، إلى اعتبار المغاربة من أصل أوروبي، يذهب الآن مظم هذا المؤتمر إلى اعتبار "البربر" من أصل مشرقي.

والحقيقة أن مسألة قبول فرضية ورفض أخرى كانت ولا تزال تثير الجدل ليس فقط في

هذه الجزئية، بل وفي كل ما يتعلق بتاريخ المغرب في جميع عصوره. ففكرة الثنائية والتي تعمل الواحدة على إلغاء الأخرى تعد بمثابة الحيط الرابط لجميع جوانب تاريخ المغرب فالهمج والبربر في تاريخ المنطقة القديم، ووفقا لأطروحة المدرسة الفرنسية، هما وجهان لعملة واحدة؛ ولكن حين دخلت المنطقة التاريخ، أي مباشرة بعد قدوم الفينيقيين، تحضر جزء بسيط من سكان المنطقة، أي سكان الساحل، أما أغلبية سكانها فإنها لم تكتف بمعاودة أهل الساحل، بل واعتنقت ثقافة ترفض التحضر وتعادي معتقيه. وبقدوم الرومان تأكدت القطيعة بين المحليين والقادم الجديد وتقلص عدد المتحضرين حتى كاد ينحصر في الرومان. وهكذا أصبح الجميع يتحدث عن انقسام بلاد المغرب إلى أغلبية غير متحضرة من البدو/ المحليين، وأقلية من الحضر القادمة من الشمال. وانقسام المجتمع المغربي إلى بدو وحضر هو حقيقة لا يمكن تجاهلها، ولكن ماذا عن بقية لفئات؟ ولماذا الإصرار على أن وجود إحداها يستوجب نفي / إلغاء الأخرى؟ ليس هذا فحسب، بل إن عرض تاريخ المنطقة وتحليل مراحلها المختلفة وفق منظور الانقسام أحدث فتنا لا يمكن رتقه، فتق لامس جميع ملامح حياة المنطقة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل وحتى الدينية المذهبية!

إنه ويفضل هذه الرؤية التي تعتمد مبدأ الثنائية، وهي ثنائية بحسب التذكير بأنها غير عاقلة، صنف تاريخ المغرب الوسيط أيضا. فاجتماع العرب الذين تغلب عليهم البداوة، والبربر الذين يشاركونهم هذه الخلفية، انتصرت البداوة واختفت مظاهر المنطقة الحضارية؛ فاعرب، تقول هذه الأعمال، تسببوا في إرجاع أراضي المنطقة إلى مستوى بدائي شبيه بالمستوى الذي كانت عليه قبل الاحتلال القرطاجني. من ناحية أخرى وبسبب غلبة انتمى البدوي على سكان المنطقة، عاد الجميع لحياة البداوة والرعي!! غير أن حتى هذا التشابه وانذي لم يقصد به غير تحقير كل ما هو غير غربي، لم يبلغ مبدأ الثنائية. فوفقا لاستراتيجية صممتها مدرسة الاستشراق الفرنسية تقاسم مؤرخوها الأدوار، تبني فريق الدفاع عن الفاتحين المسلمين ومهاجمة المغاربة وتولي فريق آخر الدفاع عن المغاربة وتحميل المسلمين مسؤولية تخريب البلاد وتخريب اقتصادها. فليفي بروفنسال، على سبيل المثال، يتهم العرب صراحة بتخريب المنطقة زاعما بأنهم "المسؤولون الحقيقيون عما أصاب إفريقيا من خراب

اقتصادي وزراعي بعد ذلك (أي بعد الفتح) بسنوات" ولا ريب يستطرد بروفنسال من أن "العرب هم الذين نسبوا إلى بظلة لأوراس (يعني الكاهنة) هذه الجريمة التي لا بد أن نضيفها إلى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد"¹ فالمدرسة الفرنسية، كانت ولا تزال، تصر على استبعاد القواسم المشتركة، واعتماد فرضية الاختلاف العرقي بين المغاربة والمشاركة. وليس من قبيل الصدفة أن تكرر فرنسا جهودها طوال احتلالها الجزائر أو فترة الحماية للمغرب لتعميق الاختلاف بين الجزائريين والمغاربة، وتعمل بعد رحيلها على تأسيس الأكاديمية البربرية في باريس بعد استقلال الجزائر وليس قبله!

لذلك فإن الأسباب التي تدعو لإقامة مؤتمرات تناقش فيها مثل هذه القضايا وغيرها، حتى وإن كانت تمثل استجابة لرغبات سياسية، أراها أكثر من مهمة. والأهمية التي أعنيها لا علاقة لها بدعم موقف أيديولوجي ما، بل لها علاقة بتنشيط ذاكرة سكان المنطقة. فمن لا ذاكرة له، يقول المثل، يسهل التلاعب به أكثر. ففي غياب مؤتمرات محلية تلفت النظر لكل ما له علاقة بذاكرة الشعوب يتعرض الآن العديد من شبان دول المغرب العربي (المغرب، والجزائر وتونس) لحركة تنصير. صحيح أن هذه الظاهرة تعود إلى مرحلة الاحتلال ولكن ومن منطلق العولة، وخوف هذه الدول من أن يتهمها الغرب اتهامات أقلها التعصب الديني نراها تتجاهل هذه الظاهرة! وهذه الأخيرة، والتي لا تلتفت إليها المؤسسات العربية، تكاد تسبب نفس الأضرار التي يقوم بها الآن دعاة اختلاف لمغربية العرقي عن المشرقة. فهذان العاملان والذي ما انفك الغرب، فرنسا تحديداً، يعمل على توظيفهما من أجل تفتيت تناغم المجتمع المغربي منذ مرحلة الاستعمار، يعودان للسطح من جديد. أمام هكذا تطورات هل يمكن للباحث المغربي أن يقف مكتوف الأيدي، ويمتنع عن المشاركة ورياء الرأي بحجة أن هذا النوع من المؤتمرات لا يمثل إلا رأي هذا النظام أو ذاك؟ أعتقد أن نقاعس الأنظمة السياسية عن هذه المسائل هو الذي من المفترض أن يدعوا للباحث المغربي ليس فقط للتعجب والاستغراب، بل وللمطالبة بأنظمة المنطقة بضرورة تمويل هذا النوع من المؤتمرات ورعايتها.

1- إن اشواهد ذات العلاقة بالأدبيات الفرنسية كثيرة ولا أرى ما يستوجب التوقف عندها خاصة وأن بحث الدكتور محمد الشريف، المنشور ضمن أعمال المؤتمر، يتعرض لهذه المسألة بالعرض والتحليل..

والاهتمام بهذه القضايا لا يعني تجاهل التنوع. ولأن الجهات المنظمة لم تكن رافضة لهذا المبدأ فقد كانت حريصة على ضرورة عقد المؤتمر في المغرب ؛ ففي هذا الأخير، وكما يعلم الجميع، يوجد عدد لا بأس به من دعاة البربرية. من ناحية أخرى، إن الدعوة لم تقتصر على فئة بعينها. فضلا عن أن الجهات المنظمة لم تضع شروطا غير شرط الالتزام بمحاور المؤتمر؛ وحتى هذه الأخيرة لم يلتزم المشتركون بها كثيرا! هذا وتجدر الإشارة إلى أن المؤتمر، وبالإضافة إلى أنه لم يعقد في السر، فإن الجرائد المغربية نشرت محاوره. كما أن المتمعن في الأبحاث التي ألفت يلاحظ بأن المصطلحات والمفاهيم لم تكن موحدة. لذلك فحتى وإن كان دافع هذا المؤتمر الرئيسي سياسيا، فإن الرغبة في إثارة هذا الموضوع، ووفق رؤى ليست بالضرورة مجنسة، لم يكن لها من دافع سوى كشف / تعرية الفرضيات المغرضة، واقتراح وجهات نظر بديلة.

صحيح أن المقترحات في مجملها لم ترق إلى مستوى اقتراح البديل. وهذا أمر طبيعي ومنطقي، فمن غير المعقول أن يتمكن مجموعة من الأساتذة وفي مؤتمر واحد ليس فقط من تعرية الأطروحة الفرنسية، بل ومن اقتراح واحدة بديلة. فكذا عمل يتطلب تضافر جهود العديد من المؤسسات ولأفراد ولعقود. لذلك فقد أبدى الكثير من المشاركين رغبتهم في عقد مؤتمر ثان تثار خلاله إشكاليات الهجرات في تاريخ المنطقة العربية بصفة عامة، والهجرات المشرقية لبلاد المغرب، وهجرات المغاربة للمشرق على وجه التحديد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ولأن الهدف من إقامة هذا المؤتمر هو المساهمة في إزاحة الكثير من العتمة حول موضوع الهجرات وعلاقتها بالتركيبة السكانية لبلاد المغرب العربي، فإنه، وكما لم توضع في هذا المؤتمر أي عراقيل على مستوى المشاركة وإبداء الرأي، أكدت الجهات المنظمة على أنه في حالة إقامة مؤتمر ثان فإن باب الاجتهاد سيكون مرة أخرى مفتوحا للجميع. فمن غير المعقول أن تستبدل في المستقبل أحادية بديل، ومهما كان صدقه، أحادي.

والسؤال الثاني هو لماذا الآن؟ أظن أن ما دار وما يدور في العراق يستوجب من الجميع وقفة تأمل وتدبر أيضا فدحول الغرب الآن، وبصرف النظر عن ما قبل وما يقال، يصعب تفهمه خارج التراث الاستعماري في المنطقة، أو لنقل خارج عنصر الخنثى للماضي. ولسنا في

حاجة لتذكير باستراتيجية المستعمر في المنطقة العربية أثناء الاحتلال، إذ أنها لم تتغير كثيرا حتى بعد رحيله، فالتركيز على الاختلاف داخل المنطقة العربية، ورعاية هذا الجانب على حساب الآخر كانت ولا تزال من أهم ركائز استراتيجية الغرب القائمة على مبدأ "فرق تسد"! فحرص الغرب على ضرورة استمرار فكرة انقسام المنطقة العربية على المستوى الفوقي، وعلى انشطاريته على المستوى التحتي جعلته يبادر، مباشرة بعد احتلاله العراق إلى تقسيمه إلى ثلاثة محاور/ مناطق نفوذ (الجنوب الشيعي، والوسط السني، والشمال الكردي)! ومن يعتقد بأن مسألة التقسيم ستنتهي عند هذا الحد فهو لا محالة متفائل! فالغرب، والذي يعمل على إبراز أهمية المرجعية الدينية من ناحية ودور العشائر في تقرير مصير العراق من ناحية أخرى، سيعمل بكل تأكيد على إنهاء كل مطهر من مظاهر ليس وحدة العراق فحسب، بل وربما وحدة كل ضلع من ضلوع هذا المثلث!!

وحجة التدخل، أي الاحتلال، في غير لعراق قائمة ولا نريد أن نتوقف عند خصوصية كل دولة عربية. ولكن يجب التنبيه إلى أن ما يدور في العراق سوف لن ينتهي عند حدود هذا الأخير. فليس يترك العرب إيران تخوض تجربتها، ولا سوريا في حالها، ومن الطبيعي أن لا تترك مصر! والذين يشغلهم ما يدور في العراق الآن عن الذي دار منذ أكثر من عقد في الجزائر، عليهم أن يعوا بأن التركيز على ثنائية الجزائر لم تنته فصولها بعد، فالجزائر، على أهميتها في المغرب العربي، ليست المستهدف الوحيد. لذلك فإصرار الغرب (فرنسا تحديدا) الآن، وبطبيعة الحال إصرار دعاة البربرية، على إبراز خصوصية الثقافة المحلية، والتعبير عنها بلغة غير اللغة العربية، الفرنسية تحديدا، عليهم أن يعوا بأن حجة استخدام الفرنسية التي هي أكثر قدرة على التعبير، وأكثر ملاءمة للتطور العلمي، هي في الأصل حجة واهية، فاللغة الفرنسية الآن في حاجة للدفاع عن نفسها وفي عقر دارها! فأكثر من 85% مما ينجز الآن في مجال المعرفة في العالم يكتب باللغة الإنجليزية! فماذا علي دعاة استبدال اللغة العربية بالفرنسية العمل الآن؟ وماذا لو أن الثقافة الصينية أصبحت في العفود القادمة هي الثقافة المسيطرة! إن الأمر المدهش أن أتباع/ أنصار هذه السياسة على دراية بأن اختيار البديل غير العربي في السابق لم يحقق للجانب المحلي أي فائدة. ولسنا في

حاجة للتذكير مثلاً بما عاناه أنصار فرنسا في الجزائر (الحركي) بعد رحيلهم مع المستعمر إلى دياره ، وما يعانيه أبناءهم الآن من بعدهم.

إنه ، ومن هذا المنطلق عقد المؤتمر الأول للهجرات اليمانية والتحركات البشرية إلى الشام وشرق وشمال أفريقيا قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره. وكنا نأمل أن تتضمن محاور هذه الندوة مواضيع تتصل بمستقبل المنطقة ؛ غير أن هكذا مهمة ما كان لها أن تتحقق إلا بمشاركة علماء الاجتماع ، والأنثروبولوجيا ، والاقتصاد والسياسة. فمسألة الهجرة ، والتحريك البشري ، لا يمكن التطرق إليهما من وجهة نظر تاريخية صرفة. فالعالم اليوم ، وبفضل تعددية الأنظمة المعرفية ، لم يعد يعترف ، حين يتعلق الأمر بكل ما هو بشري / بيئي ، بأحادية التناول. مع ذلك فإن مشاركة غير المؤرخين في هذه الندوة كانت حاضرة ؛ وبالإضافة لبعض اللغويين ، كانت هناك مساهمة لأستاذ في علم اجتماع (الدكتور عبده علي عثمان من اليمن) وأخرى لأستاذ في الفلسفة (الدكتور علي فهمي خشيم من ليبيا). وبالنظر إلى أن الأستاذين محمد فتيحة وعبد الحفيظ قدما تقريراً مفصلاً حول الأعمال التي أقيمت في المؤتمر ، فإنني رأيت أن أتجاوز عن عرض ما ورد في المؤتمر من بحوث وأحيل القارئ لتقريريهما.

تقرير عن أشغال الندوة

انتظمت الندوة العلمية المنعقدة يومي 23 و24 نوفمبر 2004 بمدرج الشريف الإدريسي، كلية الآداب الرباط، والمنظمة من طرف كل من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكادال، الرباط؛ والمركز العالمي للدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر بطرابلس؛ والمركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق، حول موضوع:

"التحركات البشرية والهجرات اليمنية إلى بلاد الشام

وشرق وشمال إفريقيا قبل ظهور الإسلام وبعده"

لقد توزعت أعمال الندوة على ست جلسات علمية همت ثلاث منها بشكل خاص الجوانب المتصلة بالموضوع خلال فترة ما قبل الإسلام، في حين همت الثلاث الأخرى فترة ما بعد الإسلام. مع الإشارة إلى أن هذا التقرير هو في الواقع تقرير جزئي لمضمون تلك الجلسات، لكون طول بعض المداخلات لم يسمح لأصحابها بتقديم كل العناصر الواردة في أبحاثهم.

بالنسبة للجلسة الأولى، فقد تطرق الأستاذ علي فهمي خشيم إلى الصلات القائمة بين القبائل الليبية القديمة والجزيرة العربية، موضحاً أن المقصود بالقبائل الليبية هو كل ساكنة المغرب بمعناه الاصطلاحي الممتد من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي. وقد اعتمد الباحث على مصادر قديمة، مصرية ويونانية ولاتينية ورومانية، وعلى ما سماه بـ"المهجع العروبي" الذي يتمثل في إرجاع الأعلام الجغرافية والأسماء إلى أصولها العربية. وقد حرص الباحث على التذكير بأن ارتفاع عدد القبائل (150) قد أدى بالضرورة إلى تحريف في الأسماء، وأن عملية تبادل الحروف والأصوات قد أدت بدورها إلى اختلاف في المعاني. وبعد تقديم الباحث لمجموعة من الأمثلة توضح أهمية التدقيق اللغوي في دراسة أسماء القبائل الليبية واستعمالاتها في اللغات القديمة بهدف تصحيح أخطاء ومغالطات مقصودة أحياناً، أكد على

ضرورة "النظر من جديد في المكتشفات الأثرية لأهمية ذلك في تجديد وتدقيق معارفنا بأسماء القبائل".

وأكد من جهته الأستاذ عبد المنعم محمد المحجوب في مداخلته "مقاربات جنياالوجية في اللغة والحراك السوسيو- ثقافي" على حصول تلاحق أفرو- آسيوي في اللغة والحضارة، وأن مسارات هذا التأثير لم تكن أحادية بل اخترقت المجال والدين والمجتمع، مشيراً في الوقت نفسه إلى أن انعكاسات فهم هذا التأثير أدت إلى قراءات خارجية غريبة أومتأثرة بها وما نتج عنها من مسلمات لم يتم تجاوزها إلى الآن.

وقد قسم بحثه إلى محاور: يتصل الأول باللغة والحضارة، فاللغة تمثل سقا قديماً ما يزال قائم إلى اليوم باعتبارها وسيلة للتفوق ونزع الاعتراف، وقدم في هذا الباب أمثلة من قبيل إطلاق الإغريق لكلمة بربر على غيرهم. وتناول في محور آخر مسألة اللغة كرمز جمعي ووسيلة للتمييز، فوقف عند المظاهر المتعددة لتأويل اللغة والكتابة التي كانت في الشرق استحضاراً للمقدس وكانت عند اليونان فعلاً مدنياً وعند الفيسقيين فعلاً إنسانياً. وخلص في الأخير إلى أن السومرية تبقى حاضرة كمقاطع وأصوات في أغلب اللغات الأفرو- آسيوية بخلاف التصور الاستشراقي.

وتعرض الأستاذ رفعت هزيم في مداخلته عن "الهجرات اليمنية حتى القرن الثالث الميلادي" إلى نوعية المصادر المعتمدة في دراسة تاريخ اليمن من آثار ونقوش مكتوبة بلغات قديمة مختلفة وكتابات الآشوريين والرومان واليونان وكتب التراث. وبعد استعراضه لمجموعة من النصوص المتعلقة بالهجرات اليمنية، حاول تفنيد الفرضية القائلة بأهمية هذه الهجرات وتتابعها حتى القرن الثالث الميلادي، لكون ما يرد بالمصادر والنقوش لا يؤكد تلك الأهمية وذلك التابع، معتبراً كخلاصة أن هذه الهجرات كانت هجرات في كلا الاتجاهين، وأنها لم تكن هجرات قبائل بل هجرات جماعات فقط وفي فترات متعاقبة، وأن هذه التحركات التدريجية هي التي أدت إلى تكون اللغة العربية في وقت مبكر وبكيفية تدريجية.

وقد انصبت المناقشة التي نلت هذه الجلسة على العناصر التالية :

- ضرورة الاهتمام بالمصادر اليمنية القديمة المكتوبة بخط المسند لكونها أكثر مصداقية من الروايات اللاحقة.

- التحرز من مسألتي اليفينية والأسبقية لانعدام الأدلة العلمية.

- إعادة النظر في المفهوم المجالي لما يصطلح على تسميته بشبه الجزيرة العربية خلال الفترات السابقة عن الإسلام.

أما مداخلات الجلسة الثانية فقد همت بأبحاث ثلاث:

فقد أكد الأستاذ محمد محفل في البداية أن مداخلته تسعى بالأساس إلى الوقوف عند الأسماء الجغرافية - التاريخية المتداولة بين شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا قبل الإسلام، متسائلا عن سبب اقتصار الندوة عن اليمن والشام، لكون شبه الجزيرة العربية كانت تمتد في الواقع نحو الشمال وبلاد ارافدين، ولارتباط التحركات البشرية التي شهدتها هذه الأخيرة بمشكلاتها في الشام.

ثم استعرض الباحث بعد ذلك مجموعة من الأسماء مثل: لويون وبربر وموروس، مينا الاستعمالات لمتماثلة لجذور نفس الأسماء في المجالين معا وبنفس الدلالات، وخلص في النهاية إلى أهمية تدقيق تلك الاستعمالات اعتمادا على ما يرد بالنقوش والكتابات القديمة بالأساس.

أما بحث الأستاذة هدى عبد الرحمن العلام محمد حول "أثر هجرة قبيلتي الحبشان (حبشت) والجاعز من اليمن إلى شرق إفريقيا قبل الإسلام"، فقد اعتمد فترة زمنية تمتد من الألف الثالثة قبل الميلاد إلى ما بعد مجيء الإسلام، فقدمت تعريفا بالقبيلتين قبل التطرق إلى ظرفيات وملابسات انتقالهما إلى شرق إفريقيا من خلال الوقوف عند الخلافات القائمة بين الباحثين حول كيفية وتاريخ الانتقال، وعند الآثار المترتبة عنه على المستوى السياسي والاقتصادي والديني واللغوي، وكذلك انعكاسات هذا الانتقال على اليمن، الموطن الأصلي للقبيلتين.

وأكدت الباحثة في الخاتمة على الأثر المهم لانتقال القبيلتين في شرق إفريقيا وفي اليمن نفسها، وعلى ضرورة تعميق البحث في جملة من القضايا المرتبطة بالموضوع مثل تحديد موطن قبيلة الحبشان ودولة سبأ.

وتناول الأستاذ محمد مختار العرياي في بحثه مسألة "الهجرات القديمة لشمال إفريقيا". وبعد الإشارة إلى النظريات الثلاث المتعلقة بأصول البربر: نظرية الأصل الأوروبي ونظرية الأصل الحامي والنظرية الأنثروبولوجية، توقف الباحث عند توظيف النظرية الأخيرة من طرف باحثين محليين سعوا إلى تأصيل البربر في المنطقة اعتماداً على ارتباطهم بإنسان ما قبل التاريخ. وحاول الباحث بعد ذلك تنفيذ التأويلات التي ذهب إليها هؤلاء الباحثون وتقديم أدلة تجزم بالأصول اليمنية الشرقية للبربر.

وقد همت مناقشة عروض هذه الجلسة مسألتي:

- أهمية الطوبونيمية في دراسة موضوع هذه التحركات البشرية لوجود الكثير من المواقع تحمل نفس الأسماء في المجالين معاً.
- ضرورة التروي في إصدار الأحكام التي لا تتطابق وما هو متوافر في النقوش والمصادر.

وفيما يخص عرضي لجلسة الثالثة، فقد تناول في أولهما الأستاذ محمد علي عيسى موضوع: "العلاقة بين اللغة الليبية القديمة ولغات الشرق الأدنى القديمة"، حيث أشار إلى ارتباط اللغة الليبية القديمة، أي الأمازيغية الحديثة، باللغات السامية المختلفة لارتباط ذلك بالهجرات المتتالية إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

ثم قدم بعد ذلك مجموعة من الأمثلة على ارتباط اللغة الليبية القديمة بكل من الأكادية والهيروغليفية والكتنانية والآرامية ولغات شمال شبه الجزيرة العربية، ليخلص في النهاية إلى كون "كل القرائن تدل على أن اللغة الليبية القديمة ذات صلة وثيقة بلغات الشرق الأدنى القديمة".

أما العرض الثاني ضمن هذه الجلسة فقد تناول من خلاله الأستاذ أحمد بلحاج موضوع "الجزور المشتركة لمنطقة الشمال الإفريقي"، حيث ذكر في مرحلة أولى المعلومات المتداولة لدى كبار المؤرخين والنسابين العرب وعلماء الآثار حول الأصول المشرقية للبربر وأنسبهم ومواطنهم، وأشار في مرحلة ثانية إلى ارتباط فكرة الترعة البربرية بموضوع المنطقة للاستعمار الأوروبي وشيوع الأفكار الساعية إلى نفي انحدر اللغات السامية والعربية والبربرية من أصل واحد.

وأكد الأستاذ على فهمي خشيم في نهاية هذه الجلسة على ضرورة استثمار الأفكار والآفاق التي تفتحها مثل هذه العروض إلى مشاريع بحث ستعمق بكل تأكيد معرفتنا بهذه التحركات والهجرات.

أما عروض الجلسة الرابعة فقد تناولت قضايا تتعلق بالهجرات العربية إلى شرق وشمال إفريقيا.

وهكذا، اهتم الأستاذ راضي دغفوس بموضوع "اليمنانيون في إفريقيا في القرون الأولى للهجرة"، حيث أشار في محور أول إلى الأصول المشتركة بين سكان اليمن وساكنة إفريقيا من خلال ذكر النظريات المتعلقة بمسألة أصول البربر، وكذا الموجات المتعاقبة للهجرات العربية في اتجاه المنطقة، وبشكل خاص الموجة الأخيرة التي توافقت انتشار الإسلام في شمال إفريقيا. أما المحور الثاني، فقد حاول فيه الباحث مناقشة مدى مساهمة اليميين الوافدين على المنطقة ودورهم في انتشار الإسلام بها، وذكر في هذا الباب أمثلة عديدة لقبائل ولقادة يمينيين لعبوا أدواراً أساسية في انتشار الإسلام. وهي أدوار لا تقل أهمية عما قامت به القبائل اليمنية في بلاد المشرق. أما المحور الثالث، فقد خصص للحديث عن الأدوار المهمة التي لعبتها العناصر اليمنية في إفريقيا على المستوى العسكري والسياسي والاقتصادي والديني والثقافي، وهو ما ترتب عنه انتشار الإسلام واللغة العربية بإفريقية خاصة وبلاد المغرب عامة.

وتناول عرض الأستاذ علي حسين الشطشاط موضوع "الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا ودورها في نشر الإسلام والعروبة". وفيه توسع الباحث في الحديث عن دور العرب في

كشفت سواحل شرق إفريقيا من خلال الهجرات والتبادل التجاري، قبل التوقف مطولا عند مختلف الجوانب التي تبرز من خلالها آثار الهجرات العربية على شرق إفريقيا سواء على المستوى السياسي أو الديني أو الثقافي أو الاقتصادي. وهي كلها معطيات تؤكد على أهمية تلك الهجرات العربية إلى المنطقة وتغييرها لمعالم الحياة التي كانت سائدة بها قبل ذلك.

وتعرض الأستاذ محمد الشريف في البحث الثالث والأخير من هذه الجلسة لموضوع "الهجرات الهلالية من خلال الدراسات الفرنسية المعاصرة". فتطرق إلى إشكالية المصادر المتعلقة بدراسة الموضوع والصور المتعاقبة التي كونها مؤلفون تلك المصادر عن الهجرات الهلالية؛ ثم ميز بعد ذلك بين اتجاهين كبيرين في أبحاث المؤرخين الفرنسيين المعاصرين حول هذه الهجرات الهلالية وآثارها المختلفة على بلاد المغرب اتجاه أول غلبت عليه النظرة السلبية لتلك الهجرات، كما هو واضح من خلال كتابات جورج مارسسي وروجي إدريس وهنري طراس، التي يجب فهمها على ضوء الخلفية الإيديولوجية الكامنة وراءها، والانعكاسات المترتبة عن الترجمات الغير سليمة للمصادر الأساسية حول الموضوع إلى اللغة الفرنسية. أما الاتجاه الثاني فيمثلته باحثون من أمثال جاك بيرك وجان بونسي وكلود كاهن الذين تصدروا للأحكام والمغالطات الواردة في كتابات مؤرخي المجموعة الأولى. وأكد الباحث في النهاية على أن هذا لتباين بين الباحثين الفرنسيين حول الهجرات الهلالية يؤكد على ضرورة مواصلة البحث في هذا الموضوع بالقراءة المتأنية للمصادر والسعي إلى توظيف ما قد يتم اكتشافه من شواهد جديدة.

وركزت المناقشة بشكل خاص على أهمية النوازل ووثائق الكبيرة في دراسة موضوع الهجرات إلى بلاد المغرب، ودور القبائل اليمينية في تفكك الوحدة السياسية للمنطقة وقيام إمارات مستقلة عن المشرق.

استلغمت الجلسة الخامسة بمداخلة الأستاذ محمد المغراوي "الهجرة العربية الكبرى إلى المغرب الأقصى في عهد يعقوب المنصور الموحدي"، وهي حجرة تمت كما هو معروف بقرار اتخذها الخليفة الموحدي وتمكمت فيه اعتبارات مختلفة منها ما يتعلق بالمشاكل التي أثارها هذه القبائل للدولة الموحدية في إفريقية لاسيما بعد تحالفها مع بين غانية؛ ومنها ما يتصل بما يمكن

لهذه الدولة أن تحجبه من جراء تهجير بني هلال نحو المغرب وتوطينهم في سهوله الغربية وتوظيفهم كطاقة عسكرية بالأندلس في مواجهة حروب الاسترداد. وكان الباحث قد استهل بحثه بالتعريف ببني هلال والتذكير بالهجرات العربية الأولى نحو بلاد المغرب وبمحاولات عبد المؤمن نقلهم إلى المغرب الأقصى بغرض إعادة تشكيل التوازنات العصبية.

وبالنظر إلى ما ورد في المصادر عن ندم المنصور الموحيدي على قراره ذلك، فلا شك أن النتائج لم تكن في مستوى تطلعاته، فالعرب اضطروا إلى التحول إلى مزارعين وهذا أمر لم يألفوه واستمروا في إحداث الاضطرابات في المناطق الأطلنطية، لكن هذا لا ينفي بعض النتائج الإيجابية ومنها المساهمة في تعريب المنطقة.

ويتصل بهذه المداخلة البحث الذي قدمه الأستاذ محمود أحمد أبوصوة حول "التواجد اليمني بالأراضي الليبية ودوره في ربطها بالشرق" الذي استهله بالتطرق إلى إشكالية تسمى إلى التأصيل لتاريخ ليبيا القديم والوسيط بتجاوز مقاربتين أو شكلين من التطرف في التعامل مع التاريخ المحلي، واقتراح توجه ثالث عن طريق الانفتاح على أفق الوجود اليمني باعتباره الحلقة الغائبة في تاريخ ليبيا. وهكذا، يثير الباحث صعوبة كتابة تاريخ ليبيا خارج دائرة التبعية بسبب شح المصادر وغياب كيان سياسي عبر عنه بـ"السلطنة"، وهو ما حكم على من تناول هذا التاريخ باقتراف جريرتين، الأولى غربية تمثل في كتابة التاريخ المحلي لليبي انطلاقاً من دور الوافدين وتجاهل دور المحليين؛ أما الثانية فهي إسلامية وقد تناولت هذا التاريخ في إطار التبعية لإفريقيا وألمصر، وأهملت المحليين وركزت على الوافدين الجدد ومن قاومهم لا غير. لكل هذا، يعتقد الباحث، ودون استبعاد هذه التواريخ، أن هناك ضرورة لكتابة تاريخ آخر بالتركيز على الوجود اليمني.

وكان آخر المتدخلين في هذه الجلسة الأستاذ حماد الله ولد السالم حول "الهجرة اليمنية إلى موريتانيا". وهي مداخلة تأتي بكثير من الأسئلة والمراجعات المفاهيمية في موضوع النسب والتعريب والقراءات الثائية للتاريخ التي اشتهرت بها الكتابات الكولونيالية، وتدعو إلى ضرورة التجاوز بتجديد السؤال واستعمال مفاهيم العلوم الإنسانية الغربية. ليخلص بإيجاز إلى إجمال الروافد الإنسانية العربية بموريتانيا في:

التشكيلات اليمنية ، ومن أهمها بني حسان المتحدرة من قبائل المعقل.

- والتشكيلات القرشية المنتمية إلى النسب القرشي أو إلى النسب الشريف.

ولا شك أن نزوح هاتين التشكيلتين قد ارتبط بالتحويلات السياسية التي كان يعرفها المغرب الأقصى منذ العهد المرابطي.

أم الجلسة السادسة والأخيرة ، فقد تعرضت جل مداخلاتها إلى مجال الغرب الإسلامي من خلال دولة المنصور بن أبي عامر ودولتي المرابطين والموحدين ، إضافة إلى مداخلة عن التواصل الحضاري والثقافي بين اليمن وأجزاء من شرق إفريقيا.

تناول الأستاذ محمد حناوي قضية الإصلاح العسكري العامري الذي عمل من خلال دمج قبائل البربر في جنده على توفير فعالية أكبر لهذه المؤسسة وخلق تراتيبات جديدة في البلاد كان الهدف منها تجنب استئساد قادة العرب والصقالبة عليه ، وضبط التوارنات السياسية والاجتماعية لدولته ، مطلقا بذلك سياسة وأفكارا معروفة عن كيفية تدبير أمور الحكم استقاها من الآداب السلطانية.

وقد أثار الأستاذ محمد رابطة الدين في عرضه موضوع التحويلات الناتجة عن استقرار قبائل صنهاجة في منطقة تانسيفت ، وما كان له من تأثير على مجال مدينة مراكش المباشر طيلة حكم المرابطين والموحدين من خلال تشكيل الخريطة البشرية للمنطقة والمتأثرة بالضرورة بالتحويلات السياسية التي عرفها مجال مراكش على امتداد الفترة الممتدة من أواسط القرن الخامس إلى العقد السادس من القرن السابع الهجري.

وقد صاحب هذا الحدث تفاعل مع المجال يتجسد في تعمير دؤوب للمنطقة بما أحدث فيها من قرى وضياع وبناء ، وازدهار مراكش حاضرة الجنوب والمغرب آنذاك وبعض المدن والقرى كجليروتاوتي وناقايطة.

ونطرق الموضوع الذي قدمه الأستاذ صالح معيوف مفتاح إلى "التواصل الفكري بين المشرق والمغرب وأثره في بناء دول المغرب خلال العصر الوسيط" من خلال شخصية ابن

تومرت ، وإن كان المرابطون قد أرسوا من قبل معالم الدولة المركزية. وقد ركز الباحث تحليله على دور المشرق في بناء الشخصية الفكرية لمحمد بن تومرت زعيم الموحيدين ومؤسس دولتهم وأكد على أن المعارضة السياسية كانت تتركز دائما على المقوم الديني. ولتأكيد هذا الرأي فقد رجع بنا إلى بدايات الدولة الإسلامية الثورات الخارجية.

وتناولت مداخلة الأستاذ عبده على عثمان موضوع "التواصل الحضاري والثقافي بين اليمن والمستوطنات الحضارية في شرق إفريقيا" ، الذي توقف في بدايته عند تشابه سمات وتجارب مجتمعات البحر الأحمر الحضرية الذي يعكس الصلات والعلاقات بين الهنتين في ميادين كثيرة كالتجارة والفلاحة والحياة الدينية والاجتماعية. وقد استدلل على ذلك بما وقف عليه في الأسماء والطوبونيميا من تشابه كما تدل عليه النقوش الموجودة في إثيوبيا المكتوبة باللغة الجعزية والسبئية. ولعل العامل المهيمن هو تجارة المرور التي زادت من أهمية التواصل بين شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا أو ما سماه طريق البخور ودرب الأربعين

إن المدن التي نشأت على سواحل البحر الأحمر والبحر العربي كانت محطات للاستقرار وسهلت تيارات الهجرة بين المجالين. وقد أورد الباحث أسماء عدد منها كعدن وقتا ويبلول وزيلع وغيرها. وقد توسع الباحث في ذكر دور هذه المدن في تكثيف التواصل الحضاري والتبادل التجاري وفي استقطاب الهجرات اليمنية إلى شرق إفريقيا.

مقررا الندوة :

محمد فتحة وعبد الحفيظ الطبايلي

المحور الأول
وحدة اللغة والأصل

الصلات الحضارية والثقافية

بين اليمن والمستوطنات الحضرية في شرق أفريقيا

عبد الله علي عثمان

جامعة صنعاء

إن تشابه السمات والتجارب الحضارية لمجتمعات البحر الأحمر عبر مراحل تاريخية مختلفة لا تنم عن أهمية المكان فحسب ولكنها تعكس أيضاً انتشار النماذج والعلاقات الحضارية لجماعات المحليات وخاصة في ميدان التجارة والزراعة والعلاقات الدينية وأنماط الحياة الاجتماعية للسكان. إن تشابه أسماء المدن والأماكن والجمال والوديان والآبار والأسماء المدنية وأسماء القبائل ليس صدفة ولكنها تدل على العلاقات الحضارية المتبادلة التي تكونت بين مجتمعات البحر الأحمر خلال فترات تاريخية طويلة؛ فالمدن التي تكونت قبل الإسلام والمدن التي ازدهرت أيضاً بعد ظهوره كانت محطات تجارية هامة على سواحل البحر الأحمر. وكانت هذه المدن تقوم بوظائف اقتصادية هامة في تجارة الترانزيت بين مجتمعات الجزيرة العربية من ناحية وبين مجتمعات شرق أفريقيا من ناحية أخرى. إضافة إلى بعض البلدان الأخرى التي نشأت معها علاقات تجارية في الشرق وفي الغرب أذكر منها الصين والهند ومصر واليونان.

وقد مثلت هذه المدن التي نشأت على سواحل البحر الأحمر والبحر العربي مجتمعات سكانية مستقرة وظهرت تيارات متزايدة لهجرات البشرية من جنوب الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا وكذلك من السواحل الأفريقية إلى جنوب الجزيرة العربية ذاتها. ومن المدن التي ازدهرت قبل الإسلام مدينة السوا ومدينة عدن وميناء قنا على السواحل اليمنية. كما ازدهرت عدد من المدن على الساحل الإفريقي المقابل ومنها مدينة بلول، زيلع، ثم معدر

رحيتا، وعد، تاجوري، طبعووديري على السواحل الأفريقية.¹

كما تطورت بعض المدن الأخرى في الفترة الإسلامية ومنها مدينة زبيد وعدن ومدينة سواكن في السودان، وقد استمرت هذه المدن بمثابة الشريان الذي يربط خطوط التجارة والصلات الحصارية بين السكان وتواصلهم على سواحل البحر الأحمر والجزيرة العربية وقد أسهم في ذلك أيضاً مواسم الحج إلى مكة والكعبة المشرفة. ويذكر بعض المؤرخين الأثيوبيين أن الصلات التي تكونت بين المهاجرين اليمنيين والأثيوبيين تشبه تأثير اليونانيين على الرومان عبر الصلات الحصارية أكثر من أي عوامل أخرى.²

هذا ويشير بعض المؤرخين أيضاً أن الصلات والعلاقات التي تكونت بين اليمن والساحل العفري قديمة ومستمرة وقد اتسمت الصلات بين المنطقة العفرية وبين المعافر وأهل تهامة بالديمومة وأن العوامل الطاردة من اليمن قد ساعدت على هجرة اليمنيين إلى الجانب العفري من البحر الأحمر. هذا بالإضافة إلى العوامل الجاذبة لليمنيين إلى المنطقة العفرية وبقية مناطق شرق أفريقيا.³

وبالإشارة إلى هذه العلاقات يذكر صاحب كتاب Periplus بأن ميناء المخا Muza كان يزدهر بمالكي السفن والبحارة وفيه حركة تجارية شطة. وأن العرب كانوا تاجرون مع "ساحل الجانب البعيد" The far- side cost (وتشمل السواحل العفرية والصومالية وسواحل كينيا وزنجبار)، كما يذكر أن الريان العرب (اليمانية) كانوا يترددون على هذه الموانئ ويتحدثون لغة الأهالي ويتزاوجون منهم. وتشير بعض المصادر إلى أن هناك أربعة أسواق تجارية هي سوق الشحر، وسوق عدن، وسوق صنعاء، وسوق رابعة حصرموت هذا كما أضاف المؤرخ البهستاني إلى أسواق العرب القديمة أسواقاً أخرى مثل سوق الجند

1 - الشامي، جمال الدين، وابنه هاشم جمال الشامي، المهمل في تاريخ وأخبار العفر (الدنكا)،

القاهرة، 1997

2 - سلاسي، سرجو، تاريخ أثيوبيا، 1972

3 - الشامي، المهمل.

وسوق نجران ، وكانت هذه الأسواق لها علاقات تجارية مع سواحل أفريقيا والهند وشمال الجزيرة العربية.¹

ومن المعروف أن لقريش رحلتان وهما رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن والحبشة ورحلة الصيف إلى بلاد الشام ومنها إلى العراق ، وكانت أكثر هذه الأسواق ذات طبيعة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي ووضعها على ساحل البحر مثل عدن وصحار ودبا (في عمان) ، وفيها يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس. وكان يغلب عليها الطابع التجاري أكثر من تأثير السمات المحلية ، ويرجع ذلك إلى ترابط المصالح المشتركة والعلاقات الحضارية خاصة إذا أخذ في الاعتبار أن الحصارات تتعاون بحسب ما يقدم للإنسان من الأمان والكفاية والاطمئنان والتفاهم. وأن الحضارة هي ثمرة أي جهود يقوم بها الإنسان لتحسين ظروف حياته وأن مقياس الحضارة هو مدى ذلك التحسن مادياً ومعنوياً.²

ومن الملاحظ أيضاً أن تجارة القوافل كان لها دورها الحضاري في فترات تاريخية مختلفة وخاصة في ازدهار الأسواق التجارية والمواني التي نشأت على سواحل البحر الأحمر وارتباطها بخطوط التجارة البحرية في الجزيرة وخطوط القوافل التجارية الأخرى في أفريقيا. ومن المعروف أن طريق القوافل في الجزيرة العربية كانت في الأساس الطريق الذي اشتهر بإسم طريق البحور ، حيث كانت تجمع المنتجات العربية من سواحل حضرموت وبلاد قتيان وسبأ ، إضافة إلى السلع التي كانت تصل إلى اليمن عن طريق البحرين من الحبشة والهند. وكانت تتحرك القوافل شمالاً إلى أرض الحوف ثم نجران ومن نجران يتفرع هذا الطريق ليتوجه نحو الشمال الشرقي ماراً بوادي الدواسر عند قرية الفاو ومنها إلى الافلاج مروراً بمنطقة الخرج الوفيرة بالمياه ، ثم شرقاً إلى اليمامة وهجر ، ومنها على سواحل الخليج تتجه شمالاً إلى وادي الرافدين ثم بلاد الشام.³ أما طريق البخور الرئيسية فواصل مسيرها شمالاً إلى يثرب

1 - إبراهيم، محمد كريم، أسواق اليمن التجارية حتى ظهور الدعوة الإسلامية. اليمن، عدد(17) العام 2003، عدن، عدن.

2 - مؤنس، حسين، الحضارة سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978، 53، 55.

3 - الأنصاري، عبد الرحمن، قرية الفاو، جامعة الرياض، 1982.

ومن يشرب يمر بواحة العلا (ديدان) ثم مدائن صالح (الحجر)، ثم يخرج طريق فرعي نحو الشمال الشرقي ليذهب إلى تيماء ومنها إلى دومة الجندل لينتهي في لأسواق العراقية. أما الطريق الرئيسي فيواصل مسيره نحو الشمال ليصل إلى البتراء وهي النافذة الرئيسية لتجارة العرب ومحطة كبيرة لقوافلهم.¹ وتذكر بعض المصادر التاريخية أن كثيراً من هذه الخطوط البرية بقيت نشيطة إلى صدر الإسلام.

ومن أهم طرق القوافل البرية التي كانت تتصل بمناطق البحر الأحمر درب الأربعين أي صريق الأربعين يوماً وهو أحد الطرق التي كانت حلقة الاتصال التجاري والحضاري والتي عبر الإسلام بها إلى القارة والتي بواسطتها سارت قوافل الحجاج من غرب القارة إلى سواحل البحر الأحمر الغربية والشرقية لأداء فريضة الحج. وقد ازدهر درب الأربعين في مرحلة ازدهار الممالك الإسلامية في أفريقيا ومنها سلطنة دارفور الإسلامية (في القرن السابع عشر) وقد احتلت هذه السلطنة مكاناً مرموقاً بين الممالك الإسلامية في بلاد السودان الغربية والأوسط والشرقي أي المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً وبين الصحراء الكبرى في الشمال والغابات الاستوائية في الجنوب.² وقد قدر طول درب الأربعين بحوالي 1117 ميلاً (وهي المسافة من الفاشر في دارفور إلى أسبوط) وكان درب الأربعين يتلصق بالقوافل التجارية وكان يصل متوسط حجم القافلة حوالي 500 جمل، وبعض الأحول يصل إلى 2000 جمل³. وتذكر بعض المصادر أن هذه القوافل وهي متجهة شمالاً كانت تحمل العاج وقرن الخرتيت وريش النعام والصمغ والعرييب والأبنوس بالإضافة إلى الجمال. ثم تعود القوافل إلى دارفور محملة بالعنبر والخرز. والأحجار الكريمة والفضة والحلي والأقمشة والسيوف والمرايا والكحل والأسلحة البارية والبن والخرز والأحذية والبهارات

1 - دياب، أحمد إبراهيم وآخرون، تجارة القوافل ودورها الحصري حتى نهاية القرن (19). بغداد، 1984، 107.

2 - المرجع نفسه، 109.

3 - المرجع نفسه، 115.

وورق الكتابة والصابون¹. ولعل أقدم الطرق أيضاً التي كانت ترتبط بدارفور بالخارج هو الذي كان يبدأ من أقاصي بستان السودان الغربية ماراً بيونوداي ثم بدارفور ومملكة الفونج إلى البحر الأحمر وموانيه الغربية ثم إلى الحجاز وهو طريق الحج².

الصلات الدينية والثقافية بين مجتمعات البحر الأحمر :

لا شك أن الظروف الطبيعية للبحر الأحمر سهلت وسائل التواصل الحضاري والتجاري وبعض المصادر تقيس البحر الأحمر من مسافة 140 كم شمال جزيرة ميون، ورأي آخر يبدأ من الخط الموازي لحصن مراد في اليمنى ورأس سيان في أفريقية، وذلك يصم باب المندب وأجزاء منه على البحر الأحمر. ويمتد البحر الأحمر طولاً إلى 2000 كم أي 1380 ميلاً بحرياً ومتوسط عمق 490 متراً، كما أن عرض البحر الأحمر في المتوسط يصل إلى 240 كم وأضيقتها يقع عند مضيق باب المندب الذي يبلغ عرض البحر فيه من الشاطئ الشرقي إلى الغربي نحو 32 كيلومتراً.

ويعيش في البحر الأحمر ما يزيد عن 300 نوع من الأسماك المختلفة الصالحة للاستهلاك البشري والحيواني. كما أن البحر الأحمر غني بثرواته من الأصناف وذوات المحار كما أن الحيوانات المرجانية منتشرة بكثرة³؛ والتخدير بالذكر أن هذه السمات للبحر الأحمر قد سهلت التواصل بين المجتمعات المحيطة في مختلف المجالات المادية والثقافية بما في ذلك التأثيرات الدينية. ومن المعروف أن القبائل والممالك اليمنية كانت بشكل عام تعبد في العصور القديمة القمر والشمس أو الرهرة، وكانت قبائل حضرموت تطلق على إله القمر (سين) وكان الأوسانيون ولعينيون يطلقون عليه "ود" في حين كان السيثيون يطلقون على إله القمر إسم "المقه"⁴.

1 - المرجع نفسه، 115.

2 - دياب، تجارة القوافل، 114.

3 - بورجي، عبد الله، اليمن والبحر الأحمر، صنعاء، 1999، 12.

4 - الشامي، المنهل، 137.

كما نجد في المقابل أن التاريخ الشمهي للعفر يحدنا عن ممارستهم عبادة إله الليل في موقع يسمى ديرى، وفيها الميناء والمدينة المشهورة في الساحل الغربي من مضيق باب المندب (في المنطقة العفرية) وقد لاحظت أثناء بعض الزيارات لمنطقة في آل عواض في اليمن وجود آثار معبد قديم يطلق عليه معبد الليل. وتشير بعض المصادر أن قوم العفر يطلق اسم "آل س" Al-sa على القمر. وبالنسبة لإله "المقه" أو إله القمر لدى السبئيين فهناك منطقة عفرية اسمها "مقه" أو "مقو" بالإضافة إلى أن هناك منطقة تسمى "مقه رسو" أي بلاد مقه ومقه رسولا يبعد سوى عشرات الكيلومترات من الموقع المرحج للمدينة السبئية (Sabeen city). كما أن لفظ "مقو" Mago تعني بالعفرية "دين" أو قرص. أما لفظ نكرج عند السبئيين ترمز إلى إله الشمس، وكلمة نكرج أو نك رح، تعني بالعفرية "إشرب من النبع"، ويحتمل معنى الإجلال أو الإكبار.

وقد ظهرت بعض الرسومات تحمل قرن الثور في الأراضي العفرية حيث شاهد الجيولوجي الإيطالي باولوفيناسا عام 1935 في منطقة مريوم بالقرب من ساحل البحر الأحمر "ظهور رسم" بقرنين طويلين ويحتمل أنها ترمز إلى القمر أي الإله المقه، كما هو الحال في البيانات العربية الجنوبية القديمة.¹ وتشير بعض المصادر أن هناك تواصل بين حضرموت وسقطره وشرق أفريقيا ويشير إلى ذلك كتاب الرفيق النافع في شرح منظومتي الملاح با طائع. ويذكر المؤرخون أن لسفن الحضرمية تنجه إلى سيحوت بالمهرة ثم تنجه إلى الجنوب الغربي حتى تصل إلى جزيرة عبد الكوري ثم تأخذ مجراها حتى تحاذي الساحل الأفريقي.²

الأثار وأسماء الأماكن

تذكر بعض المصادر أن بين ميتين وثلاثمائة نقش عشر عليها في أثيوبيا ترجع إلى مرحلة 450 300 ق م. وهناك خمسين نقشا منها كتبت باللغة الجعزية؛ أما النقوش الباقية فقد كتبت باللغة السبئية. ومن المحتمل أن النقوش السبئية التي عشر عليها ث. يتوم وهي كتابات

1 - الشامي، المنهل، 148.

2 - المرجع نفسه، 148.

غير واضحة تشابه مع ما رآه بجانب أكسوم وتعود مثل هذه النقوش أيضاً إلى تلك المرحلة. ومن المحتمل أيضاً أن هذا الوقت كان يتزامن مع التأثير السبئي في المناطق المجاورة¹

ومن العريب أيضاً أن المصريين استنحوا من خلال بعض الكتابات بعض التأثيرات بين عدد من المناطق المجاورة للبحر الأحمر وباب المندب، وتذكر بعض المصادر أنهم أطلقوا تسمية بلاد بونت على المناطق التي تقع على حانبي مصيق باب المندب. وهناك إشارات أخرى تصف الرسوم الموجودة في دير البحري إلى جانب الحيوانات من بلاد بونت وهي رسوم لأبقار صغيرة بدون سنام. وهذه الأبقار لا توجد حتى الآن إلا في جزيرة سقطرى². ومن أسماء الأماكن التي تذكرها بعض المصادر سهل كرب أو كرب بحري وتتشابه مع أسماء لمواقع من اليمن. وهذه المواقع موجودة في بلاد العفر في شرق أفريقيا. وهناك قرية أيضاً اسمها تداحو Tandaho. ومن المعروف أن اسم تندحه إحدى أودية جرش في اليمن. وقد ذكر المؤرخ الهمداني في صفة جزيرة العرب، بأن تندحه وهي العين من أودية حرش وفيها أعناب وآبار، وسكانها هم من الأزدي³.

ومن حيث اللغات نجد أن هناك عدد من اللغات التي سادت على ظفتي البحر الأحمر ومنها اللغة اليمنية القديمة والآثيوبية والأمهرية. أما اللغة اليمنية فهي تشمل على المهرية، الشحرية (الحكالية) الحرسوسية والبطرجية وهي اللغات المنتشرة على شواطئ الجنوب الغربي في المهرة (اليمن) وظفار (عمان)، والسقطرية لغة سكان جزيرة سقطرى، وقد تنحدر من السبئية⁴.

ويشير المؤرخون أن هناك عدد من العناصر الهامة في تاريخ العلاقات اليمنية والآثيوبية؛ فالآثيبيون واليمنيون كما يذهب المؤرخون يتنازعون (أسطورة) اعتبار أنفسهم ورثة الملكة

1 - ناومكين، سقطره، عدن، 30.

2 - المرجع نفسه، 19.

3 - الشامي، انهل، 153.

4 - ناومكين، سقطره، 19.

بلقيس ، كما يعتقد الأثيوبيون أن الملكة السبئية حكمت في أكسوم ورووي مختلف أساطير الأدب الأثيوبي قصة سفرها في ضيافة الملك سليمان الحكيم. كما أن اليميين من جانبهم يعتبرون أن الملكة بلقيس حكمت أرض سبأ في اليمن. وعموماً فإن الأسطورة عن هذه الملكة تؤكد وشائج القرابة لتبادلة بين اليميين والأثيوبيين وكذلك صلاتهم القديمة مع السكان الساميين في الجزيرة العربية وفلسطين.¹ وتذهب بعض المصادر أن كثيراً من أهل اليمن وخاصة من كان في تهائمها قد تحبشوا وإلى حد أن المرتادات الأغريقية القديمة تسم حمير بالأثيوبيين.²

من ناحية أخرى تذكر بعض المصادر أن العرب في جاهليتهم كنت تطلق الإسم "الأسود" على ساكني الجزيرة مثل ما فعل الأتراك العثمانيون في القرن 16 حيث أقاموا ولاية اسموها ولاية الحبش وتضم عصب ومصوع وسواكن وجعلوا جده قاعدة لها³ وتشير بعض المصادر أن الحبشة لمظة يقصد بها القوم الذين اصطلحت على إطلاق هذا الاسم عليهم كما تعني كذلك الأرض التي يقطنها هؤلاء القوم، ويقال أن الجذر (ح ب ش) يفيد الاختلاط. وكل قوم لا يتمون إلى جد واحد فهم حبشة وحبشان وأحبوش. وهناك تشابه بين أسماء الأماكن من أرض اليمر وأرض الحبشة ، ويقال أن (حبشت) هي هضاب مرتفعة في بلاد المهرة، وقد نزح قسم كبير من ساكني (حبشت) إلى تهامة واستقروا فيها حيناً من الزمن ، ثم قطعوا بحر القلزم واستقروا في الضفة الغربية للبحر الأحمر منفصلين من منطقة موزع.⁴ ولعل مثل هذه المعلومات تحتاج إلى مزيد من الدراسات والشواهد التاريخية. ومع ذلك فهناك بعض الشواهد الثقافية والأنثروبولوجية التي يمكن تجسدها أمامنا العلاقات الحضارية بين اليمن ومجتمعات شرق أفريقيا وخاصة العادات والموسيقى والأزياء ولون البشرة واللهجات

1 - نازمكي ، سقطره ، 29.

2 - يذكر جعفر الظفاري أن هجرة الصحابة إلى أرض "الحشة" في تهامة اليمن ، أطر: مجلة جامعة عدن (17)، سنة 2003 ، 152.

3 - المرجع نفسه ، 153.

4 - المرجع نفسه ، 152.

والمساكن وغيرها من السمات الثقافية.

أسماء المدن

هناك عدد من المدن على سواحل البحر الأحمر والتي نشأت بينها علاقات تجارية وحضارية خلال فترات مختلفة من التاريخ ويمكن أن نذكر منها على الساحل الأفريقي مدينة زيلع، عصب، ويلول، معدر، رحيت، ناجوري، ويرعصولي، وطيعوومرسي فاطمة وحيو(أبح) وحيوتي. وبعض هذه المدن قديمة وبعضها حديثة العهد مثل عصب وحيوتي وطيعوومرسي فاطمة. وتعتبر زيلع مدينة عفرية قديمة وكانت من أحد مراكز إمارة عدال العفرية وبعد خروج الدولة المصرية منها كانت أغلب سكانها من الصومال في القرن التاسع عشر. وليس زيلع جزيرة كما توهم الهمداني إنما هي الميناء الأول للحبشة بعد إندثار ميناء عدول وتقع اليوم في الصومال بعد أن نزعها الإنجليز وأدجوها فيما سمي حينه الصومال البريطاني. وقد أقيمت أول دولة إسلامية في الحبشة في إقليم ريلع وهي مدخل أهل اليمن إلى أرض الحبشة.¹

أما جيبوتي فقد نشأ فيها الميناء في القرن 19 والمقيمون فيها من العفر واليمنيين، واليمنيين فيها ملاك وأصحاب تجارة. وفي بداية القرن العشرين كانت السفر العفرية من بلول ويرعصولي ومعدر وناجوري تنقل لبضائع بين عدن وجيبوتي وأبين جيبوتي وبعض أجزاء اليمن.² ومدينة عصب فهي مدينة عفرية تشبه في سوقها وتخليها إحدى مدائن اليمن وكان يسكنها عدد من اليمنيين الذين انتقلوا إليها من البلاد المقابلة في تهامة وبجارتها في الغالب في يد العرب النازلين فيها قديماً وحديثاً وذلك حتى العقد الخامس من القرن العشرين. ومن المدن التاريخية الهامة ميناء ديري Deire وتشير بعض المصادر أنه يبعد عن إمارة (جبا) بالمعافر بحوالي 80 ميلاً وتذكر بعض المصادر أن مضيق باب المتدب تبعد عنه ميناء ديري بحوالي 10 كيلومترات فقط. ويرجح البعض أن ميناء ديري في الجانب العفري ربما

1 - الظفاري، 193.

2 - الشامي، المنهل، 440.

نكون أقدم من Acila في الجانب اليمني. ويمكن الإشارة في أن مدينة ديرى العفرية في الساحل الغربي من باب المندب ربما عاصرت بداية مملكة معين (1400 ق. م).¹ وفي مدينة برعصولي تسكن قبيلة من قبائل الشام (هثيم) من شمال الجزيرة العربية وقد انتقلت هذه القبيلة من مدينة (ضبا) قرب وادي عينونه من شمال الحجاز ونزلوا في جزيرة (تلا) ومنها إلى دهلك وبرعصولي وعصب. ويقال أن من أسباب انتقالهم من الحجاز هو ظلم القبائل العفرية التي كانت تسطر على أموالهم ومواشيهم وما يكسبونه من البحر، وهم يعملون في صيد السمك والصدف.²

أما مدينة تاجوري فإن أهاليها يعملون في البحر كما يعرفون أعمال البر ويقال أنها عمرت في القرون الوسطى، كما ذكرت في كتاب المغازي. ويذكر أنها المدينة الوحيدة التي تعرف العوائد في الأحكام الشرعية (قبل الاحتلال الفرنسي وحتى بداية القرن 20) وهي مدينة العلماء ورواد القضاء ومأوى التجار. وفيها آثار بار وقبور ومساجد ومرار تدل على أنها كانت عامرة وأهم قبائلها (عد علي وحسوسيا وعديتو)³ وتذكر المصادر أن (طيعو) من المدن العفرية وتشبه مدن اليمن الساحلية مثل (ذباب) عند الشيخ سعيد وسكانها من أخلاط ابدووهاجروا إليها من البادية وتحضروا فيها في أوائل القرن 14 الهجري وكانوا يصيدون (اللحم) أي قروش البحر ويصنعون الشبك من خيوط يشترونها من أسواق عدن. ويقال أنهم تعلموا الصنعة من قبائل الحكم في دباب ولخا وياي امندب.⁴ أما مدينة (عد) فتسكنها قبيلة (عدولا) وهم من أقدم ملاحيها، وكانت سفنهم تسافر إلى عدن والشحر والمكلا وإلى شواطئ اليمن الأخرى مثل المحا والحديدة. وهم يصيدون صغار الحوت (اوزف). وكان له رواج في أسواق عدن وشرق أفريقيا، وفي أوروبا يستخدم في تسميد الأطيان وعلف الدواب.⁵

1 - الشامي، المنهل، 109.

2 - المرجع نفسه، 442.

3 - المرجع نفسه، 445.

4 - المرجع نفسه، 441.

5 - المرجع نفسه، 441.

ومن أهم المدن في الحبشة بيلول وهي ميناء الحبشة قبل (أبو Obokh) والطريق إلى الحبح ومدينة التجار وكانت مورد الأسلحة والدخائر إلى الحبشة إلى أن قضت على أهميتها مدينة عصب، ثم أصبحت طريق للقوافل في الخمسينيات من القرن العشرين إلى عصب. وحول المدينة غابات من شجر الدوم وكانت تصدر منها كميات إلى مصوع وعدن وكانت معظم هذه المدن المذكورة تربطها علاقات تجارية وحضارية بالمدن اليمنية في السواحل الشرقية من البحر الأحمر وذلك في فترات تاريخية مختلفة.

علاقات الأنساب بين مدن السواحل الأفريقية والساحل اليمني

سبق أن ذكر أن من العفر من ينتسب إلى الجماعات العربية منذ القدم، وقد ذكر الشيخ جمال الدين الشامي في كتابه المنهل في تاريخ وأخبار العفر الكثير من الشواهد والمعلومات وأكثر ما ذكر في كتب الأنساب مثل كتاب الفقيه أحمد طاهر الصومالي في نسب عماره (اسماعيل الجرنبي) وما ورد لأحد علماء (كرتو) من قبيلة حرلا العفري في كتاب "مغازي موديتو"، وكتاب صلاح الدين الحضرمي في نسب القبائل الحضرمية، وكذلك ما تبين في نسب عماره (حذا الماحس) يوسف اليمني وغير ذلك من قبائل شتى¹. ومن أكبر القبائل العفري قبيلة داهملا، وهي كما تذكر المصادر قبيلة عربية شأها شأن فلة إيكالا وشأن المتحدثين من حذا الماحس (حفيد يوسف اليمني) وحسب التاريخ الشفوي العفري يعتبر قبيلة داهملا قبيلة وحرلا العفري من القرشيين من ذرية محمد بن عقيل بن أبي طاب القرشي. أما قبيلة تجرتو أو تقيرتو فهم ينسبون إلى بني النجار الموحدين في الزيدية في اليمن، وتوحد فحائد من بني النجار في معدر، وطيعو وجزيرة بكع وجزر هواكل. وحول قبيلة الحضارم التي قطنت في بلاد العفر فهم ينحدرون من قبيلة حضرمية ويتصل نسبهم إلى وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل الحضرمي وينزل المتحدثون من هذه القبائل في تاجوري وفي هواش ومعدر وكذلك في سديحا عبلا وفي أوسا وبوري. أما قبيلة حسوبا فهي تسكن في تاجوري. ومن العفر من يقول أن أفراد هذه القبيلة رحلوا من اليمن إلى مصوع ومنها إلى

1 - الشامي، المنهل، 468.

منطقة تاجوري.

وبالمثل فإن عائلته بني الأهدل فقد نزحت إلى المنطقة العفرية قبل 200 سنة تقريباً وهي متواجدة في شبه جزيرة يوري وعصب وينحدرون من قبائل الأهدل في تهامة اليمن ورجالهم معروفون بالعلم والورع. ومن الأنساب المعروفين التي هاجرت إلى بلاد العفر قبيلة بلوسوى Balou suwa وهي قبيلة جاءت من اليمن (حسب التاريخ الشفوي العفري) حيث قدم أفرادها من الساحل الغربي من باب المندب جنوب عصب ثم توغلوا بعد فترة إلى منطقة سوى Suwa جنوب غرب عدن، وتقيم أفراد هذه القبيلة في شبه جزيرة يوري وبلد ساموتي ودعكه.¹

ومعظم هذه الجماعات القبلية أتت إلى المنطقة العفرية بعد ظهور رسالة الإسلام وذلك بعد فترة من القرن السابع الميلادي. ولكن هناك مجموعة من القبائل العفرية ربما هاجرت من الجزيرة العربية قبل آلاف السنين والذين ميزهم صاحب كتاب المنهل تدريخ وأخبار العفر بمصطلح الكوشيين العفر الأصليين. وقد هاجر هؤلاء حسب المصادر التاريخية من حضرموت وساحل تهامة وممالك اليمن القديمة في مرحلة المعيسين والسبئين والكوشيين. ربما كان الجزء الأكبر من هؤلاء قد عبروا باب المندب إلى الجانب العربي قبل ثلاث آلاف السنين قبل الميلاد وحتى القرن الثالث بعد الميلاد.

وتتشابه العديد من الأماكن والقبائل اليمنية القديمة التي وجدت في سقطره وفي الجزر اليمنية وبعض مناطق اليمن مع بعض أسماء قبائل الكوشيين العفر القدماء وبعض الأسماء الموجودة في شرق أفريقيا. ومثال ذلك في اليمن دوكم، دويعة أو (دبع)، كسمه (من أكسوم) ولنجيشة (من نجاشي)، و(بلعوسوى) وتشبه اسم السوى في الحجرية، وقبيلة (مقو) ولعله اسم يشبه (المقه) وهواله القمر عند اليمنيين.

وفي ختام هذه الورقة يمكن التأكيد أن لهجرات اليمنية قبل وبعد الإسلام إلى شرق أفريقيا كانت عاملاً مهماً في التواصل الحضري والثقافي وفي نشر الإسلام، أما طواهر

1 الشامي، المنهل، 502.

الاستمرارية في الهجرات اليمنية الحديثة فقد تميزت بهجرة العمل وقد بدأت في أواخر القرن 19 وأوائل القرن العشرين وقد أرتبطت بشكل مباشر في نظر بعض الباحثين بالتواجد الغربي على سواحل شرق أفريقيا¹ وخاصة التواجد الإيطالي والفرنسي والبريطاني ويردد البعض أن هجرة اليمنيين كانت ولم تنزل حقيقة كبرى في حياة اليمنيين قديما وحديثا وحتى يمكن القول بأن الإنسان اليمني قد اعتاد الهجرة مثلما اعتاد النهر الجريان. ويلاحظ أحد الباحثين أن الهجرة بهذا التفسير كأنها خاصة طبيعية وليست اجتماعية. إذ أن الهجرة الحديثة منقطعة الصلة بتلك الهجرات القديمة ولا توجد صلة بين هجرة اليمنيين أيام انهيار السد وفي عصر الفتوحات الإسلامية وبين الهجرة الحديثة².

1 - القصير، أحمد، شرح في نبذة الوهم، الهجرة والتحول في اليمن، دار ثابت، 1990، 19.

2 - المرجع نفسه، 19.

في الأسماء الجغرافية - التاريخية ومداولاتها

نموذج: التفاعل البشري بين عرب اليمن والشام

وسكان الجناح العربي الأفريقي عبر العصور

د. محمد محفل

1- المقدمة

تعرفت بلدان الشمال الأفريقي ولاسيما المغرب العربي للمحنة، منذ سقوط غرناطة (1492)، فالقارات والجوانح الاسبانية - البرتغالية، وما ذكر حسن الوران¹ Leo Africanus، وسبته² ومليلة وغيرها إلا شواهد على ما نقول - ثم عدوان الاستعمار الأوروبي منذ مطلع القرن التاسع عشر - بعد حملة نابليون بونابرت على مصر في نهاية القرن الثامن عشر - عمليات وحملات احتلال الجزائر منذ عام 1837، فدور تونس (تحت الحماية بموجب معاهدة Bardo باردو 1881)، قبل المملكة المغربية (1912)، ولاحتياج الإيطالي لليبية في نفس العام. وقد رافق كل ذلك، كما نعلم، دور عمليات "الفرنسة"³ "وتلهيج"

1- ولد حسن الوران في غرناطة، ما بين عامي (878 هـ / 1489 م - و 884 هـ / 1495 م) على قول المستشرق الفرنسي Massignon ودرس في (جامعة القرويين) العريقة، في فاس، (تأسست في القرن 3 هـ/ 9م) وكان قد بلغ الثلاثين من عمره حين وقع أسيراً في يد فراعنة أروبيين قادوه إلى ميناء نابولي ومن هناك إلى روما، حيث أهدوه إلى البابا، الذي عمّده، باسم (لاون الأفريقي): ظل في الأسر حوالي (اثنى عشر سنة) وعلى الأرجح، وصع الوران كتابه (وصف أفريقية) مباشرة بالإيطالية اعتماداً على مذكراته العربية ولا يعرف حالياً إلا النص الإيطالي. ونعتمد الترجمة العربية للدكتور عبدالرحمن حميدة، وصف أفريقية، مراجعة د. علي عبدالواحد وافي، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 1399 هجري.

2- تقع سبته على مصيق جبل طارق المتوسطي شرقاً مقابل طنجة غرباً، أسسها الكنعانيون مع قادش (الاسانية) وعتيقة وحصر موت وقرطاجة (قرت حدثت) اعصاراً من القرن الثاني عشر (ق.م)

3- الفرنسية: محاولة تحويل سكان المغرب لعربي لغوياً إلى ناطقين باللغة الفرنسية مع محاولة جعل البربرية بكتابتها اللاتينية كدليل عن العربية في اللغة والكتابة... وكل من له علم بالموضوع يدرك فحوى كلامنا،

العربية و"التبشير المسيحي"² وإثارة التغيرات "المنهجية العرقية"³ الخ...

نلاحظ من العنوان المقترح للندوة ذكر بلاد الشام فقط مع اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولنا على ذلك ملاحظات :

أولاً :

لا يمكن فصل تاريخ بلاد الشام عبر العصور لاسيما في أجزائها الشرقية عن العراق (بلاد الرافدين) ، اعتباراً من الألف الخامس (ق.م) ، وكيف نسقط التفاعل الحضاري بين حضارات (العصر الحجري قبل الفخاري P.P.N) بأدواره المختلفة C/B/A / الخ... ، ثم الكتابة المسمارية المقطعية وانتشارها في بلاد الشام انطلاقاً من الكتابة المسمارية المقطعية السومرية ، والتي نجد (رُقْمَتَهَا / ألواحها) بعشرات الألوف في ماري (تل الحريري) وإبلا (تل مرديج) ، وفي ألخ (تل عطشانة) الخ... طبعاً إضافة لما عُثر عليه في (تل العمارنة) المصرية (القرن 14 ق.م). ومتى كان لبلاد الشام والرافدين (العراق حالياً) ، حدوداً فاصلة مانعة قبل (سابكس - بيكو) بعد الحرب الكونية الأولى... وأين يقع (تل براك) الأثري ، حيث عثرنا على قصر (نارام سين) حفيد شاركون (سرجون الأكدي) ، من القرن (21 ق.م) ، ثم (تل ليلان / شخة) ، عاصمة العاهل الآشوري (شمشي أدد الأول القرن 19 ق.م) .. ألا نجد الموقعين في الجزيرة الشامية الفراتية ؟! ومن أين انطلق الكلدون والبابليون ومن أين تنقلوا

ولا مجال لضيق الزمان والمكان للزبد

1- التلهيج : بمعنى تشجيع ونشر اللهجات المحلية الدارجة لتحل محل العربية المصحى : عاميات تونسية مما يسهل عمليات الدمج والإلحاق.

2- التبشير المسيحي : هذا الأمر لم نعرفه في المشرق العربي ، إلا في حالات نادرة / شادة وفي أمكة محدودة / معزولة أما في المغرب فارتباط العروبة بالاسلام جذري وموغل في اقدم ومن هنا نعلم ويدرك دور (الكاردينال Lavigerie) وجمعية (الآباء البصر Congrégation Des Pères Blancs) أما في المشرق العربي ، قال د. الإيجاني للنصارى اعرب معروف قديماً وحديثاً ، من المناذرة والعساسة إلى آل البستتي وآل ناصيف وآل معلوف وآل شديقي) الخ... فالموضوع سياسي وليس دينياً

3- المذهبية العرقية . لتفريق العرب عن إخوانهم البربر / المزيغ .. ولك عودة إلى ذلك.

إلى بلاد الرافدين... وهنا نأتي إلى الملاحظة الثانية.

ثانياً:

نحن نعتقد، اعتماداً على مختل الدراسات المقارنة - في اللغة والدين والمؤلكلور وعلم النسب وسائر العلوم المساعدة للتاريخ، أن نظرية الهجرات البشرية التي أطلق عليها (الراهب/الكاهن النمساوي شلوتر) في نهاية القرن الثامن عشر أسم (الهجرات السامية) قد أصبحت بالية بل ولا علمية، فلم يكن هنالك هجرات بشرية منتظمة ومحددة في الزمان والمكان، بل جولانٌ دائم ومستمر، منذ الألف الخامس (ق.م)، ولا محصر شبه الجزيرة العربية بما نعرفه حالياً في (المملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية والإمارات العربية... إلخ)، بل نراها في حدودها القصوى، حيث جبال زاغروس وطوروس مع بلاد الرافدين والشام،... ومن هنا نقول أنه من الأفضل والمستحسن ألا تقتصر على ذكر اليمن والشام فقط، مع عدم إهمال الهجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة والسودان فمصر فالشمال الأفريقي، عبر مياه البحر الأحمر.

نرجو طرح الموضوع لتعديل عنوان الندوة، مع الموافقة على التعديل في عنوان دراستنا.

2- الموضوع المُشكل: ندرة المصادر وقلة الوثائق المادية

كما نعلم، تنحصر مصادرنا الكتابية حتى يومنا هذا، بالنسبة إلى الجزيرة العربية، بحدودها السياسية الحالية، بنقوش القلم المسند اليمني (من سبأ إلى حمير) مع النقوش الثمودية واللحيانية والصفائية (قلنا صفائية لتمييزها عن الصفوية الفارسية) بمختلف خطوط المسند الجتوبي، ولا ننسى هنا دور السائحين الأساتذة العرب الأجانب (بافقية والغول وبنستون وروب إلخ...)، ولكن يجب أن نعترف بأننا مازلنا في أول الطريق، فأقدمها لا يرقى إلى أبعد من القرن الثامن (ق.م) هذا بالنسبة إلى اليمن، أما في وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها وجنوب سورية، فجاءت بعد ذلك بعدة قرون، بل أكثر من ذلك، فهي كما نعرفها حتى الآن، محدودة الحدود والنفع بالنسبة لموضوع بدوتنا... طبعاً لدينا النسابين والمؤرخين والجغرافيين العرب، ولكن يقع هنا بين الأسطوره والواقع الحقيقي... ثم لدينا بعض الكتاب

الكلاسيكيين (بطليموس سترابون، آميانوس مرقليفوس الخ...) ولكن هنا أيضاً الجدوى محدودة... ويبقى لنا علم الآثار، وهنا أيضاً النتائج ضئيلة إذا ما قارناها بما تراكم من معلومات فائقة الهيمنة في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن. فبعض مناطق شبه الجزيرة العربية مازالت مجهولة الأعماق (أثرياً)، وبعضها الآخر شحيحة المعلومات، وما نعلمه حتى الآن محدود في الرمان والمكان. وكيف السبيل إلى الوصول إلى عالم الألف الخامس والرابع والثالث الخ.. (ق.م) .. هذا بالنسبة للجناح الشرقي الجنوبي (شبه الجزيرة العربية)...

أما بالنسبة للجناح العربي الأفريقي، لدينا بعض الكتابات اللوفية وغيرها، ولكن أين هو (الكنز القرطاجي) بعد لعنة (سكيبوالافريقي) Delenda Est Carthago (يجب تدمير قرطاجة).. أما بالنسبة للكيان العربي الأول في الشمال الأفريقي، فكما نعلم، تنحصر أخبارنا بمصدرين: ابن القوطية (ت/25م) في "تاريخ افتتاح الأندلس"، طبعاً إضافة إلى بعض المعلومات في المصادر العربية المتأخرة، من أشهرها: ابن حبان (5/4هـ / 10 - 11م) في "المقتبس في تاريخ رجال الأندلس" وابن عذاري المراكشي (ت 695 هـ / 1295م) في "البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب"؛ والمقري التلمساني (ت 1041 هـ / 1631م) في "نفع الطيب من غصن لأندلس الرطيب"... وهنا أيضاً علم الآثار لا يسعفنا كثيراً بالنسبة للجناح العربي المغربي في الدوار الموغلة في القدم، اعتباراً من الألف الخامس ق.م. وما بعد، حتى مطلع الألف الأول، ما عدا ما نجده في لوثائق المصرية لعتيقة. أما بالنسبة للأنواع والجناس البشرية لحضارات ما قبل التاريخ، في شمال أفريقية (الضبمانية والوهرانية والقفصية وغيرها) فليس لها مكان في دراستنا هذه، ونتركها لغيرنا من علماء الإناسة (اثريولوجية).

3- بعض الأسماء العربية الشرقية / المغربية والكلاسيكية والغربية

ونذكرها من الأقدم إلى الأحدث:

- 1- عند هوموروس نجد Λυβέη (ليويه 'Libye' ليلية) والمقصود بها المنطقة الممتدة من مصر حتى المحيط الأطلسي. نجد المزيد حول الموضوع في المعجم اليوناني - الفرنسي

صفحة 1190 مادة. (ΛυΒεα/ΛυΒε'η) Bailly, Dictionnaire Greco-Francais
ثم نجد لدى هرودوتس¹ (الكتاب الثاني / 32) ذكر ليثوا مع (قورينة). وفيما بعد، نجد لدى
الكاتب اللاتيني الجغرافي بلينيوس (القرن الأول م) في (التاريخ الطبيعي) اسماً يربط الليبيين
بالمصريين Libyaegyptii

2- بالنسبة لاسم البربر، يرى بعضهم أن الجذر عربي الأصل... أما نحن فنلتقي،
بادئ ذي بدء، بذكر ما أدركناه في المصادر القديمة اليونانية واللاتينية فالشرقية والعربية لدى
هرودوتس (الكتاب الثاني / 57) لدينا فعل (بربريزو) Barbrizo (iso) Barbrizo (ισω)
(بربريزو / يو) (تكلم بلغة غير واضحة، غامضة). وفيما بعد نجد لدى المؤرخ اليوناني
(ثوميديدس 460 - 431 ق.م)²، في تاريخه (حرب اليلزيونسوس) النص التالي: "... فكان
ذلك (المقصود الحرب بين آثينة وسيارطة م م) الاهتزاز الأكبر الذي زعزع سكينه العالم
الإغريقي وبعض أصقاع البرابرة (Barbaros بربروس)، بل سائر الجنس البشري"،
المقصود بالبرابرة هنا (الفرس وشعوب آسية الصغرى والرافدين الخ...). (I.6)

ويضيف (ثوميديدس) في نفس المكان: "... يمكننا أن نذكر أيضاً عدداً من الأمثلة تظهر
أن الإغريق القدماء كانوا يعيشون كبرابرة اليوم Barbaricos - Barbaricos -
برباريكوس).

أما كسنوفون³ Xe'nophon، فيقول في مؤلفه: "الهلتيات، الكتاب الخامس، الفصل

-
- 1- هرودوتس (480 ؟ - 425 ؟)، الشهير باب التاريخ - يروي لنا أخبار الصراع الفارسي اليوناني خلال
القرن الخامس (ق.م) وعلى الرغم أنه يخلط الأساطير بالواقع، يعتبر (تاريخه) كأفضل مصدر لمعرفة
أحوال العالم القديم - زار عدة بلدان عربية.
 - 2- مؤرخ يوناني وقائد سياسي / عسكري آثيني. له (تاريخ حرب اللوبونسوس) التي اشترك فيها
وارحها دون تحيز. لهذا يعتبر أصدق المؤرخين القدماء وأعمقهم.
 - 3- كسنوفون (427 ؟ - 355 ق.م) كاتب تاريخي وفيلسوف وقائد آثيني. اشتهر بمؤلفه (أناباسيس /
الصمود) (أو الرحلة) وفيه وصف سيره على رأس (10 آلاف محارب مرتزق من لفرات إلى البحر
الأسود.

الثاني ، 35) ، " . أما إسميناس فقد أتهم بأنه نصير البرابرة . ويذكر أيضاً في تصنفه الشهير (الصمود Anabasis - Αναθασυ`ς) (أناباسيس الكتاب الأول ، الفصل الخامس 6 ، 7) " مخيم قورش الاخميني " باسم (Barbaricos - Βαρθαρυκο`ς) (باريكوس) . وفي عذة أمكة من مؤلفه (الصمود) يذكر البلاد الاجنبية باسم (برباروس Βαρθαρος) (ولو كانت حضارية ، مقابلة مع (هلن / Ελλην / أي هلنية) ، في (الكتاب الأول ، المصل الثالث الخ...) .

أما الكاتب والشاعر المسيحي ايسخولوس (525 - 456 ق.م)¹ ، فيذكر في مسرحيته الشهيرة (العرس بيت الشعر 187) م يلي " كانتا شقيقتين سكنت الأولى في بلاد الإغريق ، بينما رمى العذر الثانية في الأرض البربرية " (المقصود هنا غير يونانية / غربية) وفي (بيت الشعر 337) يقول " وعد أن نعلم أنه بالنسبة لعدد السفن الحربية ، كان تعدادها (رقمها) لصالح البرابرة (المقصود هنا الفرس) . وقد يأتي معنى (Barbaros - Βαρθαρος - برباروس) سوى (غريب ، هجين ، بدائي ..) . وتعبير آخر كل " من هو غير هللني هو (برباروس / بربري) . وكذلك الحال بالنسبة للمصدر اللاتينية ، فكل ما هو غير يوناني أو لاتيني هو (بربري) .

يجب القول أننا نجد جذراً فعلياً لكلمة (بربر) في اللغتين اليونانية واللاتينية . وكما نعلم ، أخذت كلمة (بربر) أحياناً دلالة معنى (أعجمي) فيما بعد في لعربية ، كاليونانية واللاتينية . ما هو أصل الكلمة ؟ من الشرق أم من الغرب ، وربما أنها شائعة في المصادر الكلاسيكية منذ القرن الخامس (ق م) أي قبل العربية الفصحى العدنانية بحوالي (12 أثنى عشر قرناً) ، علماً أننا نجد لها أيضاً في الفارسية القديمة بنفس المعنى .

وكما نعلم ، كان للفرس الاخمينيين علاقات مع العاصم اليوناني منذ القرن الخامس (ق.م) ، لا سيما خلال الصراع (الأخميني - اليوناني / الحروب الميدية - القرن الخامس

1 - أيسخولوس . شاعر يوناني ، صرف إلى الفن المسرحي ، فابذع في المأساة (التراجيدية) ، حتى أصبح حقاً " أب الفن التمثيلي " بقوة خياله وعمق عاطفته الإنسانية . من روائعه المسرحية ، الفرس (معركة سلاميس) ، (برمبوس المفيد بالسلاسل) وأعاثمون (الزعيم اليوناني الاسطوري لحرب طروادة) .

(ق.م)، فمن اقتبس عن الآخر.. الفرس أو الأغريق ١٩

وكلمة (بربر)، التي أصبحت الشغل الشاغل حالياً لمفردنا العربي، ظهرت لدينا قديماً بعد ذكرها في المصادر اليونانية واللاتينية... كما رأينا لا تفقد معاني عرقية / جنسية، بل صفات حضارية / لغوية / اجتماعية الخ...

يقول جوزيف رنو J. Reynaud:

Invasion Des Sarrasins En France En Savoie, En Piemont Et Dans La Suisse, Pendant Les Huitieme, Neuvieme Et Dixieme Siecle De Notre Terre, D'après Les Auteurs Chrétiens Et Mahometans.

وقد صدر الكتاب بالعربية عن دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات العربية بالجزائر، الطبعة الأولى (1984) بعنوان: "الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر للميلاد" تعريب وتعليق الخواشي وتقديم الدكتور إسماعيل العربي.

يقول (ج. رنو، صفحة 23): ان الرواة والمؤرخين الفرنجة أطلقوا اسم "البربر" على العرب لأنهم "أدخلوا إلى الأندلس عن طريق أفريقية الشمالية، حيث انضم إليهم العديد من المقاتلين الأفريقيين". ونحن نعلم أيضاً أن المصادر التي راحت تغير على تحوّل الإمبراطورية الرومانية، قبل أن تجتاحها، في نهاية القرن الخامس للميلاد.

3- ومن الأسماء القديمة الغامضة في مدلولها وأصولها. أسم: مؤر Maure، ومنها مورطانية، واسم موريسكوس Moriscos. العرب الذين ظلوا في أسانية بعد سقوط غرناطة (1492)، قبل استبعادهم النهائي في القرن السابع عشر وبجد الاسم مراراً لدى الكتاب اللاتين، لا سيما اعتباراً من سالوستيوس Sallustius (86 - 35 ق.م) في حديثه عن القائد الأفريقي النوميدي يوغورثا Jugurtha فما هو أصل التسمية ومعناها؟

في المصادر الكلاسيكية القديمة (اليونانية)، نجد صدى للتسمية، اعتباراً من القرن الخامس (ق.م). ونجد أيضاً أسم (ΜαεΡοεσσουα) (موروسيا) (الجزائر الغربية).

من المفيد ان نلفت الانتباه أن التسمية موجودة بشكل أوبآخر في المصادر الكنعانية (التوراتية) وفي السريانية وفي العربية فيما بعد. ففي (نشيد الانشاد 1/0) نجد ناث المر اليميني $\text{m}^{\text{a}}\text{r}^{\text{a}}\text{m}^{\text{a}}$ (موري)، وكذلك في (سفر الخروج 30/23) نجد (72 مر). ونجد في القدس القديمة جبل (موريا $\text{m}^{\text{a}}\text{r}^{\text{a}}\text{m}^{\text{a}}$). ثم ما هي علاقة المورين (المور) بالأمورين (الهكسوس) الذين دخلوا مصر في القرن الثامن عشر (ق.م). والاله (أمورو/ور) هو اله الطقس والسماء لدى الأمورين ونجد للاشوريين علاقة أيضاً باسم الههم (أشور). وفي السريانية، لدينا: (مُورا/ المُر) البسات اليميني، طسب الرائحة مرّ الطعم (انظر: جبرائيل قزراحي الباب، قاموس سرياني - عربي، مطبعة ألف باء الديب، دمشق 1994، مادة طوّر، صفحة 691). وفي السريانية ليعقوبية نجد (مُورُو) وفي النسطورية (مَازَا) وفي المجموع المجزوم (مُور) وفي اسم التصغير (مارون) ومنها أسم مار (القديس / السيد) مارون.

4- ثم نأتي إلى أسم ساراكنوس Sarracenus. يقول (ج. رثو) في كتابه المشار إليه أعلاه: ".. سنتحدث عن مختلف الشعوب التي اختلطت بالعرب، والذين أوشكوا أن يخضعوا أوروا كلها لحكم القرآن، وأطلق أحياناً أسلافنا على هؤلاء الأقوام أسم "سارازن" وهوا أسم مجهول الاشتقاق، ولكنه يُطلق على العرب الرّحل عادةً". ويضيف في نفس المرجع ص 209: ".. ولكن ما هو أصل اشتقاق كلمة سارازن..؟ أصل الكلمة من اللاتينية وهي مأخوذة من الإغريق (Sarracenus / Σαρακηνός) ساراكنوس وقد ظهرت لأول مرة في كتب المؤلفين الذين كانوا يكتبون في القرون الأولى للميلاد، وهي تُطلق على البدو الرّحل، الذين كانوا يحتلون الجزيرة العربية ومنطقة الجزيرة بين دجلة والفرات.

ولقد ذهب الناس مذاهب شتى وأعربوا عن آراء كثيرة حول الأصل الذي اشتقت منه هذه الكلمة، ولكنه لا يوجد رأي اجتمع عليه أكثر الباحثين هو أن الكلمة مشتقة من الكلمة العربية "شرقي". والواقع، إن العرب الرّحل في الجزيرة الشامية وفي الجزيرة لعربية كانوا يقعون على التخوم الشرقية للإمبراطورية الرومانية. أما رأي المسيحيين في العصور الوسطى

الدى يستند إلى القديس جيروم¹، والذي يجعل كلمة (ساراران) مشتقة من اسم (سارة) زوجة ابراهيم، فهو رأي لا يستحق الوقوف عنده، حيث أن العرب لا تربطهم صلة بسارة أم إسحاق².

نجد أسم (ساراكنوس)، إشارة إلى أقوام بلاد العرب الصحيرية (بلاد الأنباط)، والتي اشتهرت لاحقاً باسم Provincia Arabia (الولاية العربية)، منذ أن ألحقها الإمبراطور الروماني (تريانوس Trajanus) 52 - 117م بالإمبراطورية الرومانية. نجد هذا الاسم لدى سترابون³، ويليئوس⁴، المذكور سابقاً، وبطليموس⁴ وفيما بعد لدى (أميانوش مار قلينوس)⁵، ثم كما قلنا لدى القديس جيروم (في شروحاته التوراتية على (سفر اشعيا) وفي نفس الفترة تقريباً، نجد إشارة إلى الاسم لدى (سينيوس Synesios 370 / 144م)، الفيلسوف الاسكندراني. أسقف (قورينة الليبية) قائلاً (ساراكنستي = Σαρακηνοῦς) على طريقة العرب).

أما في مصادرنا القديمة، نجد في (سفر الجامعة 7/50) (بلهجنه التوراتيه الكنعانية) جذر

-
- 1- من بآء وعلماء الكنيسة اللاتينية الرومانية (324 - 420م) ترجم الكتاب (العهد القديم) إلى اللغة اللاتينية المعروف باسم (VULGATA / الولغاتا = الشعبية). له دراسات وشروحات على العهد القديم / التوراة).
 - 2- جغرافي يوناني (58 ق.م ؟ - 28 م) له كتاب (الجغرافية)، نجد فيه أخباراً عن بلاد العرب، لا نجد لها لدى غيره من الكتاب الكلاسيكيين
 - 3- يليئوس الأكبر، قائد عسكري ومن علماء الطبيعة اللاتين. وله مساهمة جغرافية، صنف موسوعة التاريخ الطبيعي H. N من (37 سقراً).
 - 4- Ptolemaios، وُلد في صعيد مصر (القرن الثاني م). اشتهر بمعارفه الفلكية والجغرافية والرياضية. من مؤلفاته الموسوعة الجغرافية، و (المجسطي) (لأكبر)، وفيه القواعد لمعرفة إثبات الأرضاع الفلكية والأرضية بأدلتها التفصيلية. عرّبه عن اليونانية (حسين بن اسحق 810 - 873 م). توفي قرب الاسكندرية في عام 167م.
 - 5- اميانوس مارقليتوس (330 ؟ - 400) مؤرخ لاتيني تابع أخبار الإمبراطورية الرومانية، من حيث توفى ابن جلده، المؤرخ (تاكيثوس 900 - 120 م) في تاريخه

(٢٦٦/٢٦٥ سَرَق) بمعنى (شَرَق / شرقت الشمس / سَطَعَتْ / لمعت)، كذلك في الآشورية (شاركو)، وفي السُئي (شَرَق) بنفس المعنى.

وكذلك (مَشَرَق) بمعنى الشرق، وصفة (شَرَقَن) للإله المُضيء، الشارق، وكذلك اسم قبيلة يمنية...

5- ولدينا اسم آخر يفيد معنى البدو والرُحَّل وهونوميديا، من الأصل اليوناني (vovας نوماس، vovαςos نوماروس) (انظر معجم يوناني فرنسي Bailly، vovας، صفحة 1331) وفي الفرنسية Nomades (القبائل العربية الرحل)، قبل ان يكتسب الاسم مدلولاً جغرافياً، في شمال أفريقية (ما بين بلاد فرطاحة وموريطانية). ونجد أصداءاً للتسمية الجغرافية الأفريقية، في بلاد الشام، لا سيما في الكتابات الكلاسيكية (اليونانية / اللاتينية)، دلالة على سكان البادية الشامية.

ونعود إلى "البربر" في علمنا العربي، في اللغة والجغرافية:

أ. في اللغة: جاء في (اللسان / إسن منظور) في مادة (بَرَر) "... والبربر كثرة الكلام والجلبة باللسان، وقيل الصباح، ورجل بَرَبار، إذا كان كذلك، وقد بَرَبَر إذا هذى. والبربر: الصوت وكلام من غضب... وقد بَرَبَر فهو بربر... (انظر لمحات شيقة في كتاب الأستاذ محمد المختار العرابوي (البربر عرب قدامى)، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، طبعة الأولى 1993، ص 219-213.

ب. الجغرافية: نجد أسماء أماكن منتشرة في جنوب الجزيرة العربية وما جاورها من المناطق الأفريقية.

منها بَرَبَرَة: بلاد بين الحبشة والزنج تقع على ساحل البحر المتصل باليمن، ذكرها المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر (شرح الدكتور مفيد محمد قيمحة، دار الكتب العلمية، بيروت 1986، ج 1، صفحة 447). والهمذاني، وعنه أخذ ياقوت الحموي في: معجم البلدان (بيروت 1965، ج 1، صفحة 369).

بحر بربرة: وهو الخليج البربري (عدن) المسعودي (المصدر السابق، ج 1، ص. 106).

بربر: مدينة في الصومال.

جزيرة بربري: ذكرها الهمداني (صمعة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط3، صنعاء 1983، صفحة 93. وهي (سُقَطْرِي) القديمة، ولغة أهلها المهريّة

وادي بربر: ذكره علّال الفاسي في: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (لجنة نشر تراث زعيم التحرير، الرباط 1950، ط4، صفحة 9).

سوق بربر: وهي سوق كانت توجد بالفسطاط في مصر... الخ...

6- أمازيغ: من الأسماء القديمة في شمال أفريقيا وتعني الكلمة: الرجل الحر، النبيل، الأصل. (انظر دراسة جيدة ومفيدة للأمازيغ في (البربر، عرب قدامى. للأستاذ العربي، المذكور أعلاه ص 33 / 231).

4- وفي الملخص والنتائج

1- ما رأينا أعلاه، كلمة (بربر) لا تدلّ على عنصر أو عرق أو جنس بعينه، بل كما وردت في المصادر الكلاسيكية لقديمة تدل على كل ما هو أعجمي غريب، بدائي، عنيف الخ

2- تظهر الدراسات اللغوية المقربة صلات تشابه وقربى في اللغة والكتابة بين بعض اللهجات البربرية ولهجات شبه جزيرة العرب. وبين خط التيفناغ والقلم المسد اليمني بأشكاله المختلفة.

3- كما يقول (الحسن الوزان)، لم يكن قلم لتيفناغ معروفاً في عصره، (انظر وصف أفريقية، ص 79 الخ...)

4- لا نعتقد أن المقارنات العرقية (الانثولوجية) بين ما وجدناه في المشرق العربي وما وُجد حتى يومنا هذا في شمال أفريقية، وترقى إلى العصور الحجرية: الوسيط والحديث، تفيدنا كثيراً لتأكيد أونفي أصول البربر / الأمازيغ وعلاقتهم بمشرفنا العربي، ولا سيما في

اليمن ، للأسباب الوجيهة ، استي أوردناها ، في البند (2) (الموضوع المشكل وندرة المصادر وقلة الوثائق المادية).

5- محاولات الغرب الأوروبي في ميدان (صراع الحضارات) ما زالت قائمة ، في القديم (تدمير قرطاج) وما رأيناه منذ القرن التاسع عشر من محاولات "فرنسية" و"تلهيج العربية الفصحى" و"التبشير الديني" و"إثارة العنرات العرقية" الخ... والخطر جدي ومستمر حتى يومنا هذا.

6- مما لا شك فيه أن اللقى الأثرية المغمورة حتى الآن في أعماق الأرض في المشرق العربي وفي مغربه قد تلقي أضواءً جديدة على موضوع العلاقات البشرية بين مشرقنا ومغربنا ، في حال الكشف عنها.

مقاربات جينيا لوجية

في اللغة والحراك السوسيو-ثقافي الأفرو-آسيوي

د. عبد المنعم المحجوب

رئيس تحرير مجلة لضاءات - ليبيا

مدخل

في الورقة ثلاثة موجّهات يمكن ترتيبها كالآتي :

- 1- إن التأثير اللغوي والاجتماعي الأفروآسيوي كان وما زال ظاهرة لا تحلو منها مرحلة من مراحل التاريخ ، بغض النظر عن سجلات هذه الظاهرة ، ما حفظته الشواهد الأركيولوجية والأنثروبولوجية ، وما لم تحفظه منها.
- 2- إن مسارات هذا التأثير ، جيئة وذهاباً ، من غرب أفريقيا إلى شرق وشمال شرق الجزيرة ، لم تكن أحادية ، ولا يمكن التسليم بنسقيتها ، استناداً إلى خضوعها لظروف متغيرة ، متدلة ، منها ما هوييني ، ومنها ما هو اجتماعي وديني .
- 3- إن انعكاس فهم هذا التأثير على البحث العلمي في تاريخ الحضارات وفي اللغويات التاريخية على الأخص ، يستند في أغلبه إلى قراءات من خارجه ، وضعها ورسّخها غربيون أو محليون واصلوا نهجهم وساروا على خطاهم . والكثير هذه القراءات أنتج مسلمات للبحث لم استطع تجاوزها إلا مؤخراً ، وأعتقد أننا يجب ألا نتوقف عن مساءلتها في ضوء ما نتوصل به من نتائج قد نعتبر حاطة وفقاً لمنطق البحث التقليدي .

أولاً : اللغة والحضارة

يعتقد كل شعب أن لغته تتميز عن لغات غيره من الشعوب ، بكمالها ، أو بقديسيته ، أو باستطاعتها استيعاب نصوص وآداب أكثر براعة ، كما يعتقد أن غيره من الشعوب يظل أقل قدرة منه على امتلاك ناصبة التعبير بالكلمات عن المعنوي واللامرئي والغائب .

والنظر إلى اللغة الأم ولغة الآخر على هذا النحو، هو جزء من مخيال وصفي عام يتمركز حول الذات، ويشي بتوضيع لآخر على أطراف مسارات التواصل، سالباً منه قدرته على الإسهام في تفعيل هذه المسارات، فالآخرون في مثل هذا الخطاب، القائم على نزع الاعتراف، تعوزهم على الدوام خصائص الاكتمال، وهم يتدرخون من مرتبة أدنى تُزَع عنهم فيها صفتهم البشرية، إلى مراتب أكثر عنдалاً تصمهم بالتحلف أو الجهل. ومبدأ هذا الخطاب مارال يواصل اشتغاله إلى يوم الناس هذا، إلا أنه قديم قدم اكتشاف البشر لاختلاف ألسنتهم، ويمكننا التفكير في الكثير من الشوهد التي أنتجتها الحضرات كافة، إلا أننا أحيلكم إلى بليني الأكبر الذي نقل عن هيرودوت أغرب ما يمكن أن يقرأه المرء في تاريخ معرفة الآخر، وأصاف إليه الأكثر غرابة و"تحافاً". يقول بليني أن قبائل ليبية مر سكان الأطلس لا لسان لها، وأنها "تهمهم" و"تومئ" كي تتمكن من التواصل، هناك بالطبع صور أخرى (مثل أن قبائل أخرى لا ترى أحلاماً في منامها) ولكن هذا الاقتباس يفني بانغرض.¹

ومن أقدم الأمثلة على مبدأ سلب الاعتراف بالآخر، أن قدماء المصريين ميزوا أنفسهم باعتبارهم هم "الناس"، في مقابل الليبيين أو الآسيويين أو الأفارقة، وكلمة "أناس" كانت تعني المصريين وحدهم متى وردت، لا غيرهم. نحن "البشر" الذين لا يعورهم شيء من الإنسانية، أم الآخرون فلا كما أن كلمة "الأرض" لم تكن لتعني سوى أرض مصر نفسها.²

هكذا أطلق الإغريق كلمة *barbaros* على غيرهم من الشعوب التي لم يتصلوا لغوياً بها، وهي كلمة كانت تدلّ، قبل أن يجري وقفها على هذا المعنى، على العي وعدم استطاعة الكلام بطلاقة، المعنى الذي نكتشفه من مقارنة هذا اللفظ باللفظ اللاتيني *barbarus* الذي يدلّ على من يتعم في الكلام. وكمثال حديث فإن الروس وصفوا الألمان بأنهم أصحاب الألسنة المعقودة أو البكم

لكن الأوصاف المصرية والإغريقية واللاتينية للغات الأغراب، لم تكن في الغالب

1 - أنظر: خسيم، علي فهمي، نصوص ليبية

2 - فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، 45 - 46.

تشمل أولئك الذين يهجرون لينوطوا في مصر أو أثينا أو روما ، والشعور السائد لم يكن نوعاً من "الإكزنوفوبيا" أركره الغريب ، بل مسألة جغرافيا وعرف وعادة ، فالذين "يسكنون مصر ، دون تفريق في الأصل أو اللون ، ويتعلمون اللغة المصرية ، وينريؤون بملابس المحليّة ، يُقبلون كجزء من "الناس" أيضاً. بل قد يبلغون مرتبة الملك - الإله ، الذي يمتلك الشعب بأسره.

كسمة "بربر" ، إذن ، لم يخرتها الأمازيغيون أنفسهم ، وهي في ذلك مثل كلمة سومر ، التي اعتقد أن المصريين القدماء أطلقوها عليهم . معنى الحلفاء ، من *su* أي الناس ، البشر و *mer* أي الأصدقاء ، وأرى أن بحث الأركيولوجيين عن هذه المدينة في العراق سينتهي بلا طائل ، لأن سومر ليست سوى صفة لسكان المدن القديمة مثل أور وأوروك وشروباك وغيرها ، دون أن يعني ذلك مكاناً بعينه.

لكننا بالاستفاضة في تأمل هذه الكلمة . يمكننا مقارنة مظهر من مظاهر التواصل اللغوي ، وما أود الإشارة إليه هنا هو العلاقة بين بربر وبابل (أو : باب إل *bab-el*). ويمكن تأثيلها سومرياً أيضاً. فالإبدال بين صوتي الراء واللام ظاهرة تسود المتوسط وجواره وما هو أبعد ، فكأما اللسان (ببطلاقه) قابل دائماً لإبدال الصوتين أحدهما بالآخر ، بما يتوفر له من تهيز اجتماعي وثقافي ، وفي ذلك أمثلة عديدة لا تعد ولا تحصى ، فـ *Barber* و *Babel* إذن هما . وللعرب في تأكيد هذه التسمية دور ولا بد ، لقد جعلوا بابل من ببل ، قيل بلبل الله ألسنتهم ، أي أنشأ فيها الرطانة فلم يعد أحد يفهم أحداً ، وذلك هو أصل التسمية "بربر" ، ارتحل إلى اليونانية *Barbarous*.

أما العرب فإنهم جعلوا من الشعوب المحيطة بهم أصحاب رطانات غير مفهومة ، فوصفوا الروم بالعجم ، وهي كلمة تشترك في نفس الجذر مع الأعاجم ، أي الحيوانات البكماء. وأنزلوا لغتهم منزلة مقدسة ، فجعلوا لها أصلاً إلهياً ، بها كلّم الله أول خلقه ، وبها أنزل كتابه ، وبها سيتكلم يوم القيامة ، ولهم في وصفها وتجيلها ، بيان تمبّزها ، مصنفات كثيرة. كما جعلوا منها أصل اللغات ، وهوما يشتركون فيه مع الطورانيين ، واليهود ، وغيرهم

من الشعوب التي رأت في لغاتها أصولاً نَفَرَعَت عنها لغات الأرض. وهو توجه ميثي رَفَدَه البحث العلمي بالركون إلى أصل افتراضي كلما جيءَ إلى بحث التأثير اللعوي، كما في مثالي: الهندوأوروبية الأم، والسامية الأم.. فالقراءة بين اللغات أدت على الدوام إلى فرضية الأصل الغائب الذي حاول الجميع اكتشافه في لغتهم، وترجيح أمثله وشواهد بالاعتماد على ثلاثة افتراضات ضمنية: الأول هو الأسبقية الرمزية، أي افتراض وجود لغة مكتملة النمو مؤهلة لأن تضيف تأثيرها على غيرها من اللغات، والثاني هو افتراض سبق أحادي الاتجاه يسمح بالتأثير أو التأثير بين اللغات، لا التأثير المشترك. والثالث: هو قصر العلاقة بين اللغات على المستويين المعجمي والصرفي، أي ضمن حدود اللعوي فقط، دون التركيز على دور المعطيات الأنثروبولوجية والإثنية والمعتقدية والتاريخية في هذه العلاقة.

ثانياً: التاويل الميثي للغة

نأخذ اللغة لدى معظم الشعوب سمة الرمز الجمعي باعتبارها مكوناً ميثياً مبرّساً ما عن سواء، أو أفرد لشعب ما استحقاقاً يُخصّ به فترعاه الآلهة وتباركه، بينما تترك غيرهم من الأقوام يكدهون لينالوا أهليتهم بالعودية بفعل منجز إنساني، بل أن بعضهم لُعنوا ولا سبيل أمهم ليل رضى الآلهة مهما بلغ منجزهم من إعجاز. في التوراة قامت الآلهة بالدفاع عن نفسها بأن شتت البشر وبلبلت ألسنتهم كي تستطيع أن تهيمن عليهم إلى الأبد، بعد أن أصبح في إمكانهم أن يتكلموا "لساناً واحداً".

فالإنسان المقيد إلى الأرض في علاقته بالسماء، ولى لغته في علاقته بالآحر، يستطيع مضاهاة الآلهة بهدين الشرطين: الارتفاع ووحدة اللغة. فالارتفاع يعني المعرفة، لأنه يجعل الإنسان يطأ سكن الآلهة ويطلع على معاشها ويكشف أسرارها، ووحدة اللغة تعني أن البشر جميعاً أصبحوا "واحداً" له لقدرة على الخلق، لأن اللغة الواحدة هي التي تجمع الآلهة على اختلافها وخطاياها، وتعطيها قدرة أن تخلق.

والخلق بالكلمة صورة متكررة في النصوص المقدسة، اليهودية والمسيحية والإسلامية، كما أن عهد الإله مع البشر، هو عهد لغوي، وهو يشكل أيضاً جزءاً من المشترك الميثي للشرق

الأدنى، ضمن مشتركات ميثية أخرى لعل أبرزها الخلق من فخار (صلصال)، أي من لوح الكتابة، تحويل الكلمات (الروح) إلى أشياء (جسد)، فاصلصال أمام يد الإله هو جسد الإنسان، وأمام يد الإنسان هو جسد الكتابة.

وفكرة الخلق من صلصال، كما هي فكرة عهد الآلهة، اعتقاد يعود، ضمن معتقدات عديدة أخرى تتمحور حول اللغة والكتابة، إلى السومريين.

لقد كانت الكتابة في معتقدات الشرق القديم هي استظهار المقدس، وكان الكاتب سيذاً وهو الأقرب إلى الآلهة كان آشورباييال يفصح أن الآلهة وهبته "علم الكتابة"، ولكنه كان أيضاً يتمنى الأكثر: أن يقرأ "ألواح ما قبل الصوفان" التي لم يستطع فك رموزها، لأنه لم يكن مهياً لمعرفة سرّ التكوين، الذي يعني أيضاً سرّ الخلود، وهو امتياز وهب لأوتناشتيم وحده، وعجز حفيده علغامش عن بلوغه ليعيش بقية عمره مقيداً بشرط الموت كإسن فاد. أما مع اليونانيين فإن الكتابة ستحول إلى فعل مدنس، سيصبح الكاتب عبداً، وفعل الكتابة تخفير لا يليق بالساداة الأثينيين، ونستطيع بدءاً من أفلاطون أن نتحدث عن "الكتابة المدنسة"، كما يقول جاك دريدا، ربما مع العينيقيين في البحر المتوسط ستصبح الكتابة فعلاً إنسانياً، وشرط معرفة، وتكتسب بعداً حسيّاً جديداً.

إن هذه المظاهر المتعددة، المتباعدة، للغة والكتابة تؤثر على ضرورة تأويل قدم تأثر وتواتر الألسن، باستظهار آلة هجرائها وتنقلاتها. مثلما هو الأمر بالنسبة لإعادة بناء تصور نظري عام لانتشار وتأثر اللغات تاريخياً. وقد كانت المهمة التي اضطلع بها كتابي (ما قبل اللغة) مبعث اعتراضات كثيرة، ولكن ما يعني الكثير بالنسبة لفرضيات هذا الكتاب، هو القيم مما اعتبره خطوة أولى لبدء بحث جاد يسقط عن نوازعه أصولاً تحكمت طويلاً في تفكيرنا، أعني على وجه التحديد ما صنعت بنا الأسس الميثية في تناول مسألة اللسان واللغة.

لقد كان عملي في كتاب "ما قبل اللغة" يركز على تنوع واستظهار التغيرات الصوتية (الفونيطيقية) التي أصابت سلسلة الألسن الشرقية وخصت فيه إلى أن العائلة الأفروآسيوية متحدرة من لسومرية، وإن المقاطع السومرية المفردة والمثناة متوطنة قارة في العربية والآرامية

والأمازيغية والأمهرية.. وغيرها من بقية لغات الفروع والمجموعات الأفروآسيوية. أما المعجم التأيلي المتاح الآن فإنه يلبي اشتراطات هذه الفرضية، بدءاً من استظهار العونيمات المفردة إلى الكلمات المقطعية السومرية في تحولاتها التدريجية إلى جذور ثنائية وثلاثية.

لقد عُدَّت السومرية لغة منعزلة، لم تُفلح مقارنتها بالعديد من اللغات المجاورة لها، ولم تسفر عن شيء. وهذه في الأصل قراءة استثنائية انتشرت وغلبت على الوسط العلمي، فتحدث بها الدارسون من علماء الآشوريات، وجعلوا التسلسل السامي يبدأ من الأكادية، التي كتبت بالخط المسماري المقطعي نفسه الذي كتبت به اللغة السومرية، دون أن يقيموا تماثلاً بين اللغتين، إلا أن تتبع المقطع السومري يشي بمسارات شتى هاجرت فيها المفردات، تبدلت وتحوّرت، كَمُنَتْ وظهرت، اتصلت وانعزلت، إلى آخر ذلك من أشكال التأثير والتواصل. وقد نشأت عن هذا المنهج في تتبع وتأنيل اللغة العربية فرضية تذهب إلى أن هذه اللغة كانت قائمة قبل ظهور العرب أنفسهم، أي قبل أن يُعرفوا باسمهم هذا بزمان طويل، وقد يجد الكثيرون أن طرحاً كهذا غير قابل للإثبات تاريخياً، نعم، إننا خارج اللغة لا نجد إلا حداً أدنى من الشواهد المباشرة، هذا صحيح، وقد سبق لدي سوسير أن أشار إلى الوهم الكبير الكامن وراء القول بإمكانية العودة عبر العصور لإعادة بناء ألسنة تحدثت بها شعوب ما قبل التاريخ، في عملية تتداخل فيه اللغات بالأنساق الاجتماعية، بحيث يتوزع البحث بين الكلمات والعادات والمعتقدات في توليفة لغوية، أنثروبولوجية، إثنولوجية لكن اعترضه كان يتعلق أساساً بالذهاب إلى بُعد عما تتيحه لنا المعرفة اللغوية، كأن نعمد من وراء قرابة لغوية إلى بحث قرابة سلالية أو عرقية (إثنية) لا منطق يسوّغها سوى عدد من التشابهات المعجمية إننا نستطيع التأكيد على أن مطابقة ما تجري بين "الحقيقة اللغوية" و"الحقيقة التاريخية" سوف تقرد إلى فتح القراءة على تأويلات لا متنتية، إلا أننا نستطيع التأكيد من ناحية أخرى على أن هذين الحدين تجمعهما تماسات ثابتة هي أوضح من أن يتم إغفالها.

يمكننا أن نلجأ بمنهج استرجاعي إلى إعادة تصور ما تمكّن تسميته "وضماً لغوياً" لمطقة الشرق الأدنى الذي يشمل شمال الجزيرة وجنوبها، وشمال أفريقيا وشرقها، مع ما يمكن أن يرفده من شواهد أنثروبولوجية وأركيولوجية، وتتيح لنا الصلة بالسومرية، عادة التفكير على

أساس لانتشار المتحول، دون أن يعني ذلك الوقوع في الإطلاق والتعميم، فالإطلاق والتعميم لا يقودان سوى إلى بحث ميثية جديدة.

ثالثاً: المثال القرطاجي

جعل الفينيقيون والإغريق واللاتين حوض البحر المتوسط مجالاً لغوياً متعددًا، ولا بجانبنا الصواب إذا قلنا أنه كان ينمر وجود بلد من بلدان المتوسط لم يتجور فيه لسانين أو أكثر في نفس الوقت فعندما تأسست قرطاج كمحطة تجارية للفينيقيين في القرن السابع ق.م. سادت الفينيقية إلى حاسب النوميدية، لغة السكان الأصليين، وفي مرحلة لاحقة من القرن الثالث ق.م. جاورت اللاتينية هابن اللعتين، بالإضافة إلى اليونانية التي تحدث وكتب بها مثقفو قرطاج، ولكن البونيقية، وهي الفينيقية بتأثيرات نوميدية، ظلت منتشرة حتى القرن السابع ب.م. لتحلّ العربية محلها مع الفتح العربي الذي وصل قرطاج نفسها عام 641 وقد كانت آنذاك مجرد أطلال ضخمة تحيط بها قرى صغيرة يسكنها حليط تاريخي نكوّن عبر المراحل الفينيقية الرومانية، أما النوميدية القديمة فقد انحسرت في اللهجات الأمازيغية محلية التي تأثرت عبر مراحل لاحقة بالعربية أولاً، ثم بالفرنسية بدءاً من القرن التاسع عشر، مع التأكيد على أنها قد حملت منذ البدء سمات لغة عربية جنوبية هي السبائية، بالإضافة إلى السمات المصرية القديمة. وهي السمات التي أرى أن يتم البحث عن صيغتها الأولية في السومرية لا في غيرها.

الملاحظ في المثال القرطاجي أن الوحدات اللسانية لم تتحل بفعل نفاذية لغة واحدة، بل حافظت جميع اللغات على وجودها، اليونانية واللاتينية تراجعتا إلى خارج قرطاج، النوميدية انسحبت إلى مواطنها الأصلية، الفينيقية وحدها تلاشت بفعل السيادة الكاملة للعربية التي ترسّخت في كل مكان من الشمال الأفريقي، لكن هذه الحدود العامة للتفكير في تجاور اللغات الأربع لا يلغي ما اقتبسته وما تأثرت به بين بعضها البعض، كما لا يلغي أن وجود العربية إلى جانب الأمازيغية قد مدّ الأخيرة بدخيرة معجمية جديدة، استعادت فيها وبها تلك الآصرة الأفروآسيوية المفقودة، وعذتها من حديد.. فإذا ما استثنينا اليونانية واللاتينية اللتين احتلنا شمال أفريقيا ردها من الزمن نجد أن العربية والأمازيغية قد اتصلتا

أولاً لالتقائهما في الأصل السومري البعيد، وثانياً لأن اتصالهما يستند أيضاً إلى أكثر من التشابهات المعجمية والصرفية، بحيث يمكن القول أنهما شكلان متحولان للسان واحد. دون أن يعني ذلك إقامة تطابقات وتشابهات معجمية منتزعة من سياقها الاجتماعي والتاريخي، ذلك لأقول أن القياسات والاقتناسات المعجمية المجردة، أي تلك التي لا تدرس الظاهرة اللغوية ضمن اشتراطاتها وتفاعلاتها الاجتماعية والتاريخية، ستكون عاجزة عن فهم ترحال الكلمات والمعاني، من مكان إلى آخر، وفي زمان وآخر، لأنها - بإهمالها لهذا الجانب - تعمل خارج الرمن، أي خارج القابلية الاجتماعية للتطور والتغير، وكل قابلية للتطور والتغير خارج هذا التحديد، قد تكون قابلية صائبة من باب تجريدي فقط.. وهو ما لا ينطبق على العلاقة بين الأمازيغية والعربية اللتين لا تتصلان فقط، بل وتكملان فجوة قائمة في تفسير ما مرّ بالمنطقة من حراك اجتماعي وثقافي.

رابعاً: القرابة المعتقدية-اللغوية

مظهر آخر للتفاعل المعتقدية، يتمثل في أن شمال أفريقيا قد ترسبت فيه المعتقدات الماترياركية / الأمومية، والتي تعتبر عبادة الإلهة تانيت، ربة الخصب والسماء، أحد أبرز مظاهرها، ويمكننا هنا أن نلجأ إلى مستويين في فهم التفاعل الأفرو- سيوي في هذا الإطار:

1- بالتواصل مع المعتقدات الماترياركية في مراحل ضمنية في القدم، وخاصة تلك التي كانت سائدة في بلاد الرافدين والمتمثلة في تجسيد وعبادة الإلهة الأم Mother Goddess، نشأت عبادة تانيت.. إن ارتحال طقوس هذه العادة وتنقلاتها بين المنطقتين يكاد يكون أمراً مجهولاً الآن وغير قابل للتبع والملاحقة، بفعل الافتقار إلى المدونات اللازمة، سوى ما نجد من نقوش فخارية يمكن استشفاف التصورات المعتقدية من خلالها. وبما ذلك يمكن تقديره اعتماداً على شواهد أركيولوجية منذ ستة آلاف سنة ق.م.

2- في حين ظل تسجل الإلهة تانيت سائداً في شمال أفريقيا، حصراً وبشكل مباشر بين أواسط لسيا وأواسط الأطلس شمالاً، ومعظم مدن ووحدات الصحراء الكبرى جنوباً، وهي الإلهة الموصوفة بالوقية لبلادها، أي أن عبادتها لم تغادر هذه المنطقة، ما أعرفه بمجال

ميثولوجيا الساحل والصحراء، بالإضافة إلى دخول معتقدات باطرياركية / أنوية جديدة مثل عبادة بعل، الذي قُرن عادةً بتانيت.. فإن صحراء الجزيرة كانت أكثر انفتاحاً على تغير وتطور المعتقدات فيها بتأثير لشمال، حتى أن كعبة مكة أصبحت "باشيون" عربياً يضم مئات الآلهة، بالإضافة إلى "كعبات" عديدة أخرى، لعل أشهرها "الحديقة" في الجنوب.

هذا بالإضافة إلى التأثير المصري.. إننا بتوفر ما يكفي من الشواهد نستطيع الحديث عن توصل معتقدي بين مصر وصحراء الجزيرة، كما نجد أن حركة ترحال القبائل الليبية القديمة إلى مصر كانت متصلة، إن على شكل هجرات جماعية، وإن على شكل غزو، عادة ما كان ينتهي باندماج هذه القبائل سلمياً في الجسم الاجتماعي لمصر القديمة، ويدوأن نوعاً من السجل النسائي كان سائداً هناك إلى الحد الذي يحتفظ فيه "الأحني" بنسبته، حتى وإن وُلد في بلاط الفرعون، ولعلّ مثالنا الأشهر على ذلك هو شيشق، الفرعون الذي صاهر سليمان النبي، حسب الأسطورة.. وعبرت جيوشه بلاد ما بين النهرين، خالقاً بذلك أول فضاء قاري أفروآسيوي موحد. وبجال هذه المرحلة الفترة الواقعة بين أربعة آلاف وألفي سنة ق.م.

3- في مرحلة لاحقة، وكانت الجزيرة قد شهدت ظهور الديانتين الموسوية والعيسوية، قبل مئات السنين من ظهور الديانة المحمدية، أنتج تعظم الحرك الاجتماعي - الثقافي بين المنطقتين، مهد انتشار مشاهدة يؤر لليهودية والمسيحية في مدن ووحدات الساحل والصحراء، ولا نكاد نغتر على واقعة ذات أهمية تدلّ على الصراع والافتتال بين الديانات السابقة، الماترياركية بتأثير بطرياركي غير مكتمل، وبين الديانتين الباطرياركتين الجديدتين، لقد انسحبت اليهودية لتصنع لها معازل منتشرة هنا وهناك، وما أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، حتى تحولت إلى دين شعبي في شمال أفريقيا وعلى عكس لمرحلة السابقة تماماً، فإن الكثيرين من أبناء شمال أفريقيا أسهموا في جعل هاتين الديانتين تسيران وتسمان بأول أبعادهما الكونية.. بل أن بعضهم قد أمد المسيحية بروح جديدة جعلت استمرارها ممكناً بعد أن تحافظت أطرافها الخلافات المذهبية والإقليمية، أعني سائت أوغسطين.

مجيء الإسلام، قلب الموازين رأساً على عقب، لقد آمنت به العالمية العظمى، وبقدرته

على توظيف المقولات ، وأشدّها أثراً وفعالية هي مقولة النسخ في المأثرة التي تقول : الإسلام يجب ما قبله ، أصبح عدم الإيمان به عبثاً على الكاهل (كالجزية) ، بينما الانتماء إليه يضمن عدداً من المزايا الاجتماعية على الأفراد ، وهكذا شهد الساحل والصحراء الأفريقيين تحولاً تدريجياً ، بعد عمليات الفتح القليلة . المتوزعة هنا وهناك ، والتي تُصوّر لنا على يد المستشرقين على أنها اكتساح شامل لم يترك ، بقوة السيف ، لا أحصر ولا يابس يصمد في طريقه.

خامساً : في الحراك السوسيو-ثقافي والتواصل

نعرف أن منطقة الجزيرة العربية تمتد من خليج البصرة مروراً ببادية الشام حتى خليج العقبة وصحراء سيناء. وقد تميّز جنوب الجزيرة بموقع بحري أتاح لليمنيين الاتصال بالمصريين والأحباش من خلال البحر الأحمر. على مدى التاريخ ، بل أن ترجيحاً علمياً بالغ الأهمية لدى الجيولوجيين يذهب إلى أن شرق أفريقيا وغرب آسيا كانا متصلين ، ويجعل من هذا البحر مستنقعاً كبيراً كان من الممكن عبوره كبهيرة مغلقة حتى قبل أربعين ألف سنة ، وأشير هنا إلى أن التواصل الأفروآسيوي كان خبرة برية ، في الأساس ، إلى أن أضاف له الفينيقيون خبرتهم البحرية. بل أن الجزيرة أقرب في وجهة نظر بعض الجغرافيين إلى أفريقيا منها إلى آسيا ، إذ مع الأولى يمكن التفكير في شبه المنحرف ، المتضائل تدريجياً ، الذي يصنع البحر الأحمر كفاصل بين القارتين ، بينما يحث التفكير في الهوة المتسعة التي يحدّثها الخليج العربي كلما اتجهنا جنوباً كفاصل بينهما.

أما الجزيرة في حد ذاتها ، فقد كانت ، وما زالت ، حقلٌ قحش كبير ، ولكن قسمها الغربي أي الشريط الساحلي لشرق البحر الأحمر ، من خليج لعقبة شمالاً حتى اليمن جنوباً ، كان خلال آلاف الأعوام مساراً مأهولاً حقق للسكان وهداً من أهم أسباب استقرارهم ، المسار الذي توطن في المخيال الإسلامي باسم "رحلة الشتاء والصيف" ومن هنا يمكننا فهم نقط الالتقاء الشهيرة ، مثل مكة ، باعتبارها بؤراً تلتقي فيها المسارات اللغوية والثقافية والاجتماعية ، فلقد توسّطت شمال وجنوب الجزيرة ، وامتصت تأثيرات شرق أفريقيا ، أما من الباحية الاجتماعية والنسابية ، فإن أساطير عديدة تجعل منها أيضاً بؤرة تلتقي

وتذوب فيها الأعراق، قصة إبراهيم، العرب العاربة، كما هو الأمر بالنسبة لقصة بلقيس، التي ينتسب إلى سليمان عبرها، على سبيل المثال. فالمخيل العربي الجاهلي جعل من هذه المنطقة بالذات جذراً لكل نَسَابَةٍ، من بلاد الرافدين إلى أثيوب.

وإذا كان التواصل بين جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها مثبتاً تاريخياً، فإن السؤال يتصل غالباً بالتواصل بين شمال وجنوب الجزيرة وبين شمال وشرق أفريقيا.. فالأول تجتمع فيه الشواهد اللغوية والتاريخية والاجتماعية، أما الثاني فقد كانت تتم إحالته حتى وقت قريب على التواصل الغوي وحده، دور كبير تركيز على التواصل التاريخي والاجتماعي.

لقد أورد الجغرافي القديم: ستيفانوس البيزنطي، نقلاً عن أورانيوس أن الأحباش من أصل عربي قدموا من اقليم يقع وراء سبأ وحضرموت. ولكن، حتى دون أن نذهب هذا المذهب، يمكننا اكتشاف دلالة هذا النص القديم في المقارنة بين "حبستي" الربائية (الهيروغليفية) وبين "حش" الحجازية، ومؤدى المعنى في المعجمين: جَمَعَ، وقد رأى غليسر منذ سنة 1895 أن هذه التسمية تطلق منذ القدم على مزارعي وجامعي اللبان، الذين "يجمعون" (يحبشون) من الأرض وشجرها.

وترى الدراسات الحديثة أن "قبائل الجزيرة العربية عبرت مضيق باب المسدب من اليمن إلى شرق أفريقيا وعبرت القارة على طول خطوط العرض حتى استقرت في بلاد اليوربا، غربي نيجيريا، وفي اسودان الغربي. وأوغلت جنوباً عن طريق بحر العرب والمحيط الهندي إلى زنجبار وشواطئ كينيا وتانجانيقا ومن هناك توغلت على خطوط العرض حتى عرفت جبال القمر وهضبة البحيرات"¹. ولهذا السبب نجد أن الكثير من المواطن طلت تحتفظ بأسمائها اليمامية القديمة، ومنها: سبأ، سَحرت، هَوَزن، سِراة، مَأرب² ولا سيبل إلى تأويل هذا التماثل إلا بترجيح الحراك الاجتماعي الثقافي بين الطرفين، وبالأخص بالاتجاه من الشرق إلى الغرب.

لقد أصبحت منطقة وادي النيل، بعد انحسار آخر عصر جليدي، أو ما يعرف بالخفاف

1-Seligman, C G, Races of Africa Oxford, 1957,87

2- Ullendorff,E, The Ethiopians, Oxford, 1961, 122.

العظيم، قبل 10.000 سنة، وقد كانت قبل ذلك مستنقعا، صالحة للتوطن والاستزراع، كما سبقتها جزيرة ما بين النهرين في ذلك، مما سمح باستقبال الراحلين من الغرب (الصحراء الليبية الآن) ومن الشرق (صحراء الجزيرة العربية الآن)، (المنطقتان اللتان شهدتا عصوراً مطيرة مصنفة ولها سجلاتها الجيولوجية والأركيولوجية، وانتشرت في ربوعها أنماط من العيش غلب عليها الصيد واللقط)، بالاستقرار في أطرافها، شمالاً وجنوباً.

بعد ذلك بستة آلاف سنة، أي في الألف الرابع قبل الميلاد، توحدت مملكتا الشمال والجنوب في مصر، وبرر إلى الوجود واحد من أعظم تراثات الإنسانية. ولكن الحديث عن نقل ثقافات مختلفة من الشرق والغرب إلى مصر هو حديث لا طائل منه، ما لم نتمكن من رصد سجلات هذه لثقافات المهاجرة. لقد كانت خارج الدوين، وهي لهذا السبب تفقد إلى اعتبار مصر بعد نشأة الهيروغليفية مركزاً لا يمكن إغفال أثره للحديث عن التحول الديموغرافي والسوسيولوجي للمنطقة.

إن مراحل تطور اللغة المصرية القديمة مفتاح رئيسي لفهم أحجية التساكن هذه، ولكنها تبدو بغية بعيدة المنال، لأننا لا نعثر منها إلا على ما هو ممدون في الهيروغليفية، وهي تفقد ضرورتها لأنها خارج إمكانية المقارنة بما رافقها من متغيرات. ولي رأي في هذا الشأن يقول أن نقوش ورسومات الكهوف في تدرارت أكاكوس، وما رانها، قد تُفصح عن أكثر مما هو معروف الآن عن نشأة "الكتابة" الهيروغليفية، وذلك بافتراض أشكال تصويرية أولية Proto-Pictorial تغيرت تدريجياً لتنتج أشكال الكتابة الأولية pictograms. إن الأمر نفسه إذا تم اعتماده مع الرواسم الفخارية الرافيدينية، التي أنتجت الدور شبه الكتابي Proto-literal في شمال شرق الجزيرة، فإنه سيلقي ضوءاً جديداً على هذه النشأة في شمال شرق أفريقيا. ومدّ البحث إلى هذا المدى في التاريخ، لا يكتمل إلا إذا اتصل بسومر، لغة وكتابة، وغط حياة، بشكل تتم فيه معالجة الوحدات البحثية المفردة، أو التماصيل المحلية، بتوافقاتها بين مكان وآخر، ومعالجة تحولات وتطورات هذه الوحدات بمنهجية تفرز المتصل من المنفصل، والشبيه من المختلف، والسابق من اللاحق في سلسلة التطور والتحول اللغوية الاجتماعية.

القبائل الليبية والعربية القديمة:

هل من صلة ؟

د. علي فهمي خشيم

مجمع اللغة العربية - طرابلس

نحتل مسألة (القبائل الليبية) القديمة حيزاً بالغ الأهمية في تدرّج الشمال الأفريقي أو ما نعرفه الآن باسم المغرب العربي الكبير (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا) تماماً مثلما هو الحال في شبه الجزيرة العربية، على غير واقع تاريخ بقية مناطق الوطن العربي وحضاراتها في بلاد الرافدين والشام وودي النيل. وربما كان السبب هو أن هذه المناطق الأخيرة كانت منذ البداية مناطق استقرار زراعي نظراً لوجود مصادر المياه المتمثلة في الأنهر الدائمة الجريان مما أدى إلى ضرب من التمازج والتداخل بين مكونات مجموعاتها فاختلفت صفة (القبيلية) عنها وجعلتها كتلة موحدة لا تستند إلى عصبية قلبية ذات طبيعة معينة في بيئة بذاتها.

بحاول هذا البحث أن ينظر في هوية هذه القبائل الليبية القديمة ويركز بصورة جلية محدّدة على صلتها الإثنية والثقافية بأرض المشرق، وهي التي انتشرت في أرض المغرب، كما يلفت النظر إلى تلك العلاقات الخفية، أو المخفية، بين كتلتنا الكبرى ووطننا الكبير في جناحيه العظيمين. وغني عن القول الإشارة إلى أن تاريخ الشمال الأفريقي العتيق استند في أغلبه إلى مصادر أجنبية، يونانية ولاينية، الأمر الذي انتهى به إلى أن يكس الأعيان قديماً وأن يدرسوه حديثاً، ونتيجة هذا الواقع سيطرة شبه كاملة من قبل الآخرين على تاريخنا ثم تفسير هذا التاريخ بحسب هواهم وغاياتهم وأهدافهم، والمؤسف أن المؤرخين العرب - في أغلبهم - اتبعوا هذا المنهج وحذوا حذو علماء الغرب في نظرتهم إلى هذا التاريخ وتفسيره وتحليله واستخلاص النتائج البالغة الخطورة والخطر.

إن عدد القبائل الليبية (والمقصود ما قبل محي العرب المسلمين) لا يكاد يقع تحت

الحصر، في مصادر النقوش الهيروغليفية المصرية ثم في الكتابات اليونانية ومن بعد في الكتابات اللاتينية / الرومانية¹. ولعل أول من عددها وذكرها في المؤلفات الحديثة (أوريك بيتس) في كتابه الشهير (الليبيون الشرقيون) الصادر سنة 1912 م. أما آخر من اهتم بها بشكل دقيق ومتابعة حريصة فهو المرحوم الأستاذ محمد مصطفى بازامة في مؤلفه (سكان ليبيا في التاريخ) الصادر سنة 1994 م. وبين هذين المؤرخين هناك أعمال أخرى كثيرة انشغفت بهذه المسألة بصورة أوبأخرى في ثنايا الدراسات المتعددة الأغراض والغايات من أهمها مؤلف الدكتور مصطفى عبد العليم (دراسات في تاريخ ليبيا القديم) الصادر سنة 1966 م أما الأستاذ الدكتور محمد الجراري فقد قدم لنا مصدراً رئيسياً بترجمته مؤلف كور ييوس (الحروب الليبية) مع مقدمات وشروح وإشارات مهمة

إننا نحصى في كتاب الأستاذ بازامة وحده مثلاً ما يقرب من مائة وخمسين قبيلة حاول تحديد مواقعها على مختلف العصور المتعاقبة استناداً إلى ما ذكره السابقون، كما حاول في الوقت نفسه تقديم تعريب (أو عروية) أسمائها وإن اعتمد منهج التخريج اللفظي وليس فهم معنى الاسم (أو ترجمته عند بعض المؤرخين والكتاب) وهونفس المنهج الذي اتبعه الأستاذ داود حلاق في كتابه (عمود السماء) مما اعتمد بهما عن التحليل الفيلولوجي الصحيح وجعل تخريجاتهما مجرد حدس وتخمين لا يقومان على أسس علمية قوية، كما أنهما حصر جهدهما في الحديث عن القبائل التي عرفت في القطر الليبي بدلالاته السياسية اليوم ولم يهتما كثيراً بالامتداد الطبيعي - تاريخاً وبيئة - لهذه القبائل في بقية أقطار الشمال الأفريقي.

هنا لا بد من بعض الملاحظات:

1 - تختلف مواطن هذه القبائل من مكان إلى آخر حسب العصر التاريخي، فما يعينه هذا المؤرخ، أو الجغرافي، أو الشاعر، نجده ترحل عن داك شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً.

2 ثمة تحويرات وتغييرات في كتابة أسماء القبائل نتيجة العجمة في السانين اليوناني

1 - أولهم هيرودوت ثم: سكيلاكس، استرابون، ديو دورس الصقلي، بيسي، وإيتالكوس، وبطليموس، وكوريئوس، وغيرهم.

واللاتيني وحتى في النقوش الهيروغليفية المصرية ، يذرد اسم ما أحياناً بصورة قد تبعده عن الأصل وتجعله مستعلقاً حتى ليصعب فهمه والمقصود به وحدث الشيء نفسه في المصادر العربية بعد ذلك.

3- هناك قبائل مهمة كان لها دورها على مدى القرون يتردد ذكرها عند الكتاب المتوالين ، كما أن هناك البعض مما يرد ذكره مرة واحدة في عصر ما ثم يتلاشى ولا يعود له ذكر.

4- من الملاحظ أن أسماء بعض القبائل استمرت منذ عهود سحيقة ولا تزال حتى يومنا هذا وإن البست التسمية لباس الأسطورة أولباس السب المفتعل.

5- يتضح عند الكتاب العرب (ابن خلدون خاصة) الرغبة الملحة في إرجاع اسم القبيلة إلى جد أعلى تنتسب إليه - مثلما هي العادة عند النساين العرب. وهذا ليس ضرورياً ؛ إذ لعل للاسم أصلاً بيئياً أو نوعياً لسبب من الأسباب.

نبدأ - في ما يلي - بالنظر بإيجاز في أمر بعض القبائل الواردة في الآثار الهيروغليفية المصرية باعتبار نقوشها الأقدم تاريخياً ونخص بالظر أشهرها وأعرفها في التاريخ القديم ونشير إلى أنه سبق للكاتب التعرض بالتفصيل لهذه القبائل في مؤلفه (الـه مصر العربية) نأمل أن يرجع إليه من رام التوسع في الموضوع.

- ربو: نقلت إلى اليونانية (ليو) أو (لويو) Lybu (حرف y يمثل صوت الواو أصلاً في اليونانية. ثم صار يمثل صوت الياء. قارن (Syria) يطق في الإنكليزية "سيريا" وفي العربية "سوريا"). وكثيراً ما يقلب الراء عند النقل إلى اليونانية لأمأ. نقلها لعرايون في (توراههم) عن اليونان "لوييم" بميم الجمع ، ثم زادوا عليها هاء فصارت "لهوييم". العربية "لوبيون" و"لييون" أما مكتشف سر قراءة الرموز الهيروغليفية (شامبليون) فقد ترجم "ربو" المصرية إلى: بدو (bedouins) وليس (لييين) وهذه هي لترجمة الصحيحة الصائبة.

نلاحظ أن الواو في (ربو) للجمع في اللغة المصرية القديمة والجذر هو "رب" وما دام المقصود هو أهل البداوة في مقابل أهل الأمصار (المصريين) فإن المرجح أن حرف العين سقط

من الجذر الثلاثي (عرب) الذي يعني أساساً الظهور والبداءة تماماً كما نعبه كلمة (أعراب) وحذرهما (عرب). ونلاحظ أيضاً أن (الربو) لم يكونوا قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل متحالفة في ما عرف بالعزوالليبي العظيم لوادي النيل أيام لفرعون مرتتاح ثم رمسيس الثالث وأواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

- محو: مجموعة ليبية كانت تسكن شمال مصر (الدلتا) في العصور الفرعونية الأولى ثم انحدرت إلى الجنوب حيث احتلّطت بسكان النوبة وشمال السودان الحالي¹ والاسم مكون من مقطعين هيروغليفيين. "ت" (أرض) + "محو" (الشمال) والمعنى: أرض الشمال.

في العربية مادة (محو) وجاء فيها: من أسماء الشمال: مخوة، غير مصروفة - وقيل: هي الجنوب. ومخوة: اسم موضع بغير ألف ولام، المحو: اسم بلد.

- تحو: من أول ما ذكر من القبائل الليبية في النقوش المصرية الواو يلجمع والجذر هو (تحن) وقد ترجم إلى: لامع، مشع، برّاق، لون ما بين الأحمر والأسمر ساطع. وفي التصاور المصرية محد (التحنو) يصوّرون بلون ما بين الأحمر والبني - بينما من المعروف في النصوص اليونانية أن (لتمحو) كانوا بيض البشرة، بل شقرها (كما في أاسيد "ندار" وكتابات ديودوروس الصقلي). فهم في هذه الحال يشبهون أهل فزان اليوم في لون بشرتهم.

إن أقرب جذر عربي هنا هو (طحل) بتعاقب التاء والطاء، وهما من مخرج صوت واحد، واللون بدل من اللام، إذ ليس في الرموز الهيروغليزية رمز للام، في العربية (طحل). ونقرأ: الطحلة: لون بين الغرة واليباض بسواد قليل، الفرس الأخضر الأطحل: الذي تعلو خصرته قلل صفرة. وفي مادة (طحلب) - وهي رباعي (طحل): خضرة تعلو الماء المزم. ومن ذلك. الطحال = مجتمع الدم في الحسد ولونه لامع ما بين السواد والخضرة

1 - لعل هذا هو اسر في ما يقرره محمد متولى بدر في مؤلفه (اللغة النوبية) من أن تلك اللغة مكونة في أساسها من عناصر مصرية وليبية قديمة، ثم تعرّب قسم منها بعد اعتناق أهلها الاسلام.

والكدرة والصمرة وفي الدارجة: اللون الطحني، يفيد السمرة، وهو مقلوب (حنطي) نسبة إلى الحطة وهي الثُّرُّ ذوالقشرة السمراء اللامعة.

نضيف أن الدارحة الليبية تسمى الطحال (طبحان) بإبدال اللام نوناً - كما في المصرية - وأن في الدارجة الأردنية والعراقية: طحيني = أسمر، وكذلك - حنطي وحنطاوي، وأغلب ما ترد وصفاً لشرة الإنسان.

- مشوش: وتأتي في بعض النقوش الهيروغليفية (مشش) ولعلها هي ذاتها (مزغ) بثبت الميم وإبدال الزاي والغين شينين متوالين. وليس هذا مستغرباً إذ تعرّض اسم هذه المجموعة القبلية إلى جملة من أنواع انطق والكتابة، وورد على مر العصور بمثل هذه الصور:

مازيكس، ماكسبس، ماسوكي، ماسوشي، ماساخيئاي، ما زيس، مازاسيلا (في المصادر اليونانية / اللاتينية). وفي مواطن أخرى: مزاريك، ما زاكس. وكلمة "إمازيغن" (جمع "أمازيغ") نجدّها: إما شيفر، إما هيكن - إيموهاك، إما جيفن، إما شيكن.. إلى آخر الصيغ والصور.¹

وقد اقترح أوريك بتس، على حذر، أن يكون الجذر (مزغ) مساوياً للجذر (مصر) بتعاقب الزاي والصاد والراء والغين، وهي أصوات كثيرة التعاقب.

والمهم هنا الإشارة إلى شيوع تعبير (الأمازيغ) بدلاً من (البربر) في العقدين الماضيين باعتباره جمعاً والمفرد نسبة إليه (أمازيغي). وهذا خطأ بيّن، لأن الألف المهموزة (أ) في أول الكلمة هي أداة التعريف والأصل (ماريغ) كما أوردها ابن خلدون، وهو مصيب، باعتبارها مفرداً سم جد قبيل من البربر والمفروض أن يقال (المازيفيون) والمفرد (مازيغي).

وقد ظلت هذه التسمية سارية في اسم قبيله من قبائل ترهونة الليبية في عصرنا هي قبيلة

1 - لمزيد من التفصيل نظر للكاتب: سفر العرب الأمازيغ - المجلد الأول، مصراته 1424.

(المزاوغة) والنسبة إليها (مزوغي) كما ظلت في أسماء أسر ليلية: مازق والمارق، والقاف التي تنطق معقودة بدل من الغين.

وقد سنى لي تحليل الاسم بصورة مسهبة في موطن آخر (سفر العرب الأمازيغ) متبعاً تفسيراته المختلفة ومعانيه المتداولة التي تفيد دلالة القوة، وخلصت إلى أن المكافئ العربي للجذر (مزغ) هو الجذر (مسك) الذي نجده في أسماء زعماء لبيين من العصور القديمة إما في صورة (مسكن) و(مسكان) بزيادة النون كما تزداد في العربية*، أو بإبدال السين المهملة شيئاً معجمة (مشكن) و(مشكن)*. وفي هذا الجذر العربي (مسك) دلالة القوة والشدة:

المسك: الجلد، ومن مادة "جلد": الجلال، السجل، الجلود، الجليد.. إلخ / أمسك: قبض، حبس. المسكة: القوة ورجل دومةسكة ومسك: دوقوة. استمسك: اعتصم. تماسك: ثبت.. إلخ (مادة مسك) الأولى إذن أن يبدل لقب (الأمازيغ) بلقب (الأماسيك)، فذاك أقرب إلى الصواب لغة ودلالة وتاريخاً.

إلى جانب ما مضى تذكر النقوش لمصرية أسماء قبائل عديدة كما سبق القول تنصوي تحت (الريو = العربي) من أهمها: الترشا (وتأني: الدرشا) والشكلش والشرذن. وقد ربط الباحثون الغربيون بين هذه القبائل الثلاث وبين من أسموهم (أقوام البحر) ورعموا لها أصولاً بعيدة، يودية في الغالب، وادّعوا أنها جاءت "لمساعدة" الليبيين في غزواتهم الثانية لمصر أيام رمسيس الثالث (حوالي 1180 ق.م) وليس من المفهوم ولا المرر أن تعبر هذه الأقوام البحر الأبيض المتوسط لمجرد "مساعدة" الليبيين، كما أنه ليس ثمة من دليل تاريخي

* تقوم النون في آخر الكلمة في السئية (البية القديمة) مقام أداة العريف (ال) في العربية العددية: عربن = العرب (الأعراب)، ركن = لراكب (العارض)، صمن = الصم. وبذا تكون "مسكن" = المسك (القوي)

** في العروبية الأكادية - "مشكانو" = القوي، الجلد وفي النقوش اللوية يتردد اسم "مشكن" و"مسكن" باعتباره اسم علم وصفة رتبة عسكرية (كما في نقش "مسنن" المزدوح اللغة الذي اكتشف في مدينة دقة الأثرية في تونس).

1- لمزيد من التفصيل انظر للكاتب: (سفر العرب الأمازيغ)، المجلد الأول، المقدمة.

واحد يؤيد أنها جاءت من خارج ليبيا. وهذا ما رآه الباحث الشهر (فلنדרز بينري) وذكر بكل وضوح أن هذه القبائل الليبية عادت من عزوتها المخففة بعد أن صدّها رمسس لثالث وهي التي عبرت البحر إلى أوروبا وسكنت قبيلة (الشردن) في جزيرة (سردينيا)*، وعمرتها، أما (الشكلش) فهم الذين استعمروا ما يعرف اليوم باسم (صقلية) وحطت قبيلة (الترشا) رحالها في جنوب غرب شبه الجزيرة الإيطالية وهي التي عرفت باسم (التورين) أو (الانروسكيين) الذين أسسوا حضارة عظيمة عرفت باسمهم كما أسسوا عاصمتهم (روما)¹

إلى أن جاءت القبيلة الآرية (اللاتين) ونزلت بالقرب من العاصمة روما ثم غمت قوتها شيئاً فشيئاً حتى ورثت الحضارة الإيتروسكية (الترشية) وعرف أهلها باسم الرومان نسبة إلى روما العاصمة القديمة. وهناك أدلة كثيرة على هذا القول من أهمها أن تسمية (روما) ليست لاتينية ولا آرية وإنما هي إيتروسكية خالصة وعند تحليل معناها نجد أنها عروبية عربية، ثم ظهور الدليل الساطع المتمثل في التسليم بأن لغة الإيتروسكيين (الترشيين) لا تنتمي بأية صورة من الصور إلى مجموعة اللغات الآرية، وعند تحليلها فيلولوجياً وإيتومولوجياً يتضح عند البعض (ما يكل غرانت مثلاً) أنها أقرب إلى الكنعانية وعند البعض الآخر (برتون مثلاً) هي ذات صلة بالليبية القديمة وابتنتها البربرية. ينسى هؤلاء الباحثون أن ثمة القاسم المشترك بين

* يؤيد هذا ما يسجله (باوسانياس) في كتبه (وصف بلاد الإغريق) أن الليبي "ساردوس"، وقيته طعاً، هو أول من عمر جزيرة سردينيا وسميت باسمه. ومن الواضح أن (باوسانياس) خلط ما بين قبيلة (شردن) واسم (ساردوس) إذ لم يكن على علم بانتقال هذه القبيلة إلى تلك الجزيرة في تلك العصور السحيقة، ولكن صدى اسمها ظل في اسم الرجل الذي ذكره.

1 - من الثابت تاريخياً أن روما لم يشنها اللاتين الذي ورثوها عن الترشا / الدرشا / الانروسكيين، وأن اسمها لا يوجد له جذر في اللغات الآرية / الهندأوروبية، بينما نجد الجذر الشائي (رم) في اللغات العروبية كلها يعني الارتفاع (ارتفاع مباني المدينة أو لأنها بنيت على تل من التلال السعة المعروفة في موقعها) وفي العربية. رامة ورومة ورامان (مشاة) أسماء مواقع ولدينا في فلسطين "رام الله" أي: مدينة الله. أما حكاية الأخوين (روموس ورومولوس) بأسطورة خيالية كما يقول معجم أكسفورد للكلاسيكيت. أنظر للكاتب: هؤلاء الأباطرة وألقابهم العربية.

هاتين اللغتين وهي العروبية المتمثلة في أقدم لغة وأحدثها: العربية. في تصوري أن اسم قسلة
الترشا (الدرشا) لا يزال باقياً حتى يومنا هذا في اسم قبيلة (الدّرسة) كما تنطق في برقة =
الدّرسة. أما نسبتها إلى إدريس (كائناً من كان هذا الإدريس) فلا دليل له ولا برهان عليه.*

نفس الشيء حدث في اسم قبيلة أخرى تورد المصادر المصرية القديمة: "الهاسا"
أو "الحاسا": ولا تزال قبيلة "الحاسة" في برقة وينسب إليها: الحاسي. وليس من المستبعد أن
يكون اسم هذه القبيلة حياً أيضاً في اسم قائل "الهاوسا" جنوب الصحراء وفي أنحاء النيجر
ونيجيريا وغرب أفريقيا وهي إحدى المجموعات لبشرية الكبرى الآن في تلك الأقطار، ومن
الثابت أن نبتها ذات صلة وثيقة بالليبية القديمة وابنتها البربرية وهي ذات الصلة التي تربطها
بالعربية.

من الممكن النظر في عروبة أسماء القائل الليبية إذا عرف معناها، ولنظر على سبيل
المثال في القائمة التالية:

1- أدرماخيداي، في اللسان اليوناني، ومعناها: أهل الجبل أو الجبليون. مكونة من
ثلاثة مقاطع:

أ- أدر "جسل": يقابل م في البربرية (أدرار = جبل). اجنر هو "در" يكافئ الجذر
العربي "طر" بتعاقب الدال والطاء، ومنه: طور = جبل.

ب- ماخي = ماكي (أبناء، أولاد = أهل). في الكنعانية "مك" وفي المصرية القديمة
"مس" وفي العبرية "مخ" = شبه، صورة، ابن. العربية "مشا"، أمشي = ولد. وكذلك "مسا".

ج- داي: زائدة يونانية مضافة في مثل "مرمداي"، أنظرها في ما يلي.

2- مرمداي، أهل البحر، أو السواحية. مكونة من مقطعين:

أ- مرم: مضاعف "مر" وهو الجذر الأصلي، ويفيد: البحر. في المصرية القديمة (مر =

❖ من المرجح أن نفس الاسم عرفه العرب في صورة (حريسة) وهي إحدى قائل البربر البئر إلى جانب:
أداسة وفوسة ولوثة، عند السابا العرب

بحر) وفي العربية : مور- المور: الموج. مار الماء: سال.

ب- داي: إضافة لنسبة الجماعة في اليونانية.

3- بقن (في النقوش المصرية) والبكاليس (بسين الجمع) في اليونانية، بتعاقب النون واللام، ونرجح أن النون مبدلة من الراء في المصرية والكاف في اليونانية مبدلة من القاف كما في المصرية. في العربية (بقر) أي رعاة البقر (لبقارة) وهي إحدى قبائل السودان الآن.

إذا كان قدماء المصريين عرفوا المجموعات البشرية غربي وادي النيل بأسماء مختلفة سجلوها فإنهم لم يسموا بلادهم "ليبيا" لأن هذه التسمية جاءت عن طريق اليونان نسبة إلى المجموعة الكبيرة التي دعوها (ليو) أو (لويو) تحريفاً لمصرية (ريو- عرب) كما سبق البيان. أما المصريون فقد دعوا هذه البلاد (وبالمناسبة هم لم يعرفوا بقية أقطار الشمال الأفريقي في العصور الفرعونية) دعوها باسمين :

1- دشرت*. وتعني حرفياً: الحمراء.

وفي بعض النصوص (تادشرت) = الأرض الحمراء، أي الصحراء، في مقابل (كمت) أو (كميت) = السمراء، أرض الدلتا*. ذلك لخمرة تراب الصحراء ولسمرة أرض الدلتا التاء في (دشرت) للتأنيث والحذر هو (دشر) = أحمر. من الواضح أن الدال هنا مبدلة من

♦ دخلت اللاتينية في صورة desertum منها الإنكليزية Desert.... (صحراء).

♦♦ ترجمت المصرية (كمت) و(كميت) في عدد من الكتابات الأجنبية إلى: سوداء وهذا غير دقيق، والصواب أنها تعني السمرة وليس السواد الخالص، والأدق أنها تعيد السمرة المعترة. من هنا جاءت اليونانية (خيميا) التي عُرِّيت (كيمياء) إذ لال اليونان أخذوا هذا العلم عن عرب مصر أو لأن الكيمياء قديماً كانت مرتبطة بالسحر ومعالجاته العاصضة ذات الصلة بالليل والظلمة، وقد فرق العرب بين (الكيمياء) باعتبارها علم خواص المواد وتركيباتها و(السيمياء) أي علم البحث في تحويل المواد الخسيسة كالرصاص والفصدير مثلاً إلى ذهب. أما (كمت) و(كميت) المصرية فالمكاي العربية لهما نغده في مادة (كمت). وفيها جاء: الكميت للخمر والخيل والإبل ما خالط لونه الحمرة والسواد. والكمته: لون بين السواد والخمرة وهو ما مدعوه في لغتنا المعاصرة: اللون الثني - نسبة إلى الثني = القهوة.

القاف - التي تنطق معقودة في العربية (قشر) وهي مادة نفيد الحمرة، الأقرش = الأحمر.

2- أما الاسم الثاني فهو "أمنت" (= يمنت)، وهو جاء من مصدرين، الأول اعتقاد المصريين القدماء أن أرواح الموتى بعد مغادرة الأجساد تنتقل غرباً حيث تغرب (تأمن) الشمس وحيث الهدوء (الأمان) الشامل. والثاني لأن المصري كان عندما يريد تسمية الجهات الأربع يتجه نحو مصدر النيل (الجنوب، الذي يسميه "رسو") وخلفه الشمال (الذي يدعوه "تمحو") وعن يساره الشرق (الذي هو "إأبت") ويعاكسه الغرب (وهولديه "يمنت"، أي اليمن، أو اليمنة، الجهة اليمنى) عمماً كما أسعى اعربي، الذي يتجه نحو مشرق الشمس في تحديد الجهات الأربع، ما كان جنوباً: "يمنت" وهو اسم بلاد اليمن في النفوش القديمة السبئية (لغة اليمن القديمة التي عرفت عند عرب الشمال باسم: الحميرية). وهذا يعني أن اسم بلاد اليمن (يمنت، كما كانت تدعى في النفوش السبئية) هو ذاته اسم ليبيا اليوم.

أقل هذا نصاً من آخر صفحتين من كتاب محمد بازامة "ثم إن التسميات التي حملتها الأقوام والقبائل في عهود اليونان والرومان قد تكون غير لسة، فجرسها وتراكبها تحمل في طياتها ظلالاً يونانية / لاتينية¹.

إلا أن هذا لا يعني أن من سمي بها كان غير ليبي أو أنه ليبي هجين، وإنما يعني فقط أن مصادرنا فيها جميعها إما يونانية وإما رومانية. وهي تسميات أطلقت عليهم من الحكام والجغرافيين غير الليبيين وغير الكنعانيين، وبالتالي فإنها إما أن يكون اعترافاً بالتحريف حين النقل والتطويع إلى لغاتهم وإما أن تكون غير أسمائهم التي حملوها وعرفوا بها أنفسهم، وكلا الأمرين جائز وفي لتاريخ أمثلة عليه؛ فالفيقي لم يعرف نفسه أبداً إلا كنعانياً².

1 - سكان ليبيا في التاريخ، عصور ما قبل التاريخ؛ وملاحظة الأستاذ بارامه صحيحة في جرد، منها، إد يذكر من القبائل ما تسميته يورانية في الحقيقة من مثل - لوتوماجي (أكلة اللوتس) احتيواجي (أكلة الأسماك). تروغلوديتاي (سكان الكهوف). هسبيرتاي (العربون، سكان الغرب). إثيوباي (سمر الوحوش من أثر الشمس) أنرشس / ألتنس (الأطلسيون، سكان جبال الأطلس). إيجيائي: مكوبة من مقطعين يونانيين eg (عنز) + pani نسبة إلى المعود (بان) pan عند اليونان وهو على صورة ماعز

❖ كلمة "فيقي" / فيقيون "معرية عن ايونانية (فوينكس) والسين في آخرها مريدة للعلمية، واليونانية

والعربي لم يسم قومه أبداً بالسرازين* ، وساكن برقة لم يتسبب هو ولا بلده إلى قورينة ،
ومثل هذا كثير على مستوى الجماعة والفرد

وأيّاً كانت التسميات التي عرفناهم بها في التاريخ فإن ما لاشك فيه ولا جدال أنهم
الليبيون وسكان ليبيا آنذاك وفي التاريخ ، فالأسماء قد تتغير ولكن الأصول تبقى هي ذات
الأصول. إن التحو والتحوو والليبو والمشوش هم ذاتهم الأدرماخيدة والجليقامة واللوتوفاجة
والسامونة* ومن إليهم ، وإنما عرفناهم نحن بهذه التسميات مرة وبذلك أخرى وحسب.

من هنا فإن من أسماهم ابن عبد الحكيم بلوانة وزناتة ومغيلة وهوارة ونفوسة هم ذات
الأفوام سماهم بما عرفوا به من تسميات في عصره ، كما قد تكون في ذاتها معربة منه وهي
أقدم عهداً أوحى كنعانية الأصل حفظت شعبياً ولم يذكرها كتاب اليونان والرومان .

وإذا كان هذا الحكم ينطبق على عدد كبير من أسماء تلك القبائل فإن عدداً آخر منها
ظل سارياً حتى العصور الإسلامية ، بل وفي أيامنا هذه ، وطبعي أن يناله التحريف بصورة ما
ولكن التعرف عليه ليس بالأمر العسير. ولنضرب أمثلة لذلك :

4 ٤ 1 لي وكذلك جيتولي ، (ذكرهم استرابون) لعلمهم من عرفوا في المصادر العربية
في صورة (جديلة) و(جدالة) وهم أيضاً (الجيطايون) ، وينسب إليهم بالمفرد : الجيطالي.

2- الختانيون Khetani (ذكرهم بطليموس). هل هم باقون في قبيلة (الختنة) وينسب

داتها مقولة عن (بو كح - بنو كنعان) وتعرفت كما يلي : بنو كح ← بنو كن (بسطوط العين) ←
بوك (بسطوط النون) وأندلت الباء الموحدة (ب) إلى باء ثلاثية () 15 ، ثم قلت إلى فاء (هوك
← فوك) وليس صحيحاً ما يتردد في تفسير الأسطوري للكلمة من أنها تعني الحلة إذ لا تحيل في
ساحل الشام ، أو الصيغ الأحمر ، إذ أن هذا وهم وتخريج ملفق.

* سرازين ، سراسين مقولة عن سراكين 'saracen' إذ يطق حرف (c) سيناً وكافاً ، والأصل العربي
(شرقيين) واللمى مسلمو المشرق أو الشرق ، في مقابل (المور ، الموريين) والمقصود مسلمو المغرب أو
العرب في الكتابات اللاتينية

* هكدا عرب الأسناد برامة ما كان في الكتابات اليونانية - أدورم خيداي ، الجلفندي ، اللوتوفاجي ،
السامونيس.

إليها: الختني والختيتوني ؟

- 3- الماخروي، الماخرواي (بليسي وبطليموس). قارن. مغراوة، والسبة: مغراوي.¹
- 4- ماخيلوي (هيرودوت). وقد تكون اللام مدلة من وراء في (ماخروي) السابقة. ولكن قارن: مغيلة، وينسب إليها: مغيلي.
- 5- ماسّالة (بليني) المسيليون Masseli (إيتالكوس)، المسيلي (بليني). لعل لهم صلة باسم "مسلاته" في الإقليم الغربي من ليبيا المعاصرة
- 6- يذكر هيرودوت قبيلة الـ(زاوك) Zauecs، ومن المرجح جداً أن هذا الاسم ظل حتى أيام هذه في قبيلة / منطقة (رواغة) غربي مدينة صرارة.
- 7- لواتة: وهي من كبريات القبائل الليبية التي لم يرد ذكرها إلا في العصر الروماني في صورة (ليفثاي) وتحسب عند النسابة العرب من جملة البربر البترهي ضريسة وأداسة ونفوسة، كما عند ابن عبد الحكم.

وقد انتبه (رود) Rodd في كتابه (الملثمون). peoples of the veil إلى الصلة بين (لواتة) و(الليبو) ورأى أن تسلسل تحريف الاسم القديم جرى عند الرومان كما يلي:
Lebu ← Lebetae أو Lebutae (والمقطع..dae = tae.. في اليونانية، علامة الجمع) وأبدلت الباء بصوت (V) لقرب مخرج الصوت فكانت (ليفثاي) Levetae²، وأبدل

-
- 1 - في أثناء تحليله لأسماء بعض المواقع البربرية بقارن اوريث بيتس (الليبيون اشرفيون، ص 79) بين اسم / Mgrn والبربرية "أمغاري" بمعنى الكبير، القديم، الشيخ، العظيم، الرئيس، ويستنتج أن معنى الاسم "مغرواي" (= محرداي / مغراوة) يعني: القبيلة الكبيرة، العظيمة. نرى أن "أمغار" البربرية (جنزها "مغر") تكافئ العربية: موقر، بتعاقب الفاف والغين (كما في لهجة عرب السودان المعاصرين)، ومن هنا جاء اسم الملك "يوغرته" (يوغرطة) وهو فعل تحول إلى اسم (قارن: يزيد، يعرب - مثلاً) العربية: يوقر، أي: الموقر، المحترم، العظيم، الرئيس. إلخ.
 - 2- تحول هذا الاسم عند كوريبوس في ملحمة (الحرب الليبية) إلى "الأسكواس" illasquas تارة وإلى لانكواتان Languntans تارة أخرى. فتأمل مدى هذا التحريف.

الصوت إلى واو في العربية فكانت (لواتة).

ضمن القبائل الكثيرة التي يذكرها كوريئوس هناك قبيلة (نفور Naffur (ويبدو واضحاً أنها التي ينسب إليها : نفري. ويذكر ابن منظور في مادة (نفر) أن بني نفر. بطن من العرب.

كما يذكر قبيلة (إفرا) Ifra أو (أفرا) Afra ويعلق الدكتور محمد الجراري بأنها قبيلة غير معروفة، ونرى أنها هي ذاتها قبيلة (أفر) Afer التي كانت تقطن جنوب قرطاجنة، وتجمع في اللاتينية على (أفري) Afri، والأرجح أنها أصل تسمية "أفريقيا" Africa فالقطع - في تلك اللغة بفيد النسبة في حالة التأنيث هنا لا ننسى ما في العربية (مادة : أفر) : الأفرّة ، الجماعة ذات الحلبة والاختلاط ، وأفار : اسم. ومن قبائل اليمن القديمة : أفار (= عفار) وهي التي انتقلت إلى أفريقيا (حبيوتي = جبرت) وكونت ما يعرف باسم قبائل : عمار (أفار) وعيسى.

ويشير كوريئوس كذلك إلى قبيلة ليبية يدعوها (فريكسيس) Frexes ويذهب د الجراري إلى أنها قد تكون هي ذاتها (الفراشيش) أو (البراشيش).

وعند ابن الحكم، وغيره من النسابة العرب، يأتي اسم قبيلة (رنانة) التي يرى أنها من قوم جالوت (يعني الكنعانيين) وينسب إليها : زناتي. يزال في ليبيا المعاصرة قبيلة الزنتان. ونشير هنا إلى ما ورد في (الإكليل) للهمذاني من أن (زنت) إحدى كبريات القبائل اليمنية القديمة.

يتردد في المؤلفات العربية اسم قبيلة (أورية) باعتبارها إحدى بطون البرانس أحد أصلي البربر، وقد ذكرها بطليموس في صورة (أوروي) Auropaei كما في صورة (إربداي). ومن الواضح أن الصورة الثانية مزيدة المقطع -dae نسبة إلى الجماعة، والأصل هو الذي عُرِبَ (أورية) في ما يبدو.

ألا نلاحظ هنا صلة وثيقة بين هذه التسمية وما جاء في النقوش المصرية (ريو) التي أعدها إلى (عربو = عرب) أبدلت العين ألعاً مهمورة لدى اليونان والرومان إذ لا وجود للعين

في حلوقهم ولا في كتابتهم ، ثم نقلها النسابون العرب المسلمون (أوربة)؟

قد يقول قائل إن هذا مجرد قرينة لا ترفي إلى مستوى الدليل. فما القول في ما يورده "أوريك بيتس" إنه يقول ما نصه : وهو يتحدث عن قبيلة (المرميداي) التي تلي قبيلة (الأدرما حيداي) الماخمة لحدود مصر الحالية "لعل المرميداي المتأخرين تضمنوا بعض البدو الساميين من شبه جزيرة سيناء أو شبه جزيرة العرب. وعلى كل حال فإن (أغرويناس) يذكر اسماً تاريخياً هو (مرمرس) بن (أرابس).²

وهو يكرر الشيء نفسه في صفحة 257 باعتبار التقليد المتبع عند الليبيين القدماء في نسبة كل قبيلة إلى جد أعلى انحدرت منه³ (وهو نفس التقليد عند عرب الجزيرة). وقد نقل هذا الانتساب عن "غر ويتاس" كما سبق ذكره. وأيضاً عن "Eustathius... يوستاثيوس"⁴

ليس هذا فحسب بل إن اسم (عربي) أو (العربي)⁵ موجود في اسم (أرايون) - في اللسان اللاتيني ، وهو آخر أمير من سلالة الملك الشهير (مسسن). وهنا لا بد من شيء من التحليل :

في مقالة لطيفة للأستاذ "ج. كامبس"⁶ يتحدث فيها عن آخر أمير من سلالة الملك "مسسن" كان يحق له حكم نوميديا (الجزائر الآن). ورغم الضرب الذي يحيط بسيرة حياة

1- لم أعثر في ما بين يدي من مراجع على ترجمة لهذا الكاتب ولا أدري إن كان يونانياً أم رومانياً ولم يورد بيتس اسم مرجعه كماً كما لم يذكر معنى المصدر المختصر F H G ولعله اسم مجلة أو دوريه كنت تصدر في أيامه .

2- الليبون الشرقيون ، 54 ، حاشية 2.

3- من ذلك أن الساموبين ينتسبون إلى جددهم (سامون) الذي هو من نسل (قرامس) حد القرمنتين . ولا تزال آثار عاصمتهم (قرما) Garama في الجماهيرية الليبية حتى اليوم ، وتنطق (جرمة) .

4- محاضرات في إلبادة هو ميروس ، في ليبزغ ، ألمانيا سنة 1825 م .

5- يكثر استعمال اسم (العربي) و (عربي) و (العرباوي) بين أهل الشمال الأفريقي وخاصة بين من يدعون السرير و الأمازيغيين . في ليبيا ونونس والجزائر والمغرب وهذه طائفة تستحق النظر

6- الموسوعة البربرية ، ص 831.

هذا الأمير فإن المستخلص من المصادر اللاتينية القليلة التي كتبت عنه يفيد أنه كان ابناً للأمير "مسنس الثاني" معاصر "يوب الأول" (ملك موريتانيا) الذي مات سنة 46 ق.م. وأنه اشترك في أشكال الصراع على السلطة بين حكام المنطقة. وبين القادة الرومان كذلك، ولعله توفي سنة 40 أو 41 ق.م. قال الأستاذ "كامبس": وإذا كنا لا نعرف تاريخ وفاته بالتحديد ولا مجرى حياته العاصمة فإننا نجد فيه مطهراً من شخصية متأحجة من جيلة شخصية "يوغرطة" أو "مسنس الأكبر". وقل. ورغم أنه من الأرجح أن يكون حمل اسم أبيه "مسنس الثاني" فإن الكتاب اللاتين لم يشيروا إليه إلا باسم "أريون" Arabion دي الصيغة "السامية"¹. ثم أضاف آخر المقالة محلاً الاسم / اللقب قائلاً إن هذا الاسم / اللقب (أريون) يبدو من الواضح أنه ذو أصل بونيقي (أي كعاني / شمال أفريقي أو مغربي)، ولد تعرف على الجذر "رب" الذي يفيد في الفيقية (يعني الكعانية) كما يفيد في العبرية معنى: رئيس، عظيم. وفي الآرامية "راب" تعادل "حاكم" أو رئيس طائفة من طوائف المهن (رئيس سخرة، رئيس مجمين، مثلاً)

(ملاحظة مهمة: لم يشير الأستاذ "كامبس" مطلقاً إلى العربية "رب" وهي تعطي هذه المعاني كلها وتزيد عليها. هل من تعلق ١٩). لكن هذا التحليل يتجاهل الألف المهموزة في اسم (أريون).

فما العمل؟ قال الأستاذ "كامبس" وهو يوجه بحثه وجهة أخرى ما نصه: "وبالمثل فإنه يوجد في العبرية الجذر (عرب) وهو ما قارب بجلاء اسم (أريون). وفي دلالة هذا الجذر (العبري) معنى "الشعب الخليط" وهي تسمية تُطلق بصيغة خاصة على بدو الصحراء وعلى العرب منذ "عيسو"، الذين أخذوا أسهم من هذا الجذر"².

هكذا، لم يجد الأستاذ "كامبس" لتبرير وجود البصرة في أول اسم (أريون) إلا أنها

١- من ذلك أن النسامونيين ينسبون إلى جدهم (سامون) الذي هو من نسل (فراماس) جد القرمطين،

ولا تزال آثار عاصمتهم (قرما) Garama في الجماهيرية الليبية حتى اليوم، وتنطق (جرمة).

٢- الموسوعة البربرية، 834

مبدلةً من العين في العبرية "عرب" التي تعني الشعب (الخليط) وسُمِّي بها العرب (!). وإذا كانت الإساءة إلى كل شيء عربي أويتمى إلى العرب تتكرر بشكل فاضح في هذه (الموسوعة البربرية) فإن من العيب، بل من العار على هؤلاء "العلماء الباحثين" أن يحرفوا الحق هذا التحريف الفاضح وأن يتجنّوا على الحفيمة هذا التحنّي المريع. وليس ما يفعلونه عن جهل، بل هو القصد والتعمد وسبق الإصرار وهو ما يرتدي لباس العلم وثوب المعرفة انزائفة أو المزيفة، والمزيفة فعلاً.

ولن ناقش الأستاذ في أصل تسمية (العرب) التي وردت أول ما وردت في النصوص الأكادية في القرن التاسع قبل الميلاد، بمعنى أهل البداوة وليس في العبرية التي هي لهجة متأخرة من الكنعانية؛ فالعبرانيون لم يكن لهم قطّ لسانٌ خاصٌ بهم، إذ تكلموا المصرية يوم كنوا في وادي النيل، وتكلموا البابلية عند سيهم (وكتب "عزرا" جزءاً من تاريخهم المزيف المُسمّى (التوراة) بالبابلية، كما كتب دانيال). ثم تكلموا الآرامية التي عمت بعد ذلك والمسيح نفسه كان يتكلم الآرامية وليس العربية، كما تؤكد الأناجيل. فالأستاذ "كامس" يعرف هذا كله ويعرف أن من جميع التفسيرات التي تحلل أصل تسمية (العرب) لم تكن "الشعب الخليط" من بينها. الشعب الخليط فعلاً هم من عرفوا باسم (العبرانيين) أو (اليهود).. وليس سواهم وهذه قضية تحتاج إلى تفصيل طويل ليس هنا موطنه على كل حال.

ثم يقول: غير أنه لا يمكن الربط بين اسم (أرييون) وهذا الجنس (يعني العرب). ومن الأيسر تفسير وجود الإشارة (أ) للمفرد المذكّر في بداية الاسم بأنه يعود إلى "بربرة" (يعني تحويله إلى البربرية) berberisation مصطلح بونيقي (يعني: كعاني / قرطاجي). ويضيف: "إن" أ-ريي(و)ن" اسم يعني، ببساطة السيد، الرئيس وكلمة (رب) هي المعادل لليبية (مس) التي يتركب منها اسم "مسنن" (سيدهم / مولاهم) وهو ما عُرف في اللاتينية في صورة "مسينّا" ويدّ فإن "أرييون" يحتمل فعلاً نفس اسم أيّه "ولسنا ندرى كيف يسمح الأستاذ "كامس" بإبدال العين همزة في العبرية (عرب بالمعنى السيئ الذي أورده، ولا يسمح بهذا الإبدال في البربرية ١٢ ومساءلة تعقب العين والهمزة مسألة معروفة في العربية ذاتها، بل بين القبائل العربية في الجزيرة نفسها.

أما الصيغة التي ورد فيها الاسم (أريون) فهي منقولة عن الحرف اللاتيني في المصادر اللاتينية التي لا وجود لحرف العين في أبجديتها فإذا ما نقلت عن أمر عروبي فيه هذه العين أبدلتها همزة، أو ألفاً مهموزة أما المقطع "يون" في آخر الاسم (أريون = عريون) فهو صيغة للعلمية في اليونانية أصلاً. أساسه "ـون" (on...) بوازي التنوين في العربية. (مثال ذلك andro-andron = رجل، قوي، عربته عنتر - عَنَتْر = عنترن). وقد نُقلت هذه الصيغة إلى اللاتينية وخاصة في أسماء الأعلام (من مثل: dio-dion). وهي زائدة ليست من جذر الاسم.

جذر الاسم إذاً هو "عرب" (= أرب) + التنوين (-ون)، غير أن وجود الياء بين هذين المقطعين (أرب+ي+ون) on - arab - i يوحي بأن هذه الياء كانت للنسبة > عَرَبِيٌّ - عَرَبِيٌّ. وهي ياء النسبة القديمة جداً والمعروفة في اللغات العربية العتيقة، من مثل المصرية، ولا بد أنها كانت في الليبية (أو البربرية القديمة) كذلك!

والآن أحسب أنه حان الوقت للظفر في أمر قبيلتين كبيرتين؛ الأولى هي التي اشتق من اسمها اسم (أفريقيا / أفريقية) والثانية تُعدُّ من أكبر البطون تمتد من أدنى المغرب الكبير شرقاً، وحتى في وادي النيل، إلى أقصاء عرباً وأنقل هنا ما تابعته في مؤلفي (سفر العرب الأمازيغ):

الأفريق

اختلف في نطق الاسم الذي يطلق على تلك الجماعة البشرية التي تجوب الصحراء الكبرى وتعمر أجراء منها وفي كتابته بالعربية ما بين: "طوارق" و"توارق" و"توارك". واختلفت

1 - تجد الإشارة هنا إلى اسم "يربس" Iarbas الذي أورده الشاعر اللاتيني فرجيل Virgil في ملحمة (الأيادة) Aeneid - باعتباره اسم "ملك بيبا" الذي دُعي في الرواج من الأميرة الكنعانية "دبلو" (ويعرف أيضاً باسم "عليسة" - وهي التي لجأت إلى شمال أفريقيا بعد أن قتل أحوها روحها وأسست واتباعها مدينة قرطاج). والسين في آخر اسم "يربس" رائدة للعلمية والأصل هو "يرب" الذي هو، يسقوط لعين غير الموجودة في اللاتينة - بالضبط "يرب" انظر للتفصيل: Oxford Classical The Dictionary article: Dido.

تبعاً لذلك تفسر منشأ التسمية ومعناه. قيل مثلاً إن الأصل هو جمع "طارق" أي الذين يطرقون سواهم ليلاً أو على حين غرة عند الغزو، فسمو: طوارق، ثم أبدلت الطاء تاءً فكانوا "التوارق". وقيل إن الأصل من الجذر العربي "ترك" ومنه "التارك" جمعه "توارك" - إما لأنهم تركوا الحياة المدنية وابتعدوا عن مواطن الحضر وعاشوا في الصحراء ولأنهم تخلوا عن المبادئ العامة عند سواهم وعاشوا حياتهم الخاصة. وثمة تفسير ثالث حديث يرى أن التسمية كانت تطلق على قبيلة أو مجموعة قبائل أو شعب في فزان هي "تاركا" ² targa أو "أراغن" uraghen.

فإن كان إرجاع الأصل إلى الجذرين (طرق) و(ترك) مجرد تخريج بعيد غير ذي أساس فيلولوجي ولا تاريخي فإن الرأي الثالث قابل للنقاش وإن كان هو أيضاً لا يستند إلى نص قاطع كما أنه لا يقدم التحليل المعقول - منطقياً وتاريخياً - لمعنى التسمية في الأصل أو يشير إلى مرحلة وجود هذه القبيلة أو لشعب عبر العصور ورغم هذا فسنبحاول هنا تقديم التحليل المناسب للكلمتين اللتين قيل أنهما أصل للتسمية "التوارك":

1- "تاركا" targa ومعناها في التارقية: الوادي، وفي بربرية الشمال: مجرى مائي، نوي، قناة لتصريف المياه¹. ومن الواضح أن القاف المعقودة في "تاركا" تعاقبت مع العين في

1- هذا ويذكر سالم شاكر في استدراكه على مادة Aheggat التي نوشت في (الموسوعة البربرية) تحت رقم 104 المجلد الثالث: أن قران تدعى أيضاً (تارعا) Targa (الرياض، أو البساتين Les Jardins) ولعلها أصل تسمية (التوارك) وهي الاسم الذي أطلقه العرب على (كل - أكار) وشمال بعدها بقيمة المثلثين - كما اقترح "م. بنحصر" M. Benhazera سنة 1908م. واستعاد هذا الافتراض الأب (دي فوكو) De Foucauld في معجمه² (الموسوعة البربرية المجلد الثامن، ص 1246) قارن ما جاء في (لسان العرب) تحت مادة "ترع": "الترعة: الروضة - على المكان المرتفع خاصة. وأحسن ما تكون الروضة على المكان فيه غلظ وارتفاع. وحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن منبري هذا على ترعة من نرع الجنة.. وقيل: الترعة في الحديث الدرجة وقيل. الروضة" وللمقارنة نذكر اسم مكان في الإقليم الغربي من ليبيا، جنوبي مصراته بنحو 40 كم يدعى (تاورعا) وهو مشهور بكثرة الخيل والنباتات البامية لوجود عين ماء غريبة فيه. أنظر أيضاً: Norris, The Tuargs, P. 10.

2- Mercier; Vocabulaires, P 416

العربية (ترع) ومنها: ترع = امتلاء ماء حوض ترع: ممتلئ، سيل ترع: يملأ الوادي. وترعة الحوض: مفتوح الماء فيه. والترعة: قم الجدول الترعة: مسيل الماء إلى الروضة. (ولا تزال في لهجة عرب مصر: الترعة من النيل = القناة، المجرى لمائي يكر أوبصفر. فترعة المحمودية أوالنوبارية مثلاً عبارة عن قناة كبيرة متفرعة من النيل، هي في واقعها واد). ونضيف أنه يوجد في الإقليم العربي من ليبيا واد يدعى "ترعت". ولا شك في أنها تكافئ العربية "ترعت" (= ترعة) بتعاقب العين المهملة والغين المعجمة مما يوضح إبدال العين قفأً معقودة في "تاركا" (= تركت). غير أن ناء التأنيت الثانية أسقطت.

2- "أراغن" uraghen من الواضح أنها صيغة جمع وفي البربرية / الجبالية. "وراغن"، جمع "أوراغ" (= أصغر) وتؤنث "توراغن" جمع "تورغت". وهي من الجذر (ورغ) الذي يكافئ العربية (ورق). الورق: الذهب وهو أصفر كما يعلم فهل جاءت التسمية من صفرة الرمال التي يعيش فيها النورق؟ ويكون معنى "أراغن": الصفر أراصفراويون، أهل الرمل الأصفر؟

هذا ممكن ولكن الأقرب أن يكون المعنى مقترناً بـ "تاركا" (الوادي) - حسبما مر وجمعها "تيركوون" terggwin²، وهذا ما يجعلنا نظفر في كلمة بربرية أخرى هي "تارغا" targa (بالغين المعجمة) معاماً: واطنى³، منخفض. وتجمع على "ترغوون". والمنحط المنخفض من الأرض هو لوادي. وعليه فإن الجمعير (تيركوون) و(ترغوون) يتفقان في الدلالة بتعاقب القاف المعقودة والغين، وقد وضح هذا التعاقب من قبل. ونود أن نزيد هنا سم مكان في الإقليم الجنوبي من ليبيا (فران) يدعى "تراغن"، يتفق تماماً مع ما سبق، إذ أنه يقع في منخفض من الأرض (واحة).

طبقاً لهذا فإن "أراغن" صيغة جمع سقطت فيها التاء من "ترغوون" (= تراغن) بمعنى:

1 معجم دالية، ص 874.

2- Mercier; P. 416.

3- في لهجة (أيت اردكا) يخص المرأة (bas (de femme) targa, plural: targwin حسب ما يورده (مرسير) في العربية (ترع): الترعة من النساء: الفاحشة الخفية، أي المسحطة الخلق، الدنيئة.

الأودية، وهي جمع "تاركا" (= تارغا) بمعنى: الوادي. وبذا تكون كلمة "توارق" صيغة جمع عربية لـ "تارقي" - نسبة عربية إلى "ترك"، والدليل على ذلك أنه لا يوجد في البرية لهجاتها المختلفة بما فيها التارقية صيغة أخرى لهذه التسمية "تاركي" للمذكر، "تاركياء" (= تارقية) للمؤنث، والجمع للمذكر "توارك" وللمؤنث "تاركيات". وهذا ما يكافئ العربية: ترعى، ترعية، توارع¹، ترعيات، نسبة إلى "الترعة" أي الوادي.

يقول (أوريك بيتس) إن "التوارق" اسم مغلوط فيه وتسمية غير صحيحة². بيد أنه لا يقدم وجه الغلط والصواب وإن أوحى - بشكل ما - أن للاسم صلة باسم قبيلة ليبية شهيرة تدعى في اللسان اللاتيني "كايتولي" أو كما توصف: Gaetuli Afri Libyae وهو يثبت أنه إلى أن "تسمية الكايتولي" - كما هي تسمية التوارق - كانت تشمل عدداً كبيراً من قبائل الصحراء.. وبعل الأسماء السلالية لمجموعات معينة حلت في ما بعد محل الأسماء ذات الدلالة الشاملة". أي أن اسمي "الكايتولي" و"التوارق" كانا ينطلقان في البداية على جماعة بذاتها ثم صارا يطلقان على مجموعة كبيرة من الجماعات أو القبائل ليشمل عدداً أكبر من الجماعة المعنية بذاتها. وهذا قول صحيح إلى حد بعيد، وفي عصرنا الحاضر نعرف الكثير من هذا؛ إذ يسمى أهل القطر الواقع ما بين لسا والجزائر مثلاً "تونس" وينسب أهلهم جميعاً إليه (تونسي / تونسيون) والأصل في التسمية مدينة واحدة، ثم عم جميع أهل القطر حتى إن كانوا من غير أهل تلك المدينة. وهكذا: الجزائر، الكويت، مصر... إلخ. وعلى هذا فإن اسم "التوارق" كان يطلق في البداية على مجموعة صغيرة من الناس (قبيلة) ثم عم جماعة أكبر تتكون من عدة مجموعات (قبائل) فشملها دون تمييز إلى التمييز الداخلي أي في ما بين الجماعة الكبيرة ذاتها.

هنا نهمنا الإشارة إلى وصف قبيلة "الكايتولي" في اللاتينية بأنها "أفري ليبياي" Afri Libyae. ومن الواضح أن "ليبيائي" تعني "الليبيين" فماذا تعني "أفري"؟

1 - على وزن (فواعل) - جمع "تارع". قارن: شارع / شوارع. فارس / فوارس قارض / قوارض إلخ. وهي اسم فاعل، وقد تكون صفة في مثل: مالخ / موالخ. حامص / حوامص.

2- The Eastern Libyans; p. 68

في مقالة طويلة تتسع (ج. سراس J. Peyras) هذه الكلمة من مختلف جوانبها واورد جملة من الآراء عن نشأتها وتطورها وخلص إلى القول بأنها كلمة (محلّية) انتقلت إلى اللاتينية في صور: afro- afri, - afra afer وكانت كلمة "أفري" في البداية تطلق على قبيلة عاشت قرب "قرطاجة" وضواحيها، ثم عنت سكان ما يعرف اليوم باسم (تونس) من غير "القرطاجيين" تمييزاً لهم عن "النوميديين" (في الجزائر الآن) و"الموريين" (في المغرب وموريتانيا - الآن) غرباً و"الليبيين" (ليبيا - الآن) شرقاً، ثم أضيف المقطع (-ca) في اللاتينية إلى Afri فكانت (Africa) صفة مؤنثة في مثل التعبير (Africa terra)، حرفاً الأرض الأفريقية، وأطلقت الكلمة على طول ساحل البحر المتوسط الجنوبي غربي مصر وأضيف المقطع (-cus) إلى (Afri) فكان (Africus) صفة مذكرة في مثل تعبير Africus ventus (حرفياً: الريح الأفري) وظل تعبير (natio Afra) (أمة أفرا) مستعملاً للدلالة على سكان المقاطعات الرومانية جنوب البحر المتوسط، وبمرور الزمان استعملت كلمة Africa (وهي في الأصل صفة) محل كلمة "لويبا" Lybia (- ليبيا) لجملة ما عرفه الرومن من قارة "أفريقيا" عدا وادي النيل، ثم عنت القارة كلها بما فيها وادي النيل (مصر)¹.

إن الأصل في الاسم - كما هو بين - هو في اللاتينية Afer ومنها Afro للمذكر Afra ولل مؤنث aFRI للجمع، وكانت قبيلة "أفري" هذه قد شاركت القرطاجيين في حروبهم ضد الرومان، ومن الواضح أنها كانت تمتد أو تنتقل عسراً بعد عصر مع مرور الزمان حتى تجاوزت أحواز قرطاجة إلى "نوميديا" (الجزائر غرباً وتداخلت مع "الليبيين" شرقاً) وانداحت جنوباً إلى الصحراء. أم هل كان الضغط الروماني هو الذي ألحاً هذه الجماعة (القبيلة) المعنية إلى الاندماج في مجموعة قبائل أخرى لتكون كتلة كبيرة واحدة وعمّ اسمها هي هذه القبائل؟ وهي التي اضطرت بعد الانتصار الروماني على قرطاجة واحتلال الرومان شمال أفريقيا كله إلى النزوح إلى الصحراء الواسعة؟

إن هذا ما يؤيده تطور دلالة كلمة "أفري" التي صارت "أفريكا" (أفريقيا) من مجموعة

صغيرة قرب قرطاجة إلى ما يعرف الآن باسم (تونس) ثم الشمال الأفريقي كله ، ثم القارة بأكملها - علماً بأن الرومان لم يعرفوا من هذه القارة سوى حدود الصحراء الجنوبية ، أما ما كان جنوبها فقد ظل مجهولاً عندهم إلى مدى بعيد ولم يعرفه الأوروبيون إلا في عصر الكشوفات وهو عصر جد قريب .

هذا إذا هو أصل كلمة Africa = أفريقيا (أفريقية - في المصدر العربية) وإذا كان من غير المتوقع أن يحاول علماء الغرب الربط بين هذه التسمية والعربية بشك من الأشكال ، وهو أمر مفهوم ومعلوم ، فإن الآخذين عنهم من العلماء (الأفارقة) أنفسهم يتهجون ذا النهج... للسف. ونضرب مثلاً على ذلك ما كتبه الأستاذ "كي - زربو" K1-Zerbo محرر المجلد الأول من تاريخ أفريقيا العام¹ في مقدمته لهذا المجلد. إذ يتساءل الأستاذ "كي - زربو" : ماذا كان المعني الأصلي لاسم أفريقيا ؟ ويقدم سبعة تفسيرات له هي :

- 1- الاسم جاء من سم شعب من البربر كان يدعى "الأفاريق" أو "أوريغنا" Aurigha.
- 2- من (الفينيقية) (فريكيا) pharikia بمعنى "كوز درة" أو بمعنى "أرض الغلال".
- 3- من اللاتينية aprice بمعنى "مشمش" أو اليونانية aprike (= حال من البرد).
- 4- من (الفينيقية) في الجذر "فرق" بمعنى : شتت.
- 5- من السنسكريتية والهندية Apra أو Africa (= بُعد) أي : العرب ، لأن أفريقيا هي القارة الغربية
- 6- من رواية تاريخية تتحدث عن زعيم يمني يدعى Africus (أفريكوس) غزا شمال أفريقيا في الألف الثانية ق.م. أسس مدينة تدعى "أفريقية" Afrikia.
- 7- ورواية تقول إن "أفر" afer كان جد النبي إبراهيم ورفيق هرقل أطلق اسمه على هذه البلاد.

1- صدر عن (ليوسكو) في طبعته الانكليزية : General History of Africa. I Methodology and African Prehistory Hienmann, California. UNESCO. 1981 .

العريب أن الأستاذ (كي - زربو) لم يناقش أياً من هذه لتفسيرات. وقد فعلنا من قبل¹ ولا بأس من إيراد خلاصة له: إن القول بأن الأصل من (المبنية) "فريكيّا" (= درة، غلة، حبوب) يذكرنا بالجذر العروبي "بر" ومعناه: حبّ، نبت، غلة. وهو في العربية "تر" = حنطة، قمح. فإذا كان من (الفريقية) "ف ر ق" بمعنى "شئت" فهذه ذاتها العربية "فرق" .. دون أي فرق. فإن قيل أنه من اليونانية *aprike* (خالٍ من البرد.. حرفياً: لا يَرْد) فإنها مكونة من (A) = "لا" (وهي في الأكادية "آ" = (a) = لا) + Prike = برد. عربيتها: فرق، والمعنى الأصلي لـ "فرق" هو الخوف ثم تطورت الدلالة إلى البرد أي ما ضاد الحرارة. وينطبق القول نفسه على اللاتينية *aprica* إذ هي نقلت عن اليونانية، بمعنى "مشمس" (لا = برد). أما أن يكون الأصل من السنسكريتية أو الهندية *apar* (- بعد، التالي) فمجرد تخريف، ومع هذا فيمكننا مقابلتها بالعربية "عبر" كما يقال في تعبيرنا الحدث: "عبر البحر"، مثلاً، فلتكن: القارة "عبر" القارات. ويشبه هذا الهلر ما قيل من أن الأصل من "أفر" أحد أحفاد إبراهيم (عليه السلام) وكان رفيقاً لهرقل (كذا. وهنا خطأ: الأول أن "أفر" *afer* هذا جاء باسم "عابر" في توراة اليهود (التكوين، الأصحاحان 10، 11) وهو من أحفاد إبراهيم وليس من أحفاده. والثاني يكمن في العجب من الربط بين "إبراهيم" في التراث الشرقي و"هرقل" في التراث اليوناني.. اللهم إلا أن يكون كلاهما "عابراً" في الأرض، الأول عبر بابل إلى فلسطين ومصر والحجاز والثاني عبر أفريقيا وإيبيريا (لاحظ صلة هذه الكلمة بـ "عبر") في أثناء قيامه بـ "الواجبات الاثنى عشر" المشهورة. وتبقى النسبة إلى (أفريقش) اليمني في الألف الثانية قبل الميلاد الذي ابتنى (أفريقية)، وحديثه متواتر متداول في المصادر العربية، ينبئ عن صلة ما بين الشمال الأفريقي وبلاد العرب الجنوبية.. اليمن. وهناك، أخيراً، القول بأن التسمية جاءت من اسم قبيلة بربرية كانت تدعى "أوريغا".

هذان القولان الأخيران يمكن مناقشتها بشيء من التفصيل، أما عداهما فأقوال تعتمد على المقابلة اللفظية والتخريج المنعسف دون برهان ولا بيان.

1 - انظر للكاتب: رحله الكلمات، دار "إقرأ"، روما/ مالطا 1986م، ص 335-346

1- أفريقش

ويكتب في المصادر العربية: "أفريقس" و"أفريقش". ويروي الاخباريون العرب أنه غزا شمال أفريقيا وابتنى مدينة بها سست إليه (أفريقية) ويقول الهمداني¹ إن "أفريقش" أرسل رجلاً من اليمن يدعى "كنيع بن زيد" مع أبياء مرة ابن عبد شمس: كتامة وعهامة ولواتة وزينت، وهوزبارة، وهم رؤساء البربر. وهذا يعني أن "أفريقش" لم يأت بذاته، والهمداني ينقل عن ابن الأثير وابن خلكان. أما ابن خلدون الذي كتب بعد الهمداني بنحو أربع مائة عام، فقد ذكر أن (أفريقش) "ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان. مر بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل الفل منهم وساقهم إلى أفريقية فانزلهم بها". وكان قد ذكر في (تاريخه) نقلاً عن ابن حزم أن (أفريقش) "هو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وسميت به".

وقد يبدو كثير من الخلط في روايات الإخباريين في ما يتعلق بصلة أفريقش بـ "أفريقية"، لكن من الواضح أن هؤلاء الإخباريين كانوا يستندون إلى ما ثبت تاريخياً - من مصادر يونانية ولاتينية ونقائش - من هجرة أقوام عربية منذ القديم إلى شمال أفريقيا. ونحن نعلم بالتأكيد أن الكنعانيين جاءوا إلى هذه المنطقة على فترات لعل أظهرها ما تم في بدايات الألف الأولى ق.م. حين أنشأوا (قرطاجة) في تونس الآن، ثم (لبدة) و(صبراتة) و(أويا) في بلاد طرابلس (عربي ليبيا). ويتردد اسم "جالوت" كثيراً في صراع الكنعانيين ضد الغزاة العبرانيين، ليس باعتباره اسم شخص بعينه بل باعتبار هذه الكلمة تعني "الملك" - حسماً يقرره المسعودي. ولما ها أن نقارن البربرية "جلت" (أيضاً: جلد، شلص، حسب اللهجات). ومن بعد هزيمة "جالوت" (الملك) هاجر الكثيرون من أتباعه إلى شمال افريقية. ويبدو كذلك أن لمة هجرات يمنية إلى هذه البقاع غير مسجلة إلا عند الاخباريين وبطريقة ما ربط بين الهجرتين الكنعانية واليمينية، وكان اسم "كنيع" بن زيد الذي يقول الهمداني إن أفريقش أشخصه مع (رؤساء البربر) إشارة إلى "كنعان" (بني كنعان). وقد حاول ابن خلدون التوفيق بين تدخل الهجرتين

1 - الأكليل، جزء 2، ص 100.

بالقول إن أفريقش (ليمي) مرّ بأرض كنعان فوجد يوشع قد هزم الكنعانيين فساقهم إلى أفريقية (لاحظ أنه يقول: "ساق البربر" إلى أفريقية) وانزلهم بها. ولا يحتم المقام مناقشة طويلة لمختلف الأقوال. والمهم أن ندرك الارتباط، أو الربط، بين وجود الكنعانيين واليمنيين معاً هنا. ثم كان لا بد من ربط آخر يوثق الصلة باليمن أكثر من وثوقها ببلاد الشام فقيل إن أفريقش هو لذي جاء بالمهاجرين، كنعانيين وعرباً مُضَرَّين ويمنيين. فمن هو أفريقش هذا يا ترى ؟

يأخذ ابن خلدون عن الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي و"جمع النسّابين" كما يقول. وينقل عن ابن حزم أن أفريقش هو "ابن أبرهة ذي المنار الذي هو ابن الحارث الرائي (تُبّع) في قول آخر هو الصعب بن ذي منائر اللطاط". وهو مرة أخرى "أفريقش أحو الحارث الرائي" وليس حفيده. وثالثة هو "أفريقش بن قيس بن صيفي". إلخ.

قد يبادر أحد بالقول إن "أفريقس" هذا (= أفريقش وأفريقش وأفريقس) ليس إلا تعريباً للاتينية Africus (أفريكُس). وهذا محتمل جداً، خاصة أن هذا الاسم والروايات التي جاءت عنه مشوشة بشكل يغلغها بروح الأسطورة المفتعلة. وعليه فإننا نلجأ إلى معالجة أخرى مختلفة تعتمد المنهج اللغوي التحليلي المقارن

وبدأ بالقول إن الأقدمين ساروا في العادة على منهج إرجاع أسامي الشعوب والقبائل والجماعات إلى اسم شخص بعينه هو الجذء الأول لأي منها وتبع هذا افتعال ووضع كثير؛ إذ سيطر النسابون على جملة الموقف دون دليل إلا مجرد "الثقة" في ما يقولون. غير أن الملاحظة على هذه الأسامي أنها في معظمها - تكون "صفة" تطلق على الجماعة من قبل سواهم، بسبب من ظاهرة طبيعية في المكان الذي تعيش فيه. فقد سمي (لكنعانيون) كذلك من مادة "كع" بمعنى: انخفض - لأنهم كانوا يقيمون على ساحل الشام المنخفض، و(لآراميون) من مادة "أرم" - بمعنى: مرتفع - لأنهم عمّروا مرتفعات الشام، وهكذا (العَلَمِيُّون) من "عَلَم" = الجبل. أو بسبب من الموقع؛ فاليمين من "يمن" (= اليمين) إذ هم جنوب بلاد الحجاز يكون على جهة اليمين إذا ما وجه المرء وجهه نحو الشمس. والشام من "شام" أي الشَّمال (لاحظ صلة الشَّمال بكسر الشين، والشَّمال بفتحها). أو بسبب من ظاهرة أخرى كالحرارة مثلاً؛ إذ سَمَّى المصريون القدماء ما كان جنوب مصر "شوت" Šwt وأهله

شوتيو "Šwtyw والأصل في "شوت" معنى شدة الحرارة (عربيته: شوط، شوط / والجذر الأصلي في المصرية "شو" Šw يكافئ العربي "شوي").

هذا بعيدنا إلى ما بدأنا به من تسمية "أفري" Afri (وهي صيغة جمع النسبة في اللاتينية) وهي في الأصل من "أفر" Afer - اسم القبيلة أو الشعب الذي كان يعيش بالقرب من قرطاجة، أو جنوبها ربما ما يعرف باسم "الحريد" الآن في تونس. وهي منطقة حارة دون شك، بالنسبة للكعانيين القادمين من بلاد الشام الباردة نوعاً ما، كما هو الحال بالنسبة لسكان إيطاليا الأقدمين قبل مجيء الرومان (أعني من عرفوا باسم: الأتروسكيين) أو الرومان في ما بعد. وبما أن الثابت، كما ذكرت، أن يطلق الآخرون اسماً على شعب سواهم، فإن كلمة "أفر" جاءت عن هذا السيل بمعنى "الحرارة" أو "بلاد الحارة" والأرجح أن التسمية قديمة، لعلها كنعانية نقلها بعد ذلك الرومان. والجذر فيها هو "ف ر" (FR).

من هذا الجذر في اللاتينية fornus, fornax = موقد، كاون، furo = ساخن، حام، ناري (قارن الفرنسية four, fourneau والإيطالية furno, furnacio والإنكليزية infernal, infern وفي البربرية: "أفرئو" والعربية: فُرْن) وفي المصرية القديمة "برر" = استحرّ، استشاط (غضباً) و"بري" - وطيس الحرب¹ والباء المهموسة بدل من الفاء. قارن القبطية (فرفر) = سخن غلّي، فارّ - مضاعف "ير" / "فر".

أما في العربية فهناك: (فور). ومنها: فور الحرّ: شدته. فور جهنم: وهجها وغلانها. فور الشمس: حمرتها. فار القدر، فوراً وفوراناً: غلّي وجاش وهي مادة طويلة تقيّد الحرارة حبساً ومعنى. وفي مادة (أفر) نقرأ: أفرّت القدر، أقرأ: اشتدّ غليانها. أفرّة الحرّ: شدته. أفرّة الصيف. أوله.

من هنا يرى أن ما ورد في اللاتينية على صورة Afer (ومها Afro, Afri, Afra) يعني الحرارة أصلاً ويكافئ بالضغط العربية "أفر" - وطبعاً بقية المشتقات من الجذر المشترك (فر). وقد أبدلت الفاء بـاءً مهموسة (p) واشتقت من هذا الجذر اللاتينية aprike (خار من

الرد = حار، ساخن) (= شمس) واليونانية aprica، والإبدال ما بين الباء المهموسة والفاء الشفوية الصحيحة متواتر معروف (قارن المصرية القديمة "بربر" والقبطية "فرفر" - ويجوز أن تنطق "ورور"، بلواو القربية مخرج الصوت من الباء والفاء والفاء "v"). بناءً على ما سبق فإن ما ورد في اللاتينية في صورة africa هو دانه aprica، وما جاء فيها من تعبير من مثل africanus ventus يساوي بالضبط apricus ventus (حرفياً: الريح الحارة) كذلك: africa terra تساوي aprica terra حرفياً: الأرض الحارة (عريباً: الثرى الأفر أو أفر الثرى).

لقد تحولت aprica، أوهي عادت، إلى africa (من الحذر "FR" مسبقة بالألف المهموزة، وتكافئ العربية "أفر"، وملحقة باللاتينية "ca-" وهي أداة النعت فيها)، وبعد أن كانت تعني "الحرارة" صارت تدل على هذه المنطقة الحارة جنوب البحر المتوسط المواجه لأرض الرومان، كما صارت من الأعلام الجغرافية يكتب الحرف الأول منها كبيراً (Africa) وكانت في العربية "أفريقيّة / أفريقيا" - بإضافة ياء النسبة التي تفيد الصفة أيضاً مقابلة "ca-" في اللاتنة. وكان المفروض أن تكون "أفريّة"، ولكن العربية حافظت على أداة الوصف اللاتينية¹ (ca-) وأبدلتها فاقاً ولعل هذا ما يسر لنا تحليل الكلمة الثانية.

2- أوريفا

بقول أحد التفسيرات التي ذكرها (كي - زريو) إن تسمية "أفريقيا" جاءت من أسم شعب من البربر كان يدعى "أوريفا" Aurigha أو "الأفاريق" Afarik. ومن الواضح أن كلمة "أفاريق" (جدرها "فرق") هي ذاتها "أوريفا" (جدرها "ورغ") بتعاقب الواو والفاء والغين المعجمة والقاف وهي القاف التي كانت تنطق معقودة (كـ). والأمثلة على هذا

¹ حدث هذا في مثل "هندكي" وهي من اللاتينية hindicu(s) والمفروض أن تكون "هندي". وقد حدث هذا في تعريب اللاتينية punicu(s) (الفرسية punique والإنكليزية punie) وتعني الوجود الكماني في قرطاجنة وما حولها، إذ عرّبها بعض الدارسين إلى "بوبيقي" والأصل الأصيل "البني كعاني" (أنظر: كتاب الحجر) من "سفر العرب الأمازيغ".

التعاقب كثيرة. وهي ذاتها اللاتينية Africa (= aprica) كما سبق البيان.

من المهم جداً هنا الإشارة إلى أن أسم "أوريغ" (= أفريق) يتردد كثيراً عند الأمازيغيين الإسلاميين. باعتباره أباً لـ "هوار" الذي تنتسب إليه قبيلة (هواره) البربرية المعروفة - كما عند أبنا خللدون مثلاً في (تاريخه). ويجعل أبنا خللدون من "أورغة" (= أورغا) إحدى القبائل البربرية أبصاً.

وفي هذا السياق ينبغي أن نذكر ما يشير إليه الأستاذ (نورس)¹. بعد تحليله أصل أسم "التوارق" من قوله: "إن الأقرب إلى الصواب أن يكون الأصل المعقول في الأسم قبيلة، أو اتحاد قبائل، أو شعباً. سكنوا فزان وكانوا يدعون "تاركا" targa. أو (أراغن) Uraghgen. ويقع سبق تحليل اسم (تاركا) باعتباره يعني: الوادي، ولكن هذا لا يمنع من النظر إليه من زاوية أخرى، فلعل الأصل فيه "تا (و) وركا" ta(w)rga = "تا (ف) ركا" ta(f)rga وهو هنا عبارة عن الجذر "ورك" (= فرك) مسبقاً بـاء السلاطة التي سيأتي الحديث عنها. أما "أراغن" فهي صيغة جمع بربرية كما مضى. ونضيف هنا أنها جمع "أوريغ" في المصادر العربية، "أورغا" في المصادر الأوروبية. وبذا تتطابق كل الصيغ الواردة في مختلف أشكالها وتحريفاتها وتحويراتها، عن هذا السم العتيق.

أخيراً.. نصل إلى: "التوارك" (= التوارق / الطوارق).

يقرر (أوريك بيتس) أن "صيغة التأنيث في البربرية تتكون، بإطراد، من أسم المذكر إسباقه وإلحاقه بحرف التاء.. وتظهر باستمرار كلمات من هذا الضرب في أسماء الأماكن البربرية الحديثة: (ت) وا (ت)، (ت) كور (ت)، (ت) اكرف (ت)، (ت) ديكلت (= توات، تكورت، تاكرفت، تديكلت)، وهو يضيف: (على أن تاء اللاحقة في أواخر هذه الأسماء) كثيراً ما تُفقد، أو تتحول إلى صوت صفيري² وعلى ضوء ما تقدم فإن لنا الفروض التالية:

1 - The Tuaregs, 10

2 - Bates The East. Lib. P. 76 .

1- الجذر المشترك "فر" (ويعيد الحرارة) صار في اللاتينية Africa بعد تطور دلالاته ليعني ما يعرف الآن باسم توس وهو في الأصل أسم قبيلة afer. يعابله في البربرية "أوريما" وفي العربية "أوريغ".

2- في هذه الصورة الملتئة صيغ أسم القبيلة، أو المكان، في البربرية: "تاورغت" (= تافركت، تافركت / تافركت / تاوركت).

3- بسقوط تاء التأنيث الثبينة كانت: "ناورغ" (= نافركا / نافرق / تاوكا) وتقابل "تاركا" يسقوط الواو ويبدل الغين قافاً معقودة

4- كان الجمع في البربرية "أراغن" (= أراكن) وهو جمع مذكر سالم - كما في العربية (ين / ..ون) للمفرد المذكر "أوريغ" أما في لعربية فقد احتفظتاء التأنيث الأولى (التي طلّت في "تاركا" وجمعت جمع تكسير (توارك) ونطقت القاف المعقودة قافاً قرشية (توارق)، كما تعاقبت التاء والطاء فكانت (طوارق).

5- لكن العربية من جهة أخرى أسقطت التاء الرائدة في بداية الكلمة "توارك" وأبدلنها بالألف المهموزة الأصلية، أو هي احتفظت بها، فكانت (أفارك)، ونطقت القاف المعقودة قافاً قرشية وأعادت الفاء بدلاً من الواو فكانت "أفارق" (= أفرق = البربرية "أوريغ") وجمعت على "أفاريق" جمع تكسير، كما هو جمعنا الحديث لـ "أفريقي" على "أفارقة" (جمع تكسير) و"أفريقيين" (جمع مذكر سالم).

وجاء في شعر الأحوص:

يُن ابن حربٍ ورهطٌ لا أَحْسُهُمُ

كانوا علينا حديثاً من بني الحَكَمِ

يَجْتُونُ ما الصَّيْنُ تحويه مقابهم

إلى الأفاريق من فُصْحٍ ومن عَجَمِ

قال ابن منظور "وأفريقية أسم بلاد، وهي مخففة الياء وقد جمعها الأحوص على

أفاريق" (اللسان : فرق).

فإذا كان من السري نطق "إفريقيّة" / "أفريقية" مخففة الياء فقد جاء هذا من باب التسهيل ، أما الأصل فهو تشديدها لأنها ياء النسبة أو الصفة كما مرّ وليس صحيحاً أن "أفاريق" في شعر الأحوص جمع "أفريقية" فهو يتحدث عن قوم يدعون لأفاريق بدليل قوله "من فُصّح ومن عجم". والأحوص شاعر جاهلي - كما يوصف - أي أنه كان قبل ظهور الإسلام ، قبل مجيء عرب الجزيرة المسلمين إلى "أفريقية". ويبدو من المثير للاهتمام حقاً أن يقسم "الأفاريق" قسمين : فُصّح وعجم. أكان يريد بصفة "الفُصّح" أهلها وسكانها الأصليين الذين يدرك أنهم يتكلمون لغة عربية فصيحة لا تختلف عن لغته الحجازية إلا في اللهجة ؟ ويقصد بصفة "العجم" المحتلّين الروم الذين كانوا يسيطرون على البلاد ويتكلمون بلسان أعجمي غير عربي ؟ ليس ثمة من تفسير آخر لهذا التمييز الجلي.

الم نقل ، مرات ومرات ، إن تاريخنا لا بد أن يقرأ من جديد !؟

عن الحجّار... وهوّارة

ينتشر التوارق في مساحات واسعة من الصحراء الكبرى مقسمة ما بين بلاد الجزائر والنيحر وليبيا ، ويقع أحد أهم مواطنهم بصحراء الجزائر ما بين درجتي 14 - 30 طولاً ودرجتي 5 - 10 عرضاً. وتختلف كتابة أسم هذه المنطقة : أهجّار ، هجّار ، أهقّار ، هقّار ، هكّار ، هكّار ، حجّار. وقد تعرف به (ال) : الهجّار ، الهقّار ، الهكّار ، الحجّار. أما اللغات الأوروبية فقد اتفق على كتابة الأسم haggar, haggar, (a)haggar (a)heggar¹ - على نحو ما. وكالعادة.. جاءت بعض التفسيرات لنشأة الاسم واعتمد معظمها على صورة كتابته (هكّار). فقبل مثلاً إنه من "هيجار" الجمل ، أي الجبل الذي يربط به ثلايتد ، وذلك لارتباط التوارق بالجمل وقيل ، نه من مادة (هجر) العربية التي منها : هَجَر ، وهَجْران بمعنى "القرية". وقيل إنه من "الهجير" أي شدة الحرارة وليّها. وذهب مؤرخ جزائري إلى أن الكلمة أصلها "

1- استعملت "الهوفار" بالعربية على علاف مجلة (الأصالة) رغم ما في دخلها من تحليلات ، أنظر

الهامش التالي

حَجَر " / " أَحْجَار " - أي الحجارة - وذلك لكثافة جبل المنطقة الحجرية وعظمة صحورها ومرتفعاتها من الحجارة الصلبة والأدوات المصنوعة هناك من الحجارة، أو من قولهم " لحَجَّار " - تشديد الجيم - وهوقاطع الحجارة، فسميت هذه المنطقة أولاً " الحَجَّار " ثم غيرتها الألسن وحولتها إلى: الهَجَّار - الهَكَار - الهَقَّار، بقاف معقودة، بعد إبدال الحاء هاء، وهو أمر كثير الحدوث¹

وقيل إنها من الجذر "هجر" بمعنى ترحَّل، غادر، سافر - لكثرة محرة التوارق وترحالهم عبر الصحراء².. فهم المهاجرين أبداً أولأنهم "هحروا" مواطنهم الأولى إلى موطن جديد.

وهذه الآراء كلها تعتمد التخريج اللفظي من مادة (هجر) أولاً ثم من مادة (حجر) في رأي، وهي تخريجات حديثة. بيد أن ثمة مرجعاً قديماً جاء بقول آخر جدير بالنظر والاعتبار، أعني قول ابن خلدون في (تاريخه) إن هذه البلاد تُسمَّى "هَكَارة" بوجود تاء التأنيث في آخرها وبالباء والكاف ويأن الكلمة منقلبة عن "هَوارة"، قلست العجمة واوها كافاً. ومجد تأكيداً لهذا القول من سالم شاكر³. حيث يقول: "إن كلمة (أ) هَكَار في أصواتها الصامتة هي ذاتها ما في كلمة "هَوارة". وقد أيد تصعيف الواو في البربرية إلى لقاف المعقودة المشددة" كما أيد (دي فوكو) هذا القول⁴.

ويضيف (شاكر): وبالعودة إلى روايات سلاسل الأنساب العربية والبربرية، يذكر ابن خلدون أن قبيلة هَوارة نشأت من هوار، ابن أوريغ، ابن برنس "وقد فاق هوار أخوته الآخرين الثلاثة عدداً وعدة، وخلف تسلاً كثيراً، هو القسم، الأهم كان موطنه في إقليم طرابلس وبرقة". ويستند ابن خلدون إلى المسعودي والبكري في القول بأن موطن هَوارة

1 - الحلاتي عبد الرحمن، هؤلاء التوارك - المثلثون، مجلة "الأصالة"، عدد خاص عن تاريخ منطقة الهواقر، الجزائر، 1979. السنة الثامنة، ص 8، وما بعدها

2 - المرجع السابق، ص 38.

3 - الموسوعة البربرية، المجلد الثامن، ص 1245 - ص 1246.

4 - معجم التارقي، الفرنسي، المجلد الأول، ص 533

الأصلي كان طرابلس وبرقة. ثم انتقلت هذه القبيلة - أوبصورة أدق : انتقل قسم منها - غرباً إلى تونس ، وجنوباً نحو فزان وإتشرت عبر الصحراء في ما تلا من الزمان¹

ملاحظتان قيمتان بالاهتمام هنا :

أولاهما أن هواره كانت قبيلة زاحفة ، أو منتملة من الشرق إلى الغرب ، ثم الجنوب. ويذكر الأستاذ (بيتس) أن هواره قسم كبير من " شعب لواء² معظمه يوجد في غرب ليبيا. ومن المحتمل أن امتدادهم في شرق البلاد حُدَّ بجبل غريان ، رغم أنهم وجدوا بعد ذلك في الناحية الأقرب إلى الشرق³. وثانيتها هذه الصلة بين " هوار " و " أوريج ". وقد يَبْينُ من قبل أن " أوريج " هي ذاتها " أراعن " - في صيغة الجمع - التي تطلق على التوارق ، وأنها عيها " أفاريق " وأن أصلها من اللاتينية Africa والأخيرة هذه ليس إلا صفةً تطورت دلالتها كما رأينا.

هاتان الملاحظتان تقودان إلى القول - باختصار - إن " هواره " هي الأسم الأصلي لمن عرفهم الرومان باسم " أفري " وهم أحد فروع هواره ، وهي قبائل متعددة. وحين نزحوا عن تونس واتجهوا جنوباً ، أو تجمعوا مع سواهم من نفس الجذم الذين كانوا في برقة وطرابلس ، حملوا نفس الاسم (هواره). ولعل التاء سقطت كما سبق البيان فكانت " هوار " التي انقلبت بإبدال الواو كافاً إلى (هكار) وبقيّة الإبدالات التي ذكرنا.

والسؤال المهم الذي يطرح الآن : ما هو أصل قبيلة " هواره " (هوار) ذاتها ؟

وهذا السؤال كنا قد أجبنا عنه من قبل ، ونرى أن مسطّر منذ مدة مناسب نقله في هذا

1- شاكر ، الموسوعة البربرية ، قارن ما يقول في نفس الموسوعة . المجلد الخامس ، ص 659

2- Lua أو Luwa جذرها (LW). وفي البربرية كثيراً حُدَّ ما تقلب في الأصل وإراء ، فالأصل إذاً هو الحذر (LB) الذي منه " الليو " (اللييون) . وقد تحولت الباء في (LB) إلى واو في " لواته " المنقولة عن اللسان اللاتيني Levata من Leveta (= Lybu / Libu) .

3 - Bates: The East Lib. Pp. 70-71

عن الهكسوس... وعن هواره

في أوائل الألف الثانيه ق. م وفي تاريخ لم يحدد بالصبط، جاءت إحدى الموجات الشرية مهاجرة إلى مصر من شرقها، واستطاعت أن تسيطر على الوادي متخذة من الدلتا مركزاً لها مدة طويلة من الزمن، قدرها المؤرخ "ميسون" بـ 510 من السنين، وعرف أهلها في كتب التاريخ باسم "الهكسوس"².

وقد تمكن أهل الجنوب في مصر، بقيادة "أحمس" من القضاء على مملكة "الهكسوس"، وبذا أعاد توحيد القطرين من جديد. لكن "الهكسوس" لم يعودوا جميعاً من حيث أتوا - كما قيل لنا - بل إن فريقاً كبيراً منهم ظل في مصر، بينما مضى فريق آخر نحو الغرب حتى بلغ المغرب الأقصى وانتشر في شمال أفريقيا كله.

لم يتفق الباحثون - كالعادة - حول أصل "الهكسوس"، وإن اتفق معظمهم على أنهم (ساميون). قال بعضهم إنهم كنعانيون، وقال آخرون إنهم بابليون، وفريق ثالث قال إنهم فلسطينيون ولكن (مانيثون) يرى أن "البعض يقول إنهم كانوا عرباً"³ وهو هنا يقصد

1 - أنظر للكاتب: آله مصر العربية، فصل بعنوان (عن "الهكسوس" و "هواره").

2 - يرى "بروغش" (H.Brugsh. History of Egypt Under The Pharoahs, Vol. 1., p. 232) أن هذه هي التسمية الشعبية التي أطلقت على العرب (= الأعراب، البدو) الذين حكموا الدلتا

قادمين من الشرق، ولم يكن "الهكسوس" يسمون أنفسهم بها أما في النصوص المصرية التي تتحدث عنهم فإنهم يسمون "الأمو" Amu (فازن تعليق "وادل" على ترجمته (تاريخ ميسون) ص 76 - 77). ونرى أن "أمو" هي ما يقابل العبرانية "أوميم"، بصفة الجمع بالميم، أي: القوام، غير العبرية (الأمم)، وتكافئ العربية "أميون"، وهي التعبير القرآن عن "العرب" {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولاً مِنْهُمْ}، "النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ".

3 - أنظر: تاريخ مانيثون، ص 76 - 77. ويعملهم "بروغش" (المصدر السابق، ص 214 - 215) من "الأدوميين" استناداً إلى نقوش مصرية. والواقع أن هذه الأقوام كلها بأسمائها المختلفة ليست إلا فروعاً، قبائل وبطون، من "العروبيين" وهم كتلة بشرية واحدة تنوعت أسماء وصفات. هذا ما ينطبق

أهل الجزيرة بالذات. وهذا الرأي في عروبة "الهكسوس" أصبح مقبولاً غاماً لدى طائفة كبيرة من الباحثين وما يعتينا هنا هو التسمية التي أطلقت، وهي التي نقلت إلينا في لسان اليونان وانتقلت من بعد كما هي إلى بقية اللغات، ومنها العربية، وهكذا.. "هكسوس".

الاسم في صورته اليونانية Yksow's (Hyksos) منقول عن المصرية، وقد خضع لجملة تفسيرات، أولها ما ينقله "يوسفسوس" عن "مانيثون" - الذي كتب باليونانية - من قوله إن الكلمة تعني في المصرية: الملوك الرعاة King-Shepherds إذ تعني hyk: ملك و sos: راعٍ، أو رعاة. ولكن "يوسفسوس" يزعم أنه ورد في نسخة أخرى من تاريخ "مانبون" المفقود أن nyk و hak في المصرية تعني "أسير" / "أسري"، ولا يقدم دليلاً على ما يقول، وهو لعله أتى بهذا التفسير ليوائم ما يورده بعضه من حديث عن قصة يوسف حسب التراث اليهودي، ومر ادعائه أن "الهكسوس" كانوا هم بني إسرائيل الذين غزوا مصر واحتلوها مدة طويلة من الزمن.

واقع الأمر أن كلمتي hyk و hak في الصيغة اليونانية المنقولة عن المصرية كلمتان مختلفتان. فالأولى هي في المصرية "ح ق" وتعني: حكم، وجه، قاد، تسلط. ومنها مشتقات كثيرة جداً ترد في نفس الدلالة¹. ومحددها الهيروغليفي صولجان الحكم، ويكافئها الأستاذ "مارسيل كوهن" (Eassai) (Comp... بالعربية "حق" Légalité (= شرعية) باعتبار الحكم حقاً شرعياً لا تنازل عنه، مما يشبه القول بـ "الحق الإلهي" الذي عرف في أوروبا في العصور القربية نسبياً ويمثل اللقب الذي عرف به "سرقن"² البابلي في القديم. ومنذ فجر التاريخ كن "الحاكم" و "الحق" شيئاً واحداً - ولعله لا يزال !.

تماماً على ما يورده ابن خلدون في (تاريخه) عن أصل (البربر) مما ستعرض له بعد قليل.

1- معجم مدج، ص 512-513

2- اللقب مكون من كلمتين: "سر" ملك. العربية: سري = شريف، رفيع + قن = شرعي العربية: قانوني. أي: الملك الشرعي، الحاكم الحقيقي. في اللهجة: الحقاني (قارن تسمية وراة العدل مصر سابقاً: وراة الحماية = العدل، الحق).

أما الثانية hak فإن "وادل" ¹ يعلق بأن "يوسفوس" يتلاعب بكلمة "ح أق" haq المصرية التي تعني: "يقبض على، يأسر / أسر" ² وعربية هذه الكلمة إما "خلق" (= أحاط - واللام لا توجد في الهيروغليفية) أو "حوق"، "حقيق" بمعنى: أحاط، حوط - كذلك. هذا هو معنى "الأسر" أصلاً حين يحاط بالمأسور، أوحين يكتف مثلاً.

يبد أن الباحثين في جعلتهم تقبلوا فكرة أن "ح ق" المصرية تعني: حكم، حاكم (الحق) وهو المقطع الأول من "هكسوس" كما ورد إلينا عن طريق اليونانية (hyk): إذ كانوا هم الحكام ولم يكونوا الأسرى.

هذا عن المقطع الأول. أما المقطع الثاني فقد جاء في صورة SOS، وهي - كما يقول "مانيثون" - تعني "راع" أو "رعاة" في المصرية. ويعلق "وادل" (المصدر السابق) بأن هذا صحيح، فإن الكلمة المصرية "ش أس" تعني "بدو" هي التي صارت في القبطية shos (راع). بيد أن المعنى الأصلي للكلمة كان في ما يبدو المشي مطلقاً ³. وتفيد الكلمة ومشتقاتها: المشي، السعي، السفر، ومنها "ش أس و" = البدو الرُّحَّل (من: رَحَلَ) أي غير المستقرين في مكان.

الأستاذ "إمير" (H. Ember: Egypto - Semito Studies) يقابل الكلمة المصرية Sosawa بالاثيوبية (= أسرع في المشي، هرول) والعربية sis (= حصن، حطاف) لشهرة هذين الحيوانين بالسرعة ⁴. ومن لواضح تعاقب الشين المعجمة والسين المهملة وسقوط

1 - Waddell· Manetho, p. 85-

2 - معجم ينج، ص 464.

3 - المرجع نفسه، ص 727 - 728.

❖ في الحكايات الشعبية الليبية. وفي تونس، يسمى الخطاف: "أم سيسي"، وهي تسمية متداولة في الدارجة. وفي لغة الطغول يدعى الحصان: "صص". وفي اللهجة المعاصرة المصرية يدعى الحصان الصغير: "سيسي" صلة بالدواب، والخيول خاصة، ومنها: سائس = راعي الخيول ومروضها دخلت الإنكليزية عن طريق الهندية - كما يقول "معجم أكسفورد" الاشتقاق في صورة: syce,

sice

الهمزة من المصرية "ش أس" في المصرية ذاتها ؛ إذ نقرأ في معجمها كلمة "س س م" ssm
 (= روح من الخيل) وهي أصلاً صيغة جمع عروبية بالميم أخذت باعتبارها مفردة فكانت منها
 المصرية "س س م ت" ssmt بمعنى "فرس" (١).

ولم تنته الرحلة بعد ؛ فإن الجذر الشائي "س س" أدى إلى الثلاثي "سوس" من ناحية
 ومه : سياسة الدواب ساسر ، يسوس) أي القيام عليها ، وسياسة الناس ، أي ترويضهم
 أو تسييرهم) ، والسياسة : فعل السائس في (في لغتنا الحديثة انبثقت منها : السياسي ، على
 النسبة ولم تكن معروفة في القديم) ثم الثلاثي "سيس" من ناحية أخرى وفي هذه المادة ورد في
 "اللسان" :

"يقال : هؤلاء بنو ساسان للسؤال ، أي للمتسولين أو الشحاذين" (٢). فمن أين جاء
 هذا التعبير؟

الجواب يكمن في أن "السوان" ليسوا إلا سعاة من باب إلى باب فهم "رحل" أصلاً لا
 يستقرون. وهذا ما يعود بنا ثانية إلى الكلمة المصرية "س س" في المقطع الثاني من هكسوس في
 معناها الأصلي وما تطور إليه بعد ذلك من معان تعد عن الأصل.

1- معجم بدح ، ص 696

** يعرفون أيضاً بـ "المكدنين" و "بني ساسان" تردد ذكر "بني ساسان" بمعنى المتسولين في (المقامة
 الخلوبي) للحريزي وفي (المقامة الساسانية) لديع الزمان الهمداني . وقد ناقش الكثيرون مشأ كلمة "ساسان"
 "ودهبوا في ذلك مذاهب شتى ، فمتهم من جعلهم من الفجر (الزط ، أو السور) يتمون إلى
 طقة "السوداس" الهندية الوضعية ، ومنهم من جعلهم يتمون إلى الدولة "الساسانية" الفرسية بعد أن
 سحقها الإسلام ، فانقلب لقب الشرف والعز إلى معنى التحقير ، وبين القائلين بهذا الشيخ محمد عبده
 في شرحه لمقامات بديع الزمان . كما عالج المسألة الدكتور طه الحاجري في تحقيقه على كتاب (البخلاء)
 للجاحظ . وقد يائنه الدكتور جميل سلطان في كتبه (في القصة والمقامة) أي أن النون في "الساسان"
 ريدة ولعلها في الأصل نون تنوين ، غير أنه ذهب إلى صلة "بني ساسا" بطائفة "السوداس" الهندية
 (الزطية / المعرية) (انظر التفصيل في مقدمة فاروق سعد لمقامات بديع الزمان الهمداني ، دار الاماق
 الجديدة بيروت 1982 م . ص 18 - 20). لكن احداً ، في ما يبدو ، لم ينتبه لعلاقة "الهكسوس"
 والمقطع الثاني بالذات من لكلمة ب(بني ساسا) وما ناقش في هذه الصفحات .

الطريف أن هذه الكلمة الرحالة في جذورها "س س" موجودة حتى اليوم في اللهجة الليبية المعاصرة: "ساساي" + سائل، شحاد، وتجمع على "سواسي" وتفعل: "يساسي"، والاسم / المصدر: "مساسة". بل هي انتقلت إلى اللغة المالطية فكانت "سيسيا" Sisiya "سؤال، طلب، تسؤل".

على هذا الأساس ترجمت "هكسوس" إلى الإنكليزية KingsShepherds: (الملوك / الرعاة / الرعاة الملوك). وقد سرت هذه الترجمة وانتشرت. وصحيح أن تطور الدلالة قد يؤدي إلى هذا المعنى ولكننا عرفنا أن الجذر "س س" يعني في اللغات العروبية، ومنها المصرية، "الحصان" ومن المسلم به تاريخياً أن وادي النيل لم يعرف لأهله استخدام الحصان قبل هجرة "الهكسوس" إليها، إذ هم الذين جاءوا باستخدام عربات القتال في الحرب وهوسيب انتصارهم في معاركهم ضد أهل البلاد الفارين¹ ومن هنا نرى أن معني اسمهم شغبي أن يكون: "ملوك الخيل" بدلاً من "ملوك الرعاة" أوهم "أصحاب الخيول"، أو "أهل الخيل" *

يتحدث ابن خلدون في تاريخه (العبر) عن قبائل (البربر) وأنسابها حديثاً مشوشاً بنقول متناقضة صارخة التناقض. ومن نافلة القول أن عبقرية ابن خلدون التي تجلت في "المقدمة" تبدو في "تاريخه" وكأنها مسحت تماماً: إذ تكاد تنعدم لديه روح النقد والتمحيص، فإذا نقد قولاً كان نقده أغرب من القول وأشع. وعلمياً لا يمكن التعويل على ابن خلدون، وأصرابه من الاخباريين العرب، إلا في ما ندر أو قرب منه تاريخاً وأحداثاً.

والذي يهمنا هنا حديثه عن قبيلة "هواره"، التي تكتب أحياناً بصم الهاء أحياناً

1 - Rawlinson; Ancient Egypt 132-146

* عودة إلى المقطع الأول "ح ق" hq (هك حق) إذ هي مستعملة الآن في بعض الاقطار العربية بمعنى. صاحب، مالك، ذو (= تاع - في لهجات أخرى) = الانكليزية of (أداة الملكية). بهذا تكون "ح ق. س س" (Those) of The Horses = أصحاب / أهل / ذوو الخيول.

بفتحها، وهي قبيلة مشهورة وافرة العدد ذات فروع كثيرة. فترى ابن خلدون يجعل "هواره" هذه مرة ممن يسميهم "البراس" من البربر، أبناء "هوار" بن "أوريغ" الذي كان أحا لصنهاج ولط (أبوي قبيلتي صنهاجة وبطة) من ناحية الأم. ومن "هوار" هذا كانت قبائل أخرى من "البت" صمر أربعة اجدام. وينقل مرة عن الصولي البكري القول بأن هواره ولطه ولواته يتسبون إلى حمير بن سبا، كما يورد القول بأن هواره ترعم انها من كندة من "السكاسك".

عن أصل "البربر" يورد ابن خلدون أقوالا كثيرة: فهم من أبناء ابراهيم، وأوراع من اليمن، أو فلسطين " فلم وصلوا مصر معهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا في البلاد ". وهم من ولد النعمان بن حمير بن سبا، ومن ولد جالوت وأخلاق من كنعان والعماليق، وقائل شتى من حمير ومضر والقيط والعماليق وكنعان وقريش، تلاقوا باشام واستحاشهم "أفريقش" لفتح أفريقية، "والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح... وأن اسم أبيهم مازيغ... وإخوانهم نوكلوحيهم بن مصرائيم بن حام... وقال الصولي البكري: إن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام فانجلى بنوحام إلى أهل المغرب.. وقال بعض أهل الآثار إن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام فوقعت بينهم مناوشات... وخرج حام (الأصل سام) إلى المغرب وقدم إلى مصر وتفرق بنوه ومضي على رجله حتى بلغ السوس الأقصى، فخرج بنوه في إثره يطلبونه فكل طائفة من ولده بلغت موضعا وانقطع عنهم خبره، فاقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه ووصلت اليهم طائفة، وتناسلوا هناك "

من هذا الخلط الفاجع يمكننا أن نلاحظ الصلات الوثيقة بين "البربر" عروبيي المغرب - من جهة والكنعانيين والعماليق، والمصريين، والفلسطينيين، واليمنيين، واششوام - عروبي المشرق - من جهة أخرى بل يرى الصلة بين "بني سام" وبني حام "الذين كانوا امة واحدة حتى "نزغ اشيطان بينهم" فتفرقوا وسبب هذا الخلط، في ما نرى يعود إلى أن ابن خلدون، ومن نقل عنهم من الإخباريين، كان يصير دائما على ارجاع نسب كل قبيلة، أو شعب، إلى حد اعلى لا بد ان يكون معروفا اسمه ونسبه، تنفرع عنه البطون والأفخاذ حسب الأبناء

وأسمائهم، ثم يتفرع هؤلاء ومن جاء بعدهم.. هكذا - كالشجرة ذات الفروع، ومن هنا جاءت فكرة (شجرة النسب) المعروفة جيداً في التاريخ العربي.

هذا التقسيم النسبي Geneological أدى إلى ما نعرف من ارتباطك في تاريخ القبائل والشعوب العروبية القديمة، وهو تقسيم مبني - للأسف الشديد - على التراث اليهودي التوراتي بما فيه من اضطراب يبدو من التقسيم الأول لأبناء آدم في "سفر التكوين" (*) ولكن تظن - رغم كل شيء - قبساتهما وهناك يمكن الاهتداء بها وتدعيمها على أساس من البحث التاريخي (الآثاري واللغوي) المقارن.

فلنرجع إلى "هواره".

خذ مثلاً قوله إن هواره تزعم أنها تنتمي إلى "السكاسك" فمن هم "السكاسك" هؤلاء ؟

ورد في (اللسان):

"سكسك بن أشرس، من أقيال (الملوك) اليمن، السكاسك والسكاسكة. حي من اليمن أبوهم ذلك الرجل والسكاسك، أبوقيلة من اليمن، وهو السكاسك بن وائلة بن حمير بن سبأ، والنسبة إليهم: سكسكي".

وملاحظاتنا:

- 1- لماذا اختلفت التسمية ما بين "سكسك (بن أشرس) مرة و"سكاسك" (بن وائلة) مرة أخرى ؟ الأولى مفردة والثانية جمع.
- 2- لا وجود تاريخياً لـ "وائل بن حمير بن سبأ". فكلمة "سبأ" ليست اسم شخص بل هي اسم شعب. وبدا فإن التسلسل النسبي باطل، مثله مثل بقية الأنساب.
- 3- كثير من الأسماء في الأنساب موضوع ومطعون فيه، فقد كان المسابون وضاعين

❖ انظر (الإصحاح الرابع) عن قعب آدم وقارنه بما ورد في (الإصحاح الخامس) من "سفر التكوين"

معروفين لعوامل كثيرة مختلفة^(٥).

بعد هذا ما الذي يمنع أن نكون "اسكاسك التي انتسبت اليها" هواره "هي ذاتها تحريفاً عربياً لليونانية "هكسوس" التي كانت تحريفاً بدورها للعروية المصرية "ح. ق. س. س" كما مر البيان ؟

أنها بقايا ذكريات التسمية القديمة طلّت سارية في شمال أفريقيا حتى جاء المتح لإسلامي فقرن بينها وبين "سكاسك" اليمن ، مهما كانت نشأة هذه التسمية في الأسطورة والتاريخ.

هل يبدو هذا القول غريباً ؟

فلردفه بقول آخر... عن أصل تسمية "هواره" ذاتها: ابن خلدون ينسبهم إلى "هواره" بن "أوريع"*** في ذلك الخلط المشوش كما رأيت.. من (البربر) المترتاره ومن البراس تارة أخرى ، أوهم - كما يرعمون - من حمير بن سبأ ، فلنعد إلى "الهكسوس".

تحدث المراجع عن أن "الهكسوس" استقروا لمدة طويلة من الزمان حكاماً في شمال وادي النيل ، وكان سلطانهم مسوطاً على الجنوب أيضاً نفوذاً وسيطرة. وتحدث عن مدينة

❖ قارن. كتاب الاكليل. للهمداني، تحقيق محمد علي الأكوع، منشورات المديّة، ط3 بيروت 1986م الجزء الو، ص 358 وفيه يتضح الخلط والانتراك في الأنساب، ومن ذلك الحديث عن سكسك، أو السكاسك، بن أشرس وغيره .

❖ وفي ربط ابن خلدون بين "هواره" و"أوريع" يمكن أن نلاحظ الصلة بين عاصمة الهكسوس "هور" hwr والعاصمة السومرية "أرك" (Ur-Ki)Uruk التي تعرف في لتوارة في صورة Erech وهي تعرف الآن في العراق بصورة "الورك" Warka التي سيلي الحديث عنها بعد قليل . وفي ظني ان الاسباب التي يسردها ابن خلدون وعمره من الاخباريين المسلمين تحتاج الى اعادة نظر ودراسة جديدة على ضوء الاكتشافات الاثرية واللغات العروية القديمة ، إذ لا ريب عمدي في أن كتابات هؤلاء الاخباريين من مثل المسعودي ورفاقه تحتوي على أصداء من الماضي البعيد مشوشة بحكم بعد الزمان وعدم معرفتهم باللغات القديمة ، فانهلمت لديهم إمكانية البحث المقارن والتمحيص الدقيق .

شهرة بنوها وكانت عاصمة لهم* يكتب اسمهما في المصادر بأشكال مختلفة وإن تقاربت : في المصرية : " ح ت . وع ر ت " ** .

(عاصمة إقليم " إ م ن ت " = I m n. t. Libya Mareotis .

" ح ت . وع ر . ع م ن ت " .

(قسم من عاصمة إقليم " إ م ن ت ") .

(معجم بدج ، ص 1015) .

في اليونانية Theolodoas Avarin (ثيولوجباس أوارين) .

(أوارين الدينية / المقدسة) .

(تاريخ " ما نيثون " ، ص 80) .

في الانكليزية: تنقل عن اليونانية في شكلي (Avaris, Auaris)¹ .

فاسم عاصمة " الهكسوس " هذه لا يعني شيئاً سوى : " المدينة " ، أو ما يؤدي الى معناها من الإحاطة والتسوير ، أو الإقامة والاستقرار . ولنا في تاريخ تسميات المدن الكبرى أمثلة تشير

❖ لم يحدد موقع هذه العاصمة بدقة ، وإن انعق على انها كانت في شرق الدلتا ، وقد ربط موقعها بـ " بوبا ستيس " Bubastis (تل السطة) وبـ " سايس " Sais (ص الحجر ، أو صارا الحجر) ، أو " تانيس " Tanis (نس) ، واماكن اخرى . (أنظر : - 80 Waddell;Manetho,p 81) ومن رأي " رولسون " Rawlinson;Ancient (Edypt,p 138-139) أن " الهكسوس " بواصد عديدة منها العاصمة Avaris على فرع رشيد و " زوان " Zoan (كما ترد في التوراة) وهي " صا / صان " والتي هي موقع يسمى (ميت فارس) الآن عند القنوم .

❖ لاحظ ان المصرية " ح ت " تعني : قنار ، بيت ، قلعة . عربيتها : " حط > حيط / : حائط " . باعتبار " و (ع) ر " صارت اسم فأن " ح ت . وع ر ت " = قلعة " ح ت . وع ر . إ م ن ت " " قلعة مدنية (إقليم) إمنت " .

1 - Rawlinson, Ancient Egypt, 138.

إلى أن الأصل فيها هذه الدلالة^(*). لذا فإن البحث يتجه نحو مكافئ عربي للصيغ التي أردنا، فالمصرية "وعر" هي في الواقع "ور" فإن العين في الكتابة الهيرغليفية كثيرا ما تضاف ونجدها تسقط عند المقابلة بالعربية، أو العروبيات، أو تبدل^(**) واليونانية "اوارين" auarin و"افاريس" avaris في الأصل - aur (اور)، ومعلوم جدا أن الهاء في العروبيات تقلب في اليونانية القديمة همزه، وفي اليونانية الحديثة حست الهمزة محل الهاء في اليونانية القديمة حتى في الأسماء، وهو أمر معروف. فالأصل في اليونانية إذا هو "هور" - "أور" ولعل هذا هو الأصل الأصبي لاسم عاصمة "الهكسوس": "هور"^(***).

فما المقابل العربي؟

إنه في مادة "ح ور" في السبئية.

في معجم "بيلا"¹ نجد أن "ح ور" في النصوص السبئية تفيد معيين: (1) الذهاب. (2) الاستقرار وقد يدوان هاتين الدالتين متضادتان ولكن الأمر ليس كذلك: فمعني الذهاب والمضي (وأحيانا: الإياب) يأتي من "حور" بمعنى: مشى، سعى، قدم^(****).

♦ قارر. (أو غاريت) Ugarit - عاصمة الكنعانيين = "قوت" = (ل) قرية. و"قرطاج" < "قرب" يحدثت "القرية" (أو غاريت) الحديثة = الجديدة. "مصر" = المصورة / المسورة. "أيدوس" < (أ) د" (عاصمة الجنوب في مصر) = ابد = مدن = مدينة.

♦ قارن مثلا المصرية "نعر" (ماء) الأكادية "نارو" nar العربية "نهر".

♦ "برغش" وحده. في ما اطلعت عليه من مراجع اجنية، يكتب الاسم Hauar، وأن ذهب في التحليل معاء مدها آخر (History of Egypt, Vol. 203-4) وقد فعل الشيء نفسه الدكتور عبد العزيز صالح (حصارة مصر القديمة، ص 40-39) الذي يكتبها "هواره" عن الاصل القديم "حت وعرة" ويقول إنها تسمية يصعب تفسيرها فهي قد تعني: قصر الربوة، أو قصر الناحية، أو دار الساق. وهو في هذا تتبع تفسرات العلماء الأحاب تفسرنا نحن أن "حت" = "وعرت" = (ل) "حت" = حط، حائط = مدينة + (2) "وعرت" = "وهرت" مقلوب "هورت". والتناء في آخرها للتأنيث = (مدينة هور) = هواره.

1 - J. Biella, Dict., 170 1

♦♦♦ قارن القرآن الكريم (إنه ظن أن لن يحور) (الانشقاق: 14) أي لن يعود.

وتقارن بالاثيوبية " حورا " Hora = يذهب (♦♦). والأصل : التردد (♦♦)، الدوران حول، أي : الحيرة (حور = حبر)، أما معني الاستقرار فقد جاء من " حور " ايضاً بمعنى الإحاطة والشمول، الدوران.. إذ تبني المدينة، أو القرية أو المستقر مهما كان، فتحاط بسور حولها، يحورها = يحوطها، يحويها، هنا نقارن " ح ور " (= مدنية) بالعربية : " حارة (♦♦♦) = قسم من مدينة. وفي لهجة جنوب الجزيرة العربية المعاصرة : حارة = قرية (♦♦♦♦) (المصدر نفسه - مع نصوص مقارنة).

كيف تحولت " حور إلى " هور " ؟

الأمر لا يعدو تعاقب الحاء والهاء - وهما من مخرج صوت واحد - وكثيراً ما يتعاقبان في العربية ذاتها (قارن : مدهه = مدحه).

كان اسم عاصمة " الهكسوس " في مصر إذا هو " هور " وطبيعي جداً أن ينسب الصوم إليها فنحن نعرف الكثير عن هذه النسبة إلى المدن (الساليون نسبة إلى " باب - إل " = مدينة إل " والأشوريون نسبة إلى مدينة " أشور " وقس على هذا : القرصاجيون = قرطاجة، المصريون = مصر (المصر = المدنية)، وعشرات الأمثلة في القديم والحديث). فهم : انهواريون = البوارة ♦♦♦♦.

فما الذي حاء بهم إلى شمال أفريقيا، ليصبحوا قسماً من قائل (البربر) با تری ؟

التاريخ يحكي عن ثورة الجنوب على الشمال في وادي النيل، وزحف الجنوبيين على

♦♦♦ في اللهجة الليبية : ذهب = ضل، احتار. " اندهيت شيرته " = حار في أمره = ضلت مشورته

♦♦♦ مادة " حور / حبر " أدت إلى تسميات مد أخرى في لوطر العربي من مثل. " الحيرة " (عاصمه المازرة) و " حوران " في بلاد الشام.

♦♦♦ كذلك بمصراته في (ليبيا) بمنطقة الزروقي، هناك قرية كانت تسمى " الحويرة "

♦♦♦♦ بوژن فعالة قارن : خرازة - حرارون، فحمة = فحامون، بحارة = بحارون، حالية = حاليون، نظارة = نظارون

اشمالين أي على "الهكسوس" - تماماً كما فعل "مينا" في الألف الرابعة قبل الميلاد. وهو الزحف الذي أحيط بهالة كبيرة من التزييف والمبالغة في المصادر المصرية (إذ من طبيعة أي نظام حكم جديد أن يسيء إلى سابقه، ليبرر سيطرته هو) وفي كتابات علماء الغرب عن تلك افتره من تاريخ الوادي، لأهداف لا تحمي عن الناظر المتفحص. كانت الثورة، أو الزحف الجنوبي، بقيادة "أحمس" كما هو معروف وهو الذي صار بطلاً "قومياً" بعد ذلك وقد سقطت "هواره" العاصمة "الهكسوسية" وسقط بعباً لذلك نظام حكمهم. وقبل إهم "طردوا" من مصر وأعيدوا ادراجهم من حيث اتوا... جمعياً بدون استثناء، فرداً فرداً، كل "هكسوسي" وكل هكسوسية" عن بكرة أبيهم، نحو الشرق.

هذا هذا معقول ؟

يذكر "مانيثون" في تاريخه (ص 83) أن حامية "هور" وحدها كانت تتكون من 240000 (مائتين وأربعين ألف) جندي مدجج بالسلاح، فكم كان يبلغ عدد "الهكسوس" إذا، وقد كانوا يحكمون الدلتا كلها بأقاليمها حكماً مباشراً ويسيطون نفوذهم العسكري والسياسي والاقتصادي على الصعيد ؟ وتقول بعض المصادر إن حكم "الهكسوس" استمر خمسمائة عام، وفي مصادر أخرى مائتي عام فلنأخذ بالمتوسط.. ثلاثمائة عام فكم تراهم تامراً في تلك الفترة ؟ وهل من المعقول أنهم لم يندمجوا بعناصر السكان في الوادي ؟ ثم لماذا يعودون إلى الشرق وحده، وهو الذي جاءوا منه ؟ أليس من المعقول أن ينتشروا، بعد انتهاء حكمهم شرقاً وغرباً اعني أن يسبحوا في الأرض ؟

وقد قرأنا عند ابن خلدون بقية من فكرة تقول إن "حام خرج إلى المغرب وفدماً إلى مصر وتمرق بنوه ومضى على وجهه حتى بلغ السوس الأقصى، فخرج بنوه في إثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً ونقطع عنهم خبره أقاموا بذلك الموضع وتنازلوا فيه ووصلت إليهم طائفة وتنازلوا هناك". أوفوله عن مجيئ (لبرير) من فلسطين: "فلما وصلوا مصر معهم ملوك مصر النزول، فعبروا النيل، وانتشروا في البلاد صاع كلمة "الهكسوس" بدلاً من "حام" (ولا تنس أن الهكسوس قيل إهم من الكنعانيين وهم في التوراة من ولد حام) أوبدلاً من (البرير) لذين قدموا من فلسطين تجد الصورة منطبقة. ولن نناقش

التفاصيل ، وإنما المهم أنه كانت هجرة من الشرق ، عبر مصر ، إلى المغرب ... وهي واحدة من هجرات كثيرة متواصلة متبادلة بين المشرق والمغرب ، في أي صورة كانت هذه الهجرة .

فلنقل بعد هذا إن الهكسوس " (أهل مدينة "هور" = "هوار" = "هواره" غادروا _ أو على وجه الدقة : غادر بعضهم _ العاصمة التي سقطت ، فمنهم من غرب ومنهم من شرق ، ومنهم من صار جزءاً من سكان مصر واندمجوا في تلك البوتقة العظيمة الصاهرة ، فالذين غربوا كانوا قبيلة هواره (البربرية) ولا نستبعد هنا العودة التي نشأت الاسم الأول (هور = حور) ، فكانوا هواره " بمعنى "الرحل" البدو الساعين أبداً _ يحورون هنا وهناك .

أما الذين شرقوا فقد كان لهم حديث آخر يهنا منه رواية "يوسفوس" عن "ماشون" أن ، حوالي ريع مليون من "الهكسوس" غادروا مصر شرقاً ، بعد معاهدة صلح مع "أحمس" ومضوا إلى الشام ، وهناك "بنوا في الأرض التي تدعى اليوم "يهودا" judaea مدينة على قدر من الضخامة تتسع معه لتلك الآلاف من الناس ، وأطلقوا عليها اسم (أورشليم) "Jerusalem" ¹ .

أما معنى التسمية فهو باتفاق "مدينة السلام" وكلمة سلام / سَلَمٌ العربية كلمة عروبية قديمة جداً ، وجدت في نقوش "رأس شمرا" الكنعانية "ش ل م" s l m واستعملها الفرعون "مرنپتاح" أواخر القرن الثالث عشر في لوحة انتصاراته على (الغزوالليبي الأول) "ش ر م" s r m " (ر = ل) ² . وفي البابلية تدخل في اسم "شلمصمر" : "شلم + نصر" ؛ كما تدخل في اسم "سلمن" = "سليمان" . وهي المقطع الأول من اسم المدينة المقدسة .

ويلفت النظر فعلاً أن يبنى الهكسوس "الذين وصموا بكل نقیصة ، فهم القتلة وسفاكوا الدماء والمحربون وداحجوا الأطفال والنساء ، أن يبنى هؤلاء "المجرمون" مدينة جديدة في "منقاهم" فيسمونها "مدينة السلام" . وحتى لو قيل لنا أن "سلم / ش ل م" اسم اله معبود لديهم فما من شك في أن التسمية تدل على السلام والأمن والطمأنينة وتطبق على

1- تاريخ "ماينون" ، ص 89 .

2- معجم بدح ، 727

معبود رحيم طيب، يخالف كل المخالفة معبود اليهود "يهوه" من بعد بكل فظاعته وفظائعه الدموية.

شيد "الهكسوس" مدينة السلام.. "أورشليم" وقد تبين المقطع الثاني من الاسم المركب، ويبقى المقطع الأول: "أور" أو "أر" ur، ومعناه _ كما قلنا: "مدينة" وهو ورد في النص اليوناني IEPO، وينقل الى اللغات الأوروبية jeru (حرف لينطق أحياناً ياء، فارن heheluja = هللوياء). والعجيب أذ الاستاذ "وادل" waddell مترجم روايات تاريخ "مانيثون"¹ يورد أسماء مدن فيها هذا المقطع من مثل (jeru-ba al). (مدينة بعل) jeru-e ا، (مدينة إل)، Jeru - wstas (مدينة وتش)، ويقول أنه "غير (سامي)"^(١)

أنظر إلى اليونانية IEPO(hero) نجد الحرف الأول منها مبدلاً من الهاء - كالعادة - في (هيرو) والهاء مبدلة من الحاء في "حر" التي تعادل بالضبط "حور" (السبئية "ح ور") ومن الأولى "الحيرة" ومن الثانية "حوران"، على سبيل المثال، وكلاهما = قرية، مدينة، بلد

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نجد كلمة "أر" ur بمعنى "مدينة" في النقوش الأكادية بالقلم المسماري (ur > Uru) وهي صارت بالتميم (كما في السبئية = في العربية: التنوين): Urim, Urum في حالتي الرفع والجر (والأكادية لغة معربة - أي تظهر الحركات في أواخر كلماتها كالعربية)².

ولعل هذه الكلمة داتها كانت في عربية ميمية "إرم"^(٥). ويقرر الاستاذ "ألرايت"¹ أن

1 - أنظر صفحات 88 - 89

2 - أنظر في ذلك: رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة العربية، ص 369 - 395.

❖ وهي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (أنم بر كيف فعل ربك بعاد ❖ إرم ذات العماد ❖ النبي لم يخلو مثلها في البلد ❖ ونمود الذين جابو الصخر بالواد ❖ وفرعون ذي الاوتاد) (سورة الفجر، الآيات 6-10) وقد نسبت "إرم إلى عاد، وهذا لا يجمع ان تكون نفس التسمية في اعراق أو غيرها من أقطار الوطن العربي، فإن أسماء مدن كثيرة تترد في أقطار عديده (حصر موت في جنوب الجزيرة، وحصر موت (سوسة) الآن في تونس، على سبيل = المثال فقط) ويذكر مؤلفا كتاب (ابلا - لنز آثاري Edla, An Archaeological Enigma p.191) انه عثر في اثارها على أسماء "ثمد" في صورة

تعبيرات صوتية حديثة دون شك في نطق هذه الكلمة وهي ذاتها^{❖❖} Uruk المدنية السومرية العتيقة.

وقد يقول قائل عن الكلمة سومرية الأصل ، وليست عروبية ، أو "عير سامية" كما قال "وادل" وذلك باعتبار السومريين عصرًا قطن بلاد النهرين قبل وصول (الساميين) ، وهذا رأي شائع عند الباحثين ومنهم العرب للأسف ، تدحضه المقارنات اللغوية بين السومرية ، وبقية اللغات العروبية ، ويدحضه قول باحث معروف هو الاستاذ "الرايت" في (تاريخ كمبريدج القديم) إن "كثيراً من العلماء اليوم يميلون إلى القول بأن (الساميين) كانوا هناك (في العراق) في نفس الفترة المبكرة (من التاريخ) التي فيها لسومريون ، وأنهم أثروا في الأخيرين مثلما أثر الآخرون فيهم"¹

هكذا إذا كان الأمر : جاء : الهكسوس " إلى مصر في إحدى الهجرات الكبرى من المشرق وسيطروا على الوادي قروبا ، ثم انتهى ملكهم بسقوط عاصمتهم "هور" فمضى فريق منه غرباً وكانت قبيلة "هواره" وعاد فريق آخر إلى الشرق ، واستقر في فلسطين وبني "مدينة السلام" (أور - شليم) كما يعترف "يوسفوس" المؤرخ اليهودي ذاته ، ولعلها كانت تنطق "هور" أبدلت الباء همزة ، كما تعاقبت الحاء في "حور" فهي مدينة عربية منذ فجر

Shamutu وعاد "Ad" و"أرم" Iram مما يطابق ما في القرآن الكريم أما كيف تتحول الكلمة مبعمة إلى اسم علم فإننا نضرب مثلاً من اللهجة الليبية المعاصرة ، إذ نجد فيها كلمة "بسمية" بمعنى "حجر" وتجمع على "بنميات" (أحجار) واسم الجنس منها "نيم" ، ولا جدال في أن هذه الأخير صيغة جمع باميم ل"ن" = ححر في اللغات العروبية^٢ ، ومما يبيّن بناء "نيم" تماثل غاما "أر" < أريم " ثم سهلت إلى "أرم" بكسر الهمزة في أولها .

1 - The Cambridge ancient history, vol.I, 149.

❖❖ هي ذاتها في التوراة Erech ، وتطلق اليوم على السمة عرب العراق "وركاء" Warka Krame,, The Sumerians, p.27) وقد تكون "أرك" ذات صلة بتسمية "العراق" وبلاحظ أن الأصل هو Ur فهو متطور عن المحدد KI في السومرية الذي يعني : بلاد ، أرض (قارن العربية : قيا = أرض) وتأتي nخر الكلمة URU-KI Uruk (= حرفياً : بلاد أور ، أرض أور)

التاريخ وقبل أن يظهر العبرانيون على مسرح التاريخ بثبات السنين. وعندما جاء هؤلاء إلى فلسطين عزاها وجدوا "مدنية السلام" فائمه مزدهرة، مدينة مقدسة، وقد صار اسم أهلها "الكنعانيين" (تذكر: في بعض الأقوال أن "الهكسوس" أصلا كنعانيون) وأسماءهم العبرانيون: "العناقيم"، أي: العماليق، "الجبارين" بلغة القرآن الكريم^(٥).

هذا ما كان من أمر من شرف من عرب (لهكسوس) أما من غرب منهم فقد قطن نواحي برقة وطرابلس أولا، ثم ساح غربا فسكن تونس وما بعدها حتى المغرب، وانزاح إلى الجنوب فعمر فزان وبلاد الصحراء وعرفوا باسم "هواره"... قبيلة عظيمة لها في التاريخ شأن أي شأن. وهم كانوا "هكارة" في بعض اللهجات.

تاريخ متشابك ما بين مشرق الوطن العربي الكبير ومغربه، متصل بعضه ببعض، مرتبطة أجزاؤه، لا تنفصم عزاء مهما حاول المقرضون وزيف المريفون.

❖ (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين) (المائدة 22) كان ذلك قول يهي إسرائيل لنبيهم عندما طلب منهم القتال ولم يدخلوها في عهد موسى، حتى جاء ودخلها عازيا كما هو معروف.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة (الآمازيغية)

ولغات الشرق الأدنى القديم

د. محمد علي عيسى

جامعة الفاتح - طرابلس

اصطلح الكثير من باحثي التاريخ القديم على تسمية منطقة المغرب العربي باسم المغرب القديم، وذلك تسهيلاً لدراسة هذه المنطقة خلال عصورها التاريخية القديمة. والحديث بالذكر أن العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر، أطلق هذا الاسم على هذه المنطقة منذ أكثر من سبعة قرون مضت¹. هد من جهة، ومن جهة أخرى أطلق المؤرخ اليوناني (هيرودوت) على نفس المنطقة السالفة الذكر اسم ليبيا وعلى السكان أسم الليبيون². وبالتالي فإن ليبيا والليبيون القدماء هي نفسها المغرب القديم وسكان المغرب القديم

ومن خلال استنتاج التي تم التوصل إليها من المعطيات الأثرية والأثروبولوجية، تم التأكد على أن الليبيين القدماء، الذين حلوا بمنطقة المغرب القديم منذ عصور ما قبل التاريخ كانوا عبارة عن هجرات قدمت من مناطق شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين، وهو الأمر الذي جعل اللغة الليبية القديمة (الآمازيغية) جزءاً من ذلك الواقع اللغوي لتلك المناطق التي اصطلح العلماء على تسميتها خطأ بالسامية، وهو ما فضلنا تسميتها بالعربية القديمة، ولذلك فاللغة اللبسة القديمة هي جزء من تلك لمجموعة اللغوية العربية العريقة في القدم. وقد أشار إلى ذلك الكثير من الباحثين المرموقين، وعلى رأسهم الألماني

1- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي

السلطان الأكبر (الجزء السادس)، مؤسسة حمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979م، ص 83

2 - Herodote , Histoire , (texte établi et traduit par Ph. E legrand), societe d edition (les belles lettres), Paris , 1968 , IV , 181-187

(روسر). وكان للهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية الدور البارز في تكوّن الممالك والإمبراطوريات في مناطق ما بين النهرين والشام ووادي النيل وشمال إفريقيا، ولم تكن هذه الهجرات السبب المباشر في تكوّن تلك الجماعات السكانية التي كونت تلك الإمبراطوريات والممالك فحسب، بل كانت السبب المباشر في ظهور اللغات واللهجات الكثيرة التي اصطلح العلماء على تسميتها فيما بعد باسم اللغات السامية¹ والحامية.

ومن أبرز تلك اللغات التي ظهرت بتلك المناطق اللغة الأكادية التي تفرعت عنها البابلية والآشورية، واللغة الآرامية التي تفرعت عنها السريانية والنبطية والتلمرية، واللغة الكنعانية التي تفرعت عنها الأوغاريتية والعبرية والمؤابية والأدومية والقرطاجية، واللغة العربية احنوبية التي تكوّنت من اللغات المعينية والسنية والحضرية والقنانية والتي تفرعت عنها الأثيوبية (الحعزية والتبحرينية والأمهرية والهررية)، ولغات شمال شبه الجزيرة العربية التي تتكون من الثمودية واللحانية والصمونية والعربية الفصحى². وقد نتج عن تلك الهجرات أيضاً ظهور اللغة المصرية القديمة (الهروغليفية) في منطقة وادي النيل واللغة الليبية القديمة (الآمازيغية) في منطقة المغرب القديم. وقد اتفق معظم الباحثين على إرجاع كل هذه اللغات إلى لغة أساسية أولى أطلق عليها اسم اللغة السامية الأم، وهي بالتأكيد اللغة العربية القديمة، التي كانت لغة المجموعات المهاجرة من شبه الجزيرة العربية، والتي بدأت في الوصول إلى تلك المناطق منذ عصور ما قبل التاريخ ولهذا السبب يجد آثار هذه الوحدة اللغوية ظاهرة بكل وضوح على كل تلك المجموعات السالفة الذكر من خلال وحدة الثقافة والتفكير العقلي المتقارب.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة (الآمازيغية) واللغة الأكادية

تنسب اللغة الأكادية إلى الأكاديين الذين وصلوا منطقة ما بين النهرين عن طريق

1- أحمد، محمد خليفة حسن، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء للطباعة والشر والتوزيع، القاهرة، 1998م ص 39

2- هبو، أحمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم (1) سورية، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1999م، ص 65.

هجرات جاءت من شمال شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد. إن عملية مقارنة اللغة الأكادية باللغة الليبية القديمة (الأمازيغية) يثير الكثير من الدهشة لدى المشككين في انتماء الليبيين القدماء لمناطق شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين، بسبب التشابه الكبير بين اللغتين الليبية والأكادية، رغم وقوع الأكادية في أقصى شرق الوطن العربي، ووقوع اللغة الليبية القديمة في أقصى غرب هذا الوطن، ويبدو ذلك التشابه واضحاً من خلال اشتراكهما في مراحل تطورهما من خلال ما يطلق عليه اللغة السامية، ونجد اللغة الليبية القديمة تتشابه مع اللغة الأكادية في المجالات الصوتية والصرفية والمفرداتية. وقد أشار العلامة الألماني (روسر) أن اللغة الليبية القديمة تلتقي مع اللغة الأكادية في عدد كبير من الجذور، وهو ما يؤكد وحدة الأصل، والقربة المعجمية بين اللغتين. وقد كانت اللغة الليبية القديمة لا تميز بين المعرفة والنكرة، حيث لا توجد بها أداة للتعريف شأنها في ذلك شأن اللغة الأكادية¹، ومن خلال كل ذلك تتضح قرابة اللغتين، وهو الأمر الذي يؤدي إلى خطأ ما حاءت به نظريات اعلم الإستعماري حول الأصل الأوربي لسكان المغرب القديم، الذي ما زال يُروج له الإقليميون وأعداء الأصل المشترك لسكان لمنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة المصرية القديمة (الهيروغليزية)

يؤكد الكثير من الباحثين اللغويين بأن اللغة المصرية القديمة (الهيروغليزية) ذات صلة أكيدة بما يسمى اللغة السامية الأم ويستدل أولئك لباحثون على هذه الصلة من خلال احتواء اللغة المصرية القديمة لحروف الحاء والعين والقاف، وشيوع لمصدر الثلاثي لألفاظها، واستخدامها صيغة المثني، والتأنيث بإضافة التاء، واستخدام باء النسبة وكاف الخطابات ونون الجمع، وتشابه عدد الضمائر فيها مع الضمائر في ما يعرف بالسامية الغربية، واشتراكها مع

1- الحصور، جمال الدين، عودة التاريخ الأنثروبولوجيا المعرفية العربية / دراسة في الاناسة المعرفية العربية التاريخية واللغوية ووحدها، الجزء الأول، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997 م. ص 176، 171.

اللغات السامية بعدد وافر من الألفاظ¹. ويؤكد بعض العلماء أن أصل اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) وما يعرف باللغة السامية (اللغة العربية القديمة) واحد، وأن بعض الاختلافات الظاهرة الآن سببها اسقاط بعض الكلمات في بلاد العرب وبقاؤها في وادي النيل أو العكس، أو بسبب الإبدال والقلب، أو بسبب التعبير الذي يطرأ عند تعامل الأجانب مع لغة من اللغات² وعليه فمن الخطأ تأكيد (لوفير)³ في استنتاجه بأن اللغة المصرية القديمة لغة إفريقية تأثرت بالسامية وليست سامية تأثرت بالإفريقية. وقد جاء (لوفير) بهذا الرأي اعتقاداً منه بأن اللغة الليبية القديمة، التي تأثرت بها اللغة المصرية القديمة ليست سامية. وربما نعطي (لوفير) في عهده بعض العذر في افتراضته، وذلك لعدم توفر الأدلة التي تؤكد بأن اللغة الليبية القديمة لغة سامية، ولقد تأكدت حديثاً. لمعظم الباحثين بما لا يدع مجالاً للشك بوجود تجانس داخلي بين المجموعات اللغوية المصرية القديمة والليبية القديمة والكوشية والتشادية، وهو الأمر الذي يسمح لهؤلاء العلماء بمقبلة هذه المجموعات بالمجموعات المعروفة باسم السامية، ولذلك نخذ الكثير من العلماء وعلى رأسهم (روسلر) يلحقون اللغة الليبية القديمة مباشرة بما أستخدم عليه بالمجموعة السامية، ولذلك فاللغة الليبية القديمة سامية مثلها مثل فروع السامية المتواجدة في شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين ووادي النيل وشرق إفريقيا⁴. وبالتالي عندما نقول أن المصرية القديمة جذورها القديمة ليبية، فإننا نعني بدون شك تلك الجذور التي قلمت من لصحراء الكبرى، عندما بدأ السكان يغادرونها نحو الشمال والشمال الشرقي بسبب الجفاف الذي بدأ يحل بالمنطقة. وقد تعرفنا أن سكن الصحراء الكبرى جاءوا بكل ثقافتهم ومعتقداتهم من شبه الجزيرة العربية والشام، وبالتالي فإن اللغة الليبية القديمة هي

1- هيو، تاريخ الشرق القديم سورية، دار الحكمة ايمانية، صنعاء، ص. 94

2- دروزة، محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، الجزء 2، المكتبة لمصرية، بيروت، 1376 هـ، ص. 5

3- حشيم، علي فهمي، آلهة مصر العربية، (الجزء الأول)، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، دار الافاق الجديدة، مصراته - الدار البيضاء، 1990 م، ص. 132.

4- العرابوي، محمد المختار البربر عرب قدامى، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1993 م، ص. 168. وكذا: محمد المدلاوي، مادي المقارنة لحماية - لسمية على ضوء مفهوم الفصائل الصوتية

الطبيعية، مجلة كلية الآداب وجدة، العدد الأول، 1990 م، ص. 57.

الأخرى تنتمي إلى ما يطلق عليه اللغة السامية. وبالتالي فإن اللغة المصرية القديمة تأثرت بمؤثرات سامية قادمة من الشرق، سواء مباشرة، أو بعد وصول هذه المؤثرات إلى الصحراء الكبرى، وانتقالها فيما بعد نحو وادي النيل والشمال بصفة عامة. ومما يؤكد انتماء اللغتين الليبية القديمة والمصرية القديمة إلى ما يعرف باللغة السامية (العربية القديمة)، ما يورده¹ (أوريك بيتس) في كتابه القيم الليبيون الشرقيون، حين يؤكد أن اللغة المصرية لقديمة سامية في طبيعة أفعالها، وهي تشترك مع اللغة الليبية القديمة في العديد من الملامح، ويدد ذلك واضحاً من حيث "إن للعتين كليهما جذور ضمائر ذات صلة بعضها ببعض، وهما بصوغان الجمع والضمائر المطلقة (أي المنفصلة) بنفس الطريقة. وكتاهما تصوغان جمع المؤنث بأسلوب متقارب، وفي الاثنتين يستعمل حرف (ن) علامة إضافة غير مباشرة، وفيهما معاً تعمل المجردات وأسماء الجمع باعتبارها مجموعاً فواعدية نحوية، وإلى جانب هذا الضرب من الصلات فإن مقارنة المفردات المصرية القديمة والليبية القديمة تظهر أن في اللعتين عدداً من الكلمات الأصلية البدائية المشتركة"².

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة الكنعانية

يؤكد الكثير من المؤرخين على التأثير اللعوي الكنعاني على اللغة الليبية القديمة³. وهذا ليس جديداً، لأن الكعانيين هم الذين علموا معظم شعوب العالم الأبجدية، ويرى بعض الباحثين⁴ أن سكان المغرب القديم أقبلوا على اللغة الكنعانية، عندما وجدوا ما فيها من قرابة مع اللغة النسي يخاطبون بها، وذلك بسبب التوصل العرقي بينهم وبين الكنعانيين. ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ البيروني (بروكوبيوس القيصري) في القرن السادس الميلادي،

1- Oric Bates, The Eastern Libyans, Franc Cass and Co, London 1979, pp.81-84

2- حشيم، آله مصر، الجزء 1، ص 127، 128

3- غلاب، عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار العرب الاسلامي، بيروت، 1996 ص. 195

4 - المناصرة، عزالدين، مسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب اشكالية التعددية اللغوية، دار الشروق للنشر والنوزيع، عمان، 1999 م، ص. 83.

حين يقول "لقد وجد الفينيقيون الذين هاجروا بصحبة (ديدون) عليسة، بين المستوطنين القدماء جماعات من بني جنسهم، لذلك أسسوا قرطاجة بإذن منهم"¹. ويدوواضحاً من قول (بروكوبيوس) أن تلك القرابات التي كانت تصل السكان الأوائل بالمهاجرين الجدد، قد سهلت على الأقل في المراحل الأولى عملية وضع حجر الأساس للنواة الأولى للكنعانيين في منطقة المغرب القديم. وهذا الأمر أدى فيما بعد كما يشير الكثير من الكتاب الكلاسيكيون وعلى رأسهم (ديودوروس الصقلي) و(استرابون) و(بليني الأكبر)، إلى تكون مجموعات سكانية جديدة كانت مزيجاً بين السكان الأوائل والمهاجرين الذين قدموا صحبة عليسة، فتتح عنه ما يطلو عليه أولئك الكتاب اسم "الليبيون- الفينيقيون"². ولهذه الأسباب مجتمعة جاءت أبجديتهم تحتوي على الكثير من حروف لغات الشرق الأدنى القديم ويُعتقد أن الملك مسسن (مسينيس) هو الذي كان وراء ظهور أبجدية ليبية على نط الحروف الهجائية الكنعانية، ولذلك فالمصدر الأساسي للغة الليبية القديمة هو الالفبائية الكنعانية³. ويكفي دليلاً على ذلك أن أبجدية الطوارق والمعروفة باسم التيفيناغ، والتي اشتقت عن الأبجدية الليبية القديمة. ما هي إلا تحريف لكلمة تافينيقت، وهي مؤنت فينيقي باللغة الليبية القديمة. ومما لا شك فيه أن كلمة تيفيناغ لها صلة بكلمة الفينيقية، لأن مفرد الفيسيقية باللغة الليبية القديمة هو افينيقي ومؤنتها تافينيقت. وهذه الكلمة الأخيرة هي نفسها تيفيناغ مع إبدال حرف القاف إلى غين، وهو أمر عادي في الكثير من اللغات العربية القديمة خاصة لغات جنوب شبه الجزيرة العربية. ومما يؤكد الصحة في استبدال حرف القاف بالغين أن الحرفين لهما مخرج صوتي واحد وهو الحلق وعملية وحدة الأصل بين اللغة الليبية القديمة واللغة الكنعانية ليس غريباً، لأن سكان منطقة المغرب القديم عبارة عن موجات بشرية قدمت من الشرق منذ عصور ما قبل

1 - Jean Mazel, Avec les Phéniciens à la poursuite du soleil sur la route de l'or et de l'étain Robert Laffont, Paris, 1968, P 190.

2 - بازامة، محمد مصطفى، تاريخ ليبيا (1) عصور ما قبل التاريخ، الجزء الأول، منشورات جامعة الليبية، بنغازي، 1973م، ص ص 252، 256، 275.

3 - المرجع نفسه، ص 77.

اتاريخ، وكانت آخر الموجات القوية التي وصلت المنطقة في العصور القديمة تلك الهجرات التي كانت السبب في إنشاء مدينة قرطاجة، ولذلك فمن الطبيعي أن يكتب هؤلاء لعنتهم بالكنعانية، ولا يوجد أي دليل يثبت أن الكتابة الليبية القديمة عرفت قبل القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد ومن المؤكد لدى جميع العلماء أن الليبيين القدماء بدأوا يكتبون لغتهم التي لم تتعد النقوش النذرية، تحت تأثير الكتابة الكنعانية¹. ويرتاح العلماء كثيراً إلى هذا الأصل الكنعاني بسبب وجود مستوطنات كنعانية مكررة ضمن أراضي الليبيين القدماء مثل أوتيكا وقرطاجة²، بالإضافة إلى وجود أبجدية مشتركة بين اللغة الليبية القديمة وحروف اللغة الكنعانية الشرقية، والكنعانية الغربية (البونيقية)³. وواضح جداً أن حرف الجيم المعطش، وحرف التاء في الليبية القديمة يشبهان حرفي الجيم والتاء في الكنعانية الشرقية والكنعانية الغربية (البونيقية)، وأن حرف الراي في الليبية القديمة يشبه حرف الزاي في الكنعانية الشرقية، وأن حرف القاف في الليبية القديمة يشبه حرف الكاف في الكنعانية الغربية (البونيقية)، وأن حرف الشين في الليبية القديمة يشبه حرف الشين في الكنعانية الشرقية.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية

إستطعننا التعرف على لغات جنوب شبه الجزيرة العربية من خلال النقوش الكثيرة، لتي عرف منها حتى الآن أكثر من عشرة آلاف نقش، وهذه اللغات هي لغات عربية، ولكنها غير العربية الفصحى المعروفة لدينا الآن، وقد كُتبت تلك النقوش بخط المُسند، الذي يَألف من 29 حرفاً أبجدياً أي بزيادة حرف واحد عن الأبجدية العربية الفصحى، وحسب أشهر الآراء تنتمي هذه الأبجدية إلى الخط الكنعاني. وخط المُسند يشبه إلى حد كبير الخط الأثيوبي، الذي تفرع في الأصل عن الخط المُسند. وتنتمي لغات جنوب شبه الجزيرة العربية عامة إلى ما يطلق عليه اصطلاحاً اللغات السامية⁴. لقد لعبت دور جنوب شبه الجزيرة العربية دوراً شديداً

1- ب. سلامة، الصحراء في التاريخ القديم (تاريخ إفريقيا العام)، جزء 2، ص. 535.

2- G. Camps, Les Berberes Memoire et edentete, Edition errance, Paris, 1995. p.202.

3- Abdelaziz Ferrah, L'Amazigh ecire le berbere, Editions Marinoor, Alger, 1997.

p 64

4- عبد الله، يوسف محمد، عم تتحدث النقوش اليمنية القديمة، المؤتمر الحادي عشر للأثار في الوطن العربي

الأهمية في كل المنطقة العربية بدأ منذ عصور ما قبل التاريخ واستمر حتى منتصف العصور الوسطى ، ويظهر هذا التأثير أكثر وضوحاً في اتجاه شرقي إفريقيا ، وفي اتجاه مجتمعات الرعاة والرّحل في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية ، وقد لعبت التجارة في هذه الدول دوراً هاماً ، حيث كانت تؤلف إحدى المحطات التجارية الكبرى بين القرنين الإفرقي ومنطقة الشرق الأدنى القديم ، ولا ننسى أن التجارة كانت السبب المباشر في انتقال اللغة نحو هذه المناطق. وعملية العثور على العديد من النقوش المكتوبة بالخط المسند في الكثير من مناطق العالم القديم خير دليل على الإلتشار الواسع للغات جنوب شبه الجزيرة العربية¹.

إن وجود علاقات وطيدة بين اللغة الليبية القديمة واللغات العربية القديمة كالأكدية والمصرية القديمة والكنعانية ، جعلنا نتأكد من وجود علاقة مشابهة بين الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهو أمر طبيعي لأن جنوب شبه الجزيرة العربية ينظر إليها معظم الباحثين على اعتبارها مصدراً قوياً لهجرات قديمة ومتعاقبة قدمت إلى منطقة المغرب القديم منذ عصور ما قبل التاريخ وطيلة العصور القديمة والوسطى وقد أكد النسانون والمؤرخون العرب المسلمون وجود هذه الصلات من خلال تأكيدهم للأصول الحميرية للكثير من القبائل الليبية القديمة بمنطقة المغرب القديم. وفي سبيل الوصول إلى معلومات حول هذا الموضوع قمنا بزيارتين عميتين إلى اليمن خلال عامي 1997 و2001 إمرنجي. وقد توصلت من خلال هاتين الزيارتين إلى وجود تشابه كبير بين اليمن ومنطقة المغرب القديم في الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والمعمارية ، ورغم أن المعلومات التي توصلت إليها خلال هاتين الزيارتين في مجال تشابه لغات جنوب شبه الجزيرة العربية واللغة الليبية القديمة كانت محدودة ، فإنها كانت ذات أهمية كبيرة لإثبات تلك الأواصر العريقة في لقدم بين سكان

حول الفاش والكتابات القديمة في الوطن العربي ، تونس ، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، 1988 م ص 66

1 بوركهاده فوكت وكريستيان جوليان روبان ، الوحدة الثقافية لبلاد اليمن (اليمن في بلاد ملكة ساء) ، معهد العالم العربي ، باريس ، 1999 م ص 223.

المطلقين ، ولإثبات ذلك سنتبع بعض القواعد النحوية والمقارنات اللغوية بين اللغتين.

1- تتميز اللغة السبئية وملحقاتها بأداة عبارة عن حرف النون يلحق عادة بآخر الكلمات ، تسمى النون الحميرية ، وهي بمثابة أداة التعريف في اللغة العربية الفصحى. وفي اللغة الليبية القديمة أسماء قبائل تنتهي بحروف النون وهي بمثابة (ال) التعريف مثل : بنوهراسن وبودرجين وبنوورتجن وبنوهراسن وغيرهم وو ضح أن النون التي وردت في آخر هذه الأسماء ، ليست النون التي تظهر في جمع المذكر السالم ، بل أن وجودها هو أقرب إلى أن يكون (ال) التعريف التي كانت في لغات جنوب شبه الجزيرة العربية ، ولكنها عند انتقالها إلى منطقة المغرب القديم ، مُحِترت مع مرور الزمن رغم بقاءها في العديد من الكلمات¹.

2- توجد في لغات شبه الجزيرة العربية أسماء كثيرة صيغت على وزن الأفعول مثل . الأيفوع والأيرون والأوسون والأحروث والأهيون². وهذه الاسماء أصيلة في جنوب شبه الجزيرة العربية. وما لا شك فيه أن وجود صيغ مشابهة كأمقون وأزمور وأصفود وأمروود وأعروس وأرفود وأمروث وأفروخ ، في منطقة المغرب القديم ، وشرق إفريقيا كان نتيجة لانتقال مؤثرات ثقافية إلى تلك المناطق.

3- تشابه اللغة الليبية القديمة مع لغات جنوب شبه الجزيرة العربية في تأنيث بعض الكلمات. ومجد أمثلة كثيرة تؤيد ذلك في لغة النقوش بجنوب شبه الجزيرة العربية ، فيكتبون تهامت بدل تهامة وريعت بدل ربيعة وحبشت بدل حبشة ويمنت بدل يمن وهكذا. وفي الليبية القديمة إلى الآن يصوغون الكلمات المؤنثة بـ تاء مفتوحة بدل تاء مربوطة مثل تيارت وهواسم مكان ويطوفت وتوات وهما اسمتا قبيلة وتاهرت وهي اسم مدينة. ويبدو واضحاً من خلال مقارنة هذه الأسماء وحوادث تشابه في الصورة اللفظية العامة في اللغتين.

1 العرياني ، البربر ، ص 212

2 الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، كتاب الاكليل (ج 2) ، حققه وعلق عليه محمد بن علي الخوالي ، ط 3 ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، 1986 ، ص 391 ، 392.

4- وما يؤيد العلاقة الوطيدة بين اللغة الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية ، التقارب الشديد بين اللغة الليبية القديمة وما يطلق عليه اليوم اسم لغات جنوب شبه الجزيرة الحديثة مثل : اللغة المهرية واللغة الشحرية واللغة السوقطرية ويبدو هذا التقارب واضحاً من خلال أن المجموعتين الليبية واليمينية قديمة قدم التاريخ وما زالت حية إلى الآن ، وأن المجموعتين ليس لهما ثرات مكتوب في مجالات العلم المختلفة ، وحتى وإن وجدت بعض النفوش لكتابية فلا نعدو أن يكون لأغراض بذرية بسيطة. وبالفعل رغم اختلاف المجموعتين اللغويتين في شكلهما العام ، فإننا استطعنا من خلال مقابلة بعض السكان السقطريين والمهرة ، التعرف على وجود بعض النشارك في بعض القواعد اللغوية ، وبعض المفردات ، ففي مجال القواعد النحوية تستعمل لغات جنوب شبه الجزيرة العربية قديماً ، وسكان المهرة في العصر الحديث ، بلتمييز بين المذكر والمؤنث التاء في آخر الكلمة ، وهي الميزة الغالبة للغة الليبية القديمة ، أما فيما يخص تشابه المفردات اللغوية بين المنطقتين ، فاستطعنا التعرف على بعض هذه المفردات من خلال مقابلات مع بعض الأشخاص لفترة وجيزة ، توصلنا إلى تشابه تام في بعض المفردات. فكلمة يَكْس تعني في الشحرية وجد أو أخذ ، وكلمة يَكْس نفسها في اللغة الليبية القديمة تعني أخذ أو انتزع ، وكلمة سكف تعني في الشحرية شرب ، وكلمة سكف نفسها تعني في اللغة الليبية القديمة رشف ، وهي من مرادفات كلمة سوا (شرب). ومن خلال هذه المقارنات المحدودة العدد ، بسبب عدم توفر الوقت اللازم لعمل دراسة متكاملة ، نتوصل إلى وجود تشارك لعوي بين الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية ، والذين ظلوا بها ، وهو ما يؤكد الأصل المشترك للمجموعتين اللتين تتواجد إحداهما في جنوب شبه الجزيرة العربية ، والأخرى بمنطقة المغرب القديم

5- وأخيراً مما يؤيد وجود علاقة وطيدة بين اللغة الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية ، اقتباس الأبجدية الليبية الكثير من حروفها من خلال أبجدية لغات شبه الجزيرة العربية ، ولقد كان ذلك يتم أحياناً باقتباس الحرف بشكله وقيمه الصوتية ، مثل : حروف التاء والشين والجيم والسين . وهي طبق الأصل في اللغتين ، وأحياناً أخرى يتم الاقتباس بإعطاء الحرف قيمة صوتية مخالفة للحرف المُقتبس ، مثل : حرف الساء الذي أخذ

شكل حرف العين، وحرف الدال الذي أخذ شكل لاء، وحرف الحاء الذي أخذ شكل الهاء¹.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة الآرامية

اللغة الآرامية هي إحدى اللغات لعرية القديمة، التي اصطلح على تسميتها بالسامية، ومن حيث المصطلحات اللغوية، هي قريبة من اللغتين الكنعانية والعربية، ولكنها أكثر قرباً للغة العربية المصحى. حيث تشترك معها في مصطلحات لغوية والفاظ مشتركة، ويرى البعض بأن اللغة العربية المصحى ورثت نفس الحروف الصوتية، التي تستعملها اللغة الآرامية². لقد كانت اللغة الآرامية منتشرة إبتشاراً واسعاً في كافة أقاليم المنطقة العربية في غرب آسيا وفي مصر، حيث استحدثت لغة رسمية من قبل الآشوريين والبابليين والفرس وسكن منطقة وادي النيل، ممهدة في ذلك إلى انتشار اللغة العربية.

ومما لا شك فيه أن اللغة الليبية القديمة قد اقتبست من اللغة الآرامية العديد من حروف أبجديتها. فمثلاً نجد الحروف التاء والدال والشين والكاف والياء تشابه في اللغتين الليبية القديمة والآرامية³، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الأصل المشترك الذي انفصلت منه اللغتان في العهود القديمة وهي اللغة العربية الأم.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة ولغات شمال شبه الجزيرة العربية

من بين اللغات العربية القديمة بشمال شبه الجزيرة العربية، التي عثر لها على نقوش

1- محمد، يوسف، خط المسد والنقوش اليمية القديمة دراسة لكتابة يمية قديمة منقوشة على الخشب، النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، المنظمة العربية للدراسة والثقافة والعلوم، تونس، 1988.

ص. 102. Abdelaziz Ferrah, L. Amazigh ecure p 64.

2- سومر، دويون الآراميون (ترجمة ناظم الجدي)، دار اماني للطباعة والنشر والتوزيع، طرطوس، 1988. ص. 131.

3- العبدري، البر، ص. 214.

كثيرة الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية. لقد كتبت اللغات الثلاث الأولى بالخط المسند، في حين كتبت اللغة الرابعة بالخط الآرامي.

ومما يؤكد وجود علاقة وطيدة بين اللغة الليبية القديمة ولغات شمال شبه الجزيرة العربية، اقتباس الأجدية الليبية الكثير من حروفها من حلال أجدية اللغات الثمودية واللحيانية والصفوية والسطية، فمثلاً نجد حرفي الكاف والسين يتشابهان في اللغتين الليبية القديمة ولغة النقوش البطية، ونجد حروف السين والشين والتاء والطاء تتشابه أيضاً في اللغتين الليبية القديمة ولغة النقوش الصفوية، ونجد نفس الحروف السابقة تتشابه أيضاً في اللغة الليبية القديمة ولغة النقوش اللحيانية، ونجد حروف التاء والشين والطاء تتشابه أيضاً في اللغة الليبية القديمة ولغة النقوش الثمودية¹.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى

تشارك كما سبقت الإشارة اللغات المصرية القديمة (الهيروغليفية) والسامية الأم والليبية القديمة والكوشية والتشادية في اصطلاح يعرف باسم المجموعة الحامية - السامية أو المجموعة الأفروآسيوية. وقد ثبت من خلال الدراسات المختلفة أن اللغة العربية الفصحى، هي أقرب اللغات السامية إلى الخصائص الصوتية والمعجمية لما يطلق عليه اسم السامية الأم². وتحتوي معظم ما يعرف باللغات السامية على حروف الحلق، خاصة حرفي الحاء والعين، ويؤكد المختصون بأن اللغة العربية الفصحى هي أقرب هذه اللغات في نطق الهمزة والعين والغين والحاء والهاء، وهي مازالت تحتفظ بها رغم احتفاء هذه الحروف في اللغات العربية القديمة الأخرى. إن احتفاظ اللغة العربية الفصحى بهذه الحروف، هي عملية موروثية عن اللغة العربية القديمة الأم، وهذه الحروف الحلقية تتناقص في الكثير من اللغات الأخرى التي انفصلت عن اللغة العربية الأم، مثل العبرية التي استخدمت حرفاً حلقياً واحداً وهو الحاء للدلالة على صوتين في العبرية وهما الحاء والحاء، في حين احتفظت الأكادية بحرفين فقط

1 المرجع نفسه، 214.

2 المدلاوي، محمد، مبادي المقاربة، ص. 53- 56.

وهما الهمزة والحاء¹. وعلى العكس من ذلك تحتفظ اللغة الليبية القديمة بمعظم الحروف الخلفية كالحاء والحاء والعين والعاء، وهي في هذا تتشابه مع اللغة الفصحى، وهو دليل على مدى قربهما من اللغة العربية الأم. وتحتفظ اللغة العربية الفصحى أيضاً بحروف التفخيم والإطباق وهي الطاء والصاد والقاف والظاء والضاد وهذه الحروف شائعة في معظم اللغات العربية القديمة، وهو دليل على أنها كانت تحتص بها ما يعرف باللغة السامية الأم دون غيرها من لغات العالم. والدليل الواضح على القرابة الوثقى بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى اشتراك هاتين اللغتين وحدهما دون غيرهما من اللغات العربية القديمة الأخرى في امتيازهما بحرف الصاد²، الذي كان في السابق تنعت به اللغة العربية الفصحى فقط ويرى البعض بأن التشابه الكبير بين أعداد كثيرة من الكلمات الليبية القديمة مع كلمات أخرى في اللغة العربية الفصحى، لم يكن بسبب الأصل القديم المشترك، بل كان نتاج حدث جاء بعد الفتح العربي الإسلامي، ويبدو هذا الكلام منطقياً للوهلة الأولى لو أن هذا التشابه هو الدليل الوحيد على تلك العلاقات الوطيدة، ولكن ماذا يقول هؤلاء عندما تحدث المقارنات بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى من خلال النقوش الكتابية، التي تعود إلى ما قبل الإسلام، والتي عثر عليها في العديد من مناطق المغرب القديم؟ لقد عثر العلماء على المئات من هذه النقوش، التي أطلق عليها اسم النقوش الليبية، والتي تحتوي على كلمات ذات أصول عربية قديمة تسبق وصول العرب المسلمين إلى المنطقة بعشرات القرون³. وقد كانت بعض هذه النقوش بالأبجدية الليبية القديمة فقط، ولكن البعض الآخر كان يحمل نصين مختلفين إما بالأبجدية الليبية والقرطاجية (لونيكية)، أو بالأبجدية الليبية واللاتينية، ويعتبر البعض أن اللغة الليبية القديمة شقيقة للغة العربية الفصحى، لأن هاتين اللغتين تلتقيان في

1- أحمد، محمد خليفة حس، رؤية في تاريخ الشرق، ص. 145.

2- العرابي، البربر، ص 169، 168 وكذا عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة (وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ)، دار الملتقى للطباعة والنشر، ليماسوف وبيروت، 1998 م. ص. 109.

3- خشيم، علي فهمي، سفر العرب الأمازيغ، دار بون، طرابلس، 1995 م. ص 4-1.

تشابه المفردات والتراكيب اللغوية ، والقواعد النحوية والصرفية والاشتقاقية¹. ومع هذا لا نستطيع القول إن اللغتين متطابقتان في كل شيء ، وإلا لأصبحنا لغة واحدة. ولكن الصحيح أن اللغتين بعبارة من مصدر واحد يستطيع تسميته باللغة العربية الأم² ، وهي التي جمعت اشتقيقتين بالإضافة إلى بقية الأحوات كالأكدية والمصرية القديمة والبابلية والآشورية والكنعانية ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن الأدلة التي تثبت أن اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى أخذت قواعدها انحوية من لغة عربية سابقة حالة التأنيث ، التي يكون عليها الفعل الماضي والمضارع مع المفردة الغائبة ، حيث تؤنث هاتان الحالتان بإضافة التاء للمفرد العائب ، فقول في العربية سكت للمذكر وسكتت للمؤنث ، وسكت للمذكر وتسكت للمؤنث ، وكذلك في اللغة الليبية القديمة تقول يسوسم (سكت) للمذكر وتسوسم (سكتت) للمؤنث ، يسوسوم (يسكت) للمذكر وتسوسوم (تسكت) للمؤنث. ويبدو واضحاً من خلال هذه الحالات أن الفعل سواء كان ماضياً أو مضارعاً ، عندما تضاف إلى آخره التاء يتحول إلى حالة المؤنث. لأن التاء المضافة إلى الفعل تدل على علامة التأنيث. وفي هذا الصدد يوجد بين الباحثين من يرى بأن التاء ضمير مفرد مؤنث للغائبة ، والباء ضمير مفرد مذكر للعائب ، وفي هذا إقرار كما يرى بعض الباحثين بأن التاء للتأنيث والباء للتذكير³ ، وهوما يشير إلى قرابة بين اللغات العربية القديمة عامة ، وعلى وجه الخصوص إلى قرابة بين اللغتين الليبية القديمة والعربية الفصحى.

ومن الوسائل المستعملة في اللغات العربية القديمة بما في ذلك اللغة الليبية القديمة ، واللغة العربية الفصحى التأنيث ، وهي عملية التمييز بين المذكر والمؤنث باستعمال التاء أو الباء والجدير بالذكر أن تحويل المذكر إلى المؤنث يتم في اللغة العربية الفصحى بإضافة تاء مربوطة إلى آخر الكلمة المذكورة فتصبح مؤنثة. ونجد مثلاً على ذلك كلمات كثيرة في لغات جنوب

1- سعدي ، البربر الأمازيغ ، ص. 95.

2- خشم ، سفر العرب ، ص. 1- 54.

3- العرياني ، البربر ، ص 201

شبه الجزيرة العربية القديمة ، مثل كلمات تهامت وريعت وحبشت وكندت ويمنت ، وهي نفس الطريقة في عملية التأنيث التي تتبع في اللغة الليبية القديمة. والغريب في الأمر أن عملية التأنيث بإضافة حرف التاء إلى آخر الكلمة مازالت موجودة حتى الآن في المهرة باليمن ، ومن خلال كلمات أخذتها بناء على مقبلات بسيطة مع بعض سكان المهرة وضحت لنا عملية التأنيث بإضافة تاء مفتوحة في نهاية الكلمة ، ورغم أن الكلمات التي أوردتها هنا ذات أصل عربي فصيح فإنها وضحت لنا هذه القاعدة الموجودة لدى المهرة منذ أقدم العصور حتى الآن ، فكلمة حيمة تتحول عند المهرة إلى حيمت وكلمة لحية تتحول عند المهرة إلى لحيت وكلمة نخلة تتحول عند المهرة إلى نخلت ، ونجد الأمر نفسه لو طلبنا اليوم من أحد سكان المغرب العربي الناطقين باللغة الليبية القديمة تحويل نفس الكلمات السابقة إلى الليبية القديمة لحولها حرفياً كما حولها سكان المهرة ، ماذا يعني هذا ؟ هل أخذ المهرة هذه الطريقة في التأنيث من الليبيين القدماء أم العكس هو الصحيح ؟ بالطبع ليس هذا وليس ذاك ، لأن هذه الطريقة من لتأنيث قديمة قدم التاريخ ، وهي في الأصل موجودة في كل اللغات العربية القديمة ، ومعروف أن لغة المهرة واللغة الليبية القديمة من اللغات القديمة التي انحدرت من لغة عربية أم ، وقد حافظت اللغتان على أصالتهما منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، ولم يقتصر وجود طريقة التأنيث بالتاء المفتوحة في اللغة الليبية القديمة ، وفي لغات جنوب شبه الجزيرة العربية فقط ، بل إنها موجودة حتى في الرسم القرآني ، حيث جاءت بعض الكلمات بالتاء المفتوحة مع أنها مربوطة مثل : كلمتي امرأة ورحمة كما نجد في الآيات القرآنية الآتية : "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" ¹ "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْهِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ" ² . "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" ³

1- سورة يوسف آية 30.

2- سورة التحريم آية 11.

3- سورة البقرة آية 218.

ونجد في الكتابات المردية التي كتبت باللغة العربية الفصحى في بداية الفتح العربي الإسلامي ، كلمات عربية مؤشدة كان من المفروض أن تكتب بتاء مربوطة ولكنها كتبت بتاء مفتوحة ، مثل كلمة سنة كتبت على شكل سنت وكلمة امرأة كتبت على شكل امرات وكلمة ابنة كتبت على شكل ابنت وكلمة المسماة كتبت على شكل المسمات ، وهذا الأمر يدل على الترابط اللغوي بين اللغة الليبية القديمة والواقع اللغوي القديم للمنطقة العربية بكاملها¹.

تتاز اللغة العربية الفصحى بظاهرة كثرة جموع المذكر السالم وجموع التكسير ، وهذه الخاصية تعد من مميزات اللغات العربية القديمة كافة ، ومن خلال دراسة اللغة الليبية القديمة ، بما في ذلك اللهجات الحديثة اتضح أنها تتاز هي الأخرى بمعظم هذه الجموع ، ويعتبر جمع المذكر السالم في اللغة العربية الفصحى جمعاً قياسياً له صيغتان ، حيث تنتهي بالواو والنون في حالة الرفع ، وبالياء والنون في حالتي النصب والجر ، ويكون أساساً للعاقل ، ويمكن أن نلاحظ في اللغة الليبية القديمة هذه الطريقة من الجمع ولكنها لم تكن متطورة كما هي في اللغة العربية الفصحى ، ولاتزال اللغة الليبية القديمة تحتفظ بها رغم قدمها ، ونجد أمثلة كثيرة في هذه اللغة تأخذ نفس الطريقة السابقة لكلمة يخنف (رأس) يجمع يحفانون ، وكلمة تالغمت (ناقة) تجمع تيلغمين ، ونجد في اللغة العربية الفصحى بقايا من هذه الظاهرة ، حيث جمعت بعض الكلمات بطريقة جمع المذكر السالم ، وأحياناً جمع تكسير ، وغالبية هذه الكلمات لغير العقل مثل : أهل تجمع أهلون وأهلين وأهال ، وعالم تجمع عالين وعالمون وعوالم ، وأرض تجمع أرضون وأرضين وأراض ، وسنة تجمع سون وسنين وسنوت ، ويعتبر جمع التكسير من أكثر الجموع أصالة في اللغة العربية الفصحى . وفي اللغة الليبية القديمة نجد هذا الجمع يفوق في كثرته اللغة العربية الفصحى لكونه الجمع الأساسي ، ويلاحظ أن جمع التكسير في اللغة الليبية القديمة جرى على نفس النمط الذي جرى عليه في اللغة العربية الفصحى فيما بعد . وتشابه اللغة الليبية القديمة مع اللغة العربية الفصحى في جموع الكثرة ، التي تنتهي بألف ونون ، فنجد في اللغة العربية الفصحى بعض الأسماء تجمع على هذه

1- العرابوي ، البربر ، ص 194

الطريقة فغلام يجمع غلمان وجرد يجمع جردان وحوث يجمع حيطان وتاج يجمع نيجان، واللغة الليبية القديمة مارالت الى الآن تتع نفس الطريقة من الجمع فكلمة أعم (جمل) يجمع إلغمان، وكلمة إيرى (ذبابه) تجمع إيران، وكلمة إيتري (نجم) يجمع إيتران، وكلمة آس (يوم) يجمع أسان، ويبدو واضحاً أن جموع التكسير في اللغة الليبية القديمة من أقدم الجموع التي عرفتھا اللغات العربية القديمة، وهو في الأساس جمع غير قياسي ينماشى وجوده مع طبيعة الفترة الأولى لتكون اللغة وما فيها من اضطراب وتداخل في الظواهر اللغوية.

لم تشمل تلك الصلة بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى في إشتراك اللغتين في التراكيب اللغوية والقواعد النحوية والطريقة الاشتقاقية فقط، بل شملت بالإضافة إلى ذلك لمفردات اللغوية التي كانت كثيرة لا يمكن حصرها¹ وأعرض لها بعض الكلمات باللغة الليبية القديمة، وما يقابلها باللغة العربية الفصحى، نقلتها من خلال مقال محمد شفيق تحت عنوان علاقات الأمازيغية بالعربية في جدورها الكبرى، ومن خلال ما أورده علي فهمي خشيم في كتابه سفر العرب الأمازيغ، ومن خلال بعض المفردات التي أوردها عثمان سعدي في كتابه البربر الأمازيغ عرب عاربة، ومن خلال ما أورده محمد المختار العريباري في كتابه البربر عرب قدامى، ومن خلال بعض الإضافات التي قمت بها من خلال هذه الدراسة².

- يطر (نام) طس الشيء في الماء إذا عطسه، والنوم فيه معنى الغطس في اللاوعي
- يرول (هرب) وكلمة هرول العربية قريبة جداً من كلمة إروال الليبية القديمة.
- يكر (قام) وكر الظبي؛ وثب
- يدجال (حلف) من جل حلاله، والحلف عادة يكون بالله.

1- سعدي، البربر الأمازيغ، ص. 95.

2- خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص. 1- 41 - 1- 53. وكذا: عثمان سعدي، البربر الأمازيغ،

ص. 95- 109. وكذا: محمد المختار العريباري، البربر، ص. 179- 184

- يسغى (شترى): سوغ الشيء جعله مباحاً حلالاً، غمك الشيء.
- ألعم (الحمل): اللغم: زيد أفواه الإبل.
- إعيد (الجدى): الغيدان من الشباب أوله.
- يكس (ينزع أو خلع): وكس الشيء: نقصه فلاناً: وبخه. وكس ماله أنقصه.
- تامطوت (المرأة) أصلها عربي ومعناها الكائن الذى يحيض والطمث في العربية معناها الحيض. ويقال في العربية المرأة الطامث.
- أرقاز (الرجل) وهي عربية معناها ركز شيئاً في شيء، أقره وأثبته، والرجل هوركيزة البيت
- أمان (الماء) ومان = الماء في لغة قبيلة شمر يشبه الجزيرة العربية، وهي عربية واضحة.
- إيفير (طار) جاءت من العربية أفريفر وفريفر. وهي تعني الطيران أو العدو لوئب استعداداً للطيران.
- إيفسر (نشر الشيء ضد طواه) جاءت من العربية فسر وأوضح.
- أرار (اطر) وفي العربية الصرة = المطرة التامة، نصر الغيث الأرض = سقاها، ونجد الكثير من الكلمات تنقلب فيها الصاد زايامثل رصين: رزين.
- أملال (الأبيض) المؤلل الناصع اللون، مؤلل الوجه حسنه.
- يزوم أزوم (صام الصيام) في هذه الكلمة انقلبت الصاد زايأ، وأيضاً في العربية الأزوم الحمية والإمساك عن الطعام
- أوال (الكلام) وهو التأويل، ومن المعروف أن المصدر في فعل (بتضعيف العين) كثيراً ما يقوم مقامه اسم المصدر: سلام في سلّم، وكلام في كَلَم، وطلاق في طَلَّق، وزواج في زَوَج، وواوال في أوّل.
- أودم (الوجه من الإنسان ومن كل شيء) وفي العربية الأديم وجه الشيء. وهو مدلول

موحد في اللغتين، إلا أنه أكثر تعميمياً في اللغة الليبية القديمة.

- إيلس (اللسان). وواضح القرابة بين إيلس جمعها إيلساون واللسان.

- إنخف (الرأس) وقريبة من هذه الكلمة، كلمة عربية أخرى وهي اليافوح وهو الرأس
ابضاً، والذي يبدأ من ملتقى عظم مقدم الرأس الى مؤخره.

- إيدامن (الدم). ويمت وتمت (مات وماتت). والكلمتان عريقتان في عروبتهما،
وترجعان إلى بداية ظهور اللغة العربية الأم في شبه الجزيرة العربية، وتصادفنا هاتان الكلمتان
طبق الأصل في اللغات العربية القديمة الأخرى كالأكدية والمصرية القديمة.

هل اللغة الليبية القديمة (الآمازيغية) لغة عربية قديمة ؟

رغم أن اللغة الليبية القديمة قريبة الصلة باللغة العربية الفصحى، فإنه عند تعمس مكافأة
هذه اللغة باللغة العربية الفصحى، نجد هذه المكافأة واضحة تمام الوضوح مع اللغات العربية
القديمة الأخرى كالأكدية والمصرية القديمة والكنعانية والسبئية، وذلك من خلال ما خلفته
لنا هذه اللغات من نقوش وألواح طينية مكتوبة، وهو ما يؤكد على الصلة المؤهلة في القدم
بين مشرق الوطر العربي ومغرب¹ وبناء على كل ما تقدم نستطيع أن نطرح السؤال التالي :
هل اللغة الليبية لقديمة لغة عربية قديمة ؟ الإجابة نعم، لأن كل القرائن تدل على أن اللغة
الليبية اقدمية مثلها مثل اللغات العربية القديمة الأخرى تفرعت عن لغة عربية قديمة أم، وقد
ظهرت هذه اللغات العربية القديمة بشبه الجزيرة العربية منذ أقدم العصور الموعلة في القدم،
حيث كانت المنطقة تزخر بالعديد من اللغات واللهجات، ويبدو واضحاً أن السبب في هذا
التعدد، يرجع إلى انقسام القبائل وتوزعها إلى فروع كثيرة. وقد كان لمعيشة هذه القبائل
والفروع البعيدة عن بعضها البعض، يحكم العزلة والهجرة الى مناطق نائية السبب المباشر في
إحتلافات لغوية، وظهور لهجات جديدة تكون غير مفهومة لغير المتكلمين بها². ومما لا شك
فيه أن تلك اللغات كانت تختلف عن لغة القرآن الكريم، لدرجة أن أحداً لو قرأ نصاً بهذه

1- خشيم، سمر العرب الأمازيغ، ص. هـ.

2- العرباري، الربر، ص. 228.

اللغات عجز عن فهمه . وظن أنه يقرأ لغة من لغات الأعاجم ، ولكن هؤلاء وإن اختلفت لغاتهم فإنهم عرب فكل لغات العرب هي عربية وإن اختلفت وتباينت ، وما اللغة التي نزل بها لقرآن الكريم ، إلا إحدى تلك اللغات الكثيرة ، وقد شُرفت بفضل نزول القرآن بها وأصبحت اللغة العربية الفصحى ، ولذلك فالكتابات التي دُونت في مناطق حبوب شبه الجزيرة العربية وشمالها ، وبعض المناطق الأخرى ، هي كتابات عربية ، وإن اختلفت عن عربيتنا . ويوجد لغات عربية أخرى مجهولة ، وقد جهلها العرب لأنهم بادؤ قبل الإسلام ، أولأنهم عاشوا في بقاع معزلة نائية ، ولذلك لا نستطيع أن ننكر على الأقوام العربية المنسية عربيتها ، بمجرد اختلاف لسانها عن لساننا ، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لا نفهمها¹ . فلفتها هي لغة عربية وإن اختلفت عن اللسان العربي الفصيح ، وهذا الاختلاف والتباين في اللغات العربية القديمة كان موجوداً منذ أزمان بعيدة . فقد أشار إلى هذا الاختلاف والتباين كتاب قدماء كثيرون ، منهم من يرجع لفترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية . ومنهم من يسبق هذه الفترة بقرون عديدة يقول الطبري في تفسيره بأن العرب إن جمع جميعها اسم عرب ، فهم مختلفوا الألسن بالبيان ، متباينو ، المطلق والكلام² . وقد كانت بعض هذه الألسن بعيدة بعد كبراً عن عربيتنا اليوم . وخير مثال على ذلك اللغات العربية الجنوبية . وقد أشار إلى هذا التباين والاختلاف في لغات العرب القديمة أيضاً ، مؤلف يوناني عاش في القرن الأول الميلادي ، له كتاب سماه الطواف حول البحر الإريتري (البحر الأحمر) ، ذكر فيه بأن سكان ساحل الحجاز على البحر الأحمر ، والذين كانوا يقيمون بين مدينة (لوك كوما Leuke Kome) ومياء (موزا Muza) ، يتكلمون لهجات مختلفة ولغات متباينة لا يفهمونها عن بعضهم البعض ، وأن بعض هدد اللهجات واللغات بعيدة عن بعضها بعداً كبيراً³ . ومما يؤكد هذا التباعد أن معظم هذه اللغات المتناثرة بشبه الجزيرة العربية بما في ذلك

1- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، الجزء الأول ، مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1954م ، ص 11، 20

2- المصدر نفسه ، ص 11، 20 .

3- علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب ، الجزء الثامن ، ص 562، 563 .

اللغة العربية الفصحى لم تكن مكتوبة ومن خلال آخر ما توصلنا إليه من وثائق أثرية يتضح أن اللغة العربية الفصحى كانت غير مكتوبة بأبجديتها المعروفة لدينا الآن، حتى القرن الرابع الميلادي. ويحتل نقش النمارة الذي عثر عليه مدوناً بقلم نبطي في منطقة النمارة إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق أهمية تاريخية كبيرة، وقد وُجد هذا النقش مدوناً على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة، وهو يزرع بالعام 328 ميلادية. ومن خلال دراسة هذا النقش تبين أنه يحتوي على لغة عربية فصحى، رغم أنه يحتوي على بعض التأثيرات الآرامية¹. يتساءل لبعض لماذا تأخر ظهور آثار اللغة العربية الفصحى إلى ما بعد الميلاد؟ عما لا شك فيه أن هذا التأخر لا يعني أن هذه اللغة لا يرقى تاريخها إلا إلى ذلك الوقت وهو لقرن الرابع الميلادي، ولكن القرائن اللغوية المتوفرة في اللغة العربية الفصحى، والتي تنسب إلى ما يطلق عليه اسم اللغة السامية الأم، مثل الأصوات الأصلية، والإعراب، والتنوين، وصيغ الاسم، وأبنية الفعل، كلها تدل دلالة واضحة على القدم السحيق لهذه اللغة، وعملية تأخر ظهور الكتابة في اللغة العربية الفصحى، أمر طبيعي، بسبب استعمال أصحاب هذه اللغة في البداية الخط المسند، الذي اقتبسوه من أشقائهم في الجنوب، وبسبب استخدامهم فيما بعد للعلم البطني والقلم السرياني الآرامي، وظلت الأمور على تلك الحال إلى أن تم تطوير تلك الأقلام ابتداء من القرن الرابع الميلادي، إلى القلم العربي، الذي كُتب به لقرآن الكريم. وهذا الأمر يطبق على اللغة الليبية القديمة، التي ظلت كلغة محادثة طيلة قرون عديدة لم تتوصل إلى الأبجدية إلا عندما احتكت مع المهاجرين الكنعانيين الذين وصلوا منطقة المغرب القديم مع نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وقد كانت الكتابة الليبية محدودة القيمة لأنها لم تستعمل إلا في الكتابات النذرية. وتوجد أيضاً لغات في جنوب شبه الجزيرة العربية ما زالت حتى اليوم بدون أبجدية، وخير مثال على ذلك اللغات المهرية والسوقطرية والشحرية، وهي لغات محادثة دون أن تكون لها كتابة رغم أنها مؤغلة في القدم. ولذلك فالذين ينفون العروبة على لغات كتاباتها تختلف عن أبجدية اللغة العربية الفصحى، أو أن هذه اللغات ليست لها أبجدية أصلاً، كانوا على خطأ، فقد نفى اللغويون العرب لمسلمون على لغة لمُسند

1- هبو، تاريخ الشرق القديم، ص 92.

عرويتها، لأنهم كانوا يقاربون بين الأدب الجاهلي في عصر المعلقات، وبين لغة النقوش اليمنية القديمة، التي تعود إلى ما قبل عصر المعلقات بقرون عديدة. ولكن إذا أراد هؤلاء الإنصاف عليهم مقارنة لغة انموش اليمنية القديمة مع النقوش التي انتشرت في شمال شبه الجزيرة العربية كالنقوش الصفوية واللحيانية والثمودية، أو على الأقل بتلك النقوش المتأخرة كنقوش النماره وحران مثلاً. ولا يجب أن ينفي هؤلاء اللعويون العروية أيضاً عن اللغة الليبية القديمة لأن أبجديتها مختلفة عن أبجدية اللغة العربية الفصحى. إن هذا الأمر رعم واه ومردود عليه من خلال وجود لغات عربية قديمة ليس لها نفس حروف اللغة العربية الفصحى، ومع ذلك فهي لغة عربية أصيلة. ولن ينكر أحد أن تكون اللغة السبئية واللغات المتفرعة عنها غير عربية، وأن تكون الأكادية والبابلية والآشورية والكنعانية غير عربية¹. وكما أشرنا في السابق فإن اللغة الليبية القديمة تفرعت عن اللغة العربية القديمة في وقت ما، وأبعدت عنها شيئاً فشيئاً. بعد أن ابتكرت لنفسها بعض الاختلافات مثلها في ذلك مثل لغات جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام، ولذلك يجب علينا إرجاع العدد الهائل من الكلمات المشتركة بين اللغتين الليبية القديمة والعربية الفصحى إلى اللغة العربية القديمة الأم، وليس إلى فترة الفتح العربي الإسلامي كما يرى البعض. ورغم وجهة هذا الرأي، فإن العثور على الكثير من النقوش في مناطق متفرقة من المغرب القديم بما في ذلك مناطق الصحراء الكبرى، أكد خطأ ذلك الرأي. لقد صيغت تلك النصوص المقوشة باللغة الليبية القديمة، وكان بعضها مكتوباً بالأبجدية الليبية فقط، ولكن البعض الآخر كتب بنصين مختلفين أحدهما يبي والآخر أحياناً قرطاجي (بونقي)، وفي أحياناً أخرى باللغة اللاتينية. ومن خلال هذه النقوش الثنية للغة استطعنا التعرف على حروف الأبجدية الليبية، وبالتالي استطعنا معرفة فحوى هذه النقوش باللغة الليبية القديمة. وكانت المفاجأة كبيرة عندما تعرفنا على كلمات ليبية قديمة ترجع إلى أكثر من ألفي سنة مضت، أي قبل الفتح العربي الإسلامي بزمان طويل ورغم هذا الزمن الطويل ما زالت هذه الكلمات تأخذ نفس المدلول فيما يعرف في الوقت الحاضر باللغة الأمازيغية، التي هي امتداد للغة الليبية القديمة. والغريب في الأمر أيضاً أن الكثير من هذه

1- حشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص. 4- 109، 4- 110.

الكلمات ذات جذور عربية قديمة. وهذا الأمر يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن اللغة الليبية القديمة جاءت من الشرق ضمن الهجرات العديدة التي انطلقت منذ عصور ما قبل التاريخ من مناطق شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام. وحيث إن هذه النقوش درست من قبل علماء من العرب، والفرنسيين على وجه الخصوص، لذلك كانت تلك الدراسات موجهة نحو فهم النص للوصول إلى تأكيد تواجد لبيي قديم في المنطقة دون تحديد الجذور القديمة لهؤلاء السكان، ولا الإشارة إلى أية صلة بين لغة هذه النقوش واللغة العربية الفصحى أو إحدى اللغات العربية القديمة الأخرى¹ ومن خلال بعض الدراسات التي قام بها الاختصاصيون العرب حول بعض النقوش الليبية القديمة، من خلال دراسات قام بها الفرنسيان (شابو) و(مارسي)، تبين وجود صلة وثيقة بين اللغة الليبية القديمة والقرطاجية، ووجود أوجه شبه كثيرة بين اللغة اللسنة القديمة واللغة العربية الفصحى التي ظهرت فيما بعد[□]، وقد تبين أيضاً أن معظم مفردات هذه النقوش تعود في جذورها القديمة إلى لغة عربية قديمة أم، وأن عدم القدرة في فهم هذه النصوص يعود إلى أنها كتبت بلغة عربية قديمة انفصلت عن لغة عربية أقدم. ولهذا السبب كانت مفرداتها صعبة الفهم، وهي بالتالي لا توجد إلا في معاجم اللغة العربية الفصحى، بل إن بعضها يمكن العثور عليها في معاجم اللغات العربية القديمة كالأكدية والمصرية القديمة والكنعانية والسبئية³. ويسترعى الانتباه عند تصفح مجلدات لسان العرب لابن منظور، وجود بعض الألفاظ المشتركة بين اللغات العربية لقديمة واللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى ويعلل صاحب لسان العرب وجود هذه الكلمات، إلى أنها كلمات حميرية، وفي بعض الأحيان يقول عنها بأنها من اللغة القديمة، وفي أحيان أخرى يقول بأن معانيها تتصل بنمط الحياة، التي تعود إلى فترة الجمع والالتقاط،

1- حشيم، سفر العرب، ص 4-4

2- حشيم، علي فهمي، دراسة لنقش قرطاجي لبيي قديم، المؤتمر الثالث عشر للآثار حول النقائش والرسوم الصحيرية في الوطن العربي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1997م، ص

3- حشيم، سفر العرب، ص 4-4.

التي مرت بالإنسان قديماً¹. وهذا إن دل على شيء فيأيد على وحدة الأصل بين سكان
مطقة المغرب القديم والمناطق العربية السائفة الذكر.

1- خشيم، سمر العرب، ص. 1- 42 - 1 - 43.

المحور الثاني

الهجرات اليمانية قبل ظهور الإسلام

الصلات بين جنوب شبه الجزيرة العربية

وبلاد الرافدين خلال الألف الأول ق. م

د. جباغ سيف الدين قابلو

تشير الدلائل الأثرية التي عثر عليها في مواقع مختلفة من منطقة المشرق العربي القديم (مصر وبلاد الشام والعراق) إلى أن جنوب الجزيرة العربية قد ارتبط بعلاقات وثيقة مع هذه المنطقة من أقدم العصور. وبالطبع لا يمكن أن تقوم هذه العلاقة لولم يكن لدى أحد الطرفين ما يمكن أن يقدمه للآخر من جهة ولولا وجود وسيلة للإتصال بين هذين الطرفين تجعلهما شريكان وثيقان متممان لبعضهما.

- فمنطقة جنوب الجربة العربية بما حباها الله من مساح وطبيعة وأرض مناسبة لإنتاج سلع كنب مطلوبة أشد الطلب في مناطق المشرق العربي القديم وعلى رأس هذه السلع البخور والمر واللبان والتي كانت مادة أساسية للاستخدام اليومي في المعابد أثناء أداء الطقوس الدينية وفي الاحتفالات الكبرى أثناء الإحتفالات بأعياد الآلهة وفي عمليات تطهير وتطيب جثث المتوفين وتكفينهم وتخبطهم¹.

- ونحن في بحثنا هذا سنحاول التركيز على الصلات بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين خلال الألف الأول ق.م منطلقين من المراكز التي بينها أعلاه وهي المواد المنتجة في الجنوب والتي كان الشمال بأمس الحاجة لها والطرق التي استخدمها التجار في نقلهم بين هذه المناطق أي بين مناطق الإنتاج ومناطق الاستهلاك مع الإشارة هنا إلى أن هذه الطرق كانت متبدلة حسب الظروف وخاصة الأمنية منها، فكما هو معلوم أن التجارة والأمان على الطرق التجارية أمران متلازمان

1- الحرو ، أسماه : التواصل الحصارى بين عرب الحوب والعالم القديم . مجلة دراسات نمرة العدد 41 ص 1990 ص 182 وما بعدها .

الطرق الواصلة بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين

شكلت البيئة الجغرافية الطبيعية لعامل الأكثر فعالية عند اختيار الطرق التجارية. فعندما كان مضطراً لمسيرتها ورغم أن التقانات الحديثة والمتطورة في هندسة الطرق وشقها، تسهم في كثير من أجزاء الطرق بتجاوز الحتمية البيئية كان يتغلب الإنسان على الصعوبات الطبيعية والعقبات الأرضية ببناء الجسور على الأودية والخوانق وفتح الأنفاق في الجبال، لكنها أي الطرق، تبقى في مساراتها العمة خاضعة للمؤثرات الطبيعية، والتضاريسية منها بصورة خاصة، ومما يؤكد دور العناصر الجغرافية الطبيعية في رسم محاور الطرق واتجاهاتها ومسالكها، سير الكثير من الطرق الحالية ولمسافات طويلة على هدى ومحاور واحدة قديمة، أو تنطلق عليها في مساراتها.¹

وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا عامل بيئي مهم للغاية، ألا وهو توافر المياه على امتداد هذه الطرق، إذ كما نعلم فإن القافلة لا يمكن أن تحمل معها كميات من المياه تكفيها لمرحلة قد تستغرق عدة أشهر، ولذلك فإن توفر الآبار والينابيع على امتداد الطرق التجارية كأن يشكل عاملاً رئيسياً في ازدهار وعمارة طرق تجارها وأقول نجم طرق أخرى. ونشير أخيراً إلى عامل بشري سياسي في ازدهار الطرق التجارية، ألا وهو عامل الأمن على هذه الطرق، فمن المعلوم أن الأمن على هذه الطرق قد نعكره الحروب التي تقع بين دول مختلفة تقع على امتدادها، وعندها تغلق هذه الطرق أمام القوافل التي تضطر إلى تغيير مساراتها، وأحياناً يكون السبب في اختلال الأمن، تعرض القوافل التجارية لغارات القبائل لبدوية التي تعيش في مناطق تعبرها هذه القوافل، ونجد صدى لهذه الناحية في وثائق مكتشفة في مناطق مختلفة من أنحاء العالم القديم منذ مطلع الألف الثاني ق.م.²

1- عبد السلام، عادل، الشبه الجغرافية الطبيعية للبادية التدمرية، الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلد 42 العام 1996 ص 29

2- قابلو، جماغ، الطرق التجارية ووسط النقل في بستان الشرق العربي القديم خلال الألفية الثاني والأول ق.م في كتاب فعاليات الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ جامعة دمشق 2000

لم تقتصر تجارة جنوب الجزيرة العربية على المواد التي كانت تنتجها نفسها بل تعدتها إلى ما كان يصلها من مواد منتجة في جنوب شرق آسيا والهند وشرق أفريقيا، وما يميز تجارة جنوب الجزيرة العربية مع العالم الخارجي هو أن المواد المعدة للتصدير سواء أكانت منتجة محلياً أم مستوردة كانت تجمع وتخزن في مراكز رئيسية في جنوب الجزيرة ومن ثم تصدر من هناك إلى العالم الخارجي. لذلك سوافرت في جنوب الجزيرة طرق تربط بين مناطق الإنتاج ومناطق التخزين وطرق أخرى تصل بين الموانئ التي يصل عبرها السلع المستوردة وبين مناطق التخزين أيضاً.

ومن خلال تفحص المصادر الإغريقية والرومانية يصل الباحث إلى أن شبوة عاصمة حضرموت كانت مركزاً لتجارة اللسان، حيث تتجمع فيها محاصيل اللبان من كافة مناطق الإنتاج الواقعة إلى الشرق منها سواء في وادي حضرموت أو في ظفار، كذلك تمتع كانت مركزاً لتجارة المر حيث تتجمع فيها محاصيل المناطق الواقعة جنوبها ويتبع هذين المركزين عدد من الموانئ التي تجلب إليها عن طريق هذه الموانئ المواد العطرية سواء من المناطق المحاورة في الجزيرة كما هو في قنا أو من شرق أفريقيا كما في حالة أوكليس وعدن وموزا في فترة لاحقة¹.

ويبدو أن الطريق كانت تنطلق بعد ذلك من كل من شبوة وتمتع باتجاه بحران ومنه إلى شمال الجزيرة وشرقها.

- وستابع من هنا الطريق الشرقي لأنه كان الأكثر استخداماً للوصول إلى بلاد الرافدين فالطريق تنطلق من بحران حتى تليث ثم يتجه شرقاً إلى وادي الدواسر ماراً بالفاومنها يتابع باتجاه شمال شرق إلى أن يصل إلى البرهء ومنها إلى جنوب بلاد الرافدين مع الإشارة إلى وجود تفرع من هذه الطريق تتجه جنوباً نحو السواحل العمانية عن طريق واحة البريمي ويبرن ولا بد من أن تذكر هنا أنه كانت هناك تجارة بحرية ناشطة بين السواحل الشرقية للجزيرة العربية وموانئ بلاد الرافدين وأن منتجات جنوب الجزيرة العربية الواصلة

1- العيم، نورا عبد الله: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، دار لشواف الطبعة الأولى 1992.

إلى موانئها الشرقية كانت تنقل بحراً إلى بلاد الرافدين.

- وأما عن الأدلة النصية والأثرية التي تؤكد وجود العلاقة بين جنب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين في فترة البحث فهي متعددة ومن الممكن أن تضرب بعض الأمثلة عنها .

فلقد عثر في منطقة بالقرب من عانة على ختم أسطواناني من القرن الثامن ق.م مدون بالعربية الجنوبية وهناك رقم طينه مدونه أيضاً بخط المسند وتعود للقرن السابع ق.م عثر عليها في منطقة الوركاء (أوروك القديمة)

ومن الدلائل النصية على وجود هذه العلاقة نذكر مثلاً نص نينورتا - كودوري - أوصر حاكم إقليمي سوخي ومري مطلع النصف الثاني من القرن الثامن ق.م والذي يتحدث فيه عن قيامه بسلب القوافل المحملة بالبضائع الآتية من سبأ وتيماء. ويتضح من خلال سياق النص أن ما دفع هذا الحاكم إلى نهب هذه البضائع هو تجاوزها لنظام دفع الضرائب فهو يذكر أن هذه القوافل لم تمر عليه عندما كان في مدينة يسحبها كرابيل¹ أدبل تحاورته متخذة طريقاً لها بالقرب من منابع المياه ومن ثم تابعوا سيرهم نحو مدينة خندانو والتي ربما كانت أحد المراكز التجارية الكبرى للقوافل القادمة من شمال الحزبة العربية² وبما بلغت النظر في هذا النص ما يرد فيه عن المواد المستولى عليها فهي تشمل حمل مائتي حمل وأنواع مختلفة من الصوف والحديد والحجارة إلى جانب مئة أسير مع أسلحتهم.

وأما الملك شاروكين الآشوري (722 - 705 ق.م) فيذكر أنه تلقى الجزية من إيتار أمر السبي وأن الجزية كانت عبارة عن ذهب وأحجار كريمة وعاج وبذور خشب العقيق وغيرها ، وفي نحو العام 685 ق.م تسلم الملك الآشوري الآخر سينحاريب (705 - 681 ق.م) الجزية من كرب³ إيلو السبي وهناك اتفاق الآد في أوساط الباحثين على أن هذين الملكين السبيين اللذين يرد ذكرهما في نصوص هذين الملكين الآشوريين ما هما إلا المكرب السبي يقع أمر بين بن سمة علي وكرب إيلو هو المكرب أولاد الملك لاحقاً كرب ايل وترين

(1) حول نصوص هذا الحاكم : انظر اسماعيل ، بهيعة خذل . نصوص كودوري أوصر حاكم سوفي

وماري سومر مج 42 جزء 1+2 1986

مار علي صاحب نصب النصر المشهور. ورغم الدعاء الملك الآشوري بأن الحاكمين السثيين قدما لهما الجزية فإننا نعتقد أن ما قدمه هذان الحكامان لم يكن جزية بقدر ما كانت هدايا وذلك بعرض حماية مراكزهم التجارية في شمال الجزيرة لعربية هذه المنطقة التي أصبحت هدفاً لغزوات الملوك الآشوريين المتعاقبين بدءاً من عهد الملك تيجلات بلاصر الثالث (745 - 727 ق.م).

ومن الأدلة عن الصلات الاقتصادية بين الدولة البابلية الجديدة وسبأ ما ذكره هيرودوت من أن الكلدانيين كانوا يحرقون حوالي طنين ونصف من البخور للإله سنوياً في العيد الديني لهم ولاشك أن البخور لدى الكلدانيين¹ ونستذكر في هذا المجال أن الملك الكلداني نوندد (556 - 539 ق.م) قد هجر عاصمته التاريخية بابل واتخذ من تيماء مقراً لحكمه من أجل الإشراف المباشر على تجارة جنوب الجزيرة العربية مع بلاد الرافدين والتي كانت منطقة تيماء إحدى محطاتها الرئيسية.

- إن العلاقات بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين لم تقتصر على العلاقات الاقتصادية فالدلائل تشير إلى وجود صلات من نوع آخر تتمثل في التشابه في أسماء الآلهة التي كانت تعبد في كلتا المنطقتين. فإله القمر الحضرمي المسمى سين له ما يماثله في بلاد الرافدين وبنفس الوظيفة، والآلهة البابلية السورية عشتار لها ما يماثلها في بلاد اليمن متمثلاً بالإله عشتار مع الخلاف في الطبيعة بين هذين الإلهين فهو إله مذكر في اليمن في حين أنه آلهة مؤنثة في بلاد الرافدين وسورية. كما أن اسم الإله إيل الداخل في تركيب اسم الملك السبئي الشهير كرب - إيل وتر يعتبر اسماً لإله رئيسي في بلاد الرافدين وسورية.

- ولم تقتصر الأمور لمشاركة بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين على ذلك فهناك تأثيرات فنية وأثرية واضحة في الفنون اليمنية ويرجع ذلك إلى الألف الثالث ق.م. فمناظر شجرة الحياة الذي اشتهر في بلاد الرافدين والذي يتمثل بالنخلة التي يقف على جانبيها أسدن أو وعلين بشكل متقابل ومناظر البطل الذي يقف رافعاً على رأسه حيواناً

1 - اسماعيل، عارف أحمد: العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية صنعاء 1980 ط 1، ص 117

مقرّناً، كل هذه المناظر تحد انعكاساً لها في تماثيل ومشاهد وجدت في مناطق متفرقة من جنوب شبه الجزيرة العربية¹.

وفي الختام نريد أن نؤكد على ناحية هامة في إطار هذه العلاقات التي ربطت جنوب الجزيرة العربية مع مناطق بلاد الرافدين وهي أن خطوط التجارة التي ربطت بين هذين الإقليمين لم تكن فقط طرقاً لنقل البضائع عليها وإنما كانت طرفاً لانتقال المجموعات البشرية أيضاً، ففيما يتعمق بالتجارة كان للعرب الجنوبيين جاليات تقيم في البلاد التي يتأخرون معها، وما النصوص التي عثر عليها في أوروك إلا دليلاً على ذلك كما أنه لا يمكن إغفال بعض أوجه التشابه في المجالات المختلفة التي أوردناها أعلاه للتدليل على وجود حركة اتصال للمجموعات البشرية بين هذين الإقليمين من أقاليم بلاد العرب في فترة البحث وإن كان الأمر بحاجة لمزيد من البحث والدراسة وخاصة في المجال اللغوي لتأكيد الروابط بين لغات جنوب الجزيرة العربية مع مثيلاتها في بلاد الرافدين.

1- المرجع السابق، ص 118 · 122

الهجرات العربية اليمانية

الى بلاد الشام قبل الإسلام

د. محمود فرعون

ثمة حقيقة، تتلخص في أنه لا يمكن دراسة تاريخ بلد من بلدان الشرق الأدنى القديم، بمعزل عن تاريخ البلدان الأخرى في المنطقة، لأن الأحداث الخاصة ببلدان هذه المنطقة، يرتبط الواحد منها بالآخر ارتباطاً وثيقاً، وإن ما يحدث في إحداها ينعكس على جزء كبير من منطقة الشرق الأدنى القديم، يضاف إلى ما تقدم إن دراسة الهجرات العربية القديمة إلى بلاد الشام.. جديرة بالاهتمام لأنها تلقى مزيداً من الضوء على بدايات ظهور اسم العرب في الكتابات والنقوش القديمة وبين الأصول العربية لسكان بلاد الشام وأشهر القبائل العربية التي استوطنت فيها قبل الإسلام، وتأثيرها الحضاري

سوف تتجاوز ما سمي بالهجرات العربية السامية القديمة والتي أجمع عليها الباحثون بأنها خرجت من الجزيرة العربية منذ الألف الرابعة قبل الميلاد نحو بلاد الشام وبلاد الرافدين واتجه قسم منهم إلى شمال إفريقيا ونسب ظهور اسم العرب في الكتابات لقديمة.

بدأ ذكر العرب بتردد في الكتابات المسمارية بدءاً من أواسط القرن التاسع ق.م، وذلك باسم أريبي A- ri- bi، أربايا Ar-ba-a-a ويعد نقش شلمنصر الثالث (858 - 824 ق.م) أقدم شاهد كتابي يرد فيه ذكرهم، فهو أقدم ذكر معروف لهم حتى الآن. ومن البديهي أنهم كانوا موجودين قبل هذا التاريخ بوقت طويل. ويعيشون غالباً حياة التنقل والترحال في البوادي العربية معتمدين على تربيته الحيوان وعلى ممارسة شيء من التجارة. وتذكرهم النقوش العائدة للفترة الآشورية الحديثة خصوماً ألداء للآشوريين.

يتضمن النقش تقريراً عن انتصار الملك الآشوري في معركة جرت في موقع قرقر

(حالياً: خربة قرقور قرب مدينة جسر الشغور في شمالي سورية)، وذلك في سنة 853 ق.م، على تحالف ضم عدة ممالك آرامية بزعامة ملك دمشق، وشارك في التحالف شيخ عربي يدعى جندبيو أو جندب، وأسهم في المعركة بألف رجل، أي بألف مقاتل على جمالهم. وتعد هذه الإشارة أول دليل على استخدام الجمال في المعارك¹.

وبعد أكثر من قرن زحف الملك الآشوري تيجلات فلاصر الثالث (745-727 ق.م) إلى سورية أيضاً، وذلك بغية مواجهة الحلف الذي شكله ضده رزون ملك دمشق، وكان ضمن الحلف ملكة عربية تدعى زيبية Za-bi-bi-e التي كانت كاهنة وتزعم قبيلة قيدر المنتشرة في شمالي الحجاز. وقد تمكن الملك الآشوري من إخضاع دمشق سنة 732 ق.م، ونصب فيها حاكماً آشورياً².

ويمكن أن يستخلص من هذين الشاهدين أن قبائل شمالي الجزيرة العربية كانت تتوسع في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من دمشق، ويبدو أنها رأت في الآراميين هناك حليفاً يمكن الاعتماد عليه في مواجهة الأخطار الآشورية المتزايدة.

وتشير المصادر إلى أن ملكة عربية أخرى اسمها شمس أو شمس قادت في 732 ق.م تحالفاً عربياً ضد الآشوريين، وشاركت فيه قبائل نيماء وأسا Asa'a وخيا Hajappa وبدنا Bedena وسبأ³. وقد نال منها الآشوريون وفرضوا عليها قبو وحوود مراقب آشوري في بلاطها. وقد أجبرت هذه القائل على الاعتراف بالسيادة الآشورية. وقامت بإرسال الإتاوة من ذهب وفضة وابل وجمع أنواع الأقاوية.

ولاشك في أن ذكر لسبيين هنا لافت للانتباه، والراجح أن ذلك يدل على جاليات يمنية

1- مرعي، عبد، تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى 539 ق م، دار الأحياء، دمشق، 1991، 115.

2- مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، 118.

3- احسان عباس ومحمود أبوطالب، شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري، الجامعة الأردنية، عمان، 5، 1991، Klengel, H. Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Akademie-Verlag, Berlin, 1989, 45.

قديمة انتقلت إلى شمال عربي الجزيرة العربية في وقت مبكر خلال ممارستها أعمال التجارة بين الجنوب والشمال. ومن المعروف أنه كانت هناك طريق تجارية تخترق الجزيرة بدءاً من ميناء قنا على البحر العربي ثم تمر شمالاً بشبوة ومارب وقرناوونجران ومكة ويشرب ومدائن صالح حتى تيماء، وتتفرع بعد ذلك إلى فرعين، فرع يتجه نحو بابل وآخر نحو البتراء وعزة أو البتراء وبصرى. ومع مرور الزمن استقرت على هذا الطريق حاميات وجاليات معينة، وأسهم ذلك في التزاوج والاختلاط بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وقد أقامت أكبر الجاليات المعينة الجنوبية في واحة العلا شمالي يشرب¹. ويعود أقدم ذكر لدولة سبأ اليمنية في الكتابات لمسمارية إلى عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (858 - 824 ق.م)، وذلك في نقش له يؤرخ سنة 838، ويذكر أنه أحضرت جمال وخيول ونباتات عطرية وأحجار نفيسة وغير ذلك من سبأ إلى بلاد آشور².

لوتتبع النقوش الملكية الآشورية الحديثة سنلحظ بوضوح ازدياد الحديث فيها عن العرب والجزيرة العربية بدءاً من عصر حكم السلالة السرجونية، وأول ملوكها شرؤكين (سرجون) الثاني (721 - 705 ق.م)، أي من أواخر القرن الثامن ق.م، ويتزامن ذلك مع ازدياد لدور السياسي للقبائل العربية، وتحولها إلى قوة يحسب لها حساب لدى ملوك آشور، ويشمل ذلك بشكل خاص عرب مناطق الحجار والذين انتشروا من هناك نحو أطراف البادية السورية وبلاد بابل ونجد في القوش الآشورية ذكر للحملات التي قام بها سنحريب واسرحدون في القرن السابع ق م ضد القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وفي بادية الشام وصولاً إلى دمشق واخضاعه عدد من ملوكهم مثل تعل خونووخزابيل، ثم تتكرر حملات آشور بانيبال (668 - 627 ق م) ضد قبائل قيذار في بادية الشام ويتكرر ذلك في عهد نبوخذ نصر وتابويد

لا تحدد المصادر التي بين أيدينا الفترة الرسمية التي هاجرت فيها القبائل العربية إلى

1- النشبة، عبد الله حسن، محاضرات في تاريخ العرب القديم، 1995، 47.

2- المرجع السابق، الحاشية 29، ص 461.

سورية لكن المكتشفات الأثرية ألفت الأضواء على كثرة وجود العرب في سورية، فانصوص الكثير المنقوشة على صخور ابارلت في المنطقة التي يطلق عليها اسم الصف في الجنوب الشرقي من دمشق تشير إلى أن السكك اديد بنشو نلك لنصوص في القرون الميلادية الأولى هم من أصل عربي، فلعنتهم بهجة عربية وكتبتهم تحت إلى الكتابات التي وجدت في حوب خريرة العربية، وأهمية هذا الاكتشاف هو أن علماء الآثار قد عرفوا على عرب الصف قبل أن يحتلوا غيرهم فنعرفو بواسطة هذه النقوش على كتابتهم ولستهم وعاداتهم¹.

كما أن الرأي السائد اليوم بين العلماء أن الأساط عرب كانوا يسكنون بادية الشام الجنوبية منذ لقرب السادس قبل الميلاد وقد استعملوا الآرامية في كتاباتهم، ولم يذكرهم الأحاديث، بل دليل أن أسماءهم أسماء عربية حالصة، وأهم بشاركون العرب في عدة الأصنام المعروفة عند عرب الحار مثل ذي الشرى، اللات و لعى، وأهم رصعوا كتابتهم الآرامية بكثير من الألفاظ العربية، وبديل إطلاق مورحي اليونان واللاتس والمؤرخ اليهودي (يوسفوس) كلمة العرب على الأباط وإطلاق اسم العربية لصحرة Arabia Petraea على أرضهم، ولولم يكن الأساط عرباً لما أطلق الكلاسيكيون اسم العرب عليهم، وما كانوا ليدخلوا بلادهم ضمن أحراء الجزيرة العربية ومحيطها حراً، من أجزائها الثلاثة²

أما استخدام الأساط لآرامية في كتابتهم فيعود إلى أن الآرامية كانت قد تعبت على أكثر لغات الشرق الأدنى، وصدرت لغة لكتابة وتدين والتجارة في هذه المنطقة قبل الميلاد وبعده بقرون ولا عجب أن يدور الأساط وغيرهم من لغات بالآرامية، لغة الفكر والثقافة والتجارة، وأن يتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان

وينصق على سكان سمر ما كرماء عن الأباط فقد أخذ العنصر لعربي بتغيب عليها سرينجياً بدءاً من مطلع الأنف الأول قبل الميلاد، حتى أصبح هذا العنصر في عهد اسو في

1- دوسو، دسه، العرب في سورية قبل لإسلام، ترجمة عبد حميد الدواخلي، القاهرة، 1959

2- عني، جواد، الفصل في تاريخ العرب، الجزء الثالث، 1980، 9.

هو النواة الثابتة في تدمير والعالية عليها، وتلك نتيجة أكده أغلب الباحثين¹.

بالإضافة إلى الأنباط والعرب في تدمير، فإن مدينة حمص كانت تحت سلطة أسرة عربية قبل وصول الرومان بقيادة بومبي إلى سورية، وحكمت أسر عربية أخرى مدينة الرها، كما أن الأيتوريين، وهم من أصل عربي، كانوا يسيطرون على مملكة تقع في لبنان الداخلي عاصمتها خليكس Chalcis عنجر في القناع، ومن هناك امتد سلطنتهم في لبنان حتى شاطئ البحر، وبقيوا هكذا حتى تدخل الرومان وسيطروا على المنطقة².

لم تقدم المصادر العربية سوى معلومات شديدة الغموض فيما يتعلق بهجرة القبائل العربية إلى الشام، والآثار التي تركتها، ولولا التأييد الذي حصل عليه العلماء من النقوش الكتابية ومن مؤلفات معاصرة، لأضحت هذه المعلومات عديمة الجدوى.

يشير اليعقوبي والمسعودي أن قضاة كانت أول من قدم إلى الشام، وكان أول من قدم من قبائل قضاة نوح، فملكهم الروم على من ببلاد الشام من العرب ثم لحق بهم بني سليح ومن بعدهم غسان³.

أما الطبري، فيذكر بأن كثيراً من تنوخ الذين كانوا قد توجهوا مع مالك وعمرو ابني فهم ومالك بن زهير لحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاة، بعد أن ضبط أردشير بابك أول ملوك الساسانيين العراق، لأنهم كرهوا أن يقيموا في مملكته⁴.

أي أن هذه الهجرة نحو الشام كانت حوالي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي لأن أردشير بن بابك هو مؤسس السلالة الساسانية التي يبدأ حكمها سنة 224م. أما الهجرة الأولى من قبائل تنوخ⁵ سواء نحو لعراق أو الشام فربما كانت في النصف الثاني من القرن

1- البني، عدنان، تدمير والتدمير، وزارة الثقافة، دمشق، 1977، 92.

2- Jones, V. Journal of Roman studies, 1931, 257.

3- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، دار بيروت للطباعة والنشر، 1960، 201.

4- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 42.

1- يذكر الطبري أن تنوخ تصم قبائل عدة من العرب تحالفوا على التنوح وهو المقام، وتعاقدوا على التوازر والتناصر فصاروا يد الناس وضمهم اسم تنوخ. أنظر: الجزء الأول، 610. هذا وقد عثر

الثاني الميلادي.

نستنتج مما يرد عند الطبري واليعقوبي والمسعودي وغيرهم أن تنوخ التي استقرت في الشام كانت من قبائل قضاة¹، وأن بني تسليح غلبت عليهم وتنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام، وبوسليح هم عرب من قضاة، ثم سارت غسان إلى الشام فقدموا أرض البلقاء وسألوا سليحاً أن يدخلوا معهم في طاعة ملك الروم². أما ابن عبد ربه فيذكر أن سليح هو عمرو بن حلوان بن عمران، يسمي الضجاعة هم من بني سعد بن سليح، وأن الضجاعة هم الذين كانوا ملوك الشام قبل غسان³. ويبدو ما يذكره المستشرق نولدكه أن الضجاعة كانوا عمالاً للروم على عرب مشارف الشام. وأن جدهم ضجعم عاش في أواخر القرن الرابع للميلاد. وأنه تنصر مع عدد كبير من أئاعه⁴، ولم يتغلب الغساسنة على الضجاعة بسهولة ويسر، ولم يؤد هذا النصر إلى زوال الضجاعة نهائياً، إذ يرد ذكر بني سليح بن حلوان في حاضر قنشرين⁵، كما كان الضجاعة من لقبائل المعروفة عند ظهور الإسلام، فقد وقفوا مع سكان دومة الجندل في مقاومتهم لخالد بن الوليد وكان رئيسهم آنذاك ابن الحدرجان⁶.

أما الغساسنة فهم بإجماع النسابين، من أزد اليمن، التي افرقت فيما ذكرت المصادر نتيجة الظروف الاقتصادية التي نزلت باليمن، وحدوث سيل العرم ثم انهيار سد مأرب، كل ذلك كان سبباً في أن تهاجر قبائل بأسرها من جنوب بلاد لعرب إلى شمالها بحثاً عن أرض جديدة، والتماساً لظروف أفضل وليس هناك تحديد دقيق للتاريخ الذي استوطن فيه

على نقش أم الجمال في جنوب سوريا يعود للقرن الثالث الميلادي يذكر فيه اسم جدمة ملك تنوخ.

2- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، دار الأندلس، بيروت، 1973، 83.

3- المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، 83، اليعقوبي، تاريخ، الجزء الأول، 207.

4- ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثالث، القاهرة، 1952، 373.

5- نولدكه، أمراء غسان، ترجمة بتل الجوزي ووسططين زريق، بيروت، 1933، 6.

6- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية، مصر، 150.

7- الطبري، الجزء الثالث، 378.

الغساسنة الشام ، لأن ما يرد في المصادر فيه الكثير من الاختلاف وشيء من التناقض مع الإجماع على حقيقة واحدة لا مجال للاختلاف فيها ، وهي أن الغساسنة استوطنوا الشام بعد الميلاد وقبل الإسلام طوال عدة مئات من السنين.

ويذكر ابن حزم أن الغساسنة بطون شتى من الأزد ، ومن بطون غسان التي سكنت الشام أولاد جفنة بن عمرو مزيقياء¹. وكانت ديار ملوك غسان بالبرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام ويؤكد ذلك قول حسان بن ثابت :

لله در عصاة نادمتهم يوماً بخلق في الزمان الأول

يسقون من ورد البريص عليهم يردى يصفق بالرحيق السلسل

وفي فترة الفتوح الإسلامية ، تذكر المصادر العربية وجود قبائل غسان في مؤته وفي مرج راهط ومرج الصفر ومرج عذرا ومعظم هذه المناطق قريبة من دمشق²

وبالإضافة إلى قبائل غسان ترد أسماء قبائل كلب في بادية الشام في قراقر وسوى مع قوم من بهراء ، أما ديار عامله فمحاذرة للأردن ، وحبل عامية مشرف على عكا وإلى العرب من حمص تقع أرض بهراء.

هذه هي أشهر القبائل العربية التي اسوطت في الشام قبل الفتوح الإسلامية وكانت أما قضائية أوقطانية ، ومن الصعب أن نبين نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض.

ويرى بعض الباحثين ، أن وجود العرب وانتشارهم في بلاد الشام بكثرة ، كان من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي الإسلامي طريقه وأعانت عليه. وأن انفتح كان حركة قومية والفوز فيه كان للقومية العربية³.

1- ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، 351 ، المسعودي ، مروج الذهب ، الجزء الثاني ، 83.

2- الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الأول ، در صادر ، 401 ، 1977.

3- حتى ، فلييب ، تاريخ العرب المطول ، الجزء الأول ، 197.

ويقول ريسه دوسو.. ان لفتح الإسلامي - الذي وقع في القرن السابع الميلادي - كان في الحقيقة حركة طبيعية للسكان العرب الذين كانوا لا يتجهون دائماً إلى عزو الأقاليم الحضرية فحسب، بل إلى الإقامة فيها أيضاً¹.

ونستخلص مما ذكرناه أن النقوش وكتابات التي عثر عليها تؤيد ما ذهبنا إليه. أن هجرة العرب اليمانية إلى بلاد الشام بدأت منذ عصور قديمة ترافقت مع تحركات القبائل التي كانت تنساح من الجزيرة العربية باتجاه الشمال بحثاً عن أماكن جديدة للاستقرار أو بسبب مرافقتهم للقوافل التجارية الآتية من الجنوب نحو الشمال. واختتمت بهجرة كبيرة رافقت الفتوح الإسلامية في منتصف القرن السابع الميلادي.

1- دوسو، العرب في سورية، 2.

الهجرات اليمانية حتى نهاية القرن الثالث الميلادي

د. رفعت هزيم

لا شك أن الباحث في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ينبغي كي يكون منهجه مهججاً علمياً صحيحاً - أن يعتمد على مجموعة من المصادر هي :

1- الآثار والنقوش القديمة : فاما الآثار فتشمل المعابد والحصون والقصور والقبور والتماثيل والمسكوكات والأدوات الحجرية والمعدنية والفخارية ، وغيرها.

ولذا يقوم علماء الآثار المتخصصون بعمليات المسح والتنقيب في شتى المواقع الأثرية بحثاً عما خلفه القدماء حكماً أو محكومين. وأما النقوش فهي تلك التي كتبها العرب القدماء حيث كانوا يقيمون أو يرتحلون ، وهي صنفان ، نقوش مكتوبة بالعربية الجنوبية أو الشمالية ؛ وأخرى مكتوبة بلهجات آرامية ، وأهمها النقوش النبطية والحضرية والتدمرية التي تطلعا على جوانب كثيرة من تاريخ دول الأنباط والحضر وتدمر

2- الكتابات والنقوش السامية التي حلفتها الأقوام المجاورة ، ولا سيما الكتابات الآشورية والسريانية والحبشية

3- الكتابات الكلاسيكية ، ويُراد بها مؤلفات المؤرخين والجغرافيين من اليونان أو الرومان أو من سكان الشرق القديم في العهود البونونية ولهلنستة والرومانية مكتوبة باليونانية أو باللاتينية أو بغيرهما ، وأهمهم : هيرودوت (القرن الخامس ق.م) ، وديودورس الصقلّي (ت 40 ق.م) في كتابه "التاريخ الطبيعي" ، وبطليموس (ت 140م) في كتابه الجغرافية . و : الملاح اليوناني المجهول في كتاب الطواف أو البريلوس Penplus (من القرن الثاني أو الثالث للميلاد) ، وبروكوبيوس (ت 565م) في كتابه "تاريخ الحروب".

4- كتب التراث: وتشمل كتب الأدب ودواوين الشعر وكتب الإخباريين وكتب التاريخ والجغرافية والأنساب وسواها.

وعلى الباحث أن يفحص ما تذكره هذه المصادر فحصاً دقيقاً، وأن يقارن بعضها ببعض، وكلما تعددت المصادر المؤيدة لما يذهب إليه كان هذا أدعى إلى تأكيد صحة المنهج. وستكون البداية بما ورد في كتب الإخباريين عن موضوعنا هذا لأنها مصدر معظم ما يرد عنه في مؤلفات اليعقوبي والطبري والسعودي والهمدني ونشوان الحميري وسواهم. ويعد كتابا عبيد بن سريه الجُرهمي (ت نحو 68 هـ)¹، ووهب بن منبه (ت. 106 هـ)² أقدم ما نعرفه في صنمه من الإخباريون والسَمَتان الغالبتان على كتابيهما هما امتزاج الحقيقة بالخيال، والمبالغة المفرطة، حيث يرجعان بحضارة اليمن القديم إلى زمن بعيد، ويَصْلان أنساب الملوك والحكام الذين نفتقد الدليل على وجود بعضهم بالأنبياء عليهم السلام³، ويرويان قصص الفتوحات والغزوات التي قام بها هؤلاء الحكام في أصقاع مختلفة من العالم.

فمما ذكره في هذا الشأن أن شداد بن عابدين الخلطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام بلغ أقصى المشرق، ثم مضى على ساحل سمرقند في أرض التبت، ثم مضى على أرمينية، ثم جاء إلى الشام، ثم إلى

1- ذكر الهمداني أن عبيداً كان سامراً لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق، (الكليل 161/8) ولم يذكر بروكلمان سنة وفاته، ولكنه قال أنه عاش إلى أيام عبد الملك ابن مروان (تاريخ الأدب 215/1)

2- شرهما كركو في حيدر اباد عام 1347 هـ يعنون "كتاب التيجان في ملوك حمير عن وهب بن منبه" وبذيله "أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن"، ولكن بروكلمان يقول إن "كتاب التيجان" هذا هو لأبْنَهْشَام رَاوِيَة وهب، وقد اعتمد فيه بصورة أساسية على اسرائيليات وهب، وإن روى أيضاً عن مصادر أخرى، أنظر: تاريخ الأدب العربي 252/1.

3- قال ابن حزم: "جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم عدنان وقحطان وقُصَاعَة، فعَدْنَان من ولد إسماعيل، إلا أن تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جُهلَت جُمْلَةً.. وأما قحطان فمختلف فيه، قيل: هو من ولد إسماعيل وهذا باطل.. وقيل: من ولد سام بن نوح والله أعلم، وقيل: من ولد هود وهذا باطل.. لأن هوداً من عاد، ولا تری باقية لعاد.. وأما قُصَاعَة فمختلف فيه: قيل: ابن معد بن عدنان، وقيل: ابن مالك بن حمير والله أعلم" حمير الانساب 7 8

المغرب حتى بلغ البحر المحيط وهويني المدن ويتخذ المصانع ، فأقام في المغرب مئتي عام ، ثم قفل إلى المشرق.

ومنه أن الحارث الرائش قام بفتوحات واسعة تابعها أبنه ابرهة ذوا المنار الذي قاد مع ولديه عمرو وذي الازعار وأفريقش غزوات شملت الساحل الإفريقي للبحر الأحمر ، ثم امتدت إلى الشمال الإفريقي بما فيه المغرب إلى طنجة

وزعموا أن ناشر النعم (أو ، ياسر أنعم) بلغ في غزوه البحر المحيط ، ثم ساد بنفسه غازياً نحو المغرب فدوَّخه ووطَّنه حتى بلع وادي الرَّمْل ، فأمر بصنم من النحاس ، فَنُصِبَ على صخرة وكُتب على صدره بكتاب المسند : " صَنَعَ هَذَا الصَّنَمَ الْمَلِكُ الْحَمِيرِيُّ نَاشِرُ النِّعَمِ الْيَعْفَرِيُّ ، لَيْسَ وَرَاءَ هَذَا مَدْهَبٌ ، فَلَا يَتَكَلَّفُ أَحَدٌ الْمَضِيَّ مُتَعَلِّعاً فَيُعْطَبُ " أما شَمْرُ بَرَعَش بن ناشر النعم فقد "ملك الأرض جميعها ودانت له ، وكان عامه على فارس بلاش ابن قُبَاذ وعامله على الروم ماهان بن هرقل ، وجعل على أهل بابل والبحرين وعمان ألف درع " . وأما آخرهم أسعد الكامل فينسبون إليه قصيدة طويلة يغنى فيها بفتوحاته وبطولاته ، ومنها قوله :

نلتُ بلاد الهند والسند كلها وفي الصين صيرنا نقيباً وكاملاً

ونلتُ بلاد المشرقين كلاهما* ونلتُ بلاد المغربين وبابلاً

ويزعمون أنه آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث نبياً ، وينسبون إليه

قصيدة يقول فيها :

شهدتُ على أحمد أنه رسولٌ من الله ياري التَّسَمَ

له أمةٌ سُمِّيَتْ في الزُّبور فأمةٌ أحمد خيرُ الأنسَامِ

فلومدُ عمري إلى عهده لكنتُ وزيراً له وابنَ عامٍ

* كذا ورد بالرفع .

1 - انظر هذه الروايات والأخبار في : الإكليل 183/8 - 225 ، وكتاب : التيجان 81 - 134

و 219 - 221 ، وقارن به : أوراق : 252 - 256 .

ثم يدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم نبي عن سببه لأنه أول من كسا الكعبة ، وأنه هو المراد في قوله تعالى : "أهم خير أم قوم تبع" (الدخان 37) ومن الواضح أن تأليف هذه الأخبار والتوسع فيها والعناية بها إنما يرجع إلى ذلك الصراع الدموي بين اليمينية والقيسية - طوال العصر الأموي - على الخلافة والسلطان ، إذ لم يكتف كل من الفريقين بالصخر بأجاده في الإسلام ، بل حاول العودة بها إلى الزمان الغابرة ليثبت تفوقه على خصمه ومافسه قبل الإسلام وبعده¹. وبالرغم من أن التريخ قد طوى هذا الصراع - والله الحمد - منذ أمد بعيد فإن بعض الباحثين العرب مزالوا يتمسكون بهذه الأخبار والروايات ويعيدونها - بسبب ورودها في مؤلفات المتقدمين من المسلمات - فيسبون عليها أحكاماً ونظريات يلجئون للبرهنة على صحتها إلى تفسير ما ورد في المصادر التاريخية تفسيراً يوافق هواهم وإن كان مخالفاً للمنهج العلمي. ويشارك هؤلاء الباحثون - بذلك - أولئك الإخباريين في الاعتقاد بأن الحضارة العربية هي أقدم الحضارات في العالم القديم ، وبأن موحات بشرية كبرى متعاقبة خرجت من جنوب الجزيرة العربية وشمالها منذ أقدم العصور لتستوطن - سيماً أو بالعمرو - مناطق واسعة من بلاد الشام وبلاد الرافدين ، والأجزاء الشرقية والشمالية من القارة الإفريقية ويعززون مذهبهم هذا بدليلين اثنين ، أحدهما : ما يروى عن تدفق الهجرات من اليمن إثر حدوث سيل العرم الذي أشار إليه القرآن الكريم ؛ والآخر : افتراض كثير من الباحثين - مستشرقين وعرباً - أن الشعوب الناطقة باللغات السامية وصلت إلى أماكن سكنها المعروفة في هجرات متتابعة من الجزيرة العربية.

غير أن المصادر الأخرى التي أشرنا إليها لا تقدم دليلاً واضحاً يُثبت سبق الحضارة العربية زمناً لجميع حضارات العالم القديم ، كما أن المكتشفات الأثرية والنقوش والكتابات

1 - مكرر عقد من حرم المتوفي سنة 456 فصلاً في كتابه بعنوان لكلام في مفاخرة قحطان وعدنان "أحمل فيه أوجه المفاخرة للأفريقيين ، وانتهى إلى القول "ويظهر فصل عدنان طهوراً لأحفاد به ، وأما في الحقيقة فلا محر إلا بالتقوى ، وما عدا ذلك فحطأ : "إن أكرمكم عبد الله اتقاكم" (487 490) ولكنه جعل العرب ثلاثة أقسام : عدنان ، وقحطان ، وقصاعة .

بشتى الدفات، وكذلك المصادر الكلاسيكية لا تشير إلى خروج موجات كبرى - غازية أو سالمة - من جزيرة العرب إلى بلاد اشام أو بلاد الرافدين أو أفريقية - ما عدا الحشة - حتى القرن الثالث الميلادي. زد على ذلك بأنه لا يمكن التسليم بأن الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للشعوب السامية، فثمة نظريات تجعل هذا الموطن في بلاد لشام أو في بلاد الرافدين أو في الشمال الأفريقي أو في أقاليم أخرى.

ولو وقفنا قليلاً عند النقوش اليمنية القديمة، وهي أهم المصادر في هذه المسألة لوجدنا أنها لا تذكر شداد بن اللطاط أو الحارث الراش أو أهره ذا المنار أو عمراً ذا الأذعار أو أفريقش البثة، ولكنها تذكر أعمال ثلاثة من أولئك الحكام الذين تحدث عنهم الخباريون ومن تابعهم، وهم: ناشر التعم (أي، ياسر يهعم) وأبيه شمير يهرعش وهو شريكه ثم خليفته في الحكم، إذ استطاعت حمير في عهدهما الوصول إلى مأرب فأتحده بذلك الكيانات السبئية والحميري - بعد صراع طويل - في دولة واحدة أواخر القرن الثالث الميلادي، ثم استطاع شمير ضم أجزاء من حضرموت فانخذلقب "ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنت"، أما ثالثهم فهو أسعد الكامل (أي: أب كرب أسعد) الذي شارك أبه ملك كرب بها من الحكم أواخر القرن الرابع الميلادي، وبالرغم من أنه أخضع بعد انفراذه بحكم اليمن القديم كله تقريباً لسلطانه كما يُستنتج من إضافة عبارة "وإعرابهم طوداً وتهامة" إلى لقبه فإن غزواته لم تتجاوز - كما تقول النقوش - بعض مناطق نجد.

وأما سد مأرب الذي جعلوا انهياره سبباً لهجرة قبائل كثيرة إلى أماكن شتى تجاوز بعضها تخوم الجزيرة العربية فإن النقوش ودراسات المتخصصين هي التي تمدنا بمعلومات موثوقة عن بنائه وتصدعه وانهياره، إذ اكتمل بناء السد في ذلك الموقع في القرن الخامس ق.م، وقد أقيم هناك لاحتواء مياه السيول الشثة عن تدفق مياه الأمطار الموسمية من أودية المنطقة إلى مسقط تجمعها التي تقدر مساحتها بحوالي عشرة آلاف كم مربع. ولا يستطيع السد استيعاب مياه جميع السيول، وما تجرفه من صمى لفترة تزيد على قرن، فإذا أضيف إلى ذلك الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات، وفوق ذلك الإهمال أحياناً فإن هذا يفسر تصدع السد مراراً دون أن ينهار، مما يستدعي إصلاح الجزء المتصدع منه واستخراج ترسب في

حوض السد من أتربة وحجارة وأخشاب وسواها¹. ويرجع أول ذكر لإصلاح السد في النقوش إلى منتصف القرن الرابع الميلادي، حيث أشار أحد النقوش إلى إصلاح جدي في عهد الملكين ناران يهنعم وأبيه ملك كرب يهأمن، وشمل إعادة بناء المصرف الشمالي (671 Ja)، ثم تحذت نقشان مؤرخان بعامي 449م (CIH 540) و457م (Gar sy) عن ترميم السد مرتين في عامين متتالين من عهد الملك شرحبيل يغير ملك سبأ وذي زيدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طود وتهامة، ويبين فيه أن الملك سخر في المرة الثانية عشرين ألفاً من رجال حمير وحضرموت للقيام بالإصلاح. ثم قام أبرهة بإصلاح جديد عام 542م (CIH 541) أطال عمر السد زمناً قصيراً لأنه أنهار قبيل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسنوات قليلة، فنتج عن ذلك انهيار نظام الري في تلك المنطقة، مما أدى إلى هجرة قبائلها وتفرقهم في كل مكان، وجاء ذكر هذا الحدث - كما يقول مفسرو القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة سبأ: "فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتين ذواتي أكلٍ خُمطٍ وأثلٍ وشيٍ من سدرٍ قليلٍ" (سبأ: 16)².

فإن صح أن الآيات الكريمة تشير إلى التصدع الأخير الذي لآدى إلى انهيار السد، فهذا يعني أن الهجرات الكبرى المزعومة وقعت في الثلث الأخير من القرن السادس الميلادي، فلمذا سكت كتب التراث عن وصف سير هذه الهجرات وبيان القبائل التي شاركت فيها بالرغم من قرب عهدها بظهور الإسلام؟ ولعل الإجابة عن ذلك في نتائج دراسات الباحثين المعاصرين الذين قدرُوا مساحة الأراضي التي كان يسقيها السد في القديم بما لا يتجاوز عشرة آلاف هكتار، فاستتجوا من هذا أن الأراضي المزروعة آنذاك كانت تكفي لإطعام ما بين ثلاثين إلى خمسين ألف سمة كانوا يعيشون في منطقة مأرب، علماً بأن مساحة المدينة نفسها لم تكن تزيد على كيلومتر مربع واحد³ ومهما تكن نسبة الخطأ في هذه التقديرات فإنني استبعد أن يكون أولئك المتصرون من انهيار السد - وهم قوم مزارعون أي: مستقرون -

1- انظر الدراسة المفصلة عن سد مأرب في: أوراق 69 - 102 .

2- أوراق 74 .

3- أوراق 93 .

قد تركوا بدهم الوفير الخيرات الواسع المساحة ليهاجروا إلى مناطق بعيدة مجهولة لا يعرفون عنها شيئاً، فالأرجح أن معظمهم تفرّقوا في اليمن نفسه، وإن كنتُ لا أستبعد انتقال بعضهم إلى بعضهم إلى وسط الجزيرة بقرب المسافة ليلحقوا بإخوانهم من الجماعات التي سبقتهم طوال القرون الماضية.

على أن الأدلة على حدوث هجرات يمنية في لآلف الأول ق.م إلى الحبشة كثيرة متنوعة، ولكنها لم تكن بشكل غزوا وهجرات كبرى¹ بل هي عبور جماعات من اليمنيين للبحر الأحمر إلى الساحل الإفريقي المقابل، حيث أقامت محطات تجارية في ميناء عدولي Adolis وما جاوره، ثم تناع وصول هذه الجماعات فزحفت غرباً إلى مناطق شتى من إرتيريا ونجري، واختلطت بالسكان المحليين، وحلقت هناك مجموعة من النقوش المكتوبة بخط المسد عُثر على أقدمها في موقع "يحا" قرب أكسوم. وقد تضمنت سماء آلهة اليمن القديم، نحوالمقة وعُشر وذات بعدان وذات حميم، وأسماء بعض حكامه، نحو: سمه علي، وهوالمكرب السبئي يسمه علي ينف الذي كان حاكماً عام 510 ق.م. وتدل المكتشفات الأثرية في الموقع بما فيها الأدوات ولأشكال والنماط المعمارية والفنية على وجود صلات مؤكدة بين اليمن القديم والحبشة في ذلك العصر، فالمنصة المدرجة في يحا تشبه تلك التي في مأرب أوفي الحريضة، والأعمدة المربعة ذات القاعدة المستطيلة في يحا كمنظائرها في مأرب وحريضة، كما أن الزخرفة الفنية لها وهماك واحدة. وثمة أوجه شبه واضحة بين معبد يحا ومعبد حريضة والمساجد، وكذلك بين رواق القصر في يحا ونظيره في معبد أوام (محرم بلفيس) في مأرب وفي معبد عشر في تمنع أما الجدار الداخلي في قصر يحا فمبني على طرز جدران معبد مأرب، أي: بطبقتين من البلاط الحجري المستطيل المحشوا بالحصي. ووجه الشبه واضح أيضاً في المذابح الصغيرة وألواح تقديم القرابين والمذابح الأسطوانية أوالمكعبة والأختام البرونزية ذات الأشكال الهندسية. ويصدق هذا على المصنوعات الفخارية، فالجرار المثلثة من الطرفين والأكواب المضلعة من الطرفين في يحا كمنظائرها في هجر بن حمير والحريضة،

1- يرى بافقيه أن الهجرة التي بدأت في القرن لسابع ق.م أو قبله استغرقت وقتاً طويلاً، فليس هناك ما يدل على غزوة أو هجرة واسعة تمت دفعة واحدة (تاريخ 1970).

والأكواب ذات القاعدة نصف الكروية في يحا ومطرا وهاولتى، وتماثيل لثور المصنوعة من المرمر، والأسماء اليمنية نحو: ساء ومأرب لبعض المواقع القريبة من أكسوم. أما أثر اليمن القديم الباقي إلى اليوم في الحبشة فهو لعوى¹، إذ اتخذت دولة أكسوم التي ظهرت إلى الوجود في القرن الول الميلادي خط المسند - بعد تطويره بإضافة الحركات إليه - لكتابه اللغة الحبشية (أي الجعزية) التي تُظهر المقارنة وجود أوجه شبه نحوية ولغوية كثيرة بينها وبين العربية الفصحى ولغة النقوش اليمنية، رد على ذلك أن أسم البلاد نفسها أي الحبشة - هو من صوغ اليمنيين القدماء. وقد يتساءل المرء ها "أن تابع بعض هذه الجماعات اليمنية هجرتها من الحبشة إلى الشمال الإفريقي؟ والجواب هو أن الطريق الوحيد الامن للوصول إلى هناك هو عبور السودان ثم مصر، ولو حدث ذلك لختلف أولئك المهاجرون ما يدل على تلك الهجرات - أي كما فعلوا في حبشة - ناهيك عن أننا لا نجد لهذا ذكراً في أي من المصادر المعروفة.

فهل يعني ما تقدم أن هجرة اليمنيين القدماء إلى الحبشة هي الهجرة الوحيدة المعروفة في تلك العصور؟ لعل الإجابة عن ذلك تكمن في أن ازدهار حضارة اليمن القديم يرجع إلى التجارة بالطيوب التي كانت تُنتج أنواعها في بلاد المهرة وظفار وجزيرة سقطرة وتهامة لتُقل ومعها السلع المستوردة من الهند والشرق الأقصى إلى الشمال أي إلى بلاد الرافدين وحوض البحر المتوسط. وكان تصدير الطيوب عبر "طريق البحور" الذي يمتد من ميناء قنا على بحر العرب عبر شبوة فمأرب فنجران، حيث يتفرع إلى فرعين: أحدهما عبر "الفاو" في وادي الدواس فاليمامة إلى الخليج العربي وبلاد الرافدين، وآخر عبر يثرب فديدان (أي العلا) فلبتراء إلى دمشق أو إلى غزة، وقد ذكر بليني أن عدد محطات القوافل من تمتع "عاصمة قتيان إلى غزة كان يبلغ في القرن الأول للميلادي 65 محطة¹ وقد حلف لنا أولئك التجار اليمنيون

1- ويُحدثنا صاحب كتاب الطواف Periplus (من القرن الثاني أو الثالث للميلاد) عن طريق التجارة البحرية التي سلكها اليمنيون القدماء بين الموانئ اليمنية (المخ "موزا" على البحر الأحمر، وعدد وقوموشا على بحر العرب) وسواحل القرد الإفريقي والهند انظر: Per. plus 21 - 39، والفصل الذي عقده بافقيه بعنوان البحور والطريق التجارية في كتبه - تاريخ اليمن القديم 171 - 183

نقوشاً في بعض البلاد 65 محطة¹. غير أن المجموعة الكبرى من النقوش المعينة خارج بلاد اليمن وُجدت في ديدان (العُلا) بأعالي الحجاز أو الظاهر أن التجار المعنيين أقاموا مستوطنة هناك ليضمنوا سلامة القوافل التجارية في ذهابها وإيابها، وترجع هذه النقوش إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والثاني ق.م.

ولا شك أن "ديدان" لم تكن الموقع الوحيد الذي استوطنته اليمينيون القدماء، فثمة جماعات كثيرة منهم تجاراً وغير تجار - كانت على مدى القرون تتحلف لسبب أو لآخر في الأماكن التي تصل إليها في مناطق شتى من بلاد الشام وبلاد الرافدين لتخلط هناك بالقبائل العربية الشمالية ولتقيم معها إمارات عربية أشهرها ثلاث هي إمارات الماذرة والغساسنة وكندة. والواقع أن هناك أربع إمارات عربية أخرى أسبق زمناً، اثنان منها معروفتان وهي دولة الانباط (من بداية حكم الحارث الأول عام 169 ق.م إلى سقوط البتراء في عهد الإمبراطور تراجان عام 106م)، ودولة تدمر (من عام 41 ق.م عندما حاول الرومان الاستيلاء عليها حتى سقوطها بيد الإمبراطور أورليان عام 273م)، وثالثة أقل مهماً شهرة هي دولة حضر (Hatra) التي يرجع أقدم نقوشها إلى حوالي عام 85 م. ثم ذكر Cassius Dio في كتابه Roman History أن تراجان هاجمها عام 117 م دون أن يستولي عليها، ثم حاصرها سبتيموس سيفروس عام 198 فاستعصت عليه، ولكنها سقطت بعد ذلك بأيدي الساسانيين البطوريين - نسبة إلى بطور من أبناء إسماعيل - الذين أشارت لنقوش اليونانية والمصادر الكلاسيكية إلى وجودهم في لبنان بدءاً من القرن الثاني ق.م، وقد أدى الصراع المسلح على السلطة بين السلوقيين من عام 116 إلى 96 ق.م إلى ضعف سيطرتهم على بلاد الشام، فاضطروا منيوس (أي: معن) لقب Tetrarch عام 115 ق.م، وكانت حدود هذه الإمارة تضيق تارةً وتمتد أخرى حتى اختفى ذكرها بعد عام 20 ق.م.

ويبغى هنا ألا ننسى أن الحدود السياسية أو الجغرافية لم تكن - آنذاك - تمنع القبائل من الحركة أن شاءت وحيث أرادت، ولذا كانت تنتقل - غارية أو مسالمة - من منطقة إلى أخرى

1- وثقة نقش حضرمي في الجزيرة (RES 3952)

من جنوبي الجزيرة إلى شمالها أو منهما إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين ، وقد أورد المؤرخون القدامى أنفسهم أمثلة على ذلك ، فذكر أن "تنوخ" نزحت إلى البحرين فأقامت هناك وتحالفت فيما بينها* ثم تابعت تحركها في مطلع القرن الثالث الميلادي إلى جنوبي بلاد الرافدين لتقيم هناك دولة المناذرة ، وإن العساسنة ارتحلوا من مأرب إلى تهامة ثم إلى جنوب بلاد الشام حيث أقاموا دولتهم ، وأن "كندة" كانت في البحرين ثم نزحت إلى حضرموت ثم نزلت أرض معد وأسس هناك ملكاً. ولعل هذا هو الذي يدفع بعض المؤرخين المعاصرين إلى تسمية دول المناذرة والغساسنة وكندة بدول عرب الجنوب في شمال الجزيرة العربية. ولكسي أعود إلى القول أن هذه الدول وكذلك دول الأنباط والحضر وتدمر والبطوريين كانت من صنع عرب الشمال وعرب الجنوب معاً ، وسنجد الدليل على ذلك مرة أخرى في مؤلفات المؤرخين القدامى الذين وصفوا لنا أهل الحيرة على هذا النحو: "الثث من تنوخ وهم من كان يسكن المطال وبيوت الشعر والوير في غربي المرات فيما بين الحيرة والأنبار وما فوقها ، ولثث الثاني: العبد وهم الذين سكوا الحيرة وابشوا بها ، والثث الثالث: الأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم ممن لم يكن من تنوخ من الوير ولا من . (الطبري 822/1 رواية عن ابن الكلبي)

وتلتقي النقوش اليمنية القديمة الضوء على حركة القبائل في الاتجاه المعاكس ، أي من الشمال إلى الجنوب ، عندما نتحدث عن العرب أو الأعراب - وإن لم يكونوا جميعهم من عرب الشمال الذين يُعادون محالً سباً وحصر موت وحمير تارةً ، ويُسالموها أو يخضعون لها تارةً أخرى ، فقد ورد في نقش من منتصف القرن الثاني الميلادي (نقش المعسال) أن الجيش الحصرمي كان يصمم قوة بدوية يقودها "سيد الأعراب = Swd Crb" وتحدث نقش آخر (Z I 75) من عهد آل شرح لغسان ويزار ومدجح والأسد في الأطراف الشمالية لمملكة سبأ ،

❖ ملاحظ هنا أن بعضهم يجعل القبائل المتحالفة لتي صمها أسم "تنوخ" مصرية "ويعيه" (الكامل لأبن الاثير 340/1) في حين جعلها ابن حزم ثلاثة أبطن: "اثنان منها من قضاة ، وثالث يقال له الأحلاف وهم من جميع قبائل العرب كلها من كندة ولخم وجُدام وعبدالقيس" الحيرة 467. ويذكر فيليب حتى أن عطمان ونقلب وطيء وسواها أحلاف من قبائل شمالية .

ثم نجد فائدُ جدياً يزنيًا في عهد ياسر يهنعم من شمر بهر عرش أي في القرن الرابع يُلقب في بعض النقوش (Ir 32 + Ja 665) بكبير أعراب كندة ومذحج وحریم (أو: حرام) وبهمل وزيدال¹.

ولعل حركة التنقل هذه بين الشمال والجنوب هي التي جعلت النسابين يختلفون في نسبة بعض القائل نحو: عكّ وقضاة وكندة² إلى قحطان أو عدنان. وإذا كان يصعب علينا تتبع حركة عكّ وقضاة فإن ما ذكرته النقوش وكتب التراث عن كندة كافٍ لتوضيح هذا الأمر، فقد ورد في نقش سبئي من محرم بلقيس (Ja 635) أن ملك سبأ شعر اوتر - الذي حكم أوائل القرن الثالث الميلادي - أرسل حملتين عسكريتين إلى قرية ذات كاهل ضد ربيعة ذي آل ثور ملك كندة وقحطان، وذكر نقش آخر (Ja 2110) أن الملكين آل شرح يحضب الثاني وأحاه يارل بين - اللذين كانا يحكما في منتصف القرن الثالث الميلادي - أرسلتا سفارة إلى مالك بن بد ملك كندة ومذحج وتضيف إلى هذين النقشين نقشاً ثالثاً بخط المسند على نصب قبر لا تذكر فيه كندة صراحة، ولكنه يذكر أن صاحب القبر معاوية بن ربيعة هو ملك قحطان ومذحج، وقد عُثر على النقش المذكور - ومعه نقوش أخرى - في تنقيبات أثرية في موقع قرية ذات كاهل (الفاو حالي) في نجد³. ثم يختفي ذكر دولة كندة وقحطان ومذحج، هذه التي تمثل الدور الؤل من تاريخها وهودور تجهله كتب التراث تمامً لأنها تبدأ تاريخ كندة كما ذكرنا اعلاه - بالحديث عن انتقالها من البحرين إلى حضرموت ثم نزولها أرض معد وتأسيسها دولة، حيث ولى حسان بن تع (أي: حسان يها من بن أسعد الكامل) ملك حمير في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي حُجر بن عمرو بن معاوية الملقب بأكل لمرار على قبائل معد التي خضعت له في وسط الجزيرة العربية، ويبدو أن ذلك كان مكافأة على مساندة الحميريين ضد خصومهم هناك إذ يذكر أحد النقوش (Py 509) أن اعراباً من كندة قاتلوا مع

1- اطر بشأن الأعراب شماليين وجنوبيين: في العربية لسعيدة: 13/1 - 42، و: انتشار العرب اسدة

83 107، والنقوش مسندية: 106 - 107

2- اطر: جمهرة الانساب: 8 - 375 - 440.

3- قرية الفاو وللانصاري

اسعد الكامل في غزوة أوصله إلى موقع يدعى مأسل الجُمح في نجد.

ويؤيد هذا الذي ذكرناه دليل لغوي هام وهو انتشار النقوش العربية الشمالية هذا الانتشار الواسع الذي يمتد من حيث زمنه من القرن الرابع ق م إلى القرن الأول أو الثاني للميلاد، ويشمل من حيث رقعة بلاد الشام وجنوبي بلاد الرافدين وشمال الجزيرة العربية وشرقها. زيم نعلل كتابة هذه النقوش ثمودية ولحيانية وصفوية واحسانية وبين الفاراباشكال من خط المسند ؟ كما أننا نجد في المقابل نقوشاً يمنية قديمة مكتوبة بخط المسند (R 5065 - Ja 2122) ولكن لغتها عربية شمالية

وهكذا يتضح لنا من بحث مسألة هجرة اليميين القدماء حتى القرن الثالث الميلادي استناداً إلى ما ورد في شتى المصادر عن تاريخ اليمس القديم وحضرته أن الهجرات إلى شمال إفريقية سلباً أو غزواً مزعومة لا دليل عليها، في حين أن ما كن منها إلى الحبشة في الألف الأول ق م مؤكد بأدلة كثيرة ما يزال معظمها شاهداً على تلك الصلة بين صفتي البحر الأحمر إلى اليوم. أما الهجرات إلى شمالي الجزيرة العربية وبلاد الرافدين فهي مرجحة رجحاً يقارب اليقين، وأهم الأدلة على حدوثها هو النشاط التجاري الواسع الذي اسشهد به اليميون القدماء على مرّ القرون.

غير أن الهجرات التي تمت في الفترة المذكورة لم تكن هجرات كبرى على النحو الذي حدث بعد ظهور الإسلام مرافقاً الفتوحات أوتالياً لها، أو على غرار التخرسة الهلالية في القرن الخامس الهجري، بل كانت جميعها - بما فيها الهجرات إلى الحبشة تتم بجماعات صغيرة - من التجار أو سواهم - يتبع بعضها بعضاً على النحو الذي فعله اليمينيون في العصر الحديث في هجراتهم إلى اندونيسيا وماليزيا، فاختلطت تلك الجماعات المتعاقبة بانقبائل العربية الشمالية في موطنها الجديد، وما لبثت الهوية العربية الموحدة أن ظلت الجميع.

أثر هجرة قبيلتي الحبشان والأجاعز

من اليمن إلى شرق أفريقيا قبل الإسلام

أ. هدى عبد الرحمن العلام

قل التعرض لتحليل هجرة قبيلتي الحبشان والأجاعز من اليمن إلى شرق أفريقيا¹ وأثرها على المنطقتين لا بد لنا من الوقوف عند أبرز الأسباب العامة المؤدية لهجرة العديد من القبائل اليمنية عموماً خارج اليمن في اتجاه شمال غربي وشمال وشمالي شرقي وإلى ساحل شرق أفريقيا.

1 - عرف العرب اليمنيون منطقة ساحل شرق أفريقيا باسم السودان الشرقي أما السودان الوسط فقد أطلق على وسط القارة (حوض تشاد) والسودان العربي يشمل المنطقة العربية منه من البحر إلى الشمال وغامبيا. أما الأقسام الشمالية من القارة فهي مصر وليبيا ونوميديا وبلاد البربر ويذكر بأن اسم أفريقيا كان نسبة لأفريقش بن أبرهة الذي ينسب إلى حمير بن سبا بن قحطان بن - سام بن نوح أحد ملوك اليمن التابعة لآدي ذهب بقائل العرب (حمير - صنهاجة - كمامه) إلى بلاد المغرب وفيها سمع رطنة البربر فقال ما أكثر بربريهم (لعتهم غير مسموعة) وعليه سمي القسم الشمالي الغربي من القارة وميلاد البربر، والقارة ككل أفريقيا، للمزيد انظر: لامين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان العربي في القرن السادس عشر الميلادي، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص 69، وكذلك: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى تاريخ العروديون المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وفي عاصرتهم من دوي السلطان الأكبر، المجلد 2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2 وقصص 38-59 وكذلك أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلس (384-456هـ)، جمهرة اسماء العرب، دار الكتب العلمية، بيروت 200، 439-285 وأيضاً الحسن بن محمد ابوزان (المعروف بليون الأفريقي)، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد خضر، دار العرب الإسلامي ببيروت، ط 2، 1982، المقدمة وما بعد.

وفي الحقيقة كانت الظروف الجغرافية المناخية السبب الرئيسي في هذه الهجرات ؛ نظراً لتأثر منطقة شبه الجزيرة العربية بالتغير الجغرافي المناخي في نهاية عصر البلايستوسين في الألف العاشرة قبل الميلاد (10.000 ق.م). فقد شهد هذا العصر أربع فترات من الزحف الجليدي نحو شمال الكرة الأرضية (شمال أوروبا وآسيا) لازمها أربع فترات عن المطار السيلية الغزيرة في المناطق الاستوائية أما المناطق المتوسطة بينها (منطقة شبه الجزيرة العربية) فقد كانت تتمتع بمناخ معتدل نسبياً وأمطار معتدلة وخضرة دائمة ومأهولة بالسكان، وكان هذا الدافع الأول لظهور الحوار بين المجموعات البشرية فيها والمؤدي لظهور أولى الإنجازات الحضارية بها.

وبنهاية ذلك العصر زحف الجفاف و لقيح وقلة المياه على شبه الجزيرة العربية وأخذت مواردها النباتية والحيوانية تنضائل مما اضطّر سكان هذه المنطقة للهجرة الداخلية أولاً ولتكن هذه الجماعات في حالة اتصال مستمر فيما بينها بالرغم من انتقالها الدائم في المنطقة بالرعي وتجارة (إذ تخترقها الطرق التجارية البرية الرابطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب) وأمام الريادة الكبرى في عدد السكان وتفوقها على ما هو متوفر من الماء والعذاء بدأت الهجرات العريقة القديمة من اليمن نحو شمال والتي برز منها: (1) هجرة الأكاديون إلى وادي الرافدين في الألف الرابعة ق.م ؛ (2) الكنعانيون (عما فيهم الفينيقيون) والأموريون إلى منطقة الشام ووادي الرافدين في الألفين الثالثة والثانية ق.م ؛ (3) الآراميون في منطقة الهلال الخصيب والعبرانيون في منطقة الشام (السورية) في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م.¹ ثم تلتها هجرت عدة قبائل عربية منهم الأنباط والغساسنة والمندرة إلى بلاد الشام والحبيشان والأجاض إلى ساحل شرق أفريقيا.

وبالنظر إلى أن شبه الجزيرة العربية كان جزءاً من أجزاء القارة الأفريقية قبل طهور البحر الأحمر الذي فصل بينهما، منذ نحو ثلاثة ملايين سنة، وأزاحها من حارطة القارة الأفريقية،

1 - يحيى، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية بيروت، 1979، ص 33- 75 وجيمس هنري براستد، العصور القديمة، ت. داود قربان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 114- 115.

فإن البحر الأحمر الذي فصل بين الجانبين (شبه الجزيرة العربية)¹ وساحل شرق أفريقيا لم يكن مانعاً للهجرات البشرية من وإلى شبه الجزيرة العربية. إن هذه الأخيرة والتي رأى فريق من العلماء أنها الموطن الأصلي للساميين، عرفت نتيجة حدوث الجفاف هجرات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية لتطعم المنطقة بالطابع السامي. غير أن فريقاً آخر رأى العكس. فبالنسبة لهذا الأخير يعتبر الساحل الشرقي الأفريقي هو الموطن الأصلي للساميين ومنه خرجت الهجرات إلى شبه الجزيرة العربية عبر باب المندب؛ وبعد تكاثرهم وحدثت ظاهرة الجفاف هاجروا منها شمالاً وإلى الشمال الشرقي وإلى شرق أفريقيا.

وقد برروا هذا الافتراض بعدة مبررات تعتمد على الإعتبارات الجغرافية (القرب المكاني وسهولة العبور) والأدلة اللغوية (انتشار الكتابة بالخط المسند في الحبشة، والأدلة الدينية في عبادة إله (المقه)² في كل من الحبشة واليمن، إلا أنه تم الرد على هذا الفريق بالقول بأن أحد أسباب الهجرات هو التغير المناخي الذي حدث في حوض شبه الجزيرة العربية ولم يحدث في الهضبة الحبشية في شرق أفريقيا والتي استمر طقسها وأمطارها معتدلة.

كما أن الأدلة الأثرية في مجموعها تؤكد بأن الخط المسند هو أصل الكتابة السبئية وكذلك إله المقه هو إله سبأ العظيم ودولة سبأ ولا يختلف اثنان على أن مكانها في جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) أضف إلى ذلك اعتراف الأحباش أنفسهم أنهم من نسل ملكة سبأ³ - التي ستتطرق لها لاحقاً بالتحليل - وبالتالي تظل النظرية القائلة بأن جنوب شبه الجزيرة العربية

1 - عربي، على الطاهر، مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، مجله الدراسات الإفريقية، عدد 2، 1989 (مركز البحوث والدراسات الإفريقية، سبها) ص 59.

2 - كلمة المقه من مقطعين الأول (أ) وهو اسم الإله (أبل) ومفهوم بمعنى قوى، ومن ثم يصبح الاسم (أبل القوى) أي (الله القوى) واتخذ الثور (قرنه) رمزاً له.

3 - انظر كلا من: حواد على، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، منشورات جامعة بغداد، ط 2، 1993، ص 234 وما بعدها؛ ولطفي عبدالوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، مرجع سابق، ص 50-53، وعبدالله خليفة الحباط، تاريخ العرب قبل الإسلام، الشركة لعائبة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1992، ص 67-70.

هو الموطن الأصلي للساميين محل إجماع أغلب العلماء حيث خرجت العديد من القبائل اليمنية للاستقرار والسعي لتحسين أوضاعها الاقتصادية وخصوصاً السيطرة على الطريق التجاري الذي ينمل البضائع والسلع التجارية من الهند وشرق آسيا وشبه الجزيرة العربية (مثل التوابل والتمور والعنب والبحور والآدم) (المستكة) والقرقة والأحجار الكريمة) إلى شرق أفريقيا ونقاصيها بالعاج والجلود والذهب والرقيق وريش العمام والأخشاب وهذا الطريق اشتهر باسم طريق البخور¹.

التعريف بقبيلتي الحبشان والأجاعز وهجرتهم إلى ساحل شرق أفريقيا

تعتبر قبيلة الحبشان إحدى المسائل الشائكة التي تطرق لها هذا البحث. فحول كلمة حبشان أوحبشت أنقسم العلماء والمؤرخون فريقين، فريق يرى أن أصل ومدلول كلمة الحبشان أوحبش بأنها ليست قبيلة واحدة، وإنما الكلمة ترادف كلمة جمع. فتحبش أي تجمع، ونحبشوا اجمعوا، والحباشة الجماعة، وحبش قومه تحبشاً أي جمعهم جميعاً. وبالنسبة ليري هذا الفريق بأن كلمة حبشان أطلقت على مجموعات من القبائل اليمنية التي تركت ليمس وهاجرت إلى الساحل الشرقي الأفريقي في المنطقة الهضبية المرتفعة المقابلة لباب المندب في الغرب (جنوب غربي اليمن) ونظراً لكثرة هذه الفئات المهاجرة السامية فقد اختلطت بالحاميين الأفارقة على الساحل ثم تفوقت عليهم وتعلب أسمها ولغتها على اللغة الأصلية في البلاد أصبح الاسم حبشة يطلق على جميع المنطقة المهاجر إليها².

1 - الهاشمي، رضا جواد، تجارة لقوافل في التاريخ القديم، ضمن تجارة القوافل ودورها الحصري حتى نهاية القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص 14- 21.

2 - انظر كلا من: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994. ص 2781- 2790، وكذلك محي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ب 2، دار لدليل، دت، ص 277- 278، وأيضاً تجديد صحاح العلامة الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، المجلد الأول (تقدم الشيخ عبدالله العلايلي)، إعداد نديم مرعشلي وأسماء مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، ط 1، 1974، ص 231؛ ومحى الدين أبي قبض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الريدي الخنمي، ناح العروس

ومن هنا أورد ابن خلدون في تاريخه بأن سكان الحبشة قبل الهجرات اليمنية هم من سل كوش بن حام بن نوح عليه السلام، وإنها سميت كذلك نسبة إلى حبش¹، كما أورد ابن حزم الاندلسي في كتابه "جمهرة أنساب العرب" بأن الحبشة نسبة إلى أرفدة، وبالتالي فالمرجح أن الاسم قد أطلق على جماعات مهاجرة ليست من قبيلة واحدة إلا أنهم في مجموعهم ينسبون إلى أرفحشد بن سام بن نوح، وما يدل على عرقه هذا الاسم عند العرب اليمنيين وعرب شمال شبه الجزيرة العربية هو تغلغل كلمة حش وحش وحيشه وحبشه² في أنساب العرب وأسمائهم وقبائل عديدة حملت هذا الاسم على إثره لاحقاً.

فحبشية هي بطن من خزاعة من قبيلة الأزد القحطانية المنسوبة لسام بن نوح ومقرها في اليمن، وحبشي بطن من بني سليم بالمدينة المنورة، حبش بطن من عحمان إحدى قبائل نجد، والحبشي هي فرع من قبيلة بني مالك عسير وتقيم شمال أبها. وقد سار على درب هذا الفريق من العلماء عدد من المؤرخين المحدثين أمثال جواد علي بقوله: بأن أصل الحبش من غرب اليمن من سفوح لجبال والتي توجد بها "جبل حَبَش". وبأن لإسمه صلة بالحبش

1 من جواهر لقاموس، مجلد 9، دار الفكر، بيروت، 1994، ص 79؛ وأيضاً لطاهر الزاوي، مختار

القاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ط 2- 1978، ص 127

2- ابن خلدون، كتاب العبر، ص 15- 16 نقلاً عن: كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب

القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ج 1، بيروت، ط 8، 1997، ص 238.

3- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 3، مصدر سابق، وكذلك انظر حميد دولا

ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية،

سبها، ط 1، 1993، ص 40. نقلاً عن: كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة،

مؤسسة الرسالة، ج 1، بيروت، ط 8، 1997، ص 238.

4- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 3، مصدر سابق، وكذلك انظر حميد دولا

ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية،

سبها، ط 1، 1993، ص 40.

الذين هاجروا إلى ساحل شرق أفريقيا، ومنهم عرفت حبشت أو حبشة³.

وقد أكد المستشرق الإيطالي "كونتي روسي" بأن هذه الجماعات قدمت من ساحل اليمن الغربي أو عسير مما يسهل قرينه عملية العبور إلى ساحل إريتريا، وبأن الموطن الرئيسي لحبشت هو مقاطعة سحرتان القديمة Saharten (ويوجد بها جبلان يحمل أحدهما "اسم حبش" والآخر اسم حبش" وعلى وجه التحديد على مقربة من لُحَيَّة (حوالي 70 كم شمال غربي المدينة ما بين وادي بيش و وادي سرود) ثم يضيف بأن مقاطعتي سحرت وهوزن الموجودتين في إقليم تجري Tigray بشمال الحبشة تقابلان سحرتان وهوزن في اليمن، ثم كونوا حضارة في الساحل الشرقي الأفريقي مركزها (Yeha) ثم حضارة أكسوم المزدهرة بالحبشة². وعلى الرغم من اتفاق كثير من المستشرقين³ مع هذا الرأي فإنهم يرون بأن موطن الهجرة كان شرقي حضرموت (عند منطقة أمهرة)⁴ ثم إلى غرب الساحل ومنه عبر مضيق باب المندب والبحر الأحمر إلى شرق أفريقيا.

أما العريق الثاني من المؤرخين فقد ذكر صراحة بأن حبشت هي قبيلة عربية يمنية بل هي من أقوى القبائل العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية التي كانت تسكن تهامة في غرب اليمن أو أمهرة في حضرموت، وذكروا بأن هجرتها كانت ما بين القرنين العاشر والسادس

1 - علي، جواد، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 3، مصدر سابق، وكذلك انظر حميد دولا ب صيدان، الحدود التاريخية للصلاات العربية لأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سها، ط 1، 1993، ص 40

2 - علي، جواد، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 3؛ صيدان، حميد دولا ب. الجذور التاريخية للصلاات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سها، ط 1، 1993، ص 40

3 - صاحب هذا الرأي هو الألماني ادوارد جلامر في كتابه: Die Mueneherr 1895 و Abessinier in Aebien und Afrika إضافة رينان وموسكاتي وحويسي، انظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص 65.

4 - منطقة أمهرة اليمنية سبب لها عرفت اللغة الأمهرة إحدى فروع أو لهجات لغة الحبشة المعروفة بلغة الحويرا إحدى فروع اللغة السامية

ق.م، ومنها علب اسم هذه العيلة العربية على كل المنطقة التي قدمت إليها - سواء كان للتجار أو التوطن والاستقرار - ومنها أطلق العرب اسم الحبشة على جميع المنطقة الممتدة من نهر النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً ومن النوبة شمالاً إلى ما وراء خط الاستواء جنوباً (وبالتالي فهي تشمل ما هو معروف حالياً بالسودان والحبشة وإريتريا والصومال)¹.

وعلى الرغم من صعوبة الأخذ بأحد الرأيين إذ أن كلاهما يتفق مع الآخر صراحة في وجود هجرة عربية يمنية سامية سواء كانت قبيلة حبشت من ساحل غرب اليمن من تهامة أو أتت من أمهرة في حصرموت، أو أنها مجموعة قبائل عربية يمنية تركت موطنها في غرب اليمن عند جبل حَبَش وحَشْ فإن الهجرة تمت فعلاً وكانت بداية ظهورها في لمنطقة المقابلة لمنطقتهم الأصلية، ولاحقاً في الساحل والداخل.

-
- 1 - انظر كلاً من: محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، صمن مجلد (العلاقات العربية الأفريقية دراسة تحليلية في أبعاد مختلفة)، معهد الحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978، ص 33-34؛ صالح حامد أحمد مطر، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور القديمة و لوسطى والحديثة، مجلة الدراسات الأفريقية، عدد 4، ديسمبر 1991، ص 40؛ عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ص 1، 1998، ص 77-78؛ توفيق أمين الطيبي، الحبشة عربية الأصول والثقافة، مرجع سابق، ص 16 (كان هذا نقلاً لرأي عالم الآثار الفرنسي أرج درور Drewes من كتابة نقوش الحبشة القديمة) الصادر في لندن عام 1962، هنري من عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس مرس، طرابلس، لبنان، ط 2، 1991، ص 14، 340؛ علي الطاهر عريبي، مظهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، مجلة الدراسات الأفريقية، مرجع سابق، ص 59؛ بدوي محمد فهد، الصلات بين العرب وأفريقيا (الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية)، دار المساهم، عمان (الأردن)، ط 1، 2002، ص 12؛ محمد عثمان أبو بكر، المثلث العمري في القرن الأفريقي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 1996، هامش، ص 47، جوزيف كي روبرو، تاريخ أفريقيا السوداء، (سلسلة دراسات أفريقية رقم 10)، ترجمة، عقيل الشبح حسين، الدار لحماهيرية للشتر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط 1، 2001، ص 153-154؛ حميد دولاب صيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، مرجع سابق، ص 41.

وفيما يختص قبيلة الآجاعز فمتفق حولها بكونها أيضاً من أقدم القبائل العربية اليمنية التي هاجرت للحشة ، وأن موطنها الأصلي هو الساحل ما بين صنعاء وعدن ، ولهم عدة نقوش أثرية تذكرهم في اليمن والحشة ؛ كما يذكر بأد الآجاعز كانت قبيلة قوية اشتغلت بالتجارة واستطاعت بحكم قدم هجرتها إلى الجانب الشمالي الشرقي من الحبة أن تبسط نفوذها على أغلب هذه المنطقة وتصبح على رأس الطبقة الحاكمة في ممكتهم على الساحل الشرقي الأفريقي ونسبة لغوة وعراقه هذه القبيلة عرفت لغة الحبش أو الحبة بالجعرية أي لغة الحمر أو الآجاعز جمعاً¹.

وعلى الرغم من أن أغلب تلك المصادر والمراجع تحدد تاريخ هجرة هذه القبائل اليمنية ما بين القرنين العاشر والسابع ق.م ، فإن أقدم الآثار التي حملت نقوش تؤكد الصلة بين بلاد الرافدين وشرق أفريقيا هي تلك المتعلقة بعهد الملك سرجون الأكادي الذي حكم بلاد الرافدين عام 2709 ق.م (أواخر الألف الثالثة ق.م) ؛ هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذا التواصل أكد وجود بعض التقاليد المتشابهة في اتخذ القرن "رمزاً للقوة والجبروت"² ، وهذا

1 - انظر كلاً من عبد المجيد عابدين ، بين الحبة والعرب ، القاهرة ، ص 9- 13 ، مأخوذة عن محمد مصباح الأحمد ، تاريخ العلاقات العربية لأفريقية ، دار المنتقى للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2001 ، ص ص 42- 43 ، وكذلك حواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ح 3 ، مصدر سابق ، ص 449 ، إضافة لعالية المصادر والمراجع التي ذكرناها سابقاً أيا من معالجتنا لإشكالية كلمة حبش ؛ فتحي غيث ، الإسلام والحبة عبر التاريخ ، مرجع سابق ، ص 5 ، وجوزيف كي زيريو ، تاريخ أفريقيا السوداء ، مرجع سابق ، ص ص 153- 154 ؛ وكذلك انظر حميد دولاب صيدان ، الجدور التاريخية للصلات العربية الأفريقية ، 19.

2 انظر كلاً من عبد المجيد عابدين ، بين الحبة والعرب ، القاهرة ، ص 9- 13 ، مأخوذة عن محمد مصباح الأحمد ، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية ، دار المنتقى للطباعة والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2001 ، ص ص 42- 43 ، وكذلك جود علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ح 3 ، مصدر سابق ، ص 449 وجوزيف كي زيريو ، تاريخ أفريقيا السوداء ، مرجع سابق ، ص ص 153- 154 وكذلك انظر حميد دولاب صيدان ، الجدور التاريخية للصلات العربية والأفريقية ، مرجع سابق ، ص 41

المرمر كان سائداً عند هذه القبائل العربية اليمنية التي اتخذته، أي "قرن الثور" رمزاً لإله المقه. إضافة لذلك وجدت لفظة "حبسيتوا" أو حبسيتو ضمن نقوش الديبر البحري (في صعيد مصر) أثناء وصف البعثة التجارية المصرية التي وصلت في عهد الملكة حتشسوت في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد (1490 - 1369 ق.م) إلى بلاد بونت (الصومال والحبشة حالياً)¹، وبالرغم من قدم هذه الفترة التاريخية عن القرن العاشر ق.م فإنها تؤكد مدى عراقية قبيلة الحبشان وتحكمها في التجارة على الساحل الشرقي الأفريقي سواء كان هذا في فترة استقرارهم وتوطنهم بالساحل أو قبل الاستيطان أبان فترة التحكم بالتجارة فقط.

كما وجدت دلائل أخرى أكدت هذا الاتصال وساعدت عليه من ضمنها العامل المناخي المتمثل في الرياح الموسمية، وبفضلها وجدت رحلتان للعرب في العام، ففي رحلة الخريف والشتاء - هي الرحلة الأولى - التي تبدأ من شهر نوفمبر (الحريث) إلى فبراير (النوار) وفيها تسير السفن من خليج عمان وسواحل الجزيرة العربية - مع اتجاه الرياح - في اتجاه جنوبي غربي نحو ساحل الشرقي الأفريقي، وتكون رحلة العودة عندما يكون اتجاه الرياح شمالي شرقي وهي رحلة الإياب التي تبدأ من شهر إبريل (الطير) ثم في أشهر الصيف، وهي تعرف برحلة الصيف، وبها تعود هذه السفن بكل بسر وسهولة إلى مواقعها التي أقلعت منها وخلال هاتين الرحلتين يتم التعامل التجاري بين المطلقين، وكذلك الاستيطان على الساحل

وكانت هذه الرحلات في فترات موعله في القدم وكانت بواسطة السفن الشراعية الصغيرة المعروفة باسم الدوات Dhows، وقد ظلت هذه الرحلات المعتمدة على الرياح سرّاً هاماً من أسرار الملاحة العربية إلى أن تم كشفه على يد ملاح إغريقي اسمه هيسا لوس (عم 45 م القرن الأول الميلادي) فكسر بذلك طوق الاحتكار العربي لتجارة الهند، وتوجيه

1 - عبد الوهاب، لطفى، العرب في العصور القديمة، مرجع سابق، ص 401 - 402.

ضربة قوية لتجارة القوافل العربية البرية وكذلك البحرية أيضاً¹.

وفى القرن الأول الميلادي وجد أيضاً كتاب أحد الملاحين الإغريق ، وإن كان مؤلفه مجهول المعروف باسم "الدليل الملاحى للبحر الإريتري" *Periplus Maris Erythraei* والذي يضم نحو 7500 كلمة ، حيث وصف فيه مدى استقرار العرب على الساحل وكثرة تجارتهم وسفنهم واختلاطهم بالقبائل الأفريقية ، وإن زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لأمراء حمير وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وذكر بأن العرب كانوا فيه لعدة قرون سابقة مستقرين بالساحل ، ولم يحاولوا التوغل بالداخل مكثفياً بإنشاء مراكز تجارية لتصدير ما يحصلون عليه من الرعماء الأفارقة تجارياً² من تراب الذهب والعاج والرقيق - بعد مقايصتهم بالبضائع العربية أو الهندية كالخزr الذي اكتشفته الكثير من البعثات الأثرية الدنماركية في مناطق ليست في الحبشة فقط ، وإنما في كينيا وزمبابوى وكلوه.

1 - انظر كلامن :

سينس ترمجهام ، الإسلام في شرق أفريقيا ، ترجمة محمد عاطف النواوي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط1 ، 1973 ، ص35 ، وكذلك صص 8-9

- وكذلك جمال ركيا قاسم ، الروابط العربية الأفريقية قبل بدء حركة الكشوف الجغرافية وبعء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر ، ضمن مجلد العلاقات العربية الأفريقية دراسة تحليلية للآثار السلبية للاستعمار ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1977 ، ص8

- أيضاً جمال ركيا قاسم ، استقرار العرب في ساحل شرق أفريقيا ، بحثة حوليات كلية الآداب لجامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، 1967 ، ص281

- ومحمد محمد أمين ، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى ، مرجع سابق ، ص33

- وكذلك علي الطاهر عريبي ، مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية ، مرجع سابق ، ص57.

- وجمال ركيا قاسم ، الأصول التاريخية لعلاقات العرب الأفريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مصر ، 1975 ، صص 50-51.

- ورضا حواد الهاشمي ، تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم ضمن ، تجارة القوافل ودورها الحصارى في نهاية القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص24

- ومحمد عبد الفتاح ابراهيم ، أفريقيا الأرض والناس مع العناية لسمت ومؤثرات بعض الطوائع الثقافية الأفريقية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1964 ، ص106.

كما إزدادت أعداد الرقيق الذي جلبهم العرب من الساحل فاستخدموهم في حراسة قوافلهم، وتزاوجوا مع العرب وتناسلوا وبشاء منهم نسلًا عرف بشجاعته وسواد بشرته، وبعد ذلك أكدت هذه المعلومات في كتاب مؤلفه بلسنوس المؤرخ الروماني الذي تحدث عن الفترة من 70 ميلادي إلى ظهور الإسلام (في القرن السابع الميلادي) وكان من ضمن ما أورده هو سيطرة ملوك اليمن التابعه على مناطق من الساحل الشرقي الأفريقي واحتكار التجارة معهم في بعض الأصناف كالطيوب مثلاً¹.

إذاً من خلال طرح تلك الدلائل على الاتصال العربي بالساحل الشرقي الأفريقي وخصوصاً الحبشان والأجواز نرجح إن الهجرة تمت قبل القرن العاشر ق.م بعدة قرون بدليل وجود كلمة "حبستيو" ضمن نقوش الدير البحري إبان عهد الملكة حتشبسوت في أواسط الألف الثانية ق.م، وبالتالي كان استقرار تلك القبائل السامية وتفوقها وتأثيرها وتأثرها بالمنطقة باهيك عن سيل من القبائل الأخرى التي هاجرت لاحقاً لتوطد السيطرة العربية على شئون المجتمع والسياسة والثقافة والاقتصاد، مما كان له الأثر الكبير في تطور حضارة الحبشة، هذه الحضارة التي كانت مزيج مختلط بين الحضارتين السامية السنية والحامية الكوشية بعدما أصبح المهاجرون جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة، وكان التقدم في وسائل الري والزراعة وتهذيب أساليب البناء كما عند العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية وكذلك تطبيق القوانين الملكية، وما إلى ذلك من وسائل التقدم وال عمران في مدينة أكسوم عاصمه الحبشة.

ومن أبرز الآثار التي ينبغي الوقوف عندها

هي عهد ملكة دولة سبا التي قيل أنها حكمت اليمن وحبشة معاً، وعند الأحباش يرون أن مركزها في الحبشة، وإنها حكمت اليمن كدولة تابعه لها نظراً لقوتها العسكرية.

1- أنظر كلا من: جمال ركريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق أفريقيا، ص 283- 284. وكذلك الروابط العربية الأفريقية، ص 111، والأصول الترحيمية للعلاقات العربية الأفريقية، ص 54، وكذلك محمد عبد الفتاح إبراهيم، أفريقيا الأرض والناس، ص 106- 107، ومحمد محمد أمين، ص 45. علي الطاهر العربي ص 45.

وبالتمعن في أقدم نصوص منقوشة ورد فيها كلمة سبأ هذا النص (SA-Ba-A-A:SABA) الوارد في إحدى النصوص السومرية التي عُثر عليها في لجش في بلاد لرافدين، وقد قُدر تاريخها بأنها تعود إلى 2500 ق.م¹ وإن كان هذا الترجيح صحيحاً لأصبحت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل إلينا -حتى الآن- ورد فيها ذكر سبأ وعليه يكون السبئيون أول شعب جنوبي غربي يصل ذكره إلينا.

والمرجح إن دولة سبأ لم تصل إلى قوتها كمملكة على مستوى جنوب شبه الجزيرة العربية إلا قبيل القرن العاشر ق.م، حيث تفق المؤرخون على أن ملكة سبأ التي عرفت بيلقيس كانت لها علاقة بالنبي سليمان عليه السلام، والواردة في القرآن الكريم في سورة النمل -الآيات من (20- 44) والنبي سليمان كان في فترة القرن العاشر ق.م.

من هذا اتفق المؤرخون على تقسيم عصر الدولة السبئية إلى عهدين: أولها عهد المكريين (أي المقربين بين الآلهة والناس) من سنة 950 - 650 ق.م الذين اتخذوا من صراوح عاصمة لهم (وهي واقعة بين مدينة مأرب وصنعاء ومكانها اليوم مدينة خريبة شرقي صنعاء)، أما العهد الثاني فهو عهد ملوك سبأ الذي يمتد من 650 - 115 ق.م²، وخلال هذه العهود حدث تقارب وتأثر بين اليمن والحبشة.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الكتب السماوية تطرقت بدورها لسبأ وملكها، وخاصة حول علاقة هذه الأخيرة بالنبي سليمان، ففي التوراة (في العهد القديم) في سفر الملوك الأول 10: 1-13 وفي سفر أخبار الأيام الثاني 9: 1-12 ذكر أن ملكة سبأ سمعت: "بسيما المقرب من يهو... ورأت ملكة سبأ حكمة سليمان... وأعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل ما طلبته، فوق ما أعطاها من العطايا السخية، وانصرفت إلى بلادها هي وحاشيتها"

1- الشيخ، حسين، العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1993، ص 89.

2- انظر توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، دمشق ط 1، 1982، ص 72، وأيضاً عبد الله

حليفة الحنابلة، تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، 114 - 115؛ ولطفي عبد الوهاب

يحي، العرب في العصور القديمة، 360

وهكذا وردت القصة دون وجود دليل على انه تزوجها أو أنجب منها ولذا أودكر اسمها¹.

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل حيث وردت هذه القصة في الإصحاح الثاني عشر في الإنجيل متى 12 - 42 على إنها ملكة الجنوب أو ملكة التيمن، وفيها ورد: "وملكة الجنوب ستقوم يوم الحساب مع هذا الجيل، وتحكم عليه لأنها جاءت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان، وهنا الآن أعظم من سليمان"²، وفي الآية 31 من الإصحاح الحادي عشر من الإنجيل لوقا "وملكة التيمن ستقوم في الدين مع رجال هذا الجيل"³. وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر اسم ملكة سبأ إلا أنه أورد قصتها بالكامل مع النبي سليمان، وكانت علاقتها بالنبي سليمان نقطة للتأثير بين التيمنيين والأحباش لأنها حكمت التيمن والحبشة، إذ يذكر البعض أن حدود مملكة سبأ كانت ممتدة من جنوب التيمن إلى حدود مملكة سليمان في فلسطين⁴.

وتبدأ قصتها مع النبي سليمان عندما تفقد النبي سليمان الهدهد الذي عاد إليه بعد حين، وقد أجاب الهدهد النبي سليمان عن سبب اختفائه بقوله «أحطت بما لم تحط به

1- انظر كلام من: زيادة مى، بلقيس امرأة الألفاز وشيطانه الجس، رياض الرئيس للكعب والشرب، بدون، ط 2، 1998 ص 116 - 120 وكذلك محمد عزة دورة تاريخ بني إسرائيل من احطارهم، منشورات المكتبة العصرية، حيدا - بيروت، 1969 ص - 167، 168.

2 - زيادة مى، بلقيس، مصدر سابق، ص 150 - 151. وكذلك زاهر رياض، تاريخ إثيوبيا، مكتبة الانجلوا المصرية، لقاهرة 1977، ص 26 - 30

3- نفس المرجع، ص 31، وقيل في اشتقاق اسم بلقيس أنه اسمان جعلاً إسماً واحداً مثل حضرموت ويعمل بك، وذلك أن بلقيس لما ملكت بعد أبيها الهدهد، قال بعض حمير لبعض ما شهدوه من سيرة هذه الملكة والمنشابه مع سيرة أبيها، فقالوا بلقيس، أي بلقياس، فسميت بلقيس، أما اسم بلقمه فهو على وزن يعمله وقال الهمداني: إن تفسيره زهرة، لأن اسم الزهرة في لغة حمير يلفظه أو ألمق، واسم العمر: هيس، وقد عثر في النقوش العربية الجنوبية على إشارة إلى هيس/هويس وهو إله القمر، للمزيد ينظر: زياد منى، ص 47

4 - فضل عبد الله الحشام، الحضور اليمني في تاريخ الشرق الأدنى، دار علاء الدين، دمشق، ط 1، ص 74.

وجئت في سبأ نبأ عظيم ، إني قد وجدت امرأة تملكهم وأريت من كل شيء ولها عرش عظيم ووجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله¹ وموجز قصتها مع النبي سليمان أنه أراد أن يخبر الهدد أهو صادق في خبره أم كاذب؟ وهنا أعطاه النبي سليمان كتاباً ليوصله إلى الملكة فذهب الهدد بالكتاب حقاً وأتاه عنى سريرها ، فأخذته فوجدت به : «أنه من سليمان وأنه سم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوني مسلمين»² ، وهذا كانت الملكة عاقلة وفطنة في نظرتها لهذا الكتاب ، بخلاف الحماس الذي أبداه رجالها إذ قالت لهم : «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون»³ ولحل هذه المشكلة رأت أن ترسل بهدية إلى سليمان تقر به بها وتستنزل مودته بسببها ، ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها إلى سليمان ، وأن يعرفوا بالضبط مدى قوة مملكته وهذا رفض سليمان الهدية وأظهر لهم أنه في حالة حسنة وثروة مزهرة أكثر مما في مملكة سبأ ، وقد توعدهم سليمان ومملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم مجنود لا قبل لهم بها ، وبأن يكون عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلة صغرة ، ولما أخبر الرسل الملكة خافت وقررت الذهاب إلى أورشليم مع رجالها بهدية عظيمة ، وعندما علم سليمان باعتزام الملكة على زيارته في عاصمة ملكه شيد لها صرحاً عظيماً ومرد أرضه بالزجاج ولما قربت من ديار سليمان أمر جسوده بإحضار عرشها لكي تجلس عليه في الصرح ، وهذا لكي يظهر لها دلائل عظمته ونعم الله عليه ، فلما جاءت ورأت العرش قال لها سليمان «أهكذا عرشك» فقالت «كأنه هو» ، ولما أرادت دخول الصرح والوصول إلى العرش طنت الزجاج ماء فكشفت عن ساقها لتتبل ثيابها بالماء وأخبرت بأن ما ظنت ماء إنما هو زجاج فقالت «رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»⁴.

1- سورة النمل ، الآيات : 22 ، 23 ، 24.

2- سورة النمل ، الآية 30 - 31

3- سورة النمل ، الآية 34.

4- سورة النمل الآية 44 للإطلاع على تفسير هذه الآيات والقصة عموماً انظر - عبد الوهاب النجار ،

قصص الأنبياء ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، 1995 ، 333 ص - 334 ص وكذلك أبو

جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) (224. 310هـ) : الجزء الأول

وقد أوردت المصادر العربية شرحاً لهذه القصة مبينة إن اسم ملكتها هي بلقيس (أولفمه أولفمه) بنت ليشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان¹، وقد أضافوا بأن سليمان قد استسكحها بعدما أسلمت وحسن إسلامها، ثم قال لها اختاري رجلاً من قومك أزوجك وبعد جدالٍ احتارت ذا تبع ملك همذان فزوجه إياها، ثم ردها إلى اليمن ولم يرل بها ملكاً حتى مات سليمان ابن داود. بل إن بعض المفسرين من يذهب إلى أنه أنجب منها ولداً أصبح ملكاً على الحبشة².

إن هذه القصة كانت لها تأثير على الأحاسيل وإسقاطات على تاريخ الحبشة الوسيط والحديث والمعاصر، ففي القرن الثالث عشر الميلادي نسجت الأساطير الحبشية حول الملحمة الحبشية المسيحية (كبرا نجست أي مجد الملوك)³، والتي ورد فيها اسم ملكة التيمن التي كانت تحكم الحبشة واليمن معاً والتي زارت سليمان لتسمع حكمته، وبأنها كانت يكرراً وأن أحد رجليها مثل رجل العزّه (لأن أمها جنية) فلما وصلت إلى سليمان ودخلت الصرح استوت رجليها وصارت آدمية مثل الأخرى وانتهت القصة بأنه تزوجها ورجعت حاملاً إلى الحبشة، وبأنه أعطاه خاتمه لكي ترسله له مع ولدها ليتمكن من التعرف عليه وقد تم هذا فعلاً، برأي الأسطورة، وعند ذهاب الشاب لأبيه عرفه وملكه في ملك أمه، وعند عودته عاد بالتأبوت دون رغبة وعلم سليمان إلى الحبشة التي صار ملكها وبها تأبوت عهد الله.

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، 14 1979 ص 489 ص 403.

1 - أنظر كلاماً من الطبري. تاريخ الصبري، ج 1، مصدر سابق، ص 494-495 وعز الدين أبي الحسن على بن أبي الكريم لسيباني الملقب بابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الأول، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1994، 14، ص 162 وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد 2، مصدر سابق، ص 60-61 وابن حزم الاندلسي، جمهرة انساب العرب، م.س. ص 439

2 - البحار، عهد الوهاب، قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص 334.

3 - للإطلاع على هذه الملحمة الأسطورية بالتفصيل يطر، ريادة منى، بلقيس مصدر سابق، ص ص

145-150، وكذلك ص ص 153-128 راهر رياض، تاريخ إثيوبيا، مرجع سابق، ص

25-31، وعنده بدوي، السود والحضارة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

1276، ص ص 92-94

هذا موجز ما أورده الملحمة الحبشية عن نسل الأحباش من ملكة التيمن، التي يرون أن اسمها ماكيدا، والنبي سليمان، وقد أنجبت منه ولد اسمه مليك وهو ملك الحبشة ومؤسس دولة أكسوم عاصمة الحبشة.

إن هذه الأسطورة تكشف لنا مدى التأثير الحبشي لواقع بقصة ملكة سبأ (بلقيس) التي حكمت اليمن وشرق أفريقيا، بل رجحت الاكتشافات الأثرية المعاصرة أن حكمها امتد إلى سواحل شرق أفريقيا جنوباً عند زيمبابوي، حيث اكتشف لها قصراً ومجموعة آثار مشابهة لآثارها المتعارف عليها في اليمن والحبشة ولهذا اعتقد علماء الآثار أن حكمها ومملكتها قد امتد إلى زيمبابوي.

وبعل من أبرز الأسباب لكتابة الأحباش لهذه الأسطورة هو عامل سياسي في احتفاظ ملوك الحبشة الذين لهم من نسل سليمان بالملك وراثياً، وإن كل من يمس سلطنتهم يكون بمثابة انتهاك للحرمة المقدسة (أي إضفاء صفة القداسة على الملوك)، وبالتالي يكون حكمهم دون منازع لهم في كافة أرجاء البلاد، وما يدل على أنها أسطورة فعلاً هو أن اليهود في الحبشة عرفوا باليهود الفلاشة (أي المهاجرون أو الأغراب)، وكان عددهم كبيراً¹ فلأن النسل صحيح لما شاعت تسميتهم بالفلاشة لعصور طويلة من الزمن، وفي عزلة تامة عن باقي أجناسها، ولما كان من السهل اعتناق ملوك الحبشة للدين المسيحي بسرعة مذهلة في القرن الرابع الميلادي، وهناك من يرى بأن الغرض من هذه الأسطورة هو التخلص من العقدة النفسية والحساسية الشديدة التي عاناها الأحباش في تاريخهم بكرهيتهم لكلمة حبشت التي كانت إحدى معانيها هي الذهاب إلى بلاد السود، (وكما يقال مثلاً الحبشية من الإبل أي الشديدة السواد) ولهذا أصروا على تغييرها، وأمام ما تعرضت له بلادهم من سيل الهجرات من اليمن ومصر وفلسطين (هجرات يهودية) وما تمتع به المهاجرون من التصوق الحصري والعلمي والمعرفي هنا عمل الأحباش الأسطورة² لكي تنسبهم نسباً كريماً من ملكة سبأ (ملكة

1 - فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص 37.

2 - وما يؤكد إنها أسطورة هو انعدام وجود أي مصدر أو مرجع معتمد يؤكد انحدار هذه العائلة الحبشية من نسل سليمان الإمام جاء على لسان العائلة في هذه الأسطورة.

اليمين) وسيمان وكلاهما ساميات.

ومن خلال التحليلات السابقة نرجح أنه وفقاً لما ورد في القرآن الكريم وفي التوراة والإنجيل عن قصة ملكة سبأ وعن الحقائق الأثرية التي اكتشف في اليمن وما أجمعت عليه المصادر العربية كون اسمها بلقيس، وإنها ملكة سبأ التي ظهرت في جنوب اليمن وشهدت ازدهاراً كبيراً بحيث لا يوجد ما يمنع بأنها قامت خلال القرن العاشر ق.م بضم الحبشة والمناطق الجنوبية الشرقية من الساحل الأفريقي وما يبرر ذلك ما سبق وذكرناه عن عبادة الآلهة السبئية (لمقة / اله القمر أو الشمس) في اليمن والحبشة منذ عدة قرون قبل القرن العشر ق.م ناهيك عن التأثير اللغوي بالكتابة بالخط المسند، إضافة لوجود العديد من الجاليات والقبائل اليمنية على الساحل والتي اشتهرت بالاتصال ببلدها الأم ولم تنقطع عنها.

ومعلوم أن ملوك الحبشة قد استمادوا كثيراً من هذه الأسطورة التي تغلغلت في نفوسهم ونفوس شعهم وصارت جزءاً هاماً من كيانهم ومعتقداتهم، ففي تاريخ الحبشة المعاصر كانت المادة الثالثة من الدستور الإثيوبي، بعد تعيير اسم الحبشة إلى إثيوبيا، الصادر عام 1931، تقول: أن حق الحكم الإمبراطوري محصور في أسرة هيلاسيلاسي الأول ابن الملك سهلا سيلاسي الذي يحدر نسبه دون انقطاع من أسرة منليك الأول بن سليمان ملك بيت المقدس وملكة إثيوبيا المعروفة باسم ملكة سبأ¹ وبالرغم من إعادة صياغة الدستور عام 1955 فإن المادة الثانية منه نصت على أن: "يظل العرش بصفة دائمة محصوراً في نسل هيلاسيلاسي الأول المتسلسل من الملك سهلا سيلاسي الذي هو يدون توقف من نسل أسرة منليك ابن ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس"².

وأما عن أبرز أشكال الآثار الأخرى المترتبة على هجرتي الحبشان والأجاعر، وإن سبق أن أشرنا إليها، هي الأثر اللغوي والديني.

فقد تكلم المهاجرون اليمنيون في الحبشة بلغة سبأ التي عرفت نسبةً لقبيلة الأجاعر باسم

1 - زاهر رياض تاريخ إثيوبيا، ص 31. وكذلك صالح حامد أحمد مطر، مرجع سابق، ص 39.

2 - المرجع نفسه، ص ص 31، 39.

جعيذ Geaez ، وهي اللغة الأم للغات الرئيسية الثلاث ، المتحاطب بها في الحبشة واريتربا اليوم ، وهي الأبحرية (الأمهرية) والتجريبية والتجري إضافة إلى ذلك دلت النقوش السبئية على أن لغة معين وسبأ كانت أيضا تعرف بالبحرية وبها 29 حرفا ، وتعرف بالمسند ، وهي قريبة من اللغة الإكادية (في بلاد الرافدين) ولغة الجعيذ الحبشية (وعددتها 37 حرفا) ، فهذه اللغات الثلاثة من أصل واحد ، وهذا ما أكده المؤرخ فليب حتي بقوله : "أن الأكادية والحميرية والحبشية تمثل من بعض الجوانب أقدم شكل للسان السامي"¹.

ناهيك عن أن النقوش المكتشفة بالحبشة قد أظهرت أبصا عبادة آلهة جنوب شبة الجزيرة العربية وخصوصاً (المقة Lmqh إله القمر ، الذي يرمز له بالهلال أو القرص أو القرن) ، فالمؤرخ جواد علي يورد لنا بأنه من ضمن الاكتشافات الأثرية الهامة في كسوم هي العنور على حجر مكتوب عليه - في حائط كنيسة قديمة - نقوش بالسبئية وبها اسم الآلهة السبئية (ذات بعدن) أي (ذات العدد) كما عثر على بعبا أعمدة في موضع (يحا) الواقع شمال شرق عدوة ندل على وجود معبد سبئي ، إضافة للعنور على مذبح سبئي حصص للآلهة (سن أوسين) ناهيك عن كتابات أخرى تشير بوضوح إلى وجود السبئيين في الحبشة².

أما عن أبرز الآثار الاقتصادية فكانت في الزراعة وبناء السدود إذ لا يخفى على أحد ما شهدته حضارتي مروي وكوش من فن في بناء السدود والزراعة ، لذلك فما أن هاجرت القبائل اليمنية إلى الحبشة حتى تأثرت بما وجدته من فن في هذا المجال إضافة خبرتها السابقة في اليمن في بناء السدود - كسد مأرب مثلاً - ناهيك عن تأثر الساحل الشرقي الأفريقي بالظم التي أحضرها المهاجرون في الحكم والسياسية والاجتماع ، ولعل من أبرزها القضاء على نظام الانتساب للأمهات ادخل محله الانتساب للأباء ، وكانت الملكية الجماعية لليمنيين قد حلت محل سلطة الأخوال ، وزياده عدد السكان بدأ التجار منهم يتوغلون في القارة للحصول على العاج والذهب والصمغ والرقيق بعدما كانوا يتبادلونه مع القبائل الإفريقية

3- Hitti P K, History of the Arabs, London, 1943, P52.4

2 - علي ، جواد ، الفصل في تاريخ العرب قبل لإسلام ، ج3 مصدر سابق ، ص 451 - 452

على الساحل¹.

كم كان لتلك الهجرة أثراً على أسماء الملوك الذين حكموا (في الفترة من 8 ق م إلى 274 م)، حيث كانت أسماءهم تبدأ بمقطع (ذ) وتعني سيد أو صاحب، وتقابلها في اليمن (ذو) وهي لقب ملوك حمير مثل دوزن وذوقان والذي يلي هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أو المكان الذي ينتسب إليه هذا الملك. وخلال الفترة مابين أعوام 275 وحتى 478م نجد أن أسماء ملوك الحبشة تبدأ بمصدرة (آل) - وهو تقليد متعارف عليه عند ايمن، مثل آل سفتح وآل سمرة وآل برهة، ومعنى مقطع آل هو سيد أو رب أي نعت للملوك بصفات قدسية² فضلاً عن أن العرب أطلقوا لفظ النجاشي على ملك الحبشة وهذه اللفظة بمعنى ملك، فهي بمثابة لفظه (قبصر) اللقب الذي تطلقه على ملك لروم، ولفظه (كسرى) كلقب لكل من حكم الفرس، وتُنع على كل من حكم اليمن، كما قيل بأن العرب تأثروا بالأحباش بأحدهم لكلمة ملك الحبشة (ملك أكسمن / ملك أكسوم - وملك حبشت / ملك الحبشة) وتعني كلمة ملك الحبشية جامع الضريبة³ وبعد ذلك صارت لفظة ملك لقباً.

أما عن أبرز الآثار الحضارية لهجرة الحبشان والآجاءز إلى شرق أفريقيا فتتمثل في ظهور مملكة أكسوم القوية في القرن الأول الميلادي، والتي كانت من نتاج امتزاج الحضارتين العربية والأفريقية؛ هذا وقد أسمر عن علاقات العرب السياسية وعسكرية بالأفارقة آثاراً بالغة الأهمية على اليمن وعلى شمال شبه الجزيرة حيث تميزت العلاقات بينهما بالعداء. فالنصوص الحبشية تورد لنا سيطرة ملك أكسوم على السواحل العربية المقابل لمملكته عسكرياً، وقد اتفق بأن هذا الساحل ممتد من يبع في الشمال (الحجاز وعسير) إلى السواحل الجنوبية الواقعة على البحر العربي، وبعد ذلك نجد تفوق الحميريين واستيلائهم على هذا

1 - الطيبي، أمين توفيق، الحبشة .. ص 34 - 37.

2 - انظر كلا من عبد المجيد عابد بن، بين الحبشة والعرب - ص 13 - 14. مأخوذة محمد مصباح الأحمد، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، ص 44.

2- علي، جواد، ج 3، الفصل - ص 451.

3- علي، جواد، ج 3، الفصل، ص 453.

الساحل وضعه لمملكتهم إذ يحدوحدوهم لاحقاً أهل حصر موت وعمان.

غير أن العلاقات بينهما عرفت طورا آخر تميز بالتحالف. وقد ظهر هذا من خلال التمثال الحجري للملك ذوملامح شرقية وجدت بأسفله كتابات تدل على تحالف سياسي عسكري بين جدرة أوجدت ملك أكسوم، وزعيم همذان باليمن (وهو عسهان نهقان) ليضمن مساعدة الحبش له في حروبه ضد منافسيه وخصومه الذين هم ملوك سبأ وريدان (وقيل ملوك حمير) حوالي عام 180 م، وأثناء ذلك اشترك ابن علهان وهو (شعر أوتر) في الحكم مع والده. إلا أن هذا التحالف لم يستمر طويلاً؛ فبسبب رفض ملك همذان لطلب ملك أكسوم بالاحتفاظ بجيش بحري كامل في اليمن، خصوصاً بعدما انتصر على خصومه ولقب بملك سبأ وريدان، قامت الحرب بين الجانبين، وكانت لها آثارا سيئة على اليمن، إذ تسببت في هجرة قبائل أخرى، وفي سيطرة ملك أكسوم على أملاك جديدة في اليمن مثل سحرت وتهامة التي استوطنتها جاليات حبشية، وقد تكررت هذه العلاقات السياسية العسكرية بين الملك الحبشي (عذبه) وشمر ذوريدان أعوام 300 - 320 م انتهت بإخراج الأحباش من المدن اليمنية والسواحل التي استولوا عليها¹.

ومن خلال اللقب الصويل الذي تلقب به ملك أكسوم (الملك إزانا Ezana 320 - 350 م) وهو ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين²، المختوم بلقب ملك الملوك، نستنتج أن اليمن وما جاورها من الأراضي كانت خاضعة للحش في أيامه، بل أن هناك من يذكر بأنه تلقب بـ "ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين وصيامو (ساسو) وبجه وكاسو ملك الملوك ابن الإله محرم الذي لا يقهر"³ بعد دخوله في الدين المسيحي عام 350 م.

1 - المرجع نفسه، ص 454 - 456 وكذلك محمد مصباح الأحمد، مرجع سابق ص 45.

2 - سلحين هو قصر ملوك سبأ و ذوريدان بمارب، وقيل هذا الشعر: وقصر سلحين قد عفاه ريب الزمان الذي يرب، ينظر عدنان ترسيبي، اليمن وحضارة العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص 46.

3 - هناك من يرى بأن ملك الحشة قد تلقب بـ ملك أكسوم وحمير وريدان والحبشة وسبأ وصلح (سلحين) وتهامة واليجاء وكسواً انظر حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، ص 115، والسيد عد

وفرضه للتصراية كديانة رسمية لممكتته وم صاحبها من تغيير في انقود (العملات) من حمها للشارة الوثنية - اهلل أوالقرص - إلى حمها شارة الصليب ، هـا تلقب بالاعميدا E.la Amida بدل لقبه السابق بن محرم الذي لا يقهر ، وأصح لقبه الاعميدا الذي لا يقهر يعني : أنه عزا سبب انتصاراته بنشر المسيحية في النوبة إلى "رب السموات الذي تخضع له كل الكائنات في الأرض والسماء"².

كما تمثلت أبلغ الآثار على سكان اليمن في القرن السادس الميلادي هو قيام الأحباش باحتلال اليمن - سواء أكان ذلك الأسباب اقتصادية لحماية التجارة الحبشية أو سياسية كرد فعل لغزو ملوك حمير على السواحل الشرقية للحبشة - ومحاولة تنصير عربها وإنشاء كنيسة في ظفار التي أصبح رئيس أساقفتها يشرف على كل الكنائس المنشأة في اليمن وخصوصاً نجران والخليج العربي، وبذلك حل الدين المسيحي بالتدريج محل الوثنية. وبعد فرار ملك حمير دونواس إلى يثرب ثم عودته إلى نجران ومطالبته للتصاري العرب بترك دينهم أو الفتك بهم، أسفر هذا عن حرقه لعدد كبير منهم ودفنهم في أهدود مثلما ورد في القرآن الكريم «قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»²، وقد ترتب على هذا أن بعث قيصر الروم إلى نجاشي الحبشة يأمره بنصرة الصاري العرب؛ بناء عليه أرسل النجاشي جيش بقيادة أرياصاً ومعه أبرهة الأشرم وسبعين ألفاً من الأحباش نزلوا ساحل اليمن وتنصروا على اليمنيين وانتهت حرب بهروب دونواس واعتراضه البحر ثم موته؛ وهكذا وبسبب هذه الغزوة فقد اليمن ثلث رجاله، وخرب ثلثه كما أرسل للنجاشي بثلاث سبائك³.

وبذلك فقد اليمن استقلالها منذ عام 525م وصار ملك الحبشة يلقب بـ "ملك

= العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص 65، وعدنان ترسيبي، اليمن وحضارة العرب، ص 19.

1 - علي، جواد، ج 3، ص 456، وكذلك أمين توفيق الطيبي، ص 47.

2 - سورة البروج، الآية 4.

3 - ابن خلدون، ج 2، ص 69-70، جواد علي، ج 3، ص 457، جرحي زيدان، العرب قبل

الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص 144 و ص 174.

أكسوم وحمير وريدان وسأ وسلحين" وفيها انتشرت النصرانة عن طريق الحبشة، وبتنصيب أبرهة الأشرم ملكاً على اليمن الذي استقل في حكمها عن الحبشة مقتصراً بدفع الجزية لنجاشي الحبشة، ذكر أن أبرهة قد اعترف رسمياً بأنه: "عرلى ملكن إجعزين / أي نائب ملك الاجاعزة على اليمن" وعند ترميمه لسد مأرب كتب عليه "ملك سبأ ودي ريدان وحضرموت ويمنت (اليمن) وأغرابها في النجاء (المنطق الجبلية الداخلية) وفي المنخفضات وتهامة (الساحل)"¹ وقد افتتح هذا للقب بجملة "بجلول الرحمن ومسيحه"².

على الرغم من الضعف الذي اعترى مملكة أكسوم بعد نهاية الحكم الحبشي لليمن إلا أن تجارتهم وعلاقاتهم استمرت مع العرب وخصوصاً عرب مكة أي قبيلة قريش بقيادة هاشم ابن عبد مناف وإخوته الذين على يدهم خرجت قريش إلى مجال التجارة الخارجية، حيث اتصلوا بالأحباش ووثقوا صلاتهم التجارية معهم ومعلوم أن هاشم بن عبد مناف (جد الرسول "ص") هو أول من ابتدع إيلاف قريش³ للرحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ورحلة الصيف إلى الشام، وهكذا كانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاقاً (توسعاً) من الرق وأمناءً ومتحرراً حسناً⁴، ومع شهرت ملكها النجاشي المسيحي العادل والصالح هنا أمر الرسول. (ص) أصحابه بعدما أصابهم من البلاء والقهر على يد قريش، بالهجرة للحشة في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة (615م) وقال لأصحابه: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"⁵.

1 - النص الحرفي بلغة الحبشة: "نجيل رحمن ومسحهو ملكن ايره زيمين ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنت واعرابهمو طودم وتهمت".

2 - علي، جواد، ج3، ص470، وكذلك عدنان قرسيبي، اليمن وحضارة العرب، ص66.

3 - وفيه نزلت سورة قريش: "إيلاف قريش، إلفهم رحلة الشتاء والصيف فلعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وعاءهم من خوف".

4 - الطبري: تاريخ الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج2، مصدر سابق، ص328-329.

5 - أنظر كلا من: أبو العلاء الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت- 774هـ)، البداية والنهاية، ج3، مكتبة المعارف، بيروت، ط5، 1984، ص66 وإن الأثير الكامل في التاريخ، مجلد1، مصدر سابق،

وبهذا بعث الرسول المهاجرين على دفعات بلغ عددهم عند وصولهم الحبشة نحو ثلاثة وثمانين رجلاً عدا زوجاتهم وأبنائهم الذين خرجوا معهم والدين ولدوا في الحبشة إذ قدر مجمرهم بستمائة مسلم استمرت مدة إقامتهم بالحبشة حوالي ست عشرة سنة¹.

ولعل من أهم أسباب اختيار الرسول "صلعم" للحبشة هو قربها ناهيك عن احاطة مكة بالقبائل العربية المعادية للرسول والمسلمين، أصف إلى ذلك سمعة ملك الحبشة المسيحي والعلاقة الوثيدة بين العرب والأحباش والتي استمرت وطيدة حتى عهد الرسول "صلعم".

وقد أوردت المصادر العربية التاريخية أن اسمه أصحمة أو أرمجة وأن معنى الاسم هو أعطية²، وعلى الرغم من أن قريش قد أرسلت رسولين منها بهدية إلى النجاشي تطالبه بتسليم المهاجرين إليها إلا أنه غضب من هذا واجتمع إلى الرسولين ووفد المهاجرين وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب الذي كان يجيب على كافة الأسئلة وخصوصاً آخرها بقراءة أول سورة مريم إلى «يوم أبعث حياً» إذ بكى النجاشي وأساقفته وقال: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة³ واحدة» ثم أخذ عوداً من الأرض، وقال لجعفر: «والله ما زاد على ما في الإنجيل ولا مقدار هذا العود» ونظر إلى رسولي قريش قنلاً: «انطلق فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون»، وأمر بهدية قريش فردها لهم، وقال للمهاجرين «اذهبوا فأنتم آمنون»⁴.

= ص 496-500 وكذلك الإمام محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ج، تحقيق الأستاذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، دار المعنى للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1999، ص 30، وكذلك الطبري، مصدر سابق، ص 328.

1 - ابن سعد، الطبقات الكبرى (السيرة الشريفة النبوية)، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، د- ث، ص 207 والطبري، ج 2، ص 329 وابن خلدون، مجلد 2، ص ص 289-399 وابن هشام، السيرة النبوية، ج 1 مصدر سابق ص 330، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 9.

2 - الطبري، ج 2، ص 335-336، وابن كثير، ج 3، ص ص 77-78.

3 - المشكاة هي الكوة غير المأفدة، وقيل هي الحديد التي يُعلق عليها القسديل وقد قص النجاشي من قوله "يخرج من مشكاة واحدة" معناه أن القرآن الكريم والإنجيل كلام الله تعالى أنهما من شيء واحد، نظر ابن هشام السيرة النبوية، ج 1، ص 343.

4 - ابن كثير، ج 3، ص 74، وابن هشام، ج 1، ص 343.

ومهما يكن من أمر فالعلاقات السياسية والاقتصادية قد استمرت وطيدة بين ضفتي البحر الأحمر واستمر التأثير المتبادل أيضاً، وخير دليل على هذا هو تأثير العرب ونطقهم بالكثير من الكلمات الحبشية التي كانت دائرة، وقد وثقت ونزلت في القرآن الكريم هذا المصدر الحديث الجامع لكافة اللغات الفرعية والمشتقة من اللغة السامية الأم وقد أمرد لها جلال الدين السيوطي باباً في " كتابه الإتقان في علوم القرآن" ¹ وهي ومعانيها كالاتي:

- 1- إيلعى (قيل يأرض أيلعى ماءك) ²: كلمة حبشية بمعنى ازددريه.
- 2- الأرائك (على الأرائك متكتون) ³: كلمة حبشية بمعنى السرر.
- 3- أليم (عذاب أليم) ⁴: كلمة حبشية بمعنى موجه.
- 4- أواه (إن إبراهيم لأواه حلیم) ⁵: كلمة حبشية بمعنى المؤقت أو الحلیم وقيل الدعائي.
- 5- أواب (نعم العبد إنه أواب) ⁶: كلمة حبشية بمعنى المسيح.

-
- 1 جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ت 911 هـ. الإتقان في علوم القرآن ج 1، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973، ص 137 - 139 كما وردت هذه الكلمات عند: عبد الجليل عبد الرحيم، لغة القرآن الكريم، مكتبة الرسالة الحديثة عمان (الأردن)، ط 1، 1981، ص 214 - 219.
 - 2 - سورة هود، الآية 44
 - 3 - سورة ياسين، الآية 56، وكذلك أنظر سورة كهف، الآية 31، والإنسان الآية 13، والمطففين، الآية 23 - 35.
 - 4 - سورة المائدة، الآية 36، وكذلك وردت الكلمة في الآيات 37 - 94، وفي سورة الأنفال، الآية 32، والأعراف الآية 73، والتوبة الآيات 3 - 34 - 61 ويوس، الآية 97، وسورة هود، الآية 26 - 48، وسورة يوسف، الآية 25، إبراهيم الآية 22، الملك الآية 28 حيث وردت في 35 سورة من القرآن وفي كل سورة في أكثر من آية.
 - 5 - سورة اتوبة، الآية، 114 وكذلك وردت الكلمة في سورة هود، الآية 75
 - 6 - سورة ص، الآية 30، وكذلك نظر الكلمة في الآيات 17 - 19 - 44 في نفس السورة، وأيضاً سورة ق الآية 32.

- 6- أوبي (يا جبال أوبي معه)¹ : كلمة حبشية بمعنى سبحي معه.
- 7- اجبت والطاغوت (يؤمنون بالجبوت والطاغوت)² : الجبوت بمعنى الشيطان وفيل الساحر أيضا بلسان الحبشة ، أما الطاغوت فمعنى الكاهن
- 8- حطب جهنم³ ، حطب جهنم.
- 9- حوبا (أنه كان حوبا كبيراً)⁴ : إنما كبيراً.
- 10- الحواريون (وإذا أوحيت إلي الحواريون أن ءامنوا بي)⁵ أصحابه وقيل رسل المسيح الأصفياء الخلقاء.
- 11- دري (كأنها كوكب دري)⁶ مضيء.
- 12- السجل (كطي السجل للكتاب)⁷ : الرجل
- 13- سنين (وطور السنين)⁸ : الحسن
- 14- السكر (ومن غمرات النخيل والأعناب تتحدون منه سكرأ ورزقأ حسناً)⁹ : النحل.
- 15- شطر (فول وجهك شطر المسجد الحرام)¹⁰ : أي تلقاء المسجد.

-
- 1 - سورة مباء الآية 10 .
- 2 - سورة النساء ، الآية - 51
- 3 - سورة الأنبياء ، الآية 98
- 4 - سورة النساء ، الآية 2
- 5 - سورة المائدة ، الآية 111
- 6 - سورة التور ، الآية 35.
- 7 - سورة الأسماء ، الآية 104 .
- 8 - سورة التين ، الآية 2 .
- 9 - سورة النحل ، الآية 67.
- 10 - سورة البقرة ، الآيات 144 - 149 - 150 .

- 16- طه (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي)¹ : يا رجل أوبيا محمد.
- 17- طويي (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طويي لهم)² : الجنة لهم
- 18- العرم (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل العرم)³ : أي المسناة التي يتجمع فيها الماء ثم ينبثق.
- 19- غييض (غييض الماء وقضي الأمر)⁴ : أي نقص الماء.
- 20- قسورة (فرت من قسورة)⁵ : أي فرت من الأسد.
- 21- كفلين (بؤتكم كفلين من رحمته)⁶ أي ضعفين.
- 22- متكأ (اعتدت لها متكأ)⁷ قبل أن الحيش يسمون الترنح متكأ.
- 23- مشكة (مثل نوره كمشكوة)⁸ أي الكوة وبالتالي يكون المي كمثل كوة في جدار غير نافذة (وهي الطاقة)⁹ تجمع النور وتعكسه.
- 24- منسأته (تأكل منسأته)¹⁰ أي تأكل عصاه.
- 25- منفطر (السماء مُنْفَطِرُ به)¹¹ أي ممتلئة به.

-
- 1 - سورة طه، الآية 1
- 2 - سورة طه، الآية 1 .
- 3 - سورة سبأ، الآية 16
- 4 - سورة هود، الآية 44
- 5 - سورة المدثر، الآية 51 .
- 6 - سورة الحديد، الآية 28 .
- 7 - سورة يوسف، الآية 31
- 8 - سورة النور، الآية 35 .
- 9 - وهه الزحيلي، التفسير الوحي على هامش القرآن الكريم، ومرجع سابق ص 355 .
- 10 - سورة سبأ، الآية 14
- 11 - سورة المزمل، الآية 18 .

26- ناشئة (إن ناشئة الليل)¹ أي قيام الليل

27- يحور (إنه طن أن لن يحور)² يرجع.

28- ياسين (ياسين)³ يا رجل.

29- يصدون (إذ قومك منه يصدون)⁴ أي يضجون أو يمنعون.

هذا بالإضافة لكلمات أخرى كان العرب الساميون يتحدثون بها فأهملوها وهي التي دخلت ضمن الألفاظ أو الكلمات العربية المهملة، والتي أخذتها معها قبيلة حبش وغيرها إلى شرق أفريقيا وأستمر التحدث بها في الحبشة وأهملت عند العرب، وينزل القرآن الكريم ورد فيه أبرز مظاهر التأثير العربي بالحبش والمتمثل في إعادة استخدام هذه الكلمات وهي، إضافة للكلمات التسعة والعشرين، كلمة مساق التي تحمل معنى شك وراهن وخاف، والمشتقة من نفق متعدد لوجوه، وكذلك كلمات منسرومائه⁵، ومصحف، وأحدود⁶، وكذلك نقل كلمة محرقة من الحبشية أو مغايرة للأصل مثل محراب⁷ والتي يرجح أصلها من كلمة محرام في الحبشية أي المعبود وأبدلت الميم بباء، وهذا اعتقاد أن أصلها يعود للكلمة العربية مكرب المعروفة في اليمن، والتي تعني المكان المقدس. وهنا أبدل الكاف حاء، ومنها كلمة مكرب المعروفة بالمقرب بين الآلهة والناس عند اليمنيين في جنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن هنا يتبين لنا أن تغير الكلمة في حرف من حروفها مرشح على أنه دليل في نقل

1 - سورة المرمل، الآية 6.

2 - سورة الانشقاق، الآية 14.

3 - سورة ياسين، الآية 1.

4 - سورة الرخرف، الآية 57.

5 - سورة المائدة، الآية 112.

6 - سورة البروج، الآية 4.

7 - سورة مريم، الآية 11.

الكلمة وإعادتها من اللغة الحبشية الفرعية إلى اللغة العربية الأم² إضافة لكلمات أخرى اعتبرت من الألفاظ الدرة مثل كلمة برهان (دليل)² والهرج (الفن) ودهيك (إضافة لذلك).

وعلى الرغم من قول البعض بأن هذه الكلمات حبشية أي كوشية حامية أفريقية، بمعنى ألفاظ غريبة عن اللغة العربية، لكون الحبشان من نناج احتلاط القبائل اليمنية السامية بالكوشين الحاميين، فإننا لا أتفق مع هذا القول فبعد الدراسة والتمحصر لأصوار هذه الكلمات، أتفق مع الفريق الآخر الذي تزعمه الإمام الشافعي، بالقول بأنها ألفاظ عربية صرفة وقد تكررت في مواضع كثيرة جداً من القرآن الكريم مثل كلمة أليم (عذاب أليم / عذاب موجه) وهذه الكلمة تكررت في خمسين وثلاثين سورة، وفي كل سورة تتكرر عشرات المرات، فلو كانت كلمة عربية لم رعلبها القرآن مرور الكرام، وهذا بدوره يعزز بأنها ألفاظ عربية صرفة كما هو وارد في سورة فصلت - الآية الثالثة: ﴿كتابُ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾، وفي الآية الرابعة والأربعين من نفس السورة: ﴿ولجعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربى قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءً﴾.

وبالتالي فإن ما ورد في القرآن الكريم من الألفاظ حبشية تعتد دليلة على التفاعل والتفارب بين حضارات المنطقة، وانعكاساً للعلاقات المتبادلة بينهما والتي لم تكن بين ليلة وضحاها وإنما عبر قرون من الزمن.

وختماً فقد كانت لهجرة الحبشان والآجواز أثر بالغ الأهمية على الساحل الشرقي الأفريقي وعلاقته باليمن الموطن الأم لهذه القبائل، وكانت لهذه الهجرات آثار حمة في انواحي السياسية والعسكرية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية واللغوية.

1 - للمزيد عن هذه الإشتغاقات ينظر، عبد المجيد عاسدين، بين العرب والحبش، ص 100-

104 مأخوذة من عمده بدوي، السود والحصارة العربية، ص ص 90 - 92.

2 - سورة النساء، الآية 174، وسورة يوسف الآية 24.

الهجرات القديمة إلى شمال أفريقيا

أ. محمد المختار العرياوي

شمال إفريقيا موطن البربر بجماعتهم الممتدة على مساحة جغرافية واسعة من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي ومن أعماق الصحراء الكبرى جنوبا إلى البحر الأبيض المتوسط شمالا.

والهجرات إلى هذه المنطقة الواسعة لا يمكن إلا أن تكون موعلة في القدم لارتباطها بالتحولات المناخية العالمية الكبرى وما أدت إليه من جفاف دفع بجماعات كثيرة إلى الهجرة. وهذا ما سنحاول التعرف عليه في فقرات هذا البحث. وتستوقفنا في هذا الصدد النظريات القديمة التي صيغت حول أصل البربر

النظريات القديمة

1- نظرية الأصل الأروبي: وهي من أولى النظريات التي صاغها المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ومن أبرز منظريها "لويس رين" Louis rinn¹ وهي نظرية تزعم أن البربر من أصل أروبي. وفيها آراء شتى، منها ما يرى أن البربر حميما من أصل هندي - أروبي، ومنها ما يجعل الأصل الأروبي للجماعات البربرية ذات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء والشفرة البيضاء ويربطها إما بالغالين وإما بالجرمانيين.

هذه النظرية في تأصيلها للبربر تعتمد على فرضية تقول بوجود معبرين بين القارتين: الأروبية والإفريقية، أحدهما يتصل بجبل طارق والآخر بتونس عن طريق صقلية، لكن المعلومات الجيولوجية المتعلقة بالرواسب والشطوط الواطئة أسقطت هذا الافتراض. ونفى

1- في كتابه: Les origines berberes, études linguistiques et ethnologiques Alger 1889

"بالو Balout". أن تكون هناك صلة بين القارتين قبل العصر الحجري الحديث¹.

2- النظرية الحامية: وهي نظرية نشأت في ألمانيا سنة 1912² ومنها انتقلت إلى فرنسا وغيرها، تقول بوجود عرق حامي أصله من الجزيرة العربية، هاجر إلى السودان وأماكن أخرى، له لغات متباينة ذات سمات مشتركة اعتبرت أسيرة لغوية أطلق عليها "الحامية". لكن علماء³ اللسانيات الألمان سرعان ما تخلّوا عنها لتفاصيلها، إلا أن المدرسة الفرنسية التي لم تعد تعول على نظرية الأصل الأوروبي في حدمة فكرة الإلحاق وأغراضها السياسية سرعان ما تلقت المقولة الحامية لما فيها من عزل البربر عن العرب إذ هي تزعم أنها تضم ثلاث مجموعات فقط هي: البربرية، المصرية، الكوشية.

هذه النظرية لم تعمّر طويلاً، لعدم وجود وحدة لغوية داخلية حقيقية تختص بها. ولذا أخرجت منها المصرية وألحقت بالسامية في وقت مكر، وكذلك البربرية التي وصفها عالم البربريات "روسلر" بأنها "جد سامية"⁴ وبما أن علم اللغة المقارن أثبت وجود أواصر لغوية بين الحامية وما سمي بالسامية، ويدل أن يدمجها في مجموعة واحدة، فقد وقع الجمع بينهما مع المحافظة على فكرة الفصل، واستعملت لهما هذه التسمية: "الحامية - السامية" أو "السامية - الحامية".

3- النظرية الأنثروبولوجية: وهي نظرية أشاعها علماء الأنثروبولوجيا أولاً ثم علماء التاريخ ثانياً، تزعم أن البربر من جنس يسمى "جنس البحر الأبيض المتوسط" عرف منذ ما

1 - "إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ" في: "تاريخ إفريقيا العام المجلد الأول" - جون أمريك/اليونسكو تورينو (إيطاليا) 1983 ص 590

2 - صاحبها "س ماينهوف" الألماني، أنشأها في كتاب له صدر سنة 1912 - انظر، د. أولد روج في دراسته: الهجرات والاختلالات السلوكية واللغوية - الوارد في تاريخ إفريقيا العام - المصدر السابق ج 1 ص 283

3 Der semitisch charakter der libyschen sprach in Z. A 50 leipzeg 1952, 150.. 3

قبل التاريخ بسمات وخصائص هيكلية معينة، وأدرجت في هذا الجنس عناصر عديدة منها ما هو حول هذا البحر ومنها ما هو بعيد عنه. هذه النظرية حاولت هي الأخرى أن تربط بين شمال البحر وجنوبه تمثيلاً مع سياسة الإدماج والإلحاق التي ستجد في فكرة الأصل المشترك¹ بين البربر والأوروبيين ما يساعد على نجاحها.

وكشأن كلّ النظريات اللاعلمية لا بدّ وأن تنهزم في النهاية. وهذا ما نجده في تقرير الطبيب "فلو Vallous" الذي رفعه إلى حاكم الجزائر العام سنة 1949 والذي جمع فيه "محصل التحريات الأثروبولوجية والكشوف الأثرية ليستهي إلى الحكم بعدم واقعية إدماج المغرب نهائياً بأوروبا"².

الاثروبولوجيا والتأصيل الجديد للبربر

لقد وقع إحياء النظرية الأثروبولوجية من جديد، ولكن هذه المرة لم يكن على يد الأوروبيين وإنما على يد أصحاب النزعة البربرية التي سعت في توجهاتها الثقافية والدعائية إلى تأصيل البربر في المنطقة مع ما صاحب ذلك من تهويز لا علاقة له بالمعرفة والتحليل الموضوعي. فقد وضع اللهجات البربرية لغة أمّ على غرار اللغة الأمّ للغات المسماة بالسامية (اللغات العربية القديمة) كما استند للبربر كتابة أقدم في ظهورها من الكتابة المسمارية في العراق والكتابة الهيروغليفية في مصر، فهي عند "برهيم أخياط" ترجع إلى آلاف السنين حيث "عاصر خطها الأصلي" تيفيناغ" الحروف المرعونبة والغنيقية³ "أمّا وطن البربر أو تاماغزا" كما يقل. فهو يشمل "دول شمال الصحراء معاً من مصر إلى موريطانيا وجنوب الصحراء من الصومال حتى السنغال"⁴ بما في ذلك التشاد والنيجر ومالي وبوركينا فاسو،

1 - العروي، عبد الله، في كتابه "تجمل تاريخ المغرب" المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع - الدار البيضاء 1984 ص 43

2 - المرجع نفسه ص 43، 44

3 - لماذا الأمازيغية: سلسلة الدراسات الأمازيغية - منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي - الفتيصرة 1981 ص 21

4 - منصور، فوزي، شروط تنمية الأمة الأمازيغية - أكراد أمازيغ 4 - 10 فبراير 1996.

أى أن قسماً كبيراً من زنوج إفريقيا أمازيغيون. وعلى حدّ تعبير فوزي منصور فإنّ الأمة الأمازيغية سواء "مالت بشرتها إلى البياض في الشمال أم اسودّت حتى أخذت لون العنبر في الجنوب هي أمة أمازيغية بوحدت أول مرّة في عهد الملك نارمر (مينا)¹ ونارمر هذا أو "نعرمر" من ملوك الأسرة الفروعية الأولى الحاكمة في الجنوب (مصر العليا)، وهو أول من وحد شطري مصر العليا والسفلى في حدود 3000 سنة ق.م.

هذا التوسّع الجغرافي الهائل في الوطن الأمازيغي وهذه الأمازيغية الغربية لقسم كبير من الزنوج وهذا الادّعاء بأنّ المصريين القدماء وفراعنتهم أمازيغيون ما هو إلّا كلام لا علاقة له لا بالعلم ولا بالتاريخ، ولا يمكن أن يكون إلّا من قبيل التهويش. وهذا الاتجاه في النظر إلى البربر وأصولهم أدّى إلى ظهور فكرة جديدة. وهي فكرة تأصيل البربر في المنطقة. ومن هنا وجدنا البعض يعيد إحياء النظرية الاشتراكية من جديد لا لربطها بأوروبا مرّة ثانية وإنّما لتدجينها وجعلها محلّية فابريز الذين تعدّرت أوروبهم. يمكن هذه المرّة جعلهم أهيين الأمر اندي يضمّن هو الآخر عزلهم عن العرب ونفى أيّ صلة لهم بالشرق. فقد زعم البعض من المهمين بعلم ما قبل التاريخ أن الأصل البشري للبربر منحدر من سلالات ما قبل التاريخ في المنطقة وأحصّ بالذكر هنا الأستاذين: عبد الرزاق قرّق وعلي مطيمط التابعين لمعهد التراث بتونس. وهما، في ربطهما البربر بسلالات ما قبل التاريخ، ينطلقان من أصلين أنثروبولوجيين، هما "إنسان مشتي العربي" صاحب الحضارة الوهرانية و"الإنسان القفصية" صاحب الحضارة القفصية. فيقولان: "إنّ ما يسمّى بالعنصر البربري يحمل بعض علامات مستمدّة من إنسان مشتي العربي" كما يشكّل "العنصر القبصي الأصل المباشر للإنسان المباشر (أي البربري)"².

وبما أنّه سبق لي أن تناولت هذا الموضوع بشيء من التفصيل³. فسأكتفي هنا بعرض

1 - منصور، فوزي، شروط تسمية الأمازيغية

2 - حضرات ما قبل التاريخ (تونس والبلدان المغاربية): دار ألب - منشورات الحر الأبيض المتوسط. الطبعة الثانية تونس 1993 ص 84

3 - انظر كتاب "في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية" في فصل التوجّه المشوه والتهويش في

إجمالي لهاتين الحصارين: الوهرانية والقفصية لمعرفة فيما إذا كان الأستاذان في قولهما يستندان إلى معلومات مؤكدة ويقرّها الباحثون المختصّون وهما كما هو معروف من حضارات العصر الحجري الأعلى في المنطقة.

الحضارة الوهرانية:

نسبة إلى مدينة "وهران" اكتشفها أوّل مرّة "ب. بلاري P. Pallary" سنة 1909 في "موتة Mouillah" وأوّل من اقترح أن تسمّى بـ "الوهرانية" براى Breul وأقدم تاريخ اسند لها 13000 سنة ق.م. وهي منتشرة على طول سواحل المغرب العربي وكذلك في مناطق قارّة كما في "تاهرت" و"بوسعادة". وقد أطلق الباحثون على صاحب هذه الحضارة "إنسان مشتي العربي" وهو اسم موقع بين "سطيف" و"قسطينة" بالجزائر وقد عثر على هياكله لعظمية في مدافن عديدة.

وبما أنّ هذه الحضارة مهمّة، فإنّ هذا يدعو إلى التساؤل عن أصل صانعها. والرأي السائد في الأوّل هو أنّ أصله من شرق البحر الأبيض المتوسط، هاجر من تلك المنطقة سالكا طريقين: طريق شمال البحر، وهو الذي أطلق عليه اسم "الكروماتيين" نسبة إلى موقع "cro-magnon" بجنوب فرنسا. وطريق جنوب هذا البحر أوصله إلى شواطئ البلاد المغربية. ومن اللّذين نسب إليهم هذا الرأي "كون Coon". وذهب "ماكبرني Mac Burny" أيضا في هذا الاتجاه إذ هو يرى أنّ أصل الوهرانيين قد "يكون من فرع مصر للضبعاين"¹ أمّا الباحث لفرنسي "جيان ديزانج J. Dasanges" فإنّه وإلى حدّ الثمانينات من القرن المنصرم يعتبر لوهرانيين شرقيين ويقول عن ثقافتهم "لم تأت هذه الثقافة من أوروبا حيث إنّها قامت قبل بداية الملاحة عبر المضايق ومن وإلى صقلية، وهناك ما يحمل على الظنّ بأنّ أصولها كانت

التاريخ ص 83 نقوش عربية. تونس 1998 طبعة أولى.

1- (دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ): Libyan role in Prehistory الوارد في "ليبيا في التاريخ"

منشورات الجامعة الليبية، بنغازي 1968 ص 5

وإذا كان هذا هو الاتجاه الغالب فيما يخص أصل صانعي الحضارة الوهرانية فهناك من تحفظ عليه وهو L. Balout الذي قال: "ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقي قد تفرّع عند تيار الكرومانيين الأوروبيين المتجه نحو شمال البحر المتوسط، وتيار آخر هو تيار مشى العربي المتجه إلى الجنوب على طول السواحل الإفريقية"² وهو يوحى بأنهم محبون لكن هذا التحفظ لم يكن قوياً لدى صاحبه. وبما أن الصناعة الحجرية الوهرانية خالية من أي أثر للصاعات السابقة لها، فهي في رأيه "لا تعتمد على جذور محلية" وفي هذا ما يشير إلى أن أصحابها ليسوا من المنطقة وإنما هم من الوافدين عليها. وهنا يظهر تردد "بالو" بل تراجع كما في قوله: "ولكن هذه الفرضية مهما تكن مغرية فبئها لا تفسر بحال وجود صناعة لا أثر فيها لأي وجه شبه بالمستيري العاطري. فالقول بأن الأيبيرو مورسيين ليسوا أصحاب تلك الحضارة، ليس قولاً معقولاً لأن تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية"³.

وتلقّف بعض الباحثين المغاربة فرضية "بالو" هذه واعتمدوها في أبحاثهم ومنهم د. إبراهيمي الذي قال: "لا يزال أصل الإنسان الأيبيري - مغربي موضوع نقاش وكان يعتقد لمدة طويلة أن أصله من الشرق وأنه وصل إلى المغرب عن طريق الجنوب التونسي، غير أن اكتشاف أوائل إنسان نياندرتال بجبل أرحود سمح بالتفكير بحذر في الأصل المحلي للإنسان مشى العربي"⁴ وكلمة "يحذر" تدلّ على أنه ليس جازماً بأن إنسان مشى العربي من أصل محلي فضلاً عن إقراره في الأول بأنه لا يزال موضوع نقاش.

أما الباحثان التونسيان السابقان الذكر (قراقب، مطيعط) المطلعان على ما قاله "بالو"

1 - البربر الأصليون - الوارد في "تاريخ إفريقيا العام" السابق الذكر (1985) ج 2 ص 432

2 - إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ: المصدر المذكور سابقاً ص 584

3 - المرجع نفسه ص 584

4 - تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر: ترجمة محمد الشير شيتي ورشيد بوروييه. الشركة الوطنية

للنشر والتوزيع - الجزائر 1982 ص 77

و"إبراهيمي" وبدلاً أن يتحققا مثلهما وأن تكون تقديرتهما في ضوء ما توصلت إليه الأبحاث من معلومات ومعطيات، نجدهما على العكس تماماً تجاوزا ذلك وحوّلاً فرضية "بالو" السابقة إلى يقين وقالوا: "وأثبتت الدراسات أن إنسان "مشتى العربي" هو من أصل عرقي معاري ترك بصماته في الأجاس البشرية التي عمّرت بلدان شمال إفريقيا"¹ من دون أن يذكر أي شيء عن هذه الدراسات ومن غير توضيح لهذه البصمات، وهذا يعني أن ما قلناه لا يمكن أن يكون إلا من قبيل المزاعم والترديد العلمي وليس له من هدف سوى تشويه الحقيقة وتضليل لوعي. فالحصارة الوهرانية لم تكتشف في المغرب والجزائر وتونس فحسب ولكن اكتشفت أيضاً في ليبيا ومصر²، وهوما يجب أخذه بعين الاعتبار في مثل هذا الموضوع.

الحصارة القفصية

نسبة إلى مدينة "قفصة" الواقعة في الجنوب العربي لتونس. انتشرت على الحدود التونسية - الجزائرية، ووصلت في انتشارها إلى العرب الجزائري وجزء من الصحراء. أما المغرب فلم يعثر لها على أثر فيه حتى الآن والرأي السائد أنها ظهرت بعد الوهرانية في حدود 10.000 أو 8.000 سنة ق م. وهي حضارة قارية لم يوجد ما يدلّ على أنها وصلت إلى البحر وتدلّ الهياكل العظمية أن الإنسان القفصي من سلالة مغايرة أنثروبولوجيا للإنسان مشتى العربي، وبعض الباحثين يصنّفونه ضمن الجنس المسمّى "جنس البحر الأبيض المتوسط" وهذه المقولة كما رأينا مقولة فضفاضة ليست لها قيمة علمية، وإذا كان البعض افترض وجود ارتباط بين إنسان مشتى العربي بمن قبله فإنّ هذا الافتراض لم يقع مع الإنسان القفصي وفي هذا ما يشير إلى أنّه من خارج المنطقة. ومما يقوّي هذه الفكرة أنّ "بالو" في دراسته لهذه الحضارة يقول: "إنّ

1- حضارات ما قبل التاريخ: المصدر المذكور سابقاً ص 3.

2- يذكر ماكس كرمي خلال 10.000 - 9000 انتشرت الحضارة الوهرانية بمحاذئ الساحل العربي حتى برقة - انظر المغرب الكبير ج 1 ص 118 للدكتور رشيد الناضوري. أما محصر فيذكر "فرنن دي بونو" في دراسة بعنوان: وادي النيل قبل التاريخ - الوارد في "تاريخ إفريقيا العام" المصدر المذكور سابقاً

صانع حضارة القابسي "الأمودجي" يكاد يكون مجهولا لدينا"¹ (القابسي أي القفصي) وهذا الجهل بالرغم من توفر المعلومات يؤكد عدم وجود أصل قديم في المنطقة لهذه الحضارة. ويتأكد هذا بوجود الحضارة القفصية في ليبيا التي اكتشفها "ماكبرني" أثناء حفرياته في كهف "هوافطيح" بجهة درنة حيث عثر على صناعة حجرية قفصية في إحدى طبقاته التي أطلق عليها "الطور الخامس" وسمي هذه الصناعة "الحضارة الليبية - القفصية" ويقول عنها خلال المدة "7.000 - 10.000 من الآن، تحول عرقي آخر نستطيع استنتاجه من التحول الراديكالي الذي حدث في الحضارة المادية، في تلك لفترة بسجل مجيء شكل ليبي للحضارة القفصية"² وهذا أيضا يدعم أن يؤكد أن إسان الحضارة القفصية ليس من المنطقة. وإذا كان من خارج المنطقة فمن أي جهة قدم ؟ يذكر "ماكبرني" امكانيتين في هذا الصدد:

الأولى : أنه قدم عبر البحر من جهة إيطاليا وصقلية وجزيرة "لوفنصو"³ وهذه الإمكانية ليست سليمة لما سبق ذكر من انعدام الاتصال بين شمال البحر وجنوبه قبل ظهور العصر الحجري الحديث وقبل بداية الملاحة.

الثانية : أنه قدم من آسيا الغربية (منطقة الجزيرة العربية وما حولها) لوجود حضارات مشابهة وهو ما عبر عنه بقوله : "والامكانية الأخرى هي أن الحضارة القفصية متفرعة عن آسيا الغربية حيث توجد نماذج أولية نعتقد أنها توجد في حضارات مثل الكبران والسكفان"⁴ وهذه الامكانية واقعية ومعقولة ، وكان لـ : فوفري R.Vaufrey من قبل وجهة نظر مماثلة أوردتها "حوليان" إذ هو يرى أن للقفصي أصولا من "الأفضل أن يبحث عنها في مصر"⁵

1 - إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ ، المصدر المذكور سابقا ص 586

2 - دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ ... libyan role المصدر المذكور سابقا ص 5

3 - المرجع نفسه ، 5.

4 - تاريخ إفريقيا الشمالية تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة - الدار التونسية للنشر تونس 1978

ج 1 ص 54

5 - البربر الأصليون : المصدر المذكور سابقا ج 2 ص 432

ونضيف هنا ما قاله "جيان" عن القفصيين من دوي "الصفات شبه الزنجية"¹ وكلّ هذا يؤكد أنّهم من خارجين عن المنطعة ومن الوافدين عليها.

وخلاصة ما تقدّم أنّ السلالة الوهرانية والقفصية المكتشفين للإنسان العارف في العصر الحجري الأعلى، هما سلالتان مهاجرتان من جهة الشرق كما هو في أغلبية الآراء والتقديرات. ويبقى علينا بعد هذا أن ننظر في مآلهما وفيها إذا كانت لهما علاقة بالجماعات البربرية الكثيرة والمتنوعة لغويا ؟

وإذا ما عدنا إلى المخلّقات الأثرية فسنجد أنّ شمال إفريقيا بدأ يدخل تدريجيا في لعصر الحجري الحديث في حدود 5.000 سنة ق.م. فالوهرانيون، قال عنهم "بالو" إنّهم "تمكّنوا من البقاء إلى العصر الحجري الحديث"² لكنّ مصيرهم ظلّ غامضا. ومن هنا وجدنا "إبراهيمي" يقول عن إنسان مشتي العربي : "فقد عاش هذا حتى العصر الحجري الحديث، حيث بقيت آثاره خاصّة في إقليم وهران ثمّ اختفى فيما يبدو أواخر ما قبل التاريخ"³ وفي هذا الاتجاه نجد الاستاذان : قراقب ومطيمط لا يتحدثان عن عصر حجري حديث للوهرانيين كما فعلا مع القفصيين وإنّما تحدّثا عن عصر حجري متوسطيّ قائلين : "يبدو أنّه يستمدّ جذوره من الحضارة الوهرانية مع تمازج ببعض التيارات الحضارية للبحر الأبيض المتوسط"⁴ وكلمة "يبدو" توحي بالشكّ في وجود تيّار وهراني حديث. وهما هنا يكرّران فكرة "إبراهيمي" بصيغة مختلفة ويطعنان في فكرتهما السابقة عن إنسان مشتي العربي الذي ترك على حدّ تعبيرهما "نصماته في الأجناس البشرية التي عمّرت بلدان شمال إفريقيا" ولم يتفصّل أنّ من يترك بصماته لا بد وأن يكون واضحا ولا يعبر عنه بكلمة "يبدو" ولا يعتّم عنه بفكرة التمازج وما

1 إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ : المصدر المذكور سابقا ج 1 ص 584

2 تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر : المصدر المذكور سابقا ص 37

3 - حصارات ما قبل التاريخ : المصدر المذكور سابقا ص 43

4 - نظر : مدينة المغرب العربي في التاريخ - أحمد صغر. دار النشر - بوسلامة تونس 1959 ج 1

تعبه من بلاش وذويان. والمهم في نهاية هذا التحليل أن السلالة الوهرانية تلاشت في مرحله العصر الحجري الحديث وانقرضت تدريجيا، ولا يمكن لها في هذه الحالة أن تكون أصلا للبربر وسلفا لهم.

أما القفصيون كما تدلّ على ذلك آثارهم - فقد انتقلوا تدريجيا إلى العصر الحجري الحديث في أواخر الألف الخامس قبل الميلاد (كلومناطة 4390 ق.م). والباحثون وإن تحدّثوا عن مواقع هذه المرحلة إلا أنهم لم يذكروا شيئا واضحا عن مآلهم الذي ظلّ هو الآخر غامضا. وهذا الغموض ليس له من تفسير سوى أنهم تلاشوا أيضا تدريجيا.

هناك معلومات قليلة أوردها "صلّوست Salluste" المؤرخ اللاتيني في القرن الأوّل قبل الميلاد حول سكّان المنطقة تشير إلى وجود جماعات سائبة ترتدي جلود الحيوانات الوحشية، وتأكل وتنام على الأرض¹ هذا النمط من الحياة يشبه نمط الحياة عند القفصيين، تحدّث عنه "إبراهيمي" كما في قوله: "وكان الأسلوب الشائع هوسكّان العراء"² وسبق لـ "هيرودوتس" قبله في القرن الخامس قبل الميلاد أن تحدّث عن جماعات رجالها متوحّشون وتساؤها متوحّشات³ وتقديرنا لهذه الجماعات ما هي إلا بقايا المجموعة القفصية. وجماعات هذا شأنها مآلها التلاشي، ولا يمكن بأيّ حال أن تكون أصلا للبربر وسلفا من أسلافهم.

وإذا كنّا ننفي أن يكون الوهرانيون والقفصيون أسلافا للبربر فإننا لا نكتفي بما تقدّم ذكره وإنّما نضيف إليه ما يلي: الوهرانيون والقفصيون دخلوا في العصر الحجري الحديث خلال الألف الخامس قبل الميلاد. والجماعات البرية الأولى كانت هي الأخرى موجودة في هذه الفترة، وهو ما يسهّل لنا عملية المقارنة بينهما معا من خلال المعلومات المتوفّر عنهما.

1 تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر: المصدر المذكور سابقا ص 87.

2 - بصور ليبي من إعداد الدكتور علي فهمي حشيم لهرودوتس وآخرين - مشورات دار مكتبة الفكر - طرابلس 1967 ص 90

3 تاريخ العرب مطوّل: ترجمة إدوارد حرجي، ود. جبرائيل جبور - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع بيروت 1958 ج 1 ص 13

وسوف لرى فيها إذا كانت حياتهما المادية والثقافية متقاربة أم لا ؟ وهوما يجعل عملية الربط بينهما ممكنة أو متباعدة أو ينفى هذا الربط ويظهر ما فيها من خطأ وسوء تقدير، فلوهرايون والقفصيون لم يخرجوا على الإطار الحجري العام لحياتهما، فكل ما أبدعوه ثقافيا هو أنهم توصلوا إلى صقل الحجارة وصقل العظام وصناعة نماذج من الفخار واستعمال بيض النعام لأغراض الزينة وغيرها، وكذلك بعض الأعمال الفنية البدائية مثل تلك التي تنسب إلى القفصيين هذه الثقافة البدائية ضعيفة ومحدودة الآفاق لا تساعد على التحوّل والانتقال من عصر الحجارة والبدائية إلى ما بعده. أمّا البربر وكما نعرف عن الجماعات الأولى منهم في الألف الرابع قبل الميلاد بفضل الوثائق المصرية، فهم ذوو ثقافة مختلفة، وأهمّهم تربية الماشية وما تتطلبه من تدلّ وتعير في حياتهم المادية والذهنية إذ هي من العوامل الأساسية التي انتقل بفضلها الإنسان من عصر البدائية إلى ما بعدها. وهذا التحوّل قديم، خاصّة في المشرق العربي الذي عرفه قبل غيره من مناطق المعمورة: ويعود حسب بعض التقديرات إلى الألف الثامن قبل الميلاد.. وهذا الرمن يقابل العصر الحجري الأعلى بالنسبة للوهرانيين والقفصيين وشمال إفريقيا عامّة. ومن هنا تتضح لنا فجاجة الآراء التي تجعل من الوهرانيين والقفصيين أسلافا للبربر وبهذا تنفّر الحقيقة الكبرى التي لا مرأى فيها وهي أنّ البربر ليسوا من المنطقة، وأنهم بكلّ تأكيد هجرات. والسؤال المتبادر إلى الذهن. فمن أين قدموا ؟ وما هي الجهة المؤهّلة بأنّ تطلق منها هجرات ضخمة مثل هجرات البربر ؟

من الحقائق المعلومة أنّ هذه الهجرات لم تأت من أوروبا لانعدام الصلة بينها وبين شمال إفريقيا قبل العصر الحجري الحديث وقبل بداية الملاحية. كما تقدّم ذكره ثم إنّ هذه الهجرات لم تأت أيضا من الجنوب لكون لبربر ليسوا زنوجا. وهذا يعني أنّهم قدموا من الشرق ومن الجزيرة العربية على وجه التحديد، إذ هي من المصادر الثلاثة الأساسية على صعيد المعمورة إلى جانب آسيا الوسطى وأمريكا اللاتينية. وقال "فليب حنّي" عن الجزيرة العربية أنّها كانت "تزدحم بالسكان كخزان هائل ضاق فلم يجد عن إفاضة ما يزيد عن سعته"¹ وإذا كانت

1 تادريرت أكاكوس، الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ: ترجمة عمر الباروني وفؤاد

الكعباري - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي طرابلس 1988 ص 27

المعلومات السابقة المؤكدة للهجرة متعلقة أساسا بمنطقة وبأوضاعها، فلا بد في هذه الناحية من تقديم أدلة أخرى متعلقة هذه المرة بالبربر أنفسهم وبرمن وصولهم وبالجديد الذي قدموا به إلى مواطنهم الثانية. وهذا أمر مهم. فالأدلة متنوعة، سأذكرها تباعا في الفقرات التالية.

الأدلة الأثرية

إذا ما اتجهنا إلى ما قبل التاريخ في طوره الأخير (العصر الحجري الحديث) فسنجد أن "ليبيا" من أهم المناطق المغربية التي توفر لنا إلى حد الآن الوثائق الدالة على ما حدث من تحول جديد في المنطقة تمثل في مجيء الجماعات البربرية الأولى إلى المنطقة وفي دخول الحضارة الرعوية إلى ربوعها.

تم التعرف على هذه الحضارة بالاعتماد على دراسة:

- 1- الرسوم والنقوش التي خلفها الفنانون الصحراويون في الكهوف وفوق الصخور
 - 2- عظام الحيوانات المدجّنة التي عثر عليها في الحفريات. فالرسوم والنقوش كانتا لحيوانات متنوعة من فيلة وزرافات وغزلان ونعام وغير ذلك بما فيها قطعان الماشية من صان وماعز وأبقار وأحصنة وجمال.
- هذه الرسوم والنقوش من المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر أي من جنوب المغرب وموريطانيا مرورا بتاسيلي باخزائر وبقران بليبيا وتبستي بين ليبيا وتشاد والنوبة بمصر.
- اهتم الباحثون بهذه الرسوم والنقوش ومن بينهم على وجه الخصوص "فابريزيو موري Fabrizio mori" الإيطالي الذي قاد سبع حملات دراسية من سنة 1955 إلى سنة 1964¹ مركزا على قرآن في مرتفعات "تادرات أكاكوس" فدرس الرسوم والنقوش على عين المكان ومن أهم إنجازاته في هذا العمل هو أنه استطاع أن يميز بين الأدوار الزمنية والمراحل التاريخية لهذه الرسوم والنقوش. فتوصل إلى تحديد خمسة أدوار هي²

1- تادرات أكاكوس، 37

2- المرجع نفسه، 43

1. دور الحيوانات الكبيرة المتوحشة أو الأبقار البرية (Bubalus antiquus)

2. دور الرؤوس الكبيرة (رسوم في الغالب)

3. الدور الرعوي (نقوش ورسوم)

4. دور الحصان (نقوش ورسوم)

5. دور الجمل (نقوش ورسوم)

ويهتمنا من هذه الأدوار الدور الثالث المتعلق بالرعي الذي درسه "موري" في عدة مواقع ووجده يختلف عن الأدوار الأخرى حتى في مستوى التلوين، فمادته "مادة ملونة أقل ثخنا، غير شفافة في الغالب"¹ وبقطع النظر عما يميزه من أدوار ثلاثة داخل المرحلة الرعوية من خلال الأساليب الفنية المتبعة في الرسم والنقش، فإنه عمل على ضبط الإطار الرمزي لأدوار الفن الصخري الصحراوي بالاعتماد على الحفريات التي قام بها في مخابئ عدة كهوف ذات رسوم ونقوش. فتم فحص العينات المترسبة بها بطريقة "الراديو- كربون" وفيما يلي المواقع المنتخبة والتواريخ المتحصل عليها:

- ففي "وان موهجاج": عثر على بقايا ماشية مستأنسة في الطبقات الوسطى والسفلى. أخذ منها هذان التاريخان 5.500 4.000 سنة ق.م.² وهناك تواريخ أخرى أقل زمنا أسندت إلى عينات من هذا الموقع.³

- وفي "فوزيجارن": في دوره الأسفل "أقدم ترسب اكتشف في الأكاكوس إلى هذا

1 - الفن والثقافات الصحراوية لفترة ما قبل التاريخ Prehistoric saharan art and cultures in the light discovers in the acacus massif الوارد في "ليب في

التاريخ" المصدر المذكور سابقا ص 24

2 - تدرارت أكاكوس، 240

3 - المرجع نفسه، 222.

اليوم¹ وحدد تاريخ الرواسب السفلى والعليا بما فيها من مواد فحمية بـ 6.000 سنة ق.م.²

- وفي "وان تلوكات" (وادي إمها) : عثر على مواد مخلقة في ترسباته حدد تاريخها بـ 6754 (±175) قبل الآن = 4800 ق.م.³ ومن خلال فحص البقايا العظمية المعثور عليها في موقع "وان تلوكات" نبين لموري "وجود عناصر تماثل المستودع الرعوي بـ "وان موهجاج - الأخدود"⁴

ويؤكد "موري" على أهمية تاريخ "وان تلوكات" وعلى وجوب ربطه "بالحلقة الرعوية التي تنتمي إليها تحديدات زمنية أخرى وأقدم هذه التحديدات حوالي منتصف الألف VI قبل الميلاد"⁵ (أي الألف السادسة) وهذا التاريخ يمكن أن يكون بداية ثقافة تربية الماشية في هذا الجزء من الصحراء الكبرى والألف لسادس في نظره فاصل بين عهدين : عهد الرؤوس المستديرة وعهد الرعي، مفترضا "أن الانقطاع في التسلسل بين فترة الرؤوس المستديرة والفترة الرعوية لم تكن قصيرة ولم تكن ثقافيا خارج المجال"⁶.

وإذا انتقلنا من الجنوب الغربي لليبيا إلى شمالها في إقليم برقة حيث قام الباحث الانكليزي "ماكبرني Mac Burney" بحفريات في كهف "هواططيج" وهو من أكبر وأوسع الكهوف الماقبل التاريخية في جميع حوض البحر المتوسط. وشكله نصف دائري بقطر (80) مترا ويبعد بضع مئات من الأمطار على ساحل البحر. وبالنظر إلى سعة الكهف، فإن ترسباته منتظمة ومكوّنة على هيئة طبقات أفقية الأمر الذي سهّل الحفر والمقارنة ودرس المكتشفات⁷.

1 - الفن وثقافات الصحراوية.. 34

2 - الفن والثقافات الصحراوية، 34، تادرات أكاكوس، 145.

3 - تادرات أكاكوس، 245.

4 - الفن والثقافات الصحراوية، 36

5 - المرجع نفسه، 34

6 - باقر، طه، عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها بأصول الحضارات القديمة، في ليبيا في التاريخ،

حاشية 1، ص 23

7 - ليبيا في فترة ما قبل التاريخ، 6.

ففي الطبقة السادسة من ترسبات هذا الكهف، انطلاقاً من الأسفل، وقع العثور على أدوات العصر الحجري الحديث وعلى آثار تدجين الحيوانات، أرخت هذه الترسبات 5.000 سنة ق.م وقال عنها "ماكبرني" بعد الفحص المعملي وتشيب النتائج "في حدود 7000 سنة من الآن وقع تحوّل عميق أكبر، أثار في حياة اللبيين القدامى ونستطيع اكتشافه في كهف "هواطبيح" وفي مجموعة من الكهوف درست من قبل "موري" بفزان في كلتا الجهتين ظهرت أول حيوانات أهلية وأصبح الناس رعاة عوضاً عن صيادين¹ ونوّه "ماكبرني" بأعمال موري فقال: "وساهم موري مساهمة فعالة في تحديده لتاريخ سلسلة من الأساليب الفنية في كهف طباقي stratified بوان موهجاج قرب غات. ففي هذه السلسلة تتعرّف على الرعاة الأوائل بوضوح وأن نتبين أنهم قدموا في حدود 5.000 سنة ق م"²

من هم هؤلاء الرعاة:

يذكر "موري" أن زمن الرلوس المستديرة "مربوط بسكان شبه زنوج"³ وأن أصحابها رسموا بملامح وسمات زنجية أما فترة الرعاة فقد ظهرت فيها معطيات جديدة، فتغيّر النظام الاجتماعي وتغيّر أسلوب ومحتوى الرسوم فقد اختلفت الرسوم ذات الشكل البشري والطابع الأسطوري⁴، وحتت محلّها رسوم ذات مواضيع جديدة مثل تربية الماشية والتنقل عليها وحلب البقر والأنشطة المتنوعة للحياة القليلة⁵.

وما يؤكد "موري" هنا هو أن هؤلاء الرعاة ليسوا مترنجين حتى أنهم على مستوى اللون ربطهم بمجموعة البحر الأبيض المتوسط، وأنهم في نظره من ذوي عرق واحد، فقد تحدّث عن الميزات الخاصة لمنقوشات "تين لالان" وما لها من الأهمية في أغراض ربط الانتماء

1 - المرجع نفسه، 6.

2 - الفن والثقافات الصحراوية، 38.

3 - الفن والثقافات، 38، تادرات أكاكوس، 54.

4 - المرجعان السابقان، 48، 54.

5 - تادرات أكاكوس، 137.

العرقى لتلك الأشكال بالسلالة العرقية بوان إميل¹ ثم وسّع لدائرة لتشمل منطقة "الأكاكوس" بليبيا لمنطقة "تاسيلي" بالجزائر وقال عمّا بين رسومهما ونقوشهما من تشابه إنّها "دلائل داعمة لنظرية التطابق العرقى بين المجموعات الواردة في المنطقتين". ويقطع النظر عن وحدة الانتماء العرقى فهذه بأكمل تأكيد وحدة انتماء ثقافي وحضاري بهؤلاء الرعاة.

وهذا يعني في نهاية التحليل أنّ الرعاة ما هم إلا موجة بشرية ظهرت في العصر الحجري الحديث وطائرة على المنطقة خاصّة إذا ما عرفنا أنّ الأغنام والماعز لا وحوود لهما صمن الحيوانات البرية بشمال إفريقيا والقارة الإفريقية قاطبة وهذا ما أكّده "ماكبرني" في قوله: "على كلّ حال فلا الأغنام ولا القر يمكن أن تتكوّن وتطوّر من الحيوانات الوحشية المحلية في شمال إفريقيا"² وكذلك الباحثان "رولان بورتير" و"حك بارو" في قولهما "إنّ تربية الحيوان لم تتطوّر مستقلة في إفريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أيّ سلف ممكن للقر والماعز والغنم المؤهّلة"³.

وبهذا تنضح لنا الإجابة عن السؤال السابق. من هم هؤلاء الرعاة ؟ إنهم بأكمل تأكيد الجماعات البرية الأولى الشرقية النسب والتي هاجرت إلى المنطقة في الألف الخامس قبل الميلاد (5000 ق.م.) وأدخلتها لأول مرة في الحضارة الرعوية.

الدليل اللغوي

إذا كان البربر هجرات شرقية من الجزيرة العربية، فلا بدّ أن تكون لغتهم جزءاً من الواقع اللغوي العربي القديم، ولها في معجمها وبنيتها ونظامها اللغوي ما يشبهه في الأكديّة والكتعانية واليمنية والمصرية وغيرها من العرقيات القديمة.

هذا الموضوع سبق لي أن تطرّقت إليه في كتاب: البربر عرب قدامى - وسأقتصر هنا

1 - تادرات أكاكوس ، 137.

2 - دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ ، 6.

3 - بداية التفتتات الفلاحية وتطورها وانتشارها ، في: تاريخ أفريقيا العام، الجزء الأول، 23.

على بعض الجوانب التي تثبت السبب العربي للبربرية. وهذه الجوانب هي :

1. المجال الصوتي :

البربرية، في نظامها الصوتي خالية من بعض الحروف الحلقية مثل الهمزة والحاء والعين (أ.ح.ع) وهي في هذا تشبه الأكديّة الخالية من معظم الحروف الحلقية ولا يوجد فيها إلا حرفاء الهمزة والحاء (أ، خ)

كذلك لا توجد فيها هذه الحروف ث، ذ، ط وهي لها مثلها مثل الآرامية والفينيقية والنبطية الخالية هي الأخرى من مثل هذه الحروف.

2- تغيير الحركات وعلاقته بالمعنى :

من الموضوعات التي تشبه فيها البربرية الفصحى واللغات العربية القديمة، التغيير في الحركات وما يؤدي إليه من الحصول على معاني جديدة.

في البربرية يقال :

أَمْدُكُلْ، إْمْدُكُلْ : صديق - أصدقاء

يَسُوسَمْ، يَسُوسُم : سكت - يسكت

يَسَلَى، يَسَلَى : سمع - يسمع

وفي الأكديّة :

إَكْشُدْ، إَكْشُدْ : فتح - يفتح، وصل، يصل

إَلْمَدْ، إَلْمَدْ : تعلّم - يتعلّم

وفي الفصحى على سبيل المثال :

مَثَلْ، مَثَلْ، مَثَلْ

طَرَقْ، طَرَقْ، طَرَقْ

3- ضمير الغائب :

تستعمل البربرية السين (س) ضميرا للغائب

باباس : أبوه
 يماس : أمه
 إرقازيس : زوجها ، بعلاها
 س : ضمير المفرد الغائب مذكرا ومؤنثا

تافوناست نسن : بقرتهم
 استغداست : استمع إليهن
 سن ، سنت : التون نون الجمع في المذكر
 والمؤنث والتاء للتأنيث

وهذا الضمير (س) موجود أيضا في المصرية¹.

مذكر : سو SW

المفرد الغائب

مؤنث : سي SY

الجمع انغائب مذكر ومؤنث : سس ، زن (يبدو أن نطق السين SN يقرب عند البعض من نطق الزاي ZN).

مست. ف : ولادته

متيب. سي : فخذها

حنع. سن : معهم ، معهن

إوسن. م ير : هم في البيت ، هن في البيت

1 - أنظر : قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي ؛ د عبد المحسن بكير ، بل تاريخ ، ص 23 وما بعدها .

فصل الضمائر ، اللغة المصرية القديمة ، د. عبد الحليم نور الدين ، القاهرة ، 2001 ، ص 39 ، وما بعدها : فصل الضمائر .

والملاحظ أن ضمير الجمع النون (ن) موجود في اللعتين: البربرية والمصرية. وضمير السين (س) موجود كذلك في اليمية القديمة فهي تستعمل: سو، سا، ومارالت بعض اللهجات المتبقية منها في الوقت الحاضر تستعمل س، سي.

أما الأكديّة¹ فإنها تستعمل بدل السين الشين (ش) وهما حرفان متقاربان ومتبادلان فأغلب الناس في تونس يقولون سمش بدل شمس

مذكر: شون ŠU	{	المفرد الغائب
مؤنث: شي ŠI		
مذكر: شُن ŠUNU	{	الجمع الغائب
مؤنث: شين ŠINA		

بيلشُ : سيده

بيلش : سيده

بيلشُن : سيدهم

بيلشُن : سيدهن

إدششُ : إعطاء

اشيرشُ : أرسله

ونلاحظ أيضا وجود نون الجمع في الأكديّة كما هو الحال في البربرية والمصرية وبهذا يتضح لنا أن ضمير السين (س) من الضمائر القديمة في الواقع اللغوي العربي القديم احتفظت به البربرية، وظلت تستعمل حتى الآن كما هو الحال في بعض اللهجات اليمينية الحالية.

1 - أنظر اللغة الأكديّة - البابلية، الآشورية، تاريخها وتطورها وقواعدها، لدكتور عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1991، 99.

4- النفي :

لكلّ اللغات العربية القديمة أدوات تدخل على الفعل ، منها أدوات لنفي. والبررية لها أداة نفي هي "أر" :

أريمون : لم يوافق

أريلمد : لم يتعلّم

أريدل : لم يخطّ

وكان البعض يرى أنّ أداة النفي هذه (أر) تختصّ بها البررية وحدها ولا نظير لها في شقيقاتها العربيات. وهذا غير صحيح فالأكّدية تستعمل في النفي أداة متشابهة لها وهي "أل" كما في هذه الأمثلة :

أل المد : لم يتعلّم

أل إكشُد : لم يفتح ، لم يصل

أل إبرُس : لم يقصّ

وما يبدو من اختلاف بين اللّغتين ليس بذی بال فالبررية تبدّل اللام راء في الكثير من الكلمات ، مثل

رثناین أصلها لثناین (يوم الاثنين)

أورا أصلها أولا (تعال)

ولهذا نظيره في الفصحى ، فهناك قبائل عربية تستعمل الراء بدل اللام (بنوقيس) فتقول :

رعلّ، وجرّ، أوجرّ بدل لعلّ، وجلّ، أوجلّ

ويسمي علماء اللّغة هذه الظاهرة بالإبدال. وأسميها عندهم تكون بين القبائل لا في قبيلة

واحدة "لتغليب" أي بعض العشائر والقائل تغلب انطق بهذا العرف وتغلب نظيرتها النطق بحرف آخر في الكلمة نفسها:

فبنونيهان من طي يقولون : دأني بدل دعني

وعشائر يمنية تقول : هنا بدل أما

ومن الواضح أن الحرف الأكثر شيوعاً هو الأصل ، ولذا فإن اللام هنا هي الأصل لأنها الأكثر شيوعاً في أدوات النفي ولذا فإن "أر" البربرية ما هي إلا "أل" في الأكديّة فهما من أرومة واحد ومن واقع لغوي مشترك.

5- جمع المذكر السالم:

جمع التكسير أقدم جمع مرتبط بنشأة اللغة وتطورها. أما جمع المذكر السالم فلم يكن موحوداً في الأول وظهر في مرحلة تالية من مراحل تطور اللغة. وكان يستدل على هذا الجمع بما وجد له من السمات بين الجموع. ولم يعرف بصيغته القياسية ، وبكونه للمذكر العاقل إلا في الفصحى التي هي ثمره لتطور الواقع اللغوي القديم الضخم والمتنوع. والبربرية بحكم قدمها احتفظت بالصورة الأولية لظهور جمع المذكر السالم وهي في هذا شأنها شأن الأكديّة والمصرية والآرامية ومن الأمثلة على ذلك:

البربرية:

أرقز، إرقارن : رجل - رجال

أغيلاس، إغيلاسن

انون علامة هذا الجمع

إجهم، إيجفاون : رأس، رؤوس

إبرم، إيرماون : ثمر - ثمر

الواو والتون علامتا هذا الجمع

تكلت تكلتين

تزررت تزررين

الياء والنون علامتا هذا الجمع والبربرية هنا تشبه الآرامية

وفي الأكديّة :

نحصل على هذا الجمع بعد حذف اتميم (حرف الميم) من المفرد بإضافة واوي حالة الرفع وياء في حالتي النصب والجر :

شَرْم ، شَرُو ، شَرِّي : ملك - ملوك
إَقْلَم ، إَقْلُو ، إَقْلِي : حقل - حقول

وفي المصرية :

تضاف الواو إلى المفرد كما في هذه الأمثلة :

سن ، سنو : أخ ، إحوة
شَر ، سَر . و . إله - آلهة
حكا - حكاو : حاكم - حكام

وفي الآرامية :

تضاف إلى المفرد ياء ونون

ملك ، ملكين : ملك - ملوك
شمس ، شمسين : شمس ، شمس
سين ، سينين : قمر - أقمار

ونخلص من هذا إلى :

1. أنَّ اسماء اللّغوية لجمع المذكّر السّالم في العربية كانت موجودة من قبل.

2. تؤكد هذه السمات الأصل المشترك القديم لكلّ من ابربرية والأكديّة والمصرية والآرامية وكلّ الشّقيقات.

6- الأسماء المبدوءة بالتاء والياء :

توجد في البربرية قسم كبير من الأسماء مبدوءة إمّا بالتاء وإمّا بالياء ، وهو أمر لا تختص به البربرية وحدها وإنما هو ظاهرة عامة واسعة الانتشار في المشرق العربي ، وهذه الظاهرة في تقديري مرتبطة بالتأنيث والتذكير وأن التاء والياء من الأدوات الأولى في التفريق بين الجنسين .

هذه الظاهرة تواصلت بالخصوص مع اليمينية والبربرية وتلاشت في العربية وما وجد منها فيها فهو قليل ومعظمه من قبيل الموروث . وهذا التلاشي ما هو إلا دليل على نهاية مرحلة في مجرى التطور اللغوي العام ومن أمثلة هذه الظاهرة :

في البربرية :

تليلان ، تاشفين ، تطوان ، ترعاسن ، تكروان وجانب من هذه الأسماء مختوم بالتاء :
تاهرت ، تاشلحيت ، توات ، تيارت ، توشيت
يفرن ، يرغش ، يدر ، يهراسن ، يزناس

في المشرق :

تعز ، تبوك ، تغمر ، تغلب ، تدمر ، يغوث ، يزن ، يعرب ، يربوع ، يشجب
هذه الأدلة اللغوية كافية لإثبات النسب الشرقي للبربرية وأنها شقيقة الأكديّة والآرامية واليمينية والمصرية وغيرها . والدليل اللغوي هو سيد الأدلة وأكثرها حسما في هذا الموضوع وقد شبهوه بالاعتراف في ساحة القضاء ، فإذا اعترف المتهم بما نسب إليه أكتفي بذلك واستغني على كل الأدلة وكذلك الدليل اللغوي ، فهو يكفي عن غيره من الأدلة الأخرى لإثبات وحدة الأصل والأرومة المشتركة .

الدليل الاجتماعي

بالرغم من أن انتساب البربر إلى الشرق لم يعد محل شك ولا هو في حاجة إلى أدلة إضافية أخرى ، فإنه من المفيد إبراز ما بينهم وبين الجماعات العربية قديمها وحديثها من التشابه خاصة في الناحية الاجتماعية ذات الأصول والتقاليد العريقة . وهذا ما سنحاول

التعرّف عليه بإيجاز فيما يلي:

1- المجتمع البربري مجتمع قبلي عريق. وللقبيلة فيه مكانة خاصة باعتبارها وحدة اجتماعية متميزة لها اسمها الذي يحمله كل المنتمين إليها، ولها تقاليد وأعرافها التي يستند إليها في تحديد ما للمرد وما عليه من الحقوق والواجبات وكذلك في علاقتها بالآخرين وبمن حولها.

2- القبيلة البربرية تتكوّن من خلية أساسية هي الأسرة، وعمادها الأب الذي له عليها مطلق السلطة والنفوذ. وبما أنّها تقوم أساساً على الأقارب من الذكور، فإن الإرث وانتقال الأموال فيها من حق الأبناء الذكور. ولا يستثنى من النظام الأسري للبربر سوى مجموعة "الطوارق" التي نجد فيها أنّ الأم هي عماد الأسرة التي يكون فيها الولد "كثير اندماجاً مع أهل أمّه من اندماجه مع أهل أبيه"¹ والطوارق كما نعرف ينسبون إلى قبائل أمهاتهم. وما هذه الظاهرة الاستثنائية المحدودة إلاّ من بقايا نظام الأمومة القديم الذي عرفته المنطقة العربية في عهود ما قبل التاريخ. وهو أمر ليس بذّي أهمية بالنظر إلى كبر المجتمع البربري واعتماده على أسرة الأب.

3- إذا قارنا النظام القبلي للبربر بالنظم القبلية الأخرى فسنجد أنّ هناك اختلاف بيننا بينهم وبين الشعوب الأوروبية. وهو ما أقرب به الباحثون الأوروبيون أنفسهم في تناولهم لهذا الموضوع. منهم "المرّدبل" في معرض حديثه عن الأسرة البربرية التي قال عنها: "ليست عائلة ménage كما هي الحال عند الغربيين المحدثين، بل هي جماعة من العائلات تألف من مجموع الأبناء والأحفاد مع زوجاتهم وأبنائهم تحت سلطة الأب أو الأخ الأكبر"² واستشهد في الغرض نفسه بما ذكره "قزال" الذي يرى أنّ عناصر القبيلة عند الهندو- أروبيين،

1 - انقشاط، محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، 1989، 99.

2 - بل، ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، 1981، 53.

والغاليين والحرمان خصوصا "تتماسك في وحدة تراثية وسياسية وإدارية ودينية واقتصادية"¹ في حين نجد عند البربر أن "القبيلة ليست غير مجموعة من الجماعات التي تحرص كل الحرص على استقلالها ونزعتها الانفصالية وتنفصل بسهولة عن القبيلة ابتغاء الارتباط بقبيلة أخرى حين ترى في ذلك مصلحة لها"²

أما بالنسبة للجماعات العربية القديمة والحديثة فحالتها البرية وأن التشابه بينهما في نظامها القبلي يكاد يكون تاما في مختلف أنماط الحياة. ومن مظهر التشابه التي تذكر في هذه المناسبة أن البربر يسمون مثل العرب غاما فيقولون "بنوكذا" و"بني كذا" وهو ما سجله "اليقوي" في القرن الثالث الهجري حيث قال: "وبطون هوارة تتناسب كما تتناسب العرب فمنهم بنو اللهان ومليلة وورسطفة. فبطون اللهان، بنودرصا وبنومزيان، وبنورقلة، وبنومسراقة"³

والأمر بطبيعة الحال لا يختص به هوارة وحدها، وإنما هو ظاهرة شائعة في عموم لبربر ففي تاريخ أن خلدون أمثلة على هذا التناسب: بنوكهلان، بنوفاصلة، بنويطوف، بنوماجر وهناك أيضا قائمة مهمة ذكرها صاحب "سبائك الذهب"

4 للبربر عادات متنوعة مثلهم مثل غيرهم ويهمنا ذكر بعضها في هذا المجال:

- من عادات البربر التي ذكر ابن خلدون، أن "رؤوسهم في الغالب حاشرة وربما يتعاهدونها بالخلق"⁴ وهذه العادة موجودة في سمان الجزيرة العربية، وقد لاحظنا ابن بطوطة في أهل مدينة "ظفار" حيث قال إن "أكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم"⁵ معتبرا ذلك وغيره من الأدلة التي تقوي "أقول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب

1 - المرجع نفسه، 54

2 - المرجع نفسه، 54

3 - كتاب البلدان، طبع بالسجف، بلا تاريخ، 99.

4 - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء السادس، 176

5 - رحلة ابن بطوطة، طباعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، بلا تاريخ، 174.

أصلهم من حمير¹

- من عادة البربر أيضا أنهم يربّون "اللّحيّ الملسّنة" وهو ما نجده عند العرب الذين بالغوا في تقديرها حتّى جعلوها رمز الرجولة واحترام الأفراد، وأنّ إهنتها من أسوأ الإهانات التي تنزل بأصحابها. وهذه العادة عرفت بها الجماعات القديمة، وهي من السنن التي تنسب إلى إبراهيم الخليل.

- كان البربر يخبثون مثلهم مثل الجماعات العربية الأخرى وهي عادة متأصلة فيهم وقديمة جدًا.

- كان البربر أيضا مثل الجماعات العربية لا يأكلون لحم الخنزير ولا يربّونه، وهو ما لاحظته عليهم "هيروودوس"² في القرن الخامس قبل الميلاد. وأول من مارس تربيته في انطقة الرومان³.

أسرة الأب ودلالاتها على الهجرة

هذه المسألة تندرج بالأساس ضمن التكوين الاجتماعي للبربر إلّا أنّني فصلتها لكي تكون مسألة مستقلة في الدلالة على الهجرة.

من المعروف أن ظهور أسرة الأب في التاريخ الإنساني كان نتيجة لتحوّل ضخم حدث في العصر الحجري الحديث بالشرق أدّى إلى الانتقال من نظام الأمومة إلى نظام الأبوة. ومثل هذا التحوّل لم يحدث في شمال إفريقيا لافتقار عصره الحجري الحديث إلى العناصر المؤدّية إلى هذا التحوّل فنظام الأبوة في البيئة التي ظهر فيها كان وليد معطيات جديدة وهي الاهتمام المكر لتدجين الحيوانات وممارسة الزراعة. ممّا شكّل مع العوامل الأخرى انقلابا اقتصاديا - اجتماعيا وتطوّرا ثقافيا ولغويا ودينيّا لم يسبق له مثيل. مهّد لظهور ما سمّي بالحضارات

1 - المصدر نفسه، 174.

2 - نصوص ليبية نقلها الدكتور علي فهمي خشيم، 83، 85.

3 - ج. ديوي، تونس، تعريب الصادق مازيغ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، 66.

القديمة وما نجم عنه في مراحلہ الأولى تداعي الأشكال الاجتماعية البدائية السائدة القائمة على نظام الأمومة لينشأ بدلا عنها نظام اجتماعي جديد هو نظام الأبوة.

وشمال إفريقيا الخالي من الضأن والحبوب الرّبة لم يعرف هذا التحول بالإضافة إلى أنه كان ضعيفا بشريا وثقافيا لم يخرج عن نطاقه الحشري إلا بفضل العوامل الخارجية الشرقية أساسا.

وعلى هذا فإنّ النظام الأبويّ الذي عرفت به الجماعات البربرية في الوثائق المصرية منذ أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، نظام وافد وأجنبيّ عن شمال إفريقيا وهذا دليل آخر يضاف في مساق التأكيد على أنّ البربرية هجرات بدون منزع.

الملاحع اليمنية في الهجرات القديمة إلى شمال إفريقيا

من الصعب الحديث عن هجرات يمنية واضحة إلى شمال إفريقيا خلال الخمسة آلاف سنة السابقة للميلاد وبما أنها موجودة بكل تأكيد فلا بدّ من البحث عما يشتها ويؤكد وجودها. وهذا ما سنحوصله في الفقرات التالية:

1- فلاحه المدرجات وتقنيات جمع المياه :

لقد أكّدت المعارف العلمية المتعلّقة بأصول لنبات ومراكز وجودها خلوا إفريقيا بما في ذلك شمالها من حبوب القمح والشعير الرّبة ، وهو ما فنّد تلك الآراء اللاعلمية والتي تزعم أن شمال إفريقيا وقع فيه الاهتداء إلى الفلاحه بتطور داخليّ.

وإذا كانت الفلاحه ، مثل الرّعي من المكتسبات الوافدة من المشرق ، فهل وفدت مع الفينيقيين وحدهم أم أنّ هناك من الجماعات الشرقية من حملت معها الإنجاز الفلاحي وساهمت في شره بالمنطقة ؟ هذه النقطة لم تبحث وقد غطّت عليها التوجّهات المعرّضة. وما يهّمنا هنا هو السعي إلى توضيحها على ضوء المعلومات المتوفرة انطلاقا من وجود مظهر تدلّ على تعاظمي العمل الفلاحي والمتمثلة في وجود سطوح مدرّجة على سفوح الجبال كما في الجنوب التونسي "وعدة مناطق بالأطلس الصحراوي وبالتخصوص جنوب غربي المغرب

الأقصى وما زالت تلمح منه آثار على سموح بعض الجبال بالطهرية وفي النادر صوب الشمال¹ وها "طراز معماري واحد في شكل مربعات هو الذي بقي إلى اليوم من الإنشاءات البدائية الخاصة بحفظ الماء"² ويقول "جيان" عن هذه المربعات أنها "تؤرخ بفترة سابقة جدا على عصر الممالك الوطنية"³ وظهور هذه الممالك حسب رأيه كان "على الأقل منذ أوائل القرن الرابع"⁴ ومن المستبعد أن تكون من تأثيرات الفينيقيين لوحودها في أماكن نائية عنهم. وهوما يعني أن هذه المظاهر الفلاحية هي من عمل جماعات بربرية وفدت من المدخل الح-نوبي عن طريق الرّ في زمن يحدد ببداية الألف الأول قبل الميلاد أوقبلها. وهوما يتوافق مع تحركات بشرية واسعة بالشرق، منها اندفاع الهيكسوس إلى مصر والآراميين إلى الشام والأحباش من اليمن إلى شرق إفريقيا، ثم إن هذا الأسلوب في العمل العلاحي أي فلاحية المدرجات والمصاطب وإنشاءات جمع المياه وبعض أساليب الرّي لم تكن معروفة في إفريقيا كلها قبل الميلاد، وإنما كانت معروفة أساسا في الجزيرة العربية، وبالأخص في جزنها الجنوبي. فقد اشتهرت بإعجازين عظيمين:

الأول: نظام الإرواء وهندسته الفريدة والذي كان يتمّ بواسطة السدود والآبار حيث تنقل المياه في قنوات من الخزف والطين، وهوشي، تميّزت به بلاد اليمن عن غيرها

الثاني: إنشاء نظام المدرجات الفلاحية التي اشتهرت بها هذه الجهة والذي يكاد يعمّ جبال اليمن كلّها وهوما جعل بعضهم يشبهها بـ"طيات عمائم يأخذ بعضها برقاب بعض"⁵

كل هذا يؤكّد في نهاية التحليل أن تلك المظاهر لفلاحية بالجنوب التونسي وبنحوب المغرب الأقصى وبالأطلس الصحراوي من عمل جماعة وفدت من الجزيرة العربية ومن

1 - ديو، تونس، 66، 67

2 جيان جيرانج، الربر الأصليون، 443

3 - المرجع السابق، 443

4 - المرجع السابق، 445.

5 - آفاق عربية، عدد 2، بغداد، 1987، 88

اليمن على وجه الخصوص.

2- التشابه في فن العمارة :

التشابه بين البربر والجماعات العربية القديمة والحديثة ليس محدودا في مواضع معينة وإنما هو دوطبع شمولي حتى أبا نجده في فن العمارة. فقد أكد بعض الباحثين عن التشابه بين بناءات بربرية وما في اليمن من فن معماري.

وهاهو "هانس هلفريتس" Hans Helfritz الرحالة الألماني يقول في هذا الموضوع : "ومن الآف للنظر أن توجد في مرتفعات الأطلس منطقة البربر الرئيسية بناءات مرتفعة تشبه تماما مثيلاتها في العربية الجنوبية ذات سمات معمارية واحدة"¹.

3- الموسيقى الشعبية :

اهتم الباحثون الأجانب بالمقارنة بين الموسيقى الشعبية في اليمن والموسيقى الشعبية في شمال إفريقيا ، وكانت النتيجة مذهشة وغير متوقعة فقد أثبتت هذه المقارنة وجود تشابه حقيقي وقوي بين الموسيقى الشعبية اليمنية والموسيقى الشعبية البربرية.

فقد قام الدكتور "روبرت لخممان" Robert achmann "المختص في الموسيقى الشرقية وعلم الموسيقى المقارن ، بدراسة الموسيقى البربرية في كل من الجزائر والمغرب فحللها ورقمها (نوتها) وبذلك تمكن الدارسين من الإطلاع عليها.

كما قام المحأة والرحأة الألماني "هانس هلفريتس" Hans Helfritz الملأ والمأصص هو الآخر في علم الموسيقى بتأجيل مجموعة من الأعابي والأأان الشعبية اليمنية (أيل 100 لأ) إلى جانب تأجيله لأنطباعاته عن المنطقة وما لأاضه عن تأريأها وأضارأها ووضع

1 - الفن والثقافات لصحرأة لفترة ما قبل التأريأ . Prehistoric saharan art and cultures in

the light discovers in the acacus massif الوأرد في "أيبأ في التأريأ" المصدر المذكور سابقا

عمله هذا في كتاب بعنوان : رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية : Entdekkungsreisen in Süd Arabien ثم قدم أيضا بجمع عمل "لخمان" في الموسيقى البربرية ويؤيه واستفاد منه وقال منوها بصاحبه : "والعجيب أن يستطيع كل من "هور بوستل E M. Von Hornbostel والدكتور روبرت لخمان Robert achmann إثبات التشابه في كيفية الأداء بين أغاني المرتفعات (يقصد هنا مرتفعات بلاد اليمن) والموسيقى البربرية التي سجلها لخمان في اقباطل بشمال إفريقيا"¹.

وأدرك "هلفرتس" أن هذا لتشابه لم يحدث اتفاقا فقال : "ومثل هذا التشابه على المرء افتراض وجود علاقة حميمة ما بين البربر والعرب الجنوبيين. فالسمات التي بدت لي في الموسيقى العربية اليمنية موجودة بعينها في الموسيقى البربرية ثم إن هذه العلاقة الحميمة تظهر بصورة واضحة في طريقة أداء الأغاني ، فخصوصية تركيب الألحان وتشابهاها ، بس قل تساوي هذه الألحان تساويا مطلقا يؤكد هذا الانطباع من جديد"² ولإثبات هذا لتشابه قدم "هلفرتس" نماذج تعتمد على المقارنة بالترقيم الموسيقي ننتخب منها النموذجين التاليين :

النموذج الأول :

يشتمل على ترقيمين موسيقيين لقطعتين الأولى (A) وهي عبارة عن أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني إسماعيل بجبال حراز باليمن فسجلها ورقمها. والثانية (B) سمعها (لخمان) في القباطل بالجزائر فسجلها ورقمها.

النموذج الثاني :

يشتمل هو أيضا على ترقيمين موسيقيين لقطعتين الأولى (A) وهي أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني مطير بجبل حراز باليمن فسجلها ورقمها والثانية (B) وهي ترنيمة حجاج سمعها (لخمان) في اقباطل بالجزائر فسجلها ورقمها.

1 - المرجع نفسه ، 113.

2 - المرجع نفسه ، 113.

هذا التشابه في الموسيقى الشعبية هو جزء ، في الحقيقية ، من تشابه أوسع في مجال الفنون الشعبية. فما شاهدنا ، في مناسبات عديدة من مظاهر الرقص وطرق الغناء في اليمن وسلطنة عُمان وغيرهما عبر القنوات التلفزية يشبه في الكثير من عناصره ما هو موجود في مناطق كثيرة بالمغرب العربي (الصحراء ، جنوب المغرب ، المناطق الداخلية...) من حيث الانتظام في الصفوف وتحريك الرأس والأكتاف والتنقل وإميل بالشعر من اليمين إلى اليسار عند النساء.

وهكذا نلاحظ أن التشابه بين اليمن والقبائل بالجزائر في الموسيقى الشعبية ما هو إلا جانب من التشابه العام بين العرب والبربر والتشابه الموسيقي كاللغة من حيث قوة الحجة في التدليل عسى وحدة الأصل ، والموسيقى في سياق النظرة الشاملة تعد شكلا من أشكال الروابط الثقافية التاريخية التي تظل في بعض الأحوال ماثلة حقا طويلا. ومن خلالها يستطيع الباحثون تتبع الهجرات وتنقل الجماعات البشرية وإثبات ما بينها من صلات.

كذلك فإن التشابه الموسيقي بين اليمن والقبائل يؤكد وجود الثقافة السبئية - الحميرية بشمال إفريقيا

4- صيغة أفْعول:

عرفت صيغة "أفْعول" بفتح الهمزة في اللهجات اليمنية القديمة. وهذا ما أكدته "الحسن الهمداني" في قوله: "وكثير من قبائل حمير تأتي على الأفْعول: الأيفوع، والأيزون، والأوسون، والأحروث"¹.

هذه الصيغة لا توجد في العربية وإنما توجد بدلها صيغة "أفْعول" أو "أفْعولة" بضم الهمزة مثل أسنوب، أملود، أعجوبة، ألعوبة.

وصيغة "أفْعول" منتشرة بكثرة في جنوب الجزيرة العربية ومستعملة في أسماء الأعلام والقبائل والأماكن مثل:

1 - كتاب الإكليل، الجزء الثاني، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكرع الحوالي، مطبعة السنة لمحمدية، القاهرة، 1967، 449.

أبيود : اسم شخص

أبقور : قبيلة من سحر

أخروج : جبل باليمن

أدروب : وادٍ

وإذا ما انتقلنا إلى البربرية فسنجد بها أسماء كثيرة بهذه الصيغة كما في هذه الأمثلة :

أزكور : اسم جماعة في (عمالة مراكش)

أغروس : فخذ بالريف

أيغود : جماعة بدائرة اليوسفية من إقليم "إسفي"

أغيول : الحمار

أزلوم : الحزام

أغروم : الرغيف

أزمور : اسم مدينة بساحل المحيط الأطلسي

أملوسة : جماعة بإقليم نعلوان

أنكومة : اسم مكان

أمكونة : قلعة بإقليم ورزازات

هذه الصيغة، صعبة "أفْعول" الموجودة بكثرة في المنطقتين، جنوب الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وكذلك الحبشة لا يمكن أن ندّعي أن وجودها في البربرية كان اتفاقاً ومن باب الصدفة، فهي دليل قوي آخر على النسب الشرقي للبربر وعلى وجود جماعات بمنية ضمن الهجرات القديمة.

5- قبائل بربرية تنسب نفسها إلى اليمن :

هناك قبائل بربرية عديدة لديها اعتقاد بأنها من أصول عربية شرقية. ومنها من تنسب نفسها، على وجه الخصوص إلى اليمن. فضلاً عما يقوله النسابون في شأنها من أنها بمنية. من هذه القبائل على سبيل المثال :

- صنهاجة: وهي من القبائل البربرية العتيده، يؤمن بأنها عربية من حمير وهذا أحد قاديها أبو الفتح المصور الذي تولّى لإمارة في القيروان سنة 374 (983) قال عن نفسه وأجداده في الخطاب الذي توجه به إلى الحاضرين: "إنّ أبي وجدّي أحذا الناس بالسيف قهراً، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان وما أنا في هذا الملك ممّ بولّى بكتاب أوعزل بكتاب، لأنّي ورثته عن أبائي. وأجدادي وورثوه عن آباءهم وأجدادهم حمير"¹

- هوارة: تقول هي الأخرى أنها من عرب اليمن من "عاملة"² و"بنوعاملة" هؤلاء أخوة للخم وجداد من بطون كهلان القحطانية. ويقول ابن عبد البرّ "وهوارة أنّهم من عاملة وأنّهم انتقلوا من الشام"³ ثم يذكر القلقشندي أن منارلها كانت "بالديار المصرية وبالبحيرة، من الإسكندرية غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة"⁴ أمّا ابن خلدون فذكر أن مواطن أعليّة هوارة كانت في بداية المتح ما بين طرابلس وبرقة⁵ ويمرور الوقت فارق بعضهم في فترة لاحقة هذا الوطن متوغّلين في انصحراء في اتجاه الغرب.

وم اسم "الهقار"⁶ بالجنوب الجزائري إلا دليل على ذلك وتدلّ مواطن انتشارها وتنقلها من الغرب إلى الشرق أنّها شرفيه وهو ما يؤكّد انتسابها إلى اليمن.

- بنوزويلة: يقل عد البرّ عنها أنّها تنسب نفسها إلى جرهم، والمقصود بجرهم هذه،

1 - ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ح س. كولان، وليمي بروفسال، دار الثقافة، بيروت، 1982، 240؛ ابن الأثير، الكامل، الجزء السابع، 121.

2 - ابن عبد البر، القصد والأمن في التعريف بأصول أنساب العرب ولعجم، مكتبة القدسي، القاهرة، 1350 هـ، 25

3 - المصدر نفسه، 25

4 نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959، 441.

5 - كتاب العبر، الجزء السادس، 286.

6 - هوارة تحولت إلى "هكارة" فيقول ابن خلدون "قلبت العجمة واره كافاً أعجمية بين الكف العربية والقف" المصدر نفسه، الجزء الثاني، 286.

جرهم القحطانية لا جرهم البائدة، والمعلومات عن هذه القبيلة قليلة ولم يقع تصنيفها لا في فرع البرانس ولا في فرع البتر. ويذكر ابن خلدون أنها انتقلت إلى فزان واستوطنتها[□]

وهكذا يتأكد لنا، بما لا يدع مجالاً للشك وجود العناصر اليمنية ضمن الهجرات القديمة.

6- موقف نسّابي البربر:

في نهاية هذه الدراسة وبعد معالجة قضية الهجرة إلى شمال إفريقيا بالاعتماد على جملة من المعارف العلمية التي تثبت هذه الهجرة وتقطع بوجودها، لا بدّ من التعرف على موقف نسّابي البربر² لأهميته في هذه الساحة، وأهمية الراوية اشفوية باعتبارها مصدراً من مصادر المعرفة التاريخية خاصة إذا وضعت في إطار ما وفّره المصادر الأخرى من أثرية ووثائق مكتوبة وعلوم لغوية وكل ما يتعلق بالنظم والتقاليد والأعراف وغير ذلك. فماذا يقول نسّابو البربر في أصل البربر؟

- النسّابة البربري أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقّب بصاحب الحمار الخارحيّ الإلباضي يقول إن البربر بفرعيهما: البرانس والبتر من أب واحد ومن نسل كنعان بن حام بن نوح

- جميع نسّابي البربر الآخرين مثل هاني بن بكور الضّريسي ومسبق بن سليمان المطمطي وكهلان بن أبي لواء وهاني بن مسرور والكومي وسالم بن سلم المطمطي وغيرهم يقولون إنّ فرع الرانس فقط من نسل كنعان بن حام بن نوح. أمّا فرع البتر فهو من الفرع المصري العدناني ويبدو أن أيوب بن يزيد يرى هذا الرأي حسب ما ذكره ابن خلدون³ وهذا يعني أنّ هناك إجماعاً أو ما يشبه الإجماع بين نسّابي البربر على اختلاف أجيالهم وطبقاتهم على انتساب قسم من البربر إلى الفرع المصري - العدناني ولا يمكن بأيّ حال أن يكون كل ما قاله نسّابو البربر وغيرهم من علماء الأساب عن الأصول الشرقية للبربر

1 المصدر نفسه، الجزء السادس، 291

3- ابن خلدون، المعبر، الجزء الأول، 177.

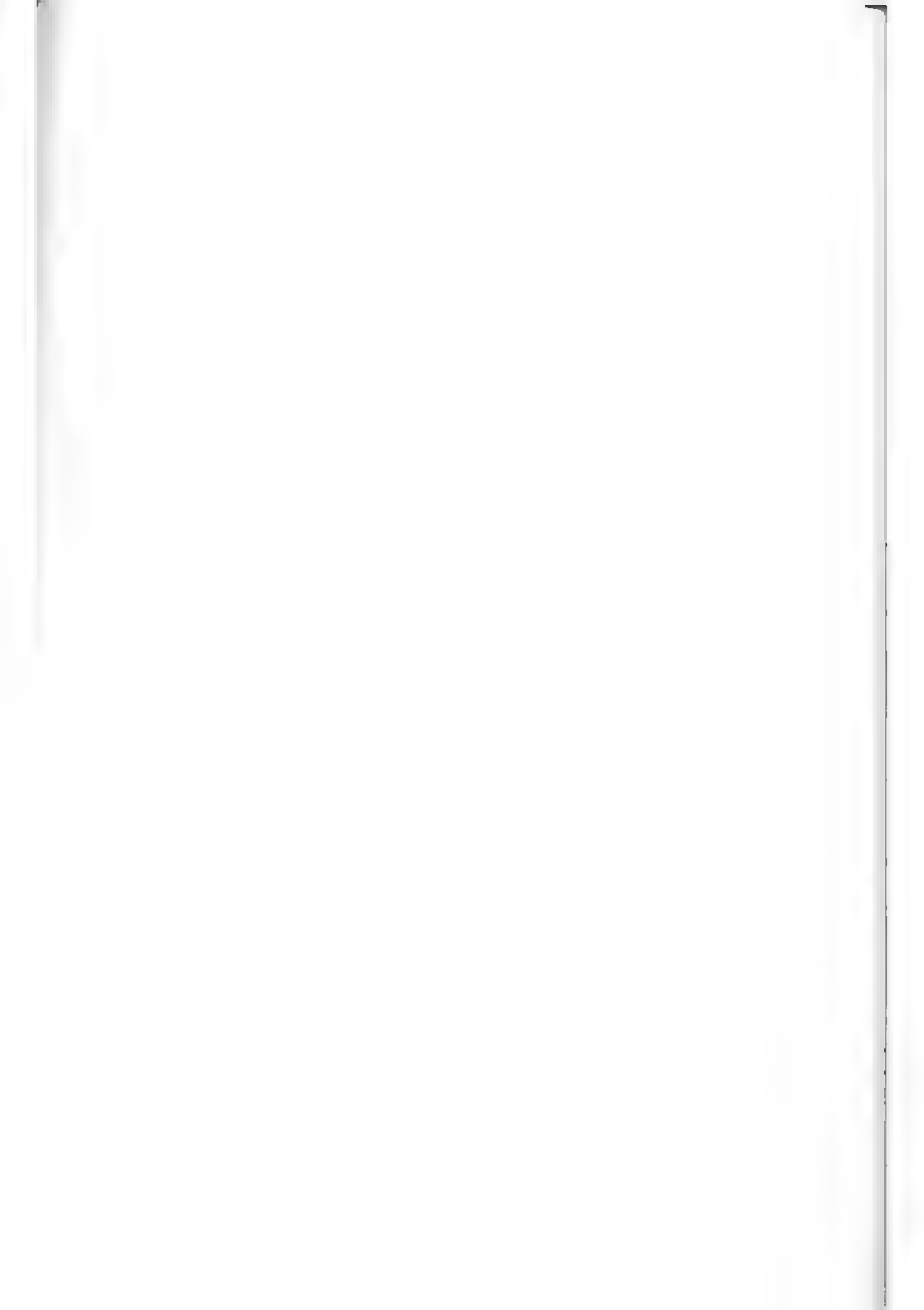
خاطئ خاصة في القضايا العامة التي تعدّ من معتقدات المجموعة ومن معارفهم الشائعة.

7- البربر عرب قدامى :

إن البربر هجرات شرقية بكل تأكيد وأنهم من الأحيال العربية القديمة انتقلت إلى المغرب على مرحل ، وعلى عكس الأجناس الأخرى اندمجوا بالعرب ونسجوا معهم في سياق التطور العام التكوين الجديد للأمة العربية وبهذا توفرت الإمكانيات العريضة من بشرية وجغرافية لمواجهة المتطلبات الجديدة في عصر العولمة وما جدّ فيه من تحوّل في الصيرورة العامة للجماعات الإنسانية وهذا التحوّل على خلاف العهود القديمة يتطلّب كيانات بديلة ، كيانات كبيرة ملائمة له ومحققة للمراكز الاقتصادية الكبرى والتطوّرات العلمية والتقنية الحديثة. فعهد الدون الصغيرة قد رلى وأنه لا سبيل لإثبات ابدات والتقدّم الحقيقي بدون الكتلة الكبيرة. وهى الهجرات من أقدم أطورها وعبر مراحل تاريخية متنوعة هيأت لنا الأرضية المناسبة لبناء الكتلة الكبيرة والإسهام مع الآخرين في بناء العالم الجديد.

المحور الثالث

الهجرات اليمانية والتحركات البشرية بعد ظهور الإسلام



الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا ودورها في نشر الإسلام والعروبة

د. علي حسن الشطشاط

أولاً: دور العرب في كشف القارة الأفريقية

إن العلاقات بين العرب والأفارقة قديمة جداً. فقد كانت الصلة بين سكان شبه الجزيرة العربية وأفريقيا، ميسورة وسهلة عن طريق مضيق باب المندب، وشبه جزيرة سياء، وكانت سواحل المحيط الهندي الأفريقية، والعربية تمثل نقاط تواصل مهمة بين المنطقتين، وفي المحيط الهندي أستغلت السفن العربية الرياح الموسمية لتسهيل رحلاتها، بينما كانت سفن الصحراء الإبل، وسيلة التواصل الري عبر سيناء، حتى سواحل المحيط الأطلسي¹.

أ - جهود العرب فيما يتعلق بالساحل الشرقي للقارة:

لعب العامل الجغرافي دوراً مهماً في كشف العرب للساحل الشرقي لأفريقيا. فمن حيث الموقع نرى أن شبه الجزيرة العربية قريبة جداً من أفريقيا. لا يفصلها إلا البحر الأحمر والمحيط الهندي، وعلى الرغم من ذلك فإن حب العرب للمغامرة، وركوب البحر دفعهم إلى اكتشاف الأراضي المجهولة لديهم. وقد ساعدهم على ذلك العامل الجغرافي، إذ كانت الرياح الموسمية تدفع سفنهم، لتصل بهم إلى الساحل الشرقي، وبعد شهور قليلة تبينوا أن اتجاه الرياح قد تغير، فتدفعهم عائدين إلى بلادهم، فهذه الرياح هي التي سهلت على العرب الوصول إلى ساحل شرق أفريقيا² ومن ثم أصبح للبحارة العرب الأوائل الخبرة في معرفة موافيت الرياح، وأصبحت رحلاتهم من شبه الجزيرة العربية إلى الساحل الشرقي

1- حسن، يوسف فصل: لجدور التاريخة للعلاقات العربية الأفريقية، أعمال ندوة العرب وأفريقيا التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي (بيروت: 1984) ص 27.

2- ترجمههم، سنسر: الإسلام في شرق أفريقيا (القاهرة: 1973)، ص 8.

لأفريقيا ميسرة، ولم يكونوا يسمعون وراء شيء محدد سوى المغامرة واكتشاف المجهول، ومعرفة المدى الذي يمكن أن تذهب إليه سفنهم في المحيط¹. فلما وصلوا وجدوا أشياء لفتت أنظارهم مثل العاج، فحملوه معهم وعادوا في العام اللاحق لجلب المزيد منه، حاملين معهم بضائع من بلادهم لمادلتها، وهكذا نشأت الرحلات التجارية المنتظمة إلى ساحل شرق أفريقيا².

وبعد العلاقة بين العرب والأفارقة قديمة جداً، نتيجة الرحلات التجارية التي يقوم بها العرب، فكانوا يجلبون الرقيق من بلاد الرنج إلى الجزيرة العربية، وكان الأحباش أكثر من وفدوا من الساحل الأفريقي وذلك عن طريق الرق³. وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل، فقد هاجرت القبائل العربية القاطنة في اليمن والحجاز وحضرموت إلى أفريقيا، وكانت هي أول القبائل المهاجرة إلى أفريقيا⁴.

ب- الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي والطرق التي سلكتها تلك الهجرات:

كانت الطرق التي سلكها العرب المسلمون إلى القارة الأفريقية، هي الطرق نفسها التي سار عليها أجدادهم من قبل؛ من أجل التجارة أو الهجرة. وأدى هذا التطور العظيم في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة، فوق دعائم التعامل التجاري والهجرات البشرية، قام بدور إيجابي في نشر العقيدة الإسلامية، وبسط نفوذها السياسي في أفريقيا⁵.

1- العمري، أحمد سويلم: الأفريقيون والعرب (القاهرة: 1967) ص 113. كذلك الحمل، شوقي

تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة: 1971) ص 225

2- ترمينجهام: المرجع السابق، ص 9

3- أرنولد، توماس: الدعوة الإسلامية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، (القاهرة: 1971)، ص 126.

4- ترمينجهام: المرجع السابق، ص 10.

5- يوسف، حسن: الحذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص 28. وأبو بكر، علي الشيخ أحمد:

الدعوة الإسلامية المعاصرة في القرن الأفريقي (الرياض: دون تاريخ) ص 211

لقد لعبت الهجرة لإسلامية إلى داخل أفريقيا دوراً كبيراً مهماً في نشر الإسلام، في هذه المناطق منذ بداية الدعوة لهذا الدين التي أخذ سيدنا محمد ﷺ يثبها بين مشركي قريش في مكة، وقد تعرض هو وأصحابه إلى الاضطهاد والشدة والإهانة البالغة، فتم رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هوفيه من الله - عز وجل - ورعاية عمه أبي طالب. وأنه لا يقدر على أن يمنعهم (قال: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه". فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم)¹.

وروى الواقدي أن خرجهم إليها كان في رحب سنة خمس من العثة، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماني وراكب، فاستأجروا سفينة بنصف دينار للحبشة، وهم عثمان بن عفان وامراته رقية بنت رسول الله (ص) وأبو حذيفة بن عثة وامراته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم، فكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة². وكان اختيار الرسول الكريم (ص) للحبشة دون غيرها لأنها من أقرب البلاد المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك، ويحكمها ملك مسيحي، لذلك فإنه وإلى جانب قربها، إذ كان السفر إليها أهون من احتراق الجزيرة شمالاً أو جنوباً عبر قائل معادية³، فقد كان يعرف عن ملكها العدل والتسامح⁴.

واستمرت الهجرة إلى الحبشة، وتتابع المسلمون إليها في الهجرة الثانية، وكان فيها جعفر بن أبي طالب، ومنهم من خرج بأهله معهم، ومنهم من خرج بنفسه، فكان من الحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلاً عدا زوجاتهم وأبائهم، وتطورت الهجرة حتى بلغت ما

1- اس الأثير أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، 1980) 51/2، 52.

2- اس كثير، عماد الدين أبو الفداء. الساية والهاية، دار العد العربي (القاهرة 1991) 80/2، 81.

3- انبثوري، عطية محزوم: دراسات في تاريخ شرق وجنوب الصحراء، منشورات جامعة فاريونس (بنغازي: 1998) ص 199.

4- حسن، حسن إبراهيم: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة، 1963) 75/1.

يقارب ستمائة مسلم، وهؤلاء المهاجرون لم يهاجروا جميعاً من مكة، بل إن فوجاً منهم قد هاجر من اليمن برئاسة أبي موسى الأشعري، وقد قدر عددهم ببضع وخمسين رجلاً¹.

أقام هؤلاء المهاجرون في البلاط الأكسومي فترة قصيرة قدرت بشهرين أو تزيد قليلاً، ثم أرسل النجاشي وفداً سياسياً إلى الرسول ﷺ بمكة ليثبت من حقيقة هؤلاء، ويقال إن الوفد الحشبي قد أسلم، ويُعدّ هذا أول تأثير مباشر لحركة الهجرة في نشر الإسلام، وعندما تأكد النجاشي عن طريق معلومات هذا الوفد من صحة الأخبار عن النبي، سمح للمسلمين بالهجرة إلى بلاده، فأذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة بعد أن اطمأن إلى حماية النجاشي لهم، فتدفقت الهجرة الإسلامية إلى الحبشة، حيث كانت تسير أقدام العرب منذ زمن بعيد، وحيث استقر بها إخوان لهم من قبل يشتغلون بالتجارة، ولم يمنع الإسلام من اعتنقه من تجار العرب، من مزاوله حرفهم الأولى فالهجرة إلى الحبشة، والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت بعده. وحمل المهاجرون ولتجار الجدد إسلامهم. ومن ثم أخذ الإسلام يظهر ويتشعّر في الحبشة، ويتغلغل في المناطق القريبة لها حيثما سار التجار².

وتعاقبت بعد ذلك مجموعة من الأحداث على الدولة الإسلامية، ساعدت على الهجرة إلى القارة الأفريقية، منها حروب الردة التي حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ إذ يقول ابن الأثير في ذلك: "لما مات النبي ﷺ وسير أبوبكر جيش أسامة، ارتدت العرب وتضرّمت الأرض ناراً، وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قرشاً وثقيماً"³. وكذلك الفتنة الكبرى التي حدثت في عهد عثمان بن عفان (23-35هـ/644-656م) وما تلاها من موقعة الجمل سنة (36هـ/656م) وظهور الخوارج، واضطهاد أهل البيت على أيدي الدولتين الأموية والعباسية، كل ذلك دفع الأطراف المغلوبة سياسياً، وعسكرياً إلى طلب الهجرة إلى الحبشة التي كانت بعيدة عن متناول السلطة الأموية، وقد تركزت هذه الهجرة عقب موقعة كربلاء

1- ابن كثير، المصدر السابق، 2/83.

2- عطية العيتوري، المرجع السابق، ص 120.

3- ابن الأثير، الكامل، 12/231.

سنة (61هـ/680م) التي قُتل فيها الحسين بن علي بن أبي طالب².

وعسى أثر هذه الأحداث فرّ زعيم العلويين الإمام زيد بن الحسن بن علي، ومعه أنصاره، فقصدت جماعة منهم شواطئ شرق أفريقيا، وقد سمو (إموزيديج) ثم وسعوا من رقعة أراضيهم بها بفضل ما كان يتوالى عليهم من المهاجرين من شبه الجزيرة²، ثم توالى الأحداث التي تمثلت في خروج الحجاز على الدولة، وقد أمد المسلمون القاطنون على الساحل الغربي للبحر الأحمر. عبدالله بن الزبير، بما يلزمه من مؤن وسلاح حتى استطاع الصمود أمام الدولة الأموية

وحين اشتد النزاع بين أحزاب المسلمين، كانت بعض الأحزاب العلوية على أمرها تهاجر إلى شرق أفريقيا، وتتخذ هذه الجهات موطناً لها³. ففي أثناء حكم الخليفة عبدالملك بن مروان سنة (65- 85هـ/685- 705م) هاجرت أعداد كبيرة إلى السواحل الشرقية، حيث وجدوا كل المساعدة من قبل أبناء الهجرات العربية القديمة التي استقرت منذ وقت طويل، مما زاد في تامي المراكز التجارية، وكان تأسيس المدن العربية التي استقر بها العرب، من قبل، داعماً لمزيد من الهجرات للقارة الأفريقية⁴. وعندما استولى العباسيون على مقاليد الحكم في الدولة الإسلامية، هاجر كثير من الأمويين وأتباعهم إلى الساحل الشرقي الأفريقي عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر⁵.

ومن أهم الهجرات العربية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي هجرة الأخوة

1- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (لقاهرة: 1965) 269/6- 271.

2- سيرتوماس أرنولد: الدعوة الإسلامية، ص 378.

3- الجمل، شوقي: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة، 1971) ص 38.

4- قسم، جمال زكري: الأصول التاريخية لعلاقات العربية لأفريقية، معهد البحوث و الدراسات العربية (القاهرة، 1975) ص 291.

5- ركي، عبدالرحمن: الإسلام واحصارة العربية في شرق أفريقيا، المجلة التاريخية المصرية، العدد الواحد والعشرين (لقاهرة، 1974) ص 38.

السبعة من قبيلة الحارث العربية، فقد هبط هؤلاء على الساحل الشرقي لأفريقيا عند شاطئ بنادر، وامتد نفوذهم حتى جنوبي بحيرة¹، ولقد اصطدم المهاجرون الجدد في ساحل بنادر بمن سبقوهم من المجموعات العربية، بفضلوا التوغل إلى الداخل حيث اختلطوا بالأهالي الأفارقة²، ويرجع إليهم الفضل في تأسيس مدينتي مقديشيو وبراوة³ وفي أيام الفاطميين في القرن الرابع الهجري/الحادي عشر لميلادي جاءت هجرات عربية أخرى من صعيد مصر، وهي قبائل بني هلال وبني سليم وغيرها، في أعداد كبيرة، وتصاهروا معهم واحتلّطت دماؤهم وأنسابهم وامتزجت، وعمرّوا السهول والواحات وأعالي الجبال وبطون الصحراء. ثم جاءت هجرات العرب الهريين من مذابح الصليبيين في أوروبا. أيام انهيار دولة المسلمين في الأندلس، ونزوح الكثير منهم إلى أفريقيا⁴.

أما في غرب أفريقيا، فقد لعبت حركة الهجرة دوراً بارزاً في نشر الإسلام في مناطق جنوب الصحراء، وقد تركزت هذه الهجرات حول بحيرة تشاد والنيجر ثم مالي والسنغال وغيرها، وعندما اضمحلت دولة مالي، وغيرها من الإمارات الإسلامية، في منتصف القرن السادس عشر، حمل لواء الدعوة إلى الإسلام قبائل أفريقية مثل الفولاني والبوهمان⁵. والماندنجهوالدين صاروا يعدّون من أكثر شعوب غرب أفريقيا تمسكاً بالإسلام، ودعوا إليه وازداد انتشاره فيهم، حتى أصبح دين الدولة كلها⁶. وقد هاجرت هذه القبائل نحو الشرق إلى نيجيريا وتشاد وجنوباً إلى غينيا وتمركز نشاط هذه الجماعات في إنشاء دور التعليم وإنشاء

1- قاسم، جمال زكريا استقرار العرب في شرق أفريقيا، مجلة كلية الآداب، جامعة عين شمس، العدد العاشر (القاهرة، 1967) ص 293.

2- عبدالرحمن زكي. المصدر السابق، ص 39.

3- السعودي، أبو الحسن علي. مروح الذهب ومعادن الخوهر، دار الأندلس (بيروت، 1984) 1/98.

4- عبدالظاهر، حسن عيسى. الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة العولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي دار الهلال (الرياض، 1981) ص 41-42.

5- عطية لفيثوري: المصدر السابق، ص 124.

6- حسن عبدالظاهر: المصدر السابق، ص 102.

المدارس بغية نشر التعليم الديني ، وعكنت القبائل المهاجرة إلى غينيا من تأسيس دولة إسلامية على مبدأ الشورى ، استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر¹ .

لقد كانت كل هذه الهجرات وغيرها مورداً لا ينضب معينه من الدماء التي تسري في شرايين حركة انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء ، حيث أسهمت إسهاماً فعالاً ، مع غيرها من المسالك ، في إرساء دعائم هذه الحركة ونجاحها في فترة وجيزة من عمر الزمن² . وهكذا تدفقت الهجرات العربية عبر القرون إلى أفريقية ، وبوجه خاص إلى الشمال والشرق ، وكان له أثر كبير في شر الإسلام ، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة ، وأصبحت مناطق الشمال ، وكثير من مناطق الشرق عربية الدم واللسان .

وهناك حقيقة تلفت النظر إليها ، هي أن فيص المهاجرين العرب كان وفيراً في الشمال والشرق . فتعربت بلاد الشمال والسودان الغربي ، أما المهاجرون العرب إلى الأماكن الأخرى جنوب الصحراء ، فكانوا قلة نسبياً ، وانتشر الإسلام بهذه الأماكن الأخرى عن طريق التجار والبر والطرق الصوفية³ .

ح) المسالك التي سلكتها القبائل العربية للوصول إلى أفريقيا:

لقد سلك القبائل العربية طريقها لأفريقيا مهاجرة عبر المفاذ الآتية:

1- باب المنذب: يعد من أهم الطرق الحيوية الذي يمثل تيار هجرة بشرية منذ أقدم العصور . حيث انتشر سكان شبه الجزيرة العربية مثل العمانيون واليمن والحضارة إلى السواحل الشرقية ثم انجهوا شمالاً حيث استقرت منهم جماعات في الحبشة والسودان ، وبعضهم اتجه صوب الغرب⁴ .

1- عطية الفتوري: المصدر السابق ، ص 124 .

2- المصدر نفسه ، ص 124 .

3- شليبي ، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن) مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1983) 188/6 .

4- العنيمي ، عبدالفتاح مقلد: حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا (القاهرة: بدون تاريخ) ص 12 .

وفي سسل تأمين المعبر التجاري غزت الحبشة بلاد اليمن والسواحل الشمالية الغربية بلصومال قبل الإسلام فلا عجب بأن نجد الهجرات العربية تأتي من هذا الطريق إلى سواحل شرق أفريقيا بعد سيادة الإسلام في شبه الجزيرة العربية في صورة تبادل تجاري أودعاة لنشر الدعوة الإسلامية وأن يؤسسوا بيوتاً تجارية مزدهرة في المدن الساحلية مثل زيلع ومقديشور ومبسا ولا مودكلوة وسفالا وكذلك هاجرت عن طريق هذا المعبر جماعة عربية من بني مخزوم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى زيلع¹.

2- طريق البحر الأحمر: للبحر الأحمر دور هام في ربط القارة الأفريقية بشبه الجزيرة العربية، فقد خرجت الهجرات العربية الهائلة من شبه الجزيرة العربية عابرة ذلك البحر إلى السواحل الأفريقية وكان إقليم الحجاز منذ أقدم العصور على صلة قوية بالشاطئ الأفريقي المقابل قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة، ولكن مع ظهور الإسلام "الهجرة الإسلامية إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة" وانتشاره في النطاق الرعوي الأفريقي، ظهرت أهمية هذا الجزء الأوسط من البحر الأحمر كمعبر قريب من الحجاز وخاصة بعد أن خضعت بلاد الشام لسيطرة الصليبيين، ومن هنا كان وجود الموانئ الأفريقية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر².

3- طريق خليج عدن:

ويعتبر هذا الطريق أقوى ثراً من الأول لقرب الشاطئ للخليج، كما يُعد سكان مدينة عدن أكثر شعوب الجزيرة العربية اتصالاً بشرق أفريقيا، وكما يبدو أن العرب كانوا قد تعودوا أن يلاقوا في هذه السواحل ترحيباً ويجدون أن سكانها موضع ثققتهم كما وجدوا فيها فرصة كثيرة لكسب الرزق وهم يمشون في نفس الوقت الداعية الإسلامية أو المسلم الذي يبشر بالدعوة الإسلامية وزدت أهمية هذا المسلك منذ القرن الحادي عشر بصورة واضحة عندما بدأت مهارة أهل عمان في صناعة السفن التجارية وقاموا بنقل متوجات شرق أفريقيا إلى

1- الفاسي، محمد وإيفان هريك، تاريخ أفريقيا العام (البونسكو، 1988) 127/126/3

2- الغنيمي: حركة المد الإسلامي، ص 13.

المراكز التجارية في جنوب الجزيرة العربية والشواطئ الهندية منافسين في ذلك السفن الهندية¹.

4- برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء : لا يقل هذا المنفذ أهمية عن المنافذ السابقة، فقد كان هذا الطريق معبراً ومهداً للهجرات العربية الدخول إلى القارة الأفريقية، فكان هذا الطريق المدخل الرئيسي للهجرات إلى أفريقيا عن طريق البر².

وعلى هذا فإنه يمكن القول أن باب المندب وسواحل البحر الأحمر وطريق خليج عدن وبرزخ السويس، وشبه جزيرة سيناء تعتبر جميعها طرق هامة سلكتها الجماعات البشرية المتتالية والمهاجرة في مسالك متعددة سواء منها البرية أو البحرية في فترات زمنية متقاربة أو متباعدة تبعاً للمصدر الذي ترجع إليه كل جماعات وافدة ولا شك أن هذه الهجرات والحركات البشرية كان لها أعظم اثر في تعمير منطقة بحيرة تشاد وغرب أفريقيا، وكان لها أثرها المباشر والقوي والفعال في ظهور حضارة إسلامية راقية قامت على أكتاف تلك العناصر العربية المهاجرة³.

5- وهناك طريق آخر سدكنه الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا، وهو طريق أفريقيا (المغرب الأدنى) بما فيها إقليم طرابلس، إذ هاجر عرب (التنحور) من شمال أفريقيا إلى دارفور في جمهورية السودان الحالية، ومنها انتشروا في نواحي السودان الشرقي، وكان لهذه الهجرة أثر واضح في تعريب تلك المنطقة، ونشر الإسلام فيها⁴.

د - المهاجر العربية والشركات العربية :

كانت تربط بلاد العرب وشرقي أفريقيا علاقات تجارية، ولم تنوطد هذه العلاقة إلا بهجرة العرب واستقرارهم في البلاد، ويتوالي الهجرات والاستقرار ألزمتهم الضرورة بأن يكونوا إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقي للقارة الأفريقية، وقد كون

1- محمد الفاسي وإيفان هريك: المصدر السابق، 128/3.

2- الغنيمي: حركة المد الإسلامي، ص 13.

3- الغنوري، دراسات في شرق أفريقيا، ص 86.

4- ينظر بمدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، ص 57.

العرب محطات تجارية في فاليقوط وساحل ملبار وملقا ثم استقروا كمهاجرين فيها وأول محطة تجارية أو شركة كانت في مدينة كانتون وقد كان هدف العرب من تكوين محطات أو شركات ليس من أجل الاستعمار بل من أجل التجارة¹.

هـ - دور إمارة عُمان في كشف القارة:

كانت إمارة عمارة بعد أن أكملت إنشاء ميناء مسقط اتجهت بأبصارها إلى الإبحار إلى الساحل الشرقي لأفريقيا حيث الغابات الوفيرة واستغلال الأخشاب من غابات جزر الزنجبار، مثل أخشاب أشجار جوز الهند التي يصنع منها السفن، وبعد تفوق العرب في البحرية وتعدد رحلاتهم التجارية والاستكشافية إلى جزر الساحل الشرقي للقارة أستقر هؤلاء العرب في الجزر، ومن ثم انتقلوا إلى الساحل الشرقي المحاذي لبحر، وكونوا هناك إمارات عربية كانت لها دوراً هاماً في نقل المؤثرات الإسلامية والحضارية في القارة الأفريقية قبل مجئ الحملات الأوربية الاستعمارية².

وقد استطاعت عمان في ظل اتحاد أهلها أن تقاوم الأتراك والفرس. وفي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي تلقب حاكم عمان بلقب إمام، وظل خلفاؤه يتوارثون هذا اللقب حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وقد أنشأ العمانيون ميناء مسقط على ريو عالية تشرف على الخليج العربي، وعن هذا الطريق أخذوا يشتركوا في التجارة الإسلامية في المحيط الهندي. وفي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عرف أهل عمان بمهارتهم في بناء السفن، التي استخدموها في تجارتهم، وسرعان ما أخذوا يستقرون في شرقي القارة الأفريقية ويشاركون في تنظيم شؤونها³.

1- عبدالرحمن زكي، المسلمون في العالم اليوم، ص 8.

2- أوليهر، رولاند وجون فيج: موحز ناريج أفريقيا، ترجمة دوت أحمد صادق، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة (القاهرة: 1965)، ص 109.

3- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص 29.

ثانياً: أثر الهجرات العربية على الحياة السياسية في شرق أفريقيا

لقد حرص العرب على توطيد سيطرتهم على مقاطعات الساحل الشرقي لأفريقيا¹، وأحدث العرب تنظيمات جديدة في المنطقة، وتمكنوا من إنشاء عدة ممالك عربية مستقلة على طول الساحل بفضل تدفع الهجرات العربية، خاصة من البحرين وعمان والاحساء واليمن وحضرموت، وكانت تلك الممالك أو المدن التي أسسوها تمتد من القرن الأفريقي إلى مدار الجدي، وهي المنطقة التي أطلق عليها جغرافيو العرب في العصور الوسطى اسم "برالزنج"².

ولاشك أن تلك المدن حققت نجاحاً وازدهاراً كبيرين، ولكنها من جهة أخرى افتقرت إلى التنظيمات العسكرية، ويرجع ذلك إلى أنها لم تقم نتيجة لفتح أو توسع حربي، وإنما قدم بها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون، وهؤلاء جميعاً كانت مصالحهم تقتضي أن تكون علاقتهم سلمية إلى حد كبير مع الأهالي الذين استقروا في أوطانهم، واستمر السواحليون يعترفون بالسيادة العربية حتى قدوم البرتغاليين الذين استغلوا فرصة التفكك في هذه الإمارات التي بدأت كل منها تعمل لتوسع على حساب جيرانها. وعندما وصل البرتغاليون إلى ساحل شرق أفريقيا دهشوا دهشة كبيرة لوجود حضارة مزدهرة مما جعل بعض الكتاب يصف تلك البيئة بأنها كانت أرقى من البيئة البرتغالية في سنة 1500م³.

إن القبائل العربية التي هاجرت إلى الحبشة قبل الإسلام كانت تسكن قبل هجرتها على الساحل اليمني أو قريباً منه من تلك القبائل: سحرت التي كانت تسكن عند رأس المضيق، ثم قبيلة حبشت وهي أشهرها وكانت تسكن على الساحل أيضاً. وقد أخذت في هجرتها الطريق البحري الذي يصل إلى خليج مصدع والهبضة فقد خرجوا منها ومروا بأكسوم وتكازة واحتلوا الجانب الشمالي من الحبشة، وقد أطلق اسم هذه القبيلة "حبشت" على

1- أسمر، أمين: إفريقيا والعرب، دار الحقائق (القاهرة، 1980)، ص 14.

2- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة (القاهرة، 1957) ص 127.

3- شهاب، حسر صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري (بيروت، 1981) ص 63 وكذلك سمبحة

محمد: دولة زنجبار الحديثة، ص 41.

جميع البلاد، بينما كان لسان هؤلاء هو لسان 'الجعز' أى لسان قبيلة 'الاجاعز' اليمنية القديمة⁽¹⁾. كانت العناصر السامية المهاجرة من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة أرقى العناصر جميعاً، وهم حملة الحضارة إلى الحبشة وهم الذين أسسوا الدولة الأكسومية الزاهرة بعد أن استقروا في الوطن الجديد وتأثروا بطابع البيئة الحبشية وتفاعلوا مع العناصر الأفريقية والحامية⁽²⁾.

وبعد وصول المهاجرين العرب إلى شرق أفريقيا بدأ الأهالي بالدخول في الإسلام، كما استطاع هؤلاء المهاجرون، تأسيس مجموعة من الوكالات التجارية في ساحل شرق أفريقيا مثل مقديشو وماليزي، وعمبة ومبا وزمبار وموزمبيق⁽³⁾. ونلاحظ أن المهاجرين العرب لم يلبثوا أن اندمجوا في السكان الأصليين، وتزوج الفريقان، ويمضي الوقت ظهر جنس تجلت فيه الكثير من الصفات والتقاليد العربية الإسلامية⁽⁴⁾.

لقد كان التأثير في الجوانب السياسية والإدارة واضحاً من خلال نظام الحكم، فمثلاً كان سلاطين كانم يتوارثون الحكم عن طريق الأمهات شأنهم في ذلك شأن كثير من المناطق الأفريقية الأخرى، ولكن بانتشار الإسلام وتعاليمه بينهم، أصبحوا يتوارثون الحكم عن آبائهم كما أخذوا في الاعتناء بأصلح الأبناء وليس أكرهم، كما أخذت الشورى طريقها إلى الحياة السياسية، حيث عرفوا مجلس الشورى الذي عرف بمجلس الأكابر، أو مجلس أرباب الدولة الذي يتكون من أربعة عشر عضواً، وكان يناقش أمور الدولة أثناء السلم والحرب⁽⁵⁾. وبعد ظهور الإسلام، تكونت الممالك الجديدة ذات السمات والخصائص الإسلامية، فحافظ الإسلام على مملكة ودولة من هذه الدول، التي أصبحت تكون علاقات مع جيرانها من

1- عابدين، عبد الحميد: بين الحبشة والعرب (القاهرة، 1947) ص 43.

2- عبد الحميد عابدين: المصدر السابق، ص 9.

3- المسعودي، مروح الذهب، 31/3

4- جوليان، شارل اندريه: تاريخ أفريقيا، ترجمة طلعت عوض أباطة (القاهرة، 1968)، ص 77

5- صادق، دولت: شرقي أفريقيا دراسة في جغرافية الإسلام، المؤتمر الجغرافي الأول (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص 65.

الممالك الأخرى ، علاقة قائمة على الود والاحترام ، حيث يجمعها قاسم مشترك هو الإسلام¹.

كما اتصل الأفارقة بالبلدان الإسلامية خارج أفريقيا وكونوا معها علاقات دبلوماسية ، وتأثروا بأنظمتها المختلفة حتى إن البعض من سلاطين الأفارقة ، طلبوا من الخلافة العباسية أن تقلدهم السلطنة ، لكي يستمدوا حقهم في ممارسة سلطتهم². وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على مدى تأثير هؤلاء الأفارقة وقناعتهم بالدين الجديد ، وتأثرهم به كما يدل على مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في الحياة السياسية والإدارية في هذه المناطق³.

لقد زودنا "القلقشدي" بمعلومات مختصرة عن الأنظمة السياسية حيث يقول في هذا الخصوص كان يوجد بها الوزراء والكتاب والقضاء والدواوين ، وهي أنظمة إسلامية عُرِفَتْ في مختلف البلاد الإسلامية الأخرى ، حيث كان السلطان يعتمد عليها في تسيير شؤون المملكة⁴. وهذه الوظائف الكسرى كانت موزعة بين كبار رعماء القبائل ، وليس لدينا إلا القليل عن النظام الذي كان سائداً في "كلوا" ، وكل الذي نعرفه ، هو أنه كان لها أمير ووزير ، وكان منصب الأمير وراثياً ، وهناك موظفون آخرون مثل القاضي والخطيب والمحاسب⁵.

لقد غير الإسلام بعد انتشاره بين القبائل الأفريقية المفاهيم والأسس والنظم التي كانت سائدة لديهم ، فقد حلت الأخوة في الإسلام محل العصبية القبلية ، وأصبح الأفريقي المعتنق للإسلام يرتبط بالمسلمين جميعاً بعد أن كان ارتباطه محدداً بأفراد عشيرته أو قبيلته ، وذلك

1- بولم ، دبس : الحضارات الأفريقية ، ترجمة علي شاهين (بيروت ، بدون تاريخ) ، ص 146.

2- نفيس ، بولم : المصدر السابق ، ص 147.

3- عطية الفيتوري : دراسات في شرق أفريقيا ، ص 283.

4- القلقشدي ، أبو العباس أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة ، بدون تاريخ) 298/5.

5- آرنولد : الدعوة الإسلامية ، ص 275.

عشياً مع ما نادى به الإسلام "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"¹ وساعد على ذلك ما خلقه الإسلام من ظروف تؤكد هذه الأخوة؛ فالمسلمون جميعاً يعبدون رباً واحداً ويتبعون تشريعاً واحداً، وقد أدى نظام الأخوة في الإسلام إلى إفساح المجال أمام اندماج القبائل والشعوب الأفريقية بعضها في بعض وعمل على تشكيل جماعه بشرية متجانسة²، وأخذت العصبية تضعف وتختفي وبالتالي استطاع الإسلام تحقيق التوافق ولاسجام بين أعداد كبيرة من الناس مختلفة الأعراض ولأنساب والمشارب³.

ثالثاً: أثر الهجرات العربية على الحياة الدينية في شرق أفريقيا

لقد أسس الإسلام في أفريقيا تيارات جديدة كان لها رد فعل شديد في طول لقارة وعرضها ذلك لأن الإسلام لم يكن عقيدة محسب بل هو قانون وعادات ومثل أخلاقية عليا، ووحدة سياسية وحضارة وبناء اجتماعي على أساس الكتاب الكريم وما جاء فيه من آيات وبنيات غرست فكرة الأمة في قلوب المسلمين السود في أفريقيا لتقارب بينهم، ولم يدخل الإسلام إلى شرق أفريقيا بحمد السيف بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر في إقبال الناس على اعتناقه. كما لعبت التجارة دوراً أساسياً في انتشاره إذ أن أكثر المسلمين احتكاكاً بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنيين هم التجار الذين جابروا المناطق المختلفة سعياً وراء التجارة ومصادر الرزق، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الإسلام أينما تغلغوا في أفريقيا وبعد دخول هذه الفئة إلى الإسلام الذي يحج في قلب غمط وسلوك معتقيه رأساً على عقب غير سلوكهم وطبائعهم ومعتقداتهم البالية وقواعد حياتهم والتي أصبحت تسير وفق المبادئ الإسلامية السمحاء، ووفق ما غلبه قواعد الدين الإسلامي ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، فكان التجار يمثلون فئة من هؤلاء الأفراد الذين غير

1- سورة الحجرات، من الآية 10.

2- الحداد، محمد أحمد مشهور: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية، دار الفتح (جدة، 1973)، ص 37.

3- زناتي، محمرد سلام: لإسلام وانتقاليد القليلة في أفريقية (القاهرة، 1992) ص 247.

الإسلام بهائياً من أقطاب حياتهم وسلوكهم¹.

تلقى أهالي شرق أفريقيا الإسلام على يد التجار العرب المسلمين، الذين كانوا يحرصون على أداء مناسك دينهم في موقيتها، ومن العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام إباحة الزواج لأكثر من واحدة، كذلك اختلاط العرب المسلمين بالأهالي واندماجهم في يسر وتسامح، وإيمان المسلمين الرافدين بأنهم مجاهدون في سبيل نشر الدعوة الإسلامية².

كل هذه العوامل جعلت الأفريقيون يسارعون إلى اعتناقه عن حب، ورضاء، وطواعية. ولم يُكره أحد منهم على الدخول فيه، لأن الإكراه ضد طبيعة هذا الدين³ والإسلام في شرق أفريقيا، لم يتغلغل في مجتمعات قائمة فعلاً، بل أنه خلق مجتمعاً جديداً، فلقد جلب الفوائد والقوانين، التي عدلت من حياة الأفريقيين، فبالرغم من أن حضارة شرق أفريقيا، قابلتها بعصر المعوقات، إلا أن صرحها قد نهض قائماً على أساس دعائم الإسلام الأصلية⁴.

في المراحل الأولى من دخول الإسلام لشرق أفريقيا، كان التركيز واضحاً، على وحدانية الله، والإله الواحد، وكان المذهب الشافعي هو المذهب السائد في شرق أفريقيا، حتى أصبح لأصغر المجموعات المكونة من ستة منازل مسجد⁵. ومن المعالم الدينية الإسلامية في شرق أفريقيا، تلك الحلقات الدراسية، التي تُلقى فيها المحاضرات، لتدريس اللغة العربية وتفسير لقرآن والفقه لعامة الناس. وأثر دخول الإسلام على التقويم المحلي الذي يمارسه الأهالي، فحياة سكان المدن أصبحت تقوم على التقويم الإسلامي القمري "السنة

1- أحمد العمري: الأفريقيون والعرب، ص 135.

2- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 4/709.

3- ترمجهام سبسر: الإسلام في شرق أفريقيا، ص 271.

4- آرنولد: الدعوة الإسلامية، ص 277.

5- المصدر نفسه، ص 278.

وقد كانت الدعوة الإسلامية تتخذ من المساجد مركزاً لها على الساحل الشرقي الأفريقي، حيث انتشرت المساجد التي بناها المسلمون الأوائل، ولا زال يوجد في مقديشيو في الصومال، بقايا مسجد بُني سنة 637هـ/1239م كما هو مكتوب على جدرانه، وفي زنجبار يوجد مسجد (كازي مكازي) الذي بُني سنة 500هـ/1106م، وكُتب عليه بالخط الكوفي، أسسه أبو عمر بن الحسن سنة 500هـ²، كما شيدت عدة مساجد، ومبان جميلة، وأهم خصائص تلك المباني استخدام العقد المحدّب، والحجر المنحوت، كما امتازت المساجد بالزخارف، والنقوش البديعة، واستخدام الأعمدة والقباب³. وانتشرت مع الإسلام بأفريقيا، أحكام الشريعة الإسلامية في مختلف الشؤون، فعرف الأفريقيون نظام الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية، والتنفيذية، وعرفوا الزكاة، وكانوا من قبل يأنهون من نظام الضرائب، واتبعوا بدقة قوانين الإسلام في الأحوال الشخصية؛ كالزواج والطلاق وقوانين الإسلام في المال، وأصبح الربا ممنوعاً، وأخذوا بنظام الميراث الإسلامي واتبعوا نظام الإسلام في الجنائز والموتى⁴.

وفي مجال حقوق المرأة طرأ تحسن كبير على أوضاع النساء بعد اعتناق الأفارقة الإسلام؛ فالمهر في التقاليد القبلية حق لأولياء المرأة، ليس للمرأة فيه نصيب، والإسلام يستتبع عاجلاً أم آجلاً إعطاء المرأة الحق فيما يدفع من مال بمناسبة زواجها. وليس للمرأة في التقاليد القبلية، كقاعدة عامة، حق في الميراث، لا سيما فيما يتعلق بمظاهر الثروة الرئيسية وهي الماشية في المجتمعات الرعوية والأرض في المجتمعات الزراعية. وأدى اعتناق الإسلام إلى الاعتراف بحقوق المرأة في الحصول على نصيب من التركة. وفي لتقاليد القبلية لا تقر في المجتمعات

1- المصدر نفسه، ص 278.

2- قاسم، عون الشريف: دراسات أفريقية، العدد السادس (بدون مكان، 1990) ص 43.

3- انظر: رحة ابن بطوطة، ص 57.

4- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص 45.

الأبوية للمرأة الحق في حضانة أولاده اللهم إلا بالنسبة للرضيع وحتى فطامه واعتناق الإسلام يؤدي إلى تحويل المرأة الحق في حضانة أولادها لفترة أطول¹ وهو ما طوق بين الأفارقة المسلمين

وكان أول تأثير للإسلام هو أن النظم القبلي التقليدي بدأ يتمكك تدريجياً وبدأ الإسلام يقضي على التكتلات القبلية العنصرية وأوقف التناحر القبلي بين القبائل التي دانت به لأنه أصبح رابطة أقوى من الرابطة القبلية؛ فالإسلام يقوي الشعور بالوحدة، ويؤلف بين القلوب من أفراد القبائل المختلفة، ثم أد الإسلام لا يُقيم وزناً لحواجر اللون والجنس والقبلية وهذه الرابطة الدينية ساعدت على توحيد قبائل ومجتمعات أفريقية في دول مستقرة². فأصبحت هذه القبائل والمجتمعات أمة واحدة، ويقام هذه الأمة ازداد النشاط والمعرفة وقلت المتفرقة والكراهية والسلب والنهب بين القبائل³. وكان الإسلام بالنسبة للوثنيين الإفريقيين خطوة نحو الحضارة لرقى، واعتبروه خطوة بناءة في سبيل تطور المجتمع الأفريقي في كثير من نواحيه، فقد تغيرت ملامح المجتمع الأفريقي بعد دخول الإسلام⁴.

كما أحدث الإسلام تطورات كبيرة في حياة وعادات وتقاليده الأفارقة فختلفت بتغلل الإسلام أقبح العادات الوثنية مثل: تقديم الفرائين البشرية وقضي أيضاً على السحر والشعوذة والخمر والمنكر وأنهى نظام سيادة المرأة وحل محله الرجل كرب الأسرة وزعيم العشيرة، تلك الشرور التي كانت منتشرة في شرق أفريقيا احتفت فجأة وإلى الأبد. والأهالي الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت عراة أو شبه عراة بدأوا يرتدون الملابس بل أخذوا يتأقنون في ملابسهم ويغتسلون لأن الشريعة الإسلامية تأمر باطهارة والنظافة⁵.

1- محمود زياتي: الإسلام والتقاليد القبلية، ص 258.

2- عودة، عبد الملك: العرب وأفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، 1984م) ص 12.

3- سبنسر ترمنجهام: الإسلام في شرق أفريقيا، ص 67.

4- عبد الملك عودة. المصدر السابق، ص 13.

5- الخشاب، وفيقي إبراهيم المشهداني، أفريقيا جنوب الصحراء (بغداد، 1978م). ص 22.

رابعاً : أثر الهجرات العربية على الحياة الثقافية والاجتماعية في شرق أفريقيا

لقد أدى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي إلى ازدياد وشائج لاتصال العربي - الأفريقي ؛ فقد أمد الإسلام العرب بسياح ديني وفكري ساعدهم في خلق وحدة وطنية واردها نهضة ثقافية. ومنذ البدء صار الإسلام الركيزة الأساسية للثقافة العربية الجديدة، كما أصبحت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وعاء الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية. ونحت راية الإسلام تمكن العرب في فترة وجيزة من نشر الإسلام في أجزاء كبيرة من القارة الأفريقية. وأدى هذا التطور والتقدم الكبير في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة ، ففوق دعائم التعامل التجاري والهجرات البشرية قام العرب بدور إيجابي في نشر العقيدة الإسلامية وبسط نفوذها السياسي في أفريقيا. وساعد انتشار الإسلام إلى رواج كثير من مظاهر الثقافة العربية كاللغة وتمثل النسب العربي. وعليه أعطى الإسلام هذه العلاقات بعداً عقائدياً وأعطاها اللغة لعربية محتوى لغوياً وثقافياً عظيماً¹.

وكان لمجتمع العربي الجاهلي يزخر ببعض المجموعات الأفريقية التي استقرت بين العرب وانصهرت في بوتقة القبائل العربية عن طريق الولاء والانتماء الكامل ، ولاشك أن بعض هذه المجموعات شقت طريقها إلى الجزيرة العربية لعوامل غير الرق والغزو. وقد تمثلت هذه المجموعات الأفريقية التي وفدت من الساحل الأفريقي ثقافته العربية تمثلاً كاملاً ولم يعد هناك ما يدل على أصولها الأولى سوى سواد بشرتها. وربما لم يكن عددها من الكثرة حتى تحدث تغييراً جذرياً في المجتمعات التي استقرت فيها. وبسبب هذه الاتصالات وجدت بعض الألفاظ والاصطلاحات الحبشية طريقها إلى اللغة العربية².

تحدث العرب بالحبشة بلغات ولهجات قريبة الشبه من اللغة العربية الحنوية ، لغة اليمن القديم وأقدم لغة عربية معروفة هناك هي لغة "الجعر" نسبة إلى قبيلة الأجاعز "أجعازين" وهم أقدم من هاجر إلى الحبشة من القبائل اليمنية. وكانت مواطنهم على الساحل بين صنعاء

(84) يوسف فصل حسن : الجذور التاريخية، ص 28- 29

(85) المصدر نفسه ، ص 28.

وعدن، ولهم نقوش تذكرهم في اليمن والحشة¹. واستخدم الساميون في أيامهم الأولى بالحشة اللغة والخط السبأتي وقد نقل هؤلاء إلى الحشة أسماء مواطنهم الأصلية وأطلقوها على مواطنهم الجديدة، فنجد أماكن مثل: أوام ومدرى وقلبي وطهر وسحرت وحوزين².

وقد تدفقت عن طريق مصر وعبر البحر لأحمر المؤثرات العربية الإسلامية في قوة إلى السودان وادي النيل وقد أدى دخول العرب في أعداد كبيرة إلى نيجتين مهمتين - أولاً: غلبة الثقافة العربية واللسان العربي على أجزاء كبيرة من البلاد، وثانياً: انتشار الإسلام بين الوطنيين الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية وبعض المعتقدات الأفريقية. وكانت عملية التحول في الحالتين بطيئة بغلب عليها الطابع السلمي. وقد صار الإسلام عامل ربط اجتماعي مهم بين شعوب السودان وادي النيل ذات الخذور العرقية المتباينة والثقافات المتنوعة واللغات المتعددة. وقد أدى تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الموروثات لوطنية إلى بروز مراكز قوى جديدة اقترنت بقيام دولة إسلامية، كالعبدلاب والضونج والفور وتقلي. وقيام هذه السلطنات الإسلامية خير دليل على غلبة الثقافة الإسلامية على هذه المنطقة؛ وبعد العرب قام جيل من المولدين من النوبة المستعربين وبعض أفراد المجموعه لحعلية دت الأصول العربية، بشر الإسلام في المناطق التي لم تبلغها الدعوة بعد³.

والثقافة العربية في شرق أفريقيا تأثرت بموقع المدن الإسلامية وطبيعة الحياة فيها، فالمدن التي قامت على الشاطئ الشرقي لأفريقيا كانت على صلة وثيقة بالعالم الإسلامي كله، هذا الاتصال المستمر ترك أثره في الحياة الثقافية في البلاد، فقد نرحت إليها جميع الفرق والمذاهب التي عرفتها الحياة الإسلامية مثل الزيدية، كما أن علماء وفقهاء اليمن أكثر المسلمين وفوداً إلى هذه الجهات، فطبعوا الحياة بطابعهم وأثروا في الحركة الثقافية تأثيراً واضحاً⁴.

1- الأحمر، محمد مصباح: أفريقيا والعرب (طرابلس، 1999) ص 42.

2- محمد الأحمر: المصدر السابق، ص 42.

3- يوسف فضل حسن: الجذور التاريخية، ص 37.

4- محمود الحداد: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا، ص 125.

وقد غلب الطابع الديني على الثقافة الإسلامية في هذه البلاد حيث أن مدن شرق أفريقيا لها جوامعها ومساجدها التي تقام فيها الخطب والجمع وعند أهلها محافظة على الدين فالحركة التعليمية كانت مصحوبة بطابع تعليمي واضح¹. وقد ترتب على انتشار الإسلام في شرق أفريقيا نتائج عميقة في المجتمعات التي انتشر فيها في سلوك الناس ومعاملاتهم وفي ثقافتهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض. وقامت في هذه المناطق التي استوطنها المسلمون وحدات سياسية، وحكومات لها أنظمتها وحاولت هذه الحكومات أن تطبق مبادئ الشريعة الإسلامية².

وأصبحت هذه الإمارات العربية - مزيجاً يجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية أصلية وبين أشياء عربية إسلامية، وحتى اللغة السائدة أصبحت لغة أفريقية عربية وهي اللغة السواحلية وانتشرت هذه اللغة على طول الساحل الشرقي للقارة الأفريقية، وقد كانت هذه اللغة غنية بالأدب والشعر لتأثرها بالعربية³، كما أن الأفعال الأفريقية، وكانت غنية بالأدب والشعر لتأثرها بالعربية⁴، كما أن الأفعال فيها مستمدة من اللغة العربية، ثم إن طريقة كتابتها، من اليمين إلى الشمال، كاللغة العربية، فضلاً عن حروف هجائها، والكثير من الألفاظ العربية فيها.

ولعل من أهم نتائج التواصل العربي - الأفريقي لبضعة قرون نشأة الثقافة السواحلية. وقد ظهرت هذه الثقافة حوالي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وتركزت في منطقة شرق أفريقيا وبعض جزر المحيط المجاورة، واتسعت دائرة اللغة السواحلية في العهد الاستعماري فشملت أجزاء من وسط أفريقيا. وفي عام 1960 اعتمدتها جمهورية تنزانيا

1- محمود الخداد: المصدر السابق، ص 126.

2- الجمل، شوقي وعبدالله عبدالرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة (القاهرة، 1966) ص 6

3- ذياب، أحمد إبراهيم: لمحات من تاريخ أفريقيا الحديث، دار المريخ (الرياض، 1981م) ص 73.

4- الجمل، شوقي وعبدالله عبدالرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة (القاهرة، 1966) ص 8

المتحدة لغة قومية ونشأت الثقافة السواحلية من تلاقح مؤثرات أفريقية وعربية وفارسية في جو إسلامي. والسواحلي هو هجين عربي - أفريقي، ويقدر بعض الباحثين أن السواحلية لغة أفريقية تركيباً، ولكنها اقتبست كثيراً من الكلمات الأجنبية وجلّ هذه من اللغة العربية. وقد كبت السواحلية أصلاً بالحرف العربي مثل كثير من اللغات الأفريقية ذات المنبت المماثل، ولكن بعد وقوع شرق أفريقيا فريسة للهجمة الاستعمارية استبدل الحرف العربي بالحرف اللاتيني مما باعد بينها وبين جذورها العربية. كما أن بعض الكتاب الأفارقة يتعمدون تجاهل الكلمات ذات الأصول العربية ويستبدلون بها بأخرى من أصل إنجليزي. ويأتي هذا الصنيع في إطار محاولتهم لتقليل الأثر العربي في الثقافة السواحلية بصفة عامة وفي نعتها بصفة خاصة¹. وهكذا تطورت العلاقات العربية بشرق أفريقيا وانتشر الإسلام، واللغة العربية بين السكان ولعب العرب دوراً كبيراً في تحفيظ القرآن وشرح تعاليم الشريعة الإسلامية للأهالي².

وكان من نتيجة انتشار الإسلام في المنطقة أن انتقلت إلى المنطقة مظاهر الحضارة العربية الإسلامية فأهتم السكان في المنطقة - على اختلاف عناصرهم - بالعلوم الدينية واللغة العربية، كما تجلت الحضارة العربية في شرق أفريقيا في المباني المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والشبابيك، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت والفسيفساء المتحدة مع الرخام الملون وظهر ذلك بوضوح في قصور "كلوة" ومساجدها³.

ومما يدل على عراقية الصلة بين شبه الجزيرة العربية وأفريقيا شدة التشابه العرقي واللغوي والثقافي بين الشعوب الناطقة باللغات الحامية أو الكوشية، والشعوب الناطقة باللغات السامية (كالعرب والأمهرة والتقري). وهذا التشابه جعل بعض الباحثين يرجحون أن هاتين المجموعتين قد عاشتا في موضع واحد وربما تنتميان مع أصولهما البعيدة إلى شعب

1- يونس فضل حسن: الجذور التاريخية، ص 33.

2- أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 396.

3- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 185/1

واحد. وتنتشر المجموعة الناطقة باللغات الحامية على السواحل الشرقية والشمالية لأفريقيا، وتتكون من الصومال والقالا والعفار وبعض الارتيرين والبجة والنوبيين وقدماء المصريين والبربر، ويشمل بعض هذه اللغات قدراً طيباً من الكلمات العربية. وتؤكد هذه الصلات العرقية واللغوية أنى كانت درجتها بين سكان جزيرة العرب وسواحل أفريقيا الشرقية أن تبادل التأثير الثقافي بين المجموعتين ذو جذور عميقة⁽¹⁾.

كما كان للعرب والإسلام تأثير واضح على الحياة الاجتماعية لسكان الساحل الشرقي لإفريقيا فقد اختلطت القبائل العربية بقبائل البانتوانجية، وكان نتيجة هذا الاختلاط ظهور شعب الصومال الذي جاءت ملامحه قريبة جداً من الملامح والتقاطع العربية⁽²⁾.

كما كان لنحول غالبية السكان في شرق أفريقيا إلى الإسلام أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية والثقافية، ولكن يبدو أن هذا التغيير والتأثير لم يكن سهلاً ولم يحدث سريعاً كتنشأ الدين ذاته وذلك يعود إلى الرواسب والتقاليد والأعراف الاجتماعية الموروثة حياً بعد جيل⁽³⁾.

ولا شك في أن هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا واستقرارهم على أرض القارة بأعداد كبيرة وما تبع ذلك من اندماجهم في السكان الأصليين وتزاوجهم معهم ترتب عليه نتائج مهمة وعميقة مثل: وجود جنس تبادليه كثير من الصفات والعادات والتقاليد العربية، وبذلك أصبحت الإمارات التي كونها العرب بشرق أفريقيا مروجاً يجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية وأشياء إسلامية⁽⁴⁾. وأشار "ابن بطوطة" الذي زار مقديشو وذكر أن أهلها يحترقون الدين والحجاج حيث قال أنه عندما أتى من الحج إلى مقديشو استقبل بحفاوة بالغة من قبل سلطانها كما أشار ابن بطوطة إلى أن المسلمين في هذه المناطق لم ينسوا تقاليدهم العربية وما

1- بونس فضل حسن: الحذور التاريخية، ص 27- 28

2- محمود زناتي: الإسلام والتقاليد القبلية، 27.

3- رولة، فليب. الجغرافية السياسية الأفريقية، مكتبة الوعي العربي (القاهرة، 196م) ص 174

4- شاكر، محمود: تازاب، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971)، ص 7

اعتادوا عليه من إكرام الضيف⁽¹⁾.

ومن الشمال الأفريقي توغلت المؤثرات الإسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان، حيث نشأت السلطنات السودانية الإسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية. وفيها تفاعلت الثقافة العربية الإسلامية مع المؤثرات الأفريقية ونتيجة لهذه الجهود اتسعت رقعة الإسلام حتى شملت معظم الجزء الشمالي من القارة، كما غلبت على بعض الجيوب في السواحل الشرقية من الجزء الجنوبي. وكان لهؤلاء المسلمين دور بناء في تاريخ المنطقة، كما صاروا يشكلون مركز ثقل ساسي مهم فيها. وقد ظلوا على صلة وثيقة بالوطن العربي: في المشرق وشمال أفريقيا وذلك بفضل العلاقات الدينية والصلوات الثقافية والبعثات التعليمية والتعامل التجاري الواسع في الماضي وما جدَّ من تعاون سياسي واقتصادي في الوقت الحاضر⁽²⁾.

وبعد انتشار الإسلام بين الأفارقة على أثر توسع العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية بينهم وبين المسلمين، أتاحت للأفارقة فرصة الإفادة من الأدباء والفنانين والعلماء والصناع المسلمين، وقد ظهرت بين الأوساط الأفريقية مبادئ جديدة في العلاقات الاجتماعية: كالحذ من الرِّق وتعدد الزوجات، وقضى على فوضى اقتناء النساء، خاصة عند رؤساء العشائر، وجعل العدل سنهن فيما يتعلق بالأموال التي يخصصها لهن الزوج أو الهدايا أو الأيَّام التي يقضيها في بيت كل واحدة منهن أساساً للتعدد⁽³⁾، وذلك امتثالاً لقوله تعالى: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَمَىٰ فَاتَّخِذُوا مِاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا مَشَىٰ وَتِلْكَ وَرِثَاغٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَقُولُوا"⁽⁴⁾. لقد أثر الإسلام في الحياة الاجتماعية والعامة والخاصة حيث اختفت حدة التنحر والصراع بين القبائل

1- ينظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 253.

2- يونس فصل حسن: انتشار الإسلام في أفريقيا (الخرطوم، 1979) ص 2- 5

3- أمين أسير: أفريقيا والعرب، ص 20.

4- سورة النساء، الآية 3.

والعشائر، وأصبحت العلاقات متأثرة بالحضارة الإسلامية ونظمها، ولقد كنت الحضارة الإسلامية من أهم العوامل التي أسهمت في حل معظم المشكلات التي واجهت الإمارات الأفريقية⁽¹⁾.

ويقول توماس آرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية في أثناء حديثه عن انتشار الإسلام وثقافته وأثره على سلوك الأفارقة الاجتماعي فيقول: "إن الدين اعتنقوا الإسلام، يختلفون اختلافاً واضحاً عن العوائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها تجارة الخمر وشربها، فأولئك الذين اعتنقوا الإسلام يمثلون حضارة أرقى، فاحتفت من بينهم الوحشية، وزالت العادات السيئة، بسبب تعاليم الإسلام، وأصبحت النظافة عندهم عادة على حين دل مطهرهم الخارجي على وقر زائد وأدب جم"⁽²⁾.

وعلى أثر تزواج المسلمين الوافدين مع السكان المحليين برر مجتمع سوداني إسلامي، جديد، تمتزج فيه الثقافة الإسلامية والأفريقية العربية⁽³⁾، ومن آثار العرب في المنطقة أن السكان أصبحوا يرتدون زي العرب وهكذا نجح العرب في توطيد علاقاتهم بأفريقيا في العصور الوسطى سواء في الشرق أم في الغرب أم في الوسط مع توطيد العلاقات الاقتصادية والثقافية انتقلت الأفكار العربية والحضارة العربية إلى أشعوب الأفريقية⁽⁴⁾ وهكذا يتضح لنا جلياً الأثر العظيم الذي أحدثته الهجرات العربية في الحياة الثقافية والاجتماعية في شرق أفريقيا.

خامساً: أثر الهجرات العربية على الحياة الاقتصادية في شرق أفريقيا

من الأسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم، أنهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب الحرية العربية، فكان طبيعياً أن يتسللوا إلى شرق

1- عطية العيتوري: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص 104.

2 آرنولد: الدعوة الإسلامية، ص 973

3- بشير، محمد عمر: العلاقات العربية الأفريقية (الخرطوم، 1984) ص 31

4- محمود رناتي: لإسلام والتقاليد لقسية في أفريقيا، ص 40.

أفريقيا في مجموعات صغيرة، انتشرت في بادئ الأمر في بعض الجزر الساحلية، مثل زنجبار وفي المراكز الساحلية مثل كلوة وعميسة ودار السلام، واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغها وديانتها، وأن تندمج مع السكان الأصليين. وهكذا أصبحت السفن العربية تحمل بين حين وآخر، بعض الذين طاب لهم الاستقرار بالساحل الأفريقية للتجارة، وليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم في الجزيرة العربية، وسكان السواحل الأفريقية والجهات الداخلية فيها. وبمضي الزمن، زاد عدد الوافدين للاستقرار، وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه، وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب إمارات عربية في هذه السواحل الأفريقية، لها اتصالات بالتجار في هذه القارة وقد كان الغرض التجاري هو الغالب على هذه الجماعات العربية المهاجرة للسواحل الأفريقية، فلم تكن الفكرة فكرة استعمارية، أي استغلال الأرض ثم الانتشار منها للداخل، ولهذا كان الاستقرار على الساحل فحسب، وفي نطف مختارة تخدم هذا الدافع التجاري⁽¹⁾.

وأدت الهجرات العربية الإسلامية، إلى ساحل الشرقي لأفريقيا، إلى تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، ففي المجال الاقتصادي قام العرب بنقل حاصلات المنطقة من أعاج والذهب وريش النعام والعسل والجلود والموز واللؤلؤ والصمغ، إلى البلدان المطلة على المحيط الهندي، كما ظهرت هذه السلع في الأسواق العربية في الشام والعراق، وفي القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي كانت بيوت سيراف على الساحل الشرقي للخليج العربي تنس من أحشاب زنجبار⁽²⁾.

وفاق العرب هذا الشعب الأفريقي في التجارة، لأنهم أحسن منهم نظاماً وأكثر مالاً، فبينما اقتصر الأفارقة على تجارة المسوحات وعقود الخرز، استطاع عرب السواحل أن يحملوا تجارة الأسلحة النارية، والذخائر التي اقبل عليها الحكام الأفارقة بشغف شديد. وقد أسس العرب، إلى حد ما، نظاماً سياسياً في الداخل، فكانت هناك بعض النقطة الرئيسية

1- شوقي الجس - تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص 38.

2- شاكر، محمود: نجيديا. مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1971) ص 12

القليلة ، مثل نابورا في إقليم أبي موزي وأوجيجي على بحيرة تنجانيقا ، مخازن تجارية منظمة ، حيث كان للعرب حقوق تشبه الامتيازات الأجنبية ، وكانت هناك حالات معينة استطاع فيها العرب أن يقهروا الحكام المحليين ، ويسنولوا على السلطة مثل تنجانيقا وأنياموير أيضاً⁽¹⁾ . غير أن هذه الأحوال كانت أحوالاً شاذة ، إذ كان العرب - عامة - يحرصون على ما يريدون من رقيق وعاج عن صريق التجارة ، وليس عن طريق القوة وكانوا يسلحون الحكام الوطنيين وهؤلاء يقومون ببقية المهمة ، وكانت النتيجة أن أصبح القوي أكثر قوة على حساب الضعيف الذي ازداد ضعفاً ، ففي جنوب تنجانيقا كان رعماء باو الأقوياء يبعون رقيقهم للتجار العرب بأسعار مغرية ، ويأخذون في مقابل ذلك أسلحة لمسكراتهم ، وملابس لجنودهم ورجال بلاطهم⁽²⁾ .

وعلى هذا الأسس يمكن أن نفهم مسألة استقرار العرب في شرق أفريقية ، وأن ازدهار التجارة العربية قد ازداد بعد ظهور الإسلام في شرق أفريقيا ازدياداً عظيماً ، وتأسست في نحو القرن العاشر الميلادي (مقديشيو ويراوا) . وفي سنة 975م جاء لفرس من شيراز ، وأسسوا (كلوه) وتوعلوا في معظم السواحل إلى روديسيا طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقي ، ووصلوا إلى مقديشيو - ويراوا - ويمبا - وماليندي - وتونغوني - وزنجبار - ومافيا - وغيرها ، وقد وجدت إمارات فارسية صغيرة بين الإمارات العربية⁽³⁾ .

وتروي آثار المنطقة أنه في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، حتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس ، كان يخيم على ساحل شرق أفريقية هدوء وسلام شاملان⁽⁴⁾ . ووجدوا في المدينة الإسلامية مؤسسة ، ولم يقصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك ، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم وغرسوا عدداً لا يحصى من أشجار

1- أحمد العمري ، الأفريقيون والعرب ، ص 113 .

2- حسين ، أحمد الياس - سلع الحجارة الصحراوية ، تحرير عماد الدين غام (طرابلس ، 1979) 225 .

3- شوقي الجمل : دور العرب الحضاري في أفريقيا (القاهرة ، 1987) ، ص 135 .

4- أوليهر ، رولاند وكون فيج : موجز تاريخ أفريقيا ، ص 110 .

جزيرة العرب وفارس، منها الرمان وقصب السكر، وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندي والبهارات الهندية والأرز، وأتوا بكثير من حيوانات بلدانهم، ولقد كانت كلوه في تنجانيقا، وغيبه في كينيا أكبر مدن شرقي أفريقيا القديمة الآهلة بالسكان. الأكثر ازدهاراً وازدحاماً بالعرب وقيمت المدنية العربية الإسلامية قروناً طويلة محصورة في شواطئ السواحل، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الأمازيغ من أهل عمان إلى الداخل⁽¹⁾. وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي كانت معظم تجارة المحيط الهندي تمر عبر الأراضي الإسلامية، وكانت لاستفادة منها تتطلب تعاوناً جديداً. ففي هذه الفترة ظهر الأثر الديني واضحاً، فانعكس على المساجد والمقابر الإسلامية على طول الساحل ورمي بدأت اللغة والحضارة السواحلية تتخذ طابعها، وتنتشر بين مسلمي البانتو على السهل الساحلي⁽²⁾.

وتشير الوثائق التاريخية إلى وجود اتصالات بين الحضارة الإسلامية على الساحل الشرقي، والداخل الإفريقي الشرقي، ففي بيئة البنتوتعيش العناصر الصومالية السواحلية التي عملت في التجارة بعد دخولها الإسلام، فتبادلت التجارة برأ مع الحالا الوثنيين في جنوب مملكة الحبشة، كما حدث اتصال بحري مع جماعات جنوب كلوه، واتصالاً برأ آخر، في مناطق الذهب على الساحل وفي روديسيا، ومناجم النحاس في كاتنجا⁽³⁾. وفي هذه الفترة كان الاحتلال البرتغالي قد سيطر على ساحل زنجبار، ولم تكن لهذا الاحتلال آثار عميقة في الساحل، وقد انعدمت تماماً في الداخل، إذ كانت أهداف البرتغاليين السيطرة على التجارة البحرية، وأخذها من أيدي التجار العرب، ولم يجعلهم هذا الهدف، في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، يذهبون إلى الهند الشرقية فقط، بل إلى الساحل الشرقي لأفريقية، وإلى مفتح البحر الأحمر والخليج العربي، فشيدوا عدها قواعدهم في صوفالا وكلوه وسومطرة وهرمز⁽⁴⁾.

1- محمد الحداد: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية، ص 13

2- لويد، ب.س: أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي (الكويت، 1980)، ص 27.

3- ويرنر، دونالد. تاريخ أفريقيا - ترجمة راشد الراوي (بيروت، بدون تاريخ)، ص 77.

4- شارل جوليان: تاريخ أفريقيا، ص 48

اعتمدت إمارات الطرز الإسلامي⁽¹⁾ السبعة (ممالك الريلع)، فيما يتعلق بالدخية الاقتصادية، على التجارة عصباً مهماً في اقتصادها، ولعبت دور الوسيط التجاري بين الأحباش في الداخل، ومنطقة الساحل، وهياأت بذلك لربط التجارة الحبشية بالتجارة الدولية. عن طريق العرب الذين أصبحوا يسيطرون عليها بعد اتساع الدولة الإسلامية، وسيطرتها على منافذ البحر الأحمر والبحر المتوسط⁽²⁾. كذلك ازدهرت مدينة ريلع وبربرة؛ لوقوعهما في منطقة تمتاز بقربها الشديد إلى الجزيرة العربية، وأصبحت محطة للفن تحمل الضائع إلى الساحل، ومنها إلى دواخل الحبشة، كذلك قامت مصوع بالدور التجاري المهم نفسه؛ لقربها من هضبة احشة⁽³⁾ التي أصبحت لها الظهير الذي يموئها بالسلع التجارية، وما تحتاج إليه من مورد غذائي لأجل القاطنين بها⁽⁴⁾.

وقد امتازت العلاقات العربية بأنها كانت علاقات سليمة، بنيت على أساس المصالح التجارية، فكان التجار العرب يتوغلون في داخل القارة بهدف التجارة، ونشر الدين الإسلامي، فوصلهم إلى الأقسام الجنوبية، إلى الحبشة والأقسام لغربية من الصومال، لم يكن بوساطة الفتح أو الغزو، بل كان عن طريق التجارة، حيث أخذ التجار العرب يقدمون إلى هذه البلاد، ويدخلون الكثير من سكان هذه المناطق في الدين الإسلامي⁽⁵⁾.

وبعد أن هاجر العرب المسلمون إلى منطقة شرق أفريقيا، وحدوا التربة الخصبة الغنية

1- إمارات الطراز الإسلامي السبعة هي: أوفات ودوار وأرابيي وهدبا وشرحا وبالي ودارة. وقد سميت بذلك نتيجة لموقعها من لحر، لأنها على جاسه كالطراز له، ينظر القلفشدي: صبح الأعشى،

324/5

2- الطاشي، خديجة أحمد، العلاقات السياسية بين اقوى الإسلامة و لمسيحية في الحبشة خلال النصف الأول من اقرء السادس عشر المبلادي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين (طرابلس، 1996)، ص73

3- بيرير، رونالد: تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد الراوي، (دار الوعي العربي، بدون تاريخ)، ص20.

4- رياض، زاهر: الإسلام في الحبشة (القاهرة، 1964) ص15.

5- ديس بولم: الحضارات الأفريقية، ص98

والمياه العذبة التي يندر وجودها في موطنهم الأصلي، فشجعهم ذلك على الاهتمام بالزراعة إلى جانب اهتمامهم بالتجارة، فقاموا بزرع مساحات واسعة من الأرض بمختلف المروغات، التي كان جزء من إنتاجها يصدر إلى شبه الجزيرة العربية، لاسيما في المواسم التي تجذب فيها أرضها⁽¹⁾. ونتيجة لاشتغال العرب المسلمين بالزراعة في شرق أفريقيا، فقد أحدثوا تطوراً كبيراً في أساليب الزراعة وأنواع المزروعات، وأدخلوا أساليب وأنماطاً زراعية جديدة لم تكن معروفة من قبل. فالزراعة التي كان يمارسها سكان الساحل من الأفارقة، قبل وصول العرب واستقرارهم هناك، كانت من النوع البسيط البدائي الذي تُستخدم فيه الفؤوس أو العصي المذبة، فطور العرب ذلك واستخدموا المحراث⁽²⁾.

وقد كوّن العرب علاقات تجارية عن طريق تبادل السلع، واحتكوا بالسكا، مما ساعد على انتقال الأفكار العربية إلى سكان هذه المناطق، فخرجت المجموعات في تلك المناطق من أفقها الضيق المحدود، وكان من آثار هذا الاتصال ظهور أساليب زراعية، لم تكن معروفة في هذه المناطق من قبل، فقد جلب العرب إلى هذه المنطقة أشجار بعض الفواكه، وزرعوا النخيل، وأدخلوا زراعة الذرة والبقول في الأرض الواقعة حول مجاري الأنهار، كما أدخلوا البقول والأرز⁽³⁾. كذلك أدخل العرب، إلى منطقة زنجبار، زراعة البرتقال والليمون والقطن والقرنفل⁽⁴⁾.

وكان نظام العمل في أفريقيا قبل الإسلام بدائياً قائماً على تربية المواشي، وأحياناً على حرفة الصيد، ولكن بعد انتشار الإسلام عرف الأفارقة قيمة العمل، ويتضح ذلك في أن الصناعة في أفريقيا، تطورت بمجيء الإسلام إليها، حيث قامت مصانع يدوية للنسيج متعددة الألوان والأنواع، وباردهار. لصناعته ازدهرت التجارة، وهذا ما دونه لنا (حسن

1- وفيق الخشاب، إبراهيم المشهداني: أفريقيا جنوب الصحراء، ص 19.

2- إبراهيم، محمد عبدالفتاح: أفريقيا من نهر السنغال إلى نهر جوبا مكتبة الأجلو المصرية (القاهرة، 1961) ص 15

3- محمود شاكر: نيجيريا، ص 13- 14.

4- دنيس بولم: الحضارات الأفريقية، ص 100

الوزان) عندما رار الممالك الإسلامية، حيث تبين لنا من حديثه عن هذه الممالك وعن اقتصادها، أن أهلها كانوا تجاراً أو صنّاعاً ماهرين⁽¹⁾.

ولم يكتف العرب المسلمون بالعمل في المجال التجاري المتمثل في نقل السلع، والمنتجات الأفريقية إلى البلدان التي تحتاجها، وإنما مارسوا مهنة التعدين والتنقيب عن المعادن الموحودة في المنطقة، واستخراجها وتصنيعها، حيث استعملوا مناجم الذهب والفضة والنحاس والحديد في عدة أماكن في منطقة الساحل الشرقي لأفريقيا، كمناجم الذهب في سفالة، ومناجم الزمرد في بلاد السودان، لاسيما في منطقة العلاقي، وقد كانت كميات كبيرة من الذهب ترد إلى الدولة الإسلامية من منطقة سفاله، حتى أطلق عليها اسم (سفالة الذهب)⁽²⁾.

ومن الحرف التي ظهرت في شرق أفريقيا، بعد استقرار المسلمين بها، حرفة الحدادة، حيث قام المسلمون بصهر الحديد الذي يوجد في المنطقة بكميات كبيرة، واستغلاله في صنع بعض أنواع الأسلحة، كالسيوف والخناجر وغيرها⁽³⁾. كذلك برعوا في الحفر على الخشب وزحرفته، حيث كنوا يحفرون الأبواب الخشبية، بتجميل المنازل والمساحد، ومزالت تلك الأبواب تشاهد في زنجبار حتى وقتنا الحاضر⁽⁴⁾.

واهتم العرب في شرق أفريقيا بالثروة الحيوانية اهتماماً كبيراً، حيث قاموا بتربية الإبل والحيول والماشية، والأغنام، واعتنوا بتربيتها عناية فائقة، فقد ذكر (ابن بطوطة) عند زيارته لزيلع ومقديشيوآن في هاتين المدينتين حيوانات كثيرة، ففي زيلع أعمام مشهورة بالسمن، وفي مقديشيوجمال كثيرة، ينحرون منها المئات في كل يوم وبلغ من اهتمام المسلمين في شرق

1- الوزان، حسن: وصف أفريقيا، ترجمة محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، 1983، 186/1

2- بكار، عبدالرحمن صالح: انتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا، رسالة ماجستير توفقت بتاريخ 2001/12/31 بكلية الآداب، جامعة قاروبوس، ص 182.

3- محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص 207

4- سبنسر ترمسجهام: الإسلام في شرق أفريقيا، ص 12

أفريقيا بالثروة الحيوانية ونميتها، أن أصبحت الخيول والجلود ومنتجات الألبان من أهم صادرات المنطقة. وأدخل العرب إلى شرق أفريقيا طرقاً هندسية متطورة جداً للمباني، وذلك باستعمال الأسمنت والجير، واستعمال الأحجار في البناء، فحل الطرار الإسلامي، في بناء المنازل والقصور والمساجد، محل الأكواخ الأفريقية ذات الأسقف المخروطية التي كانت تنى بجذوع الأشجار العربية إلى شرق أفريقيا، في تطور وتقدم الحياة السياسية والدينية والاجتماعية وثقافية واقتصادية؛ فقد جاء العرب المسلمون بحضارة جديدة، أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً متميزاً، مازال واضحاً حتى اليوم، حيث جعل الإسلام من المجموعات والقبائل الوثنية المنعزلة والمتفرقة شعوباً متحضرة ذات أفق واسع، ورفع من مستوى حياتها لاجتماعي والثقافي، وخلع الإسلام على أتباعه الأفارقة الكرامة والعزة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- 1- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبدالله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط، 1973).
- 2- ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، 1980 ف).
- 3- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد، رحلة ابن بطوطة، تحقيق: أحمد العوامري (القاهرة، 1934 ف).
- 4- ابن جبير، محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير (بيروت، 1981 ف).
- 5- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن عبدالله، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة (بيروت، بدون تاريخ).
- 6- ابن كثير، عماد الدين أبو العلاء، البداية والنهاية، دار النداء العربي (القاهرة، 1991 ف).
- 7- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد، برهة المشتاق في اخراق الآفاق، بشرة دوري ودي غويه (ليدن، 1966 ف).
- 8- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحلي بن العماد شذرات الذهب في أخبار من ذهب (القاهرة، 1350 هـ).
- 9- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار المعرك (القاهرة، 1965 ف).
- 10- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، بدون تاريخ).
- 11- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، 1- أخبار الزمان ومن إبداه الحدان وعجائب البلدان والتماس بالماء والعمارة (بيروت، 1966)؛ 2- التنبيه والإشراف (بدون مكان، 1938 ف).
- 12- الوراد حسن بن محمد، وصف أفريقيا، ترجمة: محمد صبحي ومحمد الأخضر، (بيروت، بدون تاريخ).

ثانياً: المراجع

- 13- إبراهيم، محمد عبدالفتاح أفريقية من نهر السغال إلى نهر حوبا، مكتبة الأهلوا المصرية (القاهرة، 1961 ف).
- 14- أنوبكر، علي الشيخ أحمد الدعوة الإسلامية المعاصرة في القرن الأفريقي (الرياض، بدون تاريخ).
- 15- الأحمر، محمد مصباح، أفريقيا والعرب (طرابلس، 1999 ف).
- 16- أسبر، أمين أفريقيا والعرب، دار الحقائق (القاهرة، 1980 ف).
- 17- أوليفر، رولاند وحوو فيج موحز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت أحمد صادق، الدار المصرية لتأليف والشر والترجمة (للقاهرة، 1965 ف).

- 18- بشير، محمد عمر. العلاقات العربية الأفريقية (الخرطوم، 1984 ف).
- 19- بكر، عبدالرحمن صالح. انتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا، رسالة ماجستير بوفشت بتاريخ 2001/12/31 ف بكلية الآداب بجامعة فاروس.
- 20- بولم، ديس. الحصارات الأفريقية، ترجمة. عبي شاهين (بيروت، د.ت).
- 21- بيريز، رونالد. تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد ابواوي (دار الوعي العربي، د.ت).
- 22- ترمحهم، سنسر الإسلام في شرق أفريقيا ترجمة: محمد عاطف الواوي (القاهرة، 1973 ف).
- 23- الجمل، شوقي. 1- تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، 1971 ف)؛ 2- دور لعرب الحضاري في أفريقيا (القاهرة، 1987 ف).
- 24- الحمل، شوقي وعبدالله عبدالرزاق إبراهيم. تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة (القاهرة، 1966 ف).
- 25- حوليان، شارل أندريه تاريخ أفريقيا، ترجمة طلعت عوض أباطة، مراجعة عبدالمعص ماجد، دار المعارف (القاهرة، 1968 ف).
- 26- الحداد، محمد أحمد مشهور. حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية، دار الفتح (جدة، 1973 ف).
- 27- حسن، حسن إبراهيم 1- انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1963 ف)؛ 2- انتشار الإسلام والعروبة في الصحراء الكبرى (القاهرة، 1957 ف).
- 28- حس، يوسف فضل 1- انتشار الإسلام في أفريقيا (الخرطوم، 1979 ف)؛ 2- الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مركز الدراسات العربية (بيروت، 1984 ف).
- 29- حسين، أحمد إلياس. سجع التجارة الصحراوية، تحرير عماد الدين غانم. منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1979 ف).
- 30- الخشاب، رفيق وإبراهيم المشهداني. أفريقيا حوض الصحراء، وزارة التعليم والبحث العلمي بالجمهورية العراقية (بغداد، 1978 ف).
- 31- ذياب، أحمد إبراهيم. لمحات من تاريخ أفريقيا الحديث، دار المريخ (الرياض، 1981 ف).
- 32- رفلة، فيليب الجغرافية السياسية الأفريقية، مكتبة الوعي العربي (القاهرة، 1965 ف).
- 33- ركي، عبدالرحمن. لمسمون في العالم اليوم (أفريقية الإسلامية) مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1958 ف).
- 34- شاكر، محمود. 1- تنزانيا، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971 ف)؛ 2- نيجيريا، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971 ف).

- 35- شلبي، أحمد. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقيا منذ دخلها الإسلام حتى الآن، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1983ف).
- 36- شهاب، حسر صالح أصواء، على تاريخ اليمن البحري، دار العودة (بيروت، 1981ف).
- 37- صادق، دولت. شرقي أفريقية دراسة في جغرافية الإسلام، المؤتمر الجغرافي الأول (بدون مكان، بدون تاريخ).
- 38- الطناشي، خديجة أحمد العلاقات لسياسية بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحبشة خلال لنصر الأول من القرن السادس عشر الميلادي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين (طرابلس، 1996ف).
- 39- عاندين، عبدالمجيد. بين الحبشة والعرب (القاهرة، 1947ف).
- 40- عبدالقاهر، حسر عيسى الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة العولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، دار الهلال (الرياض، 1981ف).
- 41- العمري، أحمد سويلم. الأفريقيون والعرب، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1967ف).
- 42- عودة، عبدالملك. العرب وأفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، 1984ف).
- 43- الغيمي، عبدالفتاح مقلد. حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا (القاهرة، بدون تاريخ).
- 44- غيث، فتحي. الإسلام في الحبشة عبر العصور (القاهرة، 1962ف).
- 45- الفاسي، محمد وإيفان هريك تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو، 1988ف) الجزء الثالث
- 46- الميتوري، عطية مخروم. دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1998ف)
- 47- قاسم، جمال زكريا. الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، 1975ف).
- 48- قاسم، عون الشريف. دراسات أفريقيا، العدد السادس (بدون مكان، 1990ف)
- 49- لويد، ب.س. أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي (الكويت، 1980ف).
- 50- محمد، إبراهيم دولة ربحار الحديث في عهد السلطان سعد من سلطان، منشورات مركز جهاد الليبيين ضد التزوا الإيطالي (طرابلس، 2000).
- 51- ويرنز، دونالد تاريخ أفريقيا، ترجمة: راشد الراوي (بيروت، بدون تاريخ)

الهجرات اليمانية إلى موريتانيا قراءة في الأنساب والتاريخ

د. حماد الله ولد السالم

أستاذ التاريخ بجامعة نواكشوط

هذه السطور مراجعة لأنساب وتاريخ القبائل الموريتانية ذات "الأصل" اليماني، وهي: قبائل صنهاجة، قبائل عرب الأمصار، قبائل "بنو حسان". إنطلاقاً من الروايات المحلية ولمصادر العربية والدراسات المعاصرة، سعياً إلى التعريف بجانب منسي من تاريخ العرب في غرب الصحراء وأحوازها في أقصى المغرب الكبير.

تقديم:

درجت السيسولوجيا الاستعمارية على اعتبار الأنساب مُشجَّرات وهمية لسويغ الانحدار من أحداد مشتركين هم في الأغلب إسميُّون لا وجود لهم في الواقع؟

والحق أن هذا النظر حسير لسبين جوهريين:

1- جهل الباحثين الغربيين بحقيقة النسب في الشريعة الإسلامية وفي المجتمع والثقافة العربيين.

2- دراسة المجتمعات العربية والإسلامية من منظور المعرفة التاريخية والاجتماعية الغربية دون مواءمة الأدوات التحليلية مع خصائص النسق المحلي.

وبفضل هذه الأسباب وغيرها، انتشرت بين الباحثين العرب والمسلمين دراسات تنحومنحي مناقض للدين والتاريخ في بحث قضايا الأنساب ومتعلقاتها.

إن النسب يشكل أهم مقومات الهوية العربية - الإسلامية ولا يمكن التخلي عنه مهما

كانت المسوغات، سيما في عصر تواجه فيه هوية الأمة مخاطر جسيمة.

بكن هناك محذات لا يمكن تجاهلها عند مقارنة المشجرات الانسابية المحلية :

1. أن الانساب، الفعلية والرمزية، هي ركن الهوية العربية لأهل هذه البلاد.

2. أن النسب الذي لا يمكن التحقق من تاريخيته لا يمكن الحديث عنه أصلا. مثل من ينتسب لمحمد من عرب لم يقدوا إلى شبه المنطقة أو يُنمى إلى عَلم لم يَرِدْ قدومه في مصدر موثوق أولم يكن له عقب أصلا.

3. أن التحقق من سبب بعينه لا يعني التحقق من انتساب المجموعة كلها، إذ قد يكون المحدث الموثوق خاصا بأسر معينة لا بالقبيلة كلها.

4. إن النسب لا يعني النقاء العرقي فبنو حسان، وهم عرب لاشك في عروبيتهم، خالطهم زناتة - كما يقول ابن خلدون - وتابعوهم حذو النعل بالعل وانتحلوا أنسابهم وزينهم وشعارهم ونحلتهم من العيش والغزو. في الحديث المعروف ضمن الجزء السادس من تاريخ العبر.

5. مُشجرات الانساب وثائق لا يمكن تجاهلها لأنها كقيلة، إن وضعت في متواليه زمنية منسجمة، بالافصاح عن معان تاريخية خفية. فقد يتم من خلالها الوعي بحقيقة تطور انتشار الاسلام والثقافة العربية في المنطقة تسوق مع تطور العلاقات التجارية وتقلبات السياسة والتبرعات الشرية المختلفة. بالرغم من أغلب الأنساب في موريتانيا كُتِب في سياق الدفاع عن الهوية العربية للموريتانيين "الشناقطة" في المشرق العربي عندما دخلوا في صراع مع المجاورين في الحجاز من أجل نيل حصة من أوقاف الحرمين¹.

لقد شكل دخول الاسلام إلى البلاد الموريتانية وماجاورها أنقلابا في البنية الاجتماعية حيث تم التخلي تدريجيا عن النسب الأموسي والانتقال بصورة حاسمة نحو النسب الأيسمي.

1 - راجع : د حماد الله ولد السالم . موريتانيا في الذاكرة العربية ، قيد النشر لدى مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، الفصل الخامس.

ولم يكن ذلك مجرد تبدل في طريقة الانساب بل كان انقلاب في النظم السوسيوغوية سجلت
عنه أوضاع ثقافية وحضارية جديدة على مستوى علاقات الأفراد والجماعات ورؤيتها
للحياة بل للوجود¹.

وكان هذا الانقلاب أشد أثرا في البلاد الأفريقية التي تنشر فيها الإسلام وتميزت على
مناطق التخوم الغابوية وإلى اليوم في كل ضروب الحياة.

يحول للكاتبين والساحين الغربيين ولا سيما الفرنسيين التأكيد على أن البلاد الموريتانية
يقطعها شعبان لا رابط بينهما بالرغم من اسمهما المشترك: البيضان، وهما صنهاجة
وبنوحسان؟

والحق أن البحث عن هذا النوع من الثنائيات الماثوية في تواريخ الأمم هوديدن بحثة
العرب ودارسيه.

لسنا هنا بصدد البحث في أصول التعرب وعلاقته في بلاد السطان ولا عن الحقائق التي
باتت ثابته عن علاقة صنهاجة باليمن وعمان، بل نحن بصدد التنبية على حقائق تاريخية
حول الانساب في موريتانيا وغرب الصحراء والساحل عموما والمراجعة التاريخية لبعض
أصول وهجرات العرب نحو البلاد في عهود مختلفة.

لقد ظل الباحثون الغربيون ينفرون إمكانية التغلغل نحو غرب الصحراء منذ عهود
الفينيقيين إلى انتشار الإسلام وحجتهم في ذلك أن عملية الإبحار المسماة: المساحلة التي
كانت تقوم بها السفن الفينيقية لم تمكنها من التغلغل جنوبا بفعل شدة التيارات البحرية
الاطلسية² وبذا لم تقع رحلة حانون "المرعومة" والحق نفسه ينسحب على العلاقات عبر
الصحراء فهم ينفونها ابتداء؟

1 راجع: عبد الودود ولد الشيخ في أطروحة: الداوة، الإسلام والسيطة السياسية في مجتمع البيضان
وعنوانها بالفرنسية: A.W.CHEIKH, Nomadism, Islam et Pouvoir Politique dans la

société Mauritanienne coloniale. Thèse de Doctorat, Paris, 1985, 3 vol, vol 1,
2. راجع: رايون موني. R.Mony, Tableau Géographique de l'Afrique, mémoire de l'IFAN, DAKAR, 1961

وهم في كل ذلك متوجسون من حقيقة الحضور الفينيقي تأسيسا لما يرومون من تقطيع
لأوصال الحصار، ولتأريخ في المنطقة كما هو شأنهم مع صلة اسم حروف لغة التوارق:
تيفاق، بالفينقية؟ حيث يقول المتعصبون البربر المعاصرون إن معناه: اكتشافنا؟ وهو مجرد
تمحل لأن مبنى كلمة: تيففاق يفصح عن معناها الجلي: الفينيقية.

والأمر ذاته ينسحب. وبصورة مضاعفة. على الفتح العربي للبلاد الموريتانية فهوفي
نظرهم لم يقع بصورة فعلية بل قصارى مده تخوم السوس في بلاد المغرب¹.

والحق إن حجتهم في ذلك داحضة لوجود الشواهد التاريخية الموثوقة على الحملات
المتكررة للفاطحيين العرب في أواخر القرن الهجري الأول وأوائل تاليه مثل حملات أحفاد عقبة
بن نافع الفهري وأحفاده² وحملات المشري بن الأسود في عهد ولاية اسماعيل بن عبيد الله
بن الحبحاب على السوس³. وتدل الشواهد المكتشفة أخيرا في بلاد الخوض من الشرق

1. راجع. ت. لفتشكي: "دور الصحراء وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب"، تاريخ
إفريقيا العام، ج3، ص 341

2. راجع. إس. القاسم تاريخ إفريقيا والمغرب، بيروت. دار العرب الإسلامي، 1990، ص 15

3. من أشهر هذه الحملات ما يتحدث عنه أبو الخطاب الأسد أن الأزد (ت 145 هـ/762 م أو
147 هـ/764 م) فقد اقتبس في رواية من رواياته نقلها ابن الفقيه العارة الآتية عن القائد العربي
المشري بن الأسود: "غزوت بلاد أنبية عشرين غزوة من السوس الأقصى فرأيت النيل (عنه نهر
السنغال) بينه وبين الدجو الأجاج كثيب..". وحسب ابن الفقيه فإن بلاد أنبية هي أرض صهاجة الواقعة
بين السوس وغانا أي "المتلة عبر ميسرة 70 ليلة في سهول وصحراوات مما يعني أن هذه الغزوات قد
اخرقت هذه المنطقة في نظرب لمحاذاة الساحل حتى مصب النهر، فلمعلها حصدت شركه الكداليين
تحديدا. وينبغي التساؤل عن اسباب ورود اسم أبي الخطاب هذا وعن علاقته بامن الأسود. فأبو
الخطاب هو محمد بن أبي ريب الأسدي ويعرف بمفلس الأجدع وكان من أصحاب جعفر الصادق،
قل أن يتبرأ منه الأخير لمعالاته فيه، وقد اكتسب انتصارا لآرائه حتى بلغت فرقهم 50 كل منها تسمى
الخطابية، ولا يعرف عن حياته الأخرى سوى أن عيسى بن موسى وإلى الكوفة من قبل العباسيين قتله
عام 760/143، رجع: (مادة. أبو الخطاب) في الموسوعة الإسلامية ط2 (بالفرنسية). وانظر
الكشي: معرفة الرجال، بوماي، الهند 1317 هـ والويحي، فرق الشيعة نشر هانري ريتز اسطنول

الموريتاني، قرب أطلال كمبي صالح الدراسة، على وجود حروب وصراعات من هذا القليل: درع زرده من أحسن دروع تلك العصور ولا صلة له بالجنوب ؟

والمهم لدينا إن اتأثير العربي - الاسلامي بين صنهاجة اللثام قد صار جليا منذ القرن الثالث والرابع الهجريين بدليل الانتساب الأبوي في المشجرات الانسابية لملوك أوداغست

ولم يأت القرن الخامس إلا وقد تعمق إسلام الصنهاجيين مع الحركة المرابطية التي كان قادتها أهل ورع وفقه مما عزز من نزعتهم العربية سعيا للتعلم في الدين وريط الصلة بأهله ، حيث كانوا ينزلون من على المنبر من لا يحسن العربية ؟ عكسا لما يشاع من عدم اهتمامهم بالعربية وآدابها ، وأغلبه كتب في عهد خصومهم الموحدين.

والمهم أن نفي التسرب المبكر للدماء العربية إلى الحقبة الصنهاجية الأولى قبل المرابطين بله بعدهم ، فيه كبير حيف وتسرع في الأحكام ، نظرا للنصوص التي أكدت على "تقية الجيش الذي أفذه بنو أمية" و"النُّزُل من سائر الأمصار" في أسواق أوداغست حسب تعبير البكري. ومنهم اتجار العرب الخلص إضافة إلى أسماء التجار العرب المذكورين كتب المسالك والممالك المقيمين بالصحراء والسودان في تلك العهود¹.

وفي العهد المرابطي وصل كبار العلماء من أعمات صحبة أبي بكر بن عمر اللعتوني .

1921 . أما المشتري ابن الأسود ويرد اسمه يصيغ مختلفة في المخطوطات ، فلا تشير المصادر إلى معلومات أخرى عنه لكن نحسبه هو القائد المسمى استير بن الخراش الذي كان قائد للجيش في عهد عبيد الله بن الحجاب 724/116 و740/122 فعده تولى قيادة الحملات على الصحراء والتي كانت تنطلق من السوس في عهد إسماعيل بن عبد الله بن الحجاب الذي تولى حكم ولاية السوس (سنة 116هـ / 734م) راجع .

- ابن الفقيه ، مختصر كتب البلدان ، طبعة ليدن ، دار ت ، ص : 24 .

- ليفتشكي ، مرجع سابق ، صص : 342 - 343 .

1 . أنظر : البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب . وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، ترجمة وتحقيق دوسلان ، الجزائر . 1857 ، (إعادة نشر دار المشرق ببيضاء ، وتصوير دار لكتاب الإسلامي بالقاهرة) ، ص 158

وأشهرهم أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي وهو عربي قح لأنه من مراد صليبة¹، لكنه عاش في محيط صهاحي ظل هو نفسه يتشبث بالأصل الحميري؟.

أولا- صنهاجة²:

ظلت القبائل الصنهاجية تتشبث بالنسب الحميري وتفتخر به في عهد الدولة المرابطية على النحو المشهور في أيام يوسف بن تاشفين.

وقد مدحوا بذلك مثل ما أنشده أبو محمد بن حامد الكاتب³:

قَوْمٌ لَهُمْ شَرَفٌ أَعْلَى مِنْ جَمِيرٍ وَإِذَا اتَّمَوْا لَمْتُونَهُ فَهُمْ هُمُ
لَا حَوْوَ عَلَيْهِاءَ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمُوا فَتَلَّثَمُوا

ويقول ابن الخطيب:

وَطَلَعَتْ يَمْغَرِبُ لَمْتُونَهُ دَوَّلَتُهُمْ مَيْمَنَةٌ مَصُونَةٌ
تَضُمُّ دِينًا لِعَفَافٍ لِكَرَمٍ لَمْ يُذَرِّ قَدْرُ فَضْلِهَا حَتَّى انْصَرَمَ

منها، أبو بكر حليف الدين ويوسف، وهما ابن تاشفيني

ويؤكد النسابة عروبة صنهاجة وكتامة وأنها دخلتا بلاد المغرب قبل الإسلام في عهود قديمة بعد انفجار سد مارب، ويلجئون على حميرية القبيلين.

ومن النسابة الدين قالوا بذلك: ابن الكلبي ت763/147م، محمد بن سلام الجمحي ت232هـ/846م، الزبير بن بكار ت256هـ/869م، اليعقوبي ت285/897م،

1. راجع حول الحضرمي وعلاقته بالمرابطين في موريتانيا وبطريقته في السياسة: تحقيق رصون اسيد لكتاب الإشارة في أدب الإمارة للمرادي الحضرمي، بيروت، المعهد العربي.

2. حول معنى هذه التسمية، راجع: صدقي علي أزابكو: "التأويل الجبالي لوجهي في شمال إفريقيا"، مجلة حوليات كلية الآداب بالرباط، 1989-1990، العدد 15، صص 9-34

3. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جامعة صنعاء، دت، ج3، ص 463

الطبري ت310هـ / 923م، إهمداني ت334هـ / 945م، الجرجاني ت523هـ / 1128م، ابن الأثير ت648هـ / 1249م، وغيرهم كثير زاد على العشرين.

ولعل ذلك هو ما قصده المؤرخ الراحل ابن حامد بقوله:

وَالْجَمِيرَةُ فِي لُتُونٍ حَرَرَهَا عَشْرُونَ عَذْلًا أَمَا تَكْفِيكَ عِشْرُونَةُ

لكن ابن خلدون شكك في تلك النسبة وجعلها من تحريف المؤرخين ومن الأعاليط والأخبار المصنوعة التي يأبأها العقل وتنفر منها الملكة السوية بل يرقصها نسابة البربر. لكن السؤال يبقى معلقا وهو: ما صلة البربر عموما وصنهاجة خصوصا بما اكتشف ويكتشف في اليمن وعمان من لغات ونقوش وشعار وموسيقى تشابه إن لم تطابق ما لدى الأمازيغ في شمال إفريقيا؟

لسا بمصدد الحسم في هذا النقاش - وهل نستطيع - بل نتركه للمختصين ونؤلي وجوهنا شطر أصول عرب الأمصار من القبائل الموريتانية غير الصنهاجية وغير الهلالية؟

ثانيا. عرب الأمصار:

بعد العهد المرابطي توالى قدوم الأمراء والجماعات العربية تعلقا بالقوافل طلبا للرزق أو هربا من تقلبات السياسة في بلاد المغرب الاسلامي لاسيما عبر السوس وتوات أو انسياحا مع هجرة القبائل العربية من بني حسان.

توجد بعض القبائل الموريتانية التي تصر على انتسابها للأرومة العربية اليمنية من خلال تعلقها بالمختد الأنصاري.

القبائل الأنصارية:

يرى الباحث الموريتاني القدير محمد بن مولود بن داداه الشنافي إن التدرج الأنسابي من الأنصارية إلى القرشية العامة إلى الشريفية في تقاليد البيضان المروية والمكتوبة كان بالتساوق

1- راجع: ابن خلدون: العبر، بيروت: دار الفكر، د.ت، ج6 ص 203 وما يليها.

مع تطور العصبية السياسية في المغرب الإسلامي وتعدد أصداء ذلك الصراع في الصحراء. كما أن التعلق بالسبب الأنصاري يبدو وثيق الصلة بأطروحة الأصل الحميري التي انتشرت بين الزمر إبان الفتح ثم ألح عليها المؤرخون في العهد المرابطي ثم يذكر أن الانتساب إلى الأنصار ربما ارتبط بالتشاكل بين النسبة الأنصارية واسم قبيلة إنصارن [= إنزار، ينصر...] المعروفة في النطق العربي ب: بويتنصر أو بويتنسر، وهي إحدى كبريات القبائل المسوفية التي كانت تنتشر في الشمال الشرقي الموريتاني حالياً.

وعلى أساس من ذلك يتبع هذا البحاث القدير في عمله الشهير: على محور أوداغست¹ أصول التشكيلات المسوفية من خلال ترميم الروايات التاريخية حول أوداغست وسكانها.

ومهما كان حظ هذه الفرضيات من امشروعية فإن هذا الباحث وغيره لا يمكنهم التفاضل عن روايات أخرى بعضها مثير للفضول.

ثم إن ذلك التحليل النمطي لا يكفي لتفسير السيرة المعقدة للعرب والقبيلة لتكون القبائل ولا فهم ركام الشواهد المحلية والعربية حول المشجرات النسيية والثقافية للمجموعات والأفراد.

إن انقباض الموريتانية التي تتعق بالمختل الأنصاري ليست كثيرة، كما أن هذا المختل لا يشير لكثير من النقد لدى الكتابين المحليين.

إننا لن نتبع رواية قيل بعينه إلا عرضاً، بل سنركز على سياق الروايات وشواهدنا فالمشجرات الانسانية البيضاء الانصارية لا تعدو رافدين أساسيين .

1- الانتساب لأبي دجاجة الأنصاري: ويأخذ به التاكاطيون، التيدراريون

2- الانتساب للخزرج الاندلسيين: وبه أخذ البصاديون والخطاطيون

1 - محمد بن مولود بن داداه الشنقي: على محور أوداغست، عنوانه بالفرنسية:

M CHENNAFI, sur les Traces d-Awdaghost in: Tagdawest et leur Ancienne citee Paris 1970, pp90-103

بخصوص الانتساب للأنصار عموماً يتحدث ابن حزم في الجمهرة عن الفروع الانصارية التي دخلت إلى مصر وإفريقية والمغرب ويشير في هذا السياق إلى ذرية أبي دحانة وذرية سعد بن عبادة وبني عمومته في الأندلس¹.

ذرية أبي دجاجة الانصاري معروفة في صقع إفريقية من القرن الخامس الهجري: ذكرها البكري في حديثه عن قوم من ذرية أبي دجاجة في قرية الانصارين قرب إفريقية لتونس، يعرفون ببني حامر بن عبد الله².

ويُفهم من المصادر المتعلقة بنفس الفترة إن المعنيين فروا كغيرهم من سكان إفريقية لما دامهم الزحف الهلالي الذي طوق إفريقية حتى أن الإقامة بالقيروان لم تعد مأمونة منذ سنة 444هـ ولذلك لا نعجب أن كَثُرَتْ هجرة العلماء والادباء القيروانيين إلى أغمات في عهد كان الزحف المرابطي نحو المغرب قد قَرَّبَ أَرَانَهُ وهو السبب الأول في اللقيا الشهيرة بين الأمير المرابطي أبوبكر بن عمر اللمتوني والمتكلم القيرواني أبوبكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي. ثم أن رواية قبيلة تَاكَاطْ تذكر أن جَدَّهَا محمد النقَّاض³ سُمي بذلك لشهرته في نقض الأحكام، كان من قضاة مجلس الأمير اللمتوني وأنه جاء معه من أغمات كغيره من النبهاء الذين صحبوه. ولعل اسم هذا القاضي تَصْنَهَجْ في إقامته بين المرابطين بدليل أن اسمه الأصلي محمد بن زياد فجعل الترخيم الصنهاجي اسمه محم؟ كما هوشأن اسم حموفي عرب البرابش من الرحامنة وغيرهم من عرب المغرب.

أما بخصوص أولاد تيدرارين³ فهم ينتسبون إلى محمد الانصاري من نسب أبي دحانة من خلال جددهم سرحان بن كلي وينسحب على روايتهم السياق التاريخي المتعلق بالتاكاطيين.

1 - ابن حزم الأندلسي الظاهري. جمهرة أنساب العرب، بيروت - دار الكتب العلمية، 1403هـ - 1983م، 1 - 2، صص 364-366

2 - البكري: مصدر سابق، ص 47

3 - ابن حامد. موسوعة حياة موريتانيا، القسم الخاص بقبيلة أولاد تيدرارين، مودع في دار الثقافة. بواكشوط مرقون.

وبخصوص الخطاطيين فهم يتنسبون لبني الاحمر ملوك غرناطة وهم ، كما هو معروف ،
من الخزرج ونسبهم الانصاري مشهور مذكور في الاندلس.

أما البصاديون فانتسابهم إلى ذرية قيس بن سعد الانصاري وقد فصل ابن حزم في
نسبهم وفروعهم بالاندلس وذكر سراتهم في شذونة واشيلية وقرطبة وغيرها.

وملحهم بنسبهم الانصاري العالم محمد اليدالي ت 1166هـ :

بُصَادُ أَنْصَارُ خَيْرِ الْخَلْقِ قَاطِمَةٌ أَكْرَمُ بُصَادٍ مِنْ حَيٍّ وَمِنْ نَادٍ
يَكْفِيهِمْ وَأَتَمُّهُمْ أَنْصَارُ سَيِّدِنَا أَقْفَاءُ أَثَارِهِ فِي الْوَسْمِ بِالْبُصَادِ

وعندما أراد العلامة الشاعر محمد صالح بن عبد الوهاب النصري ت 1271هـ أن يرثي
الشاعر العام غاني بن المختار فال البصادي مدح قومه أولاد الطالب مالك البصادين
بنسبهم الانصاري فقال :

وَكَانَ مِنَ الْأَعْيَانِ أَبْنَاءَ مَالِكٍ إِلَّا إِيَّاهُمْ قَوْمٌ كَرَامٌ مَصَاقِعُ
وَهُمْ مِنْ نَسْلِ أَوْسٍ وَخَزْرَجٍ بِهِمْ بُيِّنَتْ لِلْمُسْلِمِينَ الصَّرَامِعُ

ويقول الشاعر العالم حَسَنًا بن الشيخ المعلوم البصادي ت. ق 20م :

أَيَا سَائِلَا عَنَّا وَإِنْ كُنْتَ وَسَائِلَا سِرَاءُ الْبُصَادِيِّينَ مِنْ نَسْلِ قَحْطَانَا
وَأَجْدَادُنَا أَوْسٍ إِذَا مَا جَهِلْتَهُمْ وَفُرْسَانُنَا سَعْدُ وَعَمْرُو وَحَسَانَا

ولكن التفصيل الادق حول الانصارين الاندلسيين نجده في مؤلفات بن الخطيب
الاندلسي لاسيما : اللوحة البدرية ، كناسة الدكان بعد إرتحال السكان ، نفاضة الجراب
وعلالة الاغتراب ، وغيرها من التصانيف.

وفي الكناسة فصل في نسب النَّصْرِيِّينَ الذين ينحدر منهم بنو الاحمر الذين ينتسب لهم
الخطاطيون. وفي نسب النصريين ذكر السلسلة الصاعدة إلى قيس بن سعد الذي ينتسب له
البصاديون ، كما ذكر أنَّ النَّصْرِيِّينَ كان لهم شعارٌ يسمُّونَ به مواشيهم وهو حرف الصاد

بالخط الكوفي وهونفسه شعار قبيلة البُصَادِيَّين الذي يسمُون به نعامهم ويمَيِّزُون به أموالهم. كما ذكر ايضاً أن للتَّصْرِيَّين شعاراً يضعونه على أعلامهم وهو: نصر، وهونفسه كلمة الشرف التي يلترمها البصاديون وتعرف محلياً بـ"التمجيدة".

وفي مستوى آخر كان ابن الخطيب تتبع وجود النصريين بأحواز السوس بالمغرب وأشار إليهم هناك.

وفي كتاب بيوتات فاس لمؤلف مجهول¹ ذكر لبيوتات الانصاريين ومن بني الاحمر في فاس وأحوازها في القرون التالية وكيف استبد بهم الفقر والصيغة والشتات.

وفي لقرن الحادي عشر الهجري تمدنا المصادر المغربية الموثوقة بأخبار عن الاسر الانصارية بتارودانت وأحوازها وكيف أسس أبراهيم وابنه أحمد الانصاريان زاوية سيد الناس الشهيرة بتارودانت قبل أن يرثها من حفيدتهما خديجة الانصارية العالم المعروف الناصري الدرعي لتبقى في ذريته منذ ذلك العهد². ولعل هذين الأنصاريين من أجداد قبيلة البُصَادِيَّين الموريتانية آنفة الذكر وتسمى أيضاً في النطق الدارج: دويُسات؛ تحريف إسمها القديم: أولاد أحمد أبوصاد.

ولاشك أن الوصول من السوس إلى الصحراء ميسور سهل، كما أن رواية البُصَادِيَّين تفصح عن اسم الحد الأعلى لهم وهواحمد الملقب أبوالمصاد وتذكر شهرته بالصلاح والزهد فلعله أحمد بن ابراهيم الانصاري صاحب زاوية سيد الناس المذكورة.

كما تذكر رواية البُصَادِيَّين أنهم كانوا، في القديم، أسراً قليلة العدد تجوب تلك النواحي منذ القرن التاسع الهجري على الأقل.

وقد يتحدث ملاحظ عن وجود الاسماء الصنهاجية في المشجرات الانسابية للقائل المذكورة وكيف أن ذلك أدعى بها إلى العُجْمة؟ والحق أن الملاحظة في محلها من حيث المبدأ

1- مجهول: بيوتات فاس، طبعة الرباط، د.ت.

2- راجع: معلمة المغرب، الطبعة الجديدة، مواد: الأنصار، الأنصاري وما يبيها من نفس النسبة

لكن السياق التاريخي هو العيصل في تلك التشابكات اللسانية والاجتماعية.

فوصون مجموعات من عرب الاندلس أو إفريقية أو المغرب إلى الصحراء وفي عصور متقدمة وحلولها بين مجموعات صنهاجة الخضر لا يترك مجالاً لغير التأثير بالصَّنْهَجَة قليلاً أو كثيراً، لكنه لا ينفي بأي حال حقيقة النسب الأصلي. ولا أدلّ على ذلك من وجود الحضرمي المرادي ودوره العممي والديني في أزوكي عاصمة المرابطين ضمن محيط صنهاجي شبه كامل. ضف إلى ذلك أن التشاكل بين الأسماء لا عثرة به : بنوحسان عرب في موريتانيا، وبنوحسان البربر في بني ورياغل من المغرب، والمعلوم أنه لاصلة بجمع القبيلين. والحال نفسه في 'علام بني حسان : تروز، بركني.. وهي كلها أسماء بربرية لقادة عرب معروفين.

ثم أن تواصل هذه المجموعات مع بني جلدتها في البلاد الأصلية سهل وميسور عبر القوافل التي تتردد بين المغرب والصحراء على مدار العام

لا بل أن بقاء آثار الأجداد في أيدي الاحماد أعظم شاهد على حقيقة النسب وباريحته، بدليل وجود نسخة من كتاب إعراب القرآن للعكبري بخط الجدد الخامس لابن أطوير الجدة الحاجي الصيامي كانت منداولة إلى أيامه مع ابن الحاج إبراهيم بن ججكة¹. والجد المذكور عربي قرشي من أغمات.

وتسربت العُجْمَة إلى الأسماء العربية قديم مشهور، ومه في بلادنا : بركني : تحريف للكلمة البربرية : أبركان الأسود، وهو حال أسماء أخرى مثل : تروز، بنيوك، وغيرها من الأسماء الصنهاجية التي تسربت إلى أنساب بني حسان دون أن تغير من نسبتهم العربية شيئاً. وإضافة : إدا، معروفة في أسماء القبائل العربية المعقلية التي خالطت صهاجة وزناتة، مثل : إدمنيع، ويعرفون أيضاً باسم آخر : دوي منيع..

والحال نفسه ينطبق على أسماء القبائل الانصارية المذكورة : فالْبَصَادِيُون² : أولاد أحمد

1 - راجع : الطالب أحمد بن طوير الجنة : رحلة المي والمدة، مخطوط

2 - البصاديون ويعرفون باسم محلي هو " دُو - بُسَات " من كُبريات القبائل الموريتانية ذات الشأن الديني

بوصاد، تحوّر اسمهم إلى: إيدوبسات، أو إيدوبصاد ثم بقي على النحو الأول لسهولة نطقه على أخواهم من القبائل اللمتونية، والدليل على ذلك أن جُلّ البطون البصادية التي لاخؤولة لها في صنهاجة بقية أسماؤها عربية أما البطون الأخرى فقد تصنهاجت أسماؤها: أولاد سيد محمد: إذ (أولاد) + (ابن) + ميام (مريم): أي: أبناء بنت مريم وهي كريمة شيخ قبيل صنهاجي الأصل من كبريات أمهات قبائل الزوايا في موريتانيا، وقس على ذلك بينما بقيت البطون البصادية الأخرى التي لاخؤولة لها في صنهاجة ذات تسميات عربية "حسانية". أولاد عدي في منطقة الكبله، أولاد بوي في الشرق... واسمهم أولاد ذي الحمى: أولاد بوي آحمي.

وفي اسم قبيلة تاكاط¹ نقاش منه انه تحريف صنهاجي لكلمة: أبناء القاضي والمعروف أن جد قبيلة تاكاط، كان - حسب الرواية الشائعة - من قضاة المرابطين مقفل أبي بكر ابن عمر من حملته على أعماط.

والى جانب ذلك فانتساب قبيلة كل أنصار، ومجموعات أخرى من التوارق في المنطقة، للنسب الانصاري، هو من قبيل تشابه الاسماء التي لارابط بينها والنسب الانصاري الأصلي. وذلك لانتفاء الامكان التاريخي ولعدم مناسبة الزمان والمكان.

ثالثا- قبائل بني حسان:

1- دخول بني حسان إلى موريتانيا:

قبائل عربية موريتانية تنحدر من حسان بن محمد بن عاقل بن معقل، من القبائل التي جاءت مع الهجرة الهلالية إلى المغرب الكبير في القرن الخامس.

وقد بدأت هجرتها مع بني سليم وبني هلال من نجد بالجزيرة العربية إلى مصر في عهد

والعلمي والبشري، تنتشر فروعاها في شرق البلاد وشمالها وغربها راجع: ابن حامد - مرجع سابق، جزء قبيلة دو - بسات (البصاديون).

1 - تاكاط: وهو النطق المحلي لاسم قبيلة أبناء القاضي - من قبائل الدين والعلم في موريتانيا الجنوبية. راجع: ابن حامد: مرجع سابق، جزء قبيلة تاكاط.

الفاطميين ومنها نحو إفريقية في الخبر المعلوم حتى تاريخ فتح المهدي سنة 555هـ/1161م.

بنو حسان بطن من عرب المعقل، المنحدرين، على الأرجح، من عرب اليمن ومن مذحج على نحو خاص، رغم ما يذكر خطأ أنهم من الطالبين¹.

وكان وصولهم مع الهجرة البلالية إلى شمال إفريقية، ثم عمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه².

كان المعقل في عهد ابن خلدون (ت 808هـ) في أواخر المائة الثامنة من أواخر قديم العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، (...) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب العرب³.

واستفحل شأن المعقل في تلك الكصور (= السوس، توات، وركلان...) ومرصوا المغارم على سكانها من رناتة، كما صار المعقل أنفسهم يقدمون ضريبة إجبارية تسمى جمل الرحيل [المغرم] إلى الدولة المرينية، وذلك قبل أن يصبحوا شيئا فشيئا قيمين للمرينيين على جباية الضرائب من سكان وقبائل تلك النواحي.

وطوال العهد الموحيدي والمريني، جزئيا، اكتفى المعاقلة بالإقطاعات الواسعة التي نالها، عن التعرض لقوافل التجارة بين سجلماسة والسودان، وكانت مواطنهم، في أيام ابن خلدون، من درعة إلى المحيط، وينتجعون من السوس إلى الرمال المتاخمة لمجالات الملثمين⁴، لكن يبدو أن هذا التغلغل جنوبا، حتى الساقية الحمراء، كان قبل عهد ابن خلدون بكثير، فقد ذكر ابن عذاري المراكشي⁵، أنه: "في سنة اثنين وخمسين وستمائة تفاقم أمر

1- راجع: ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر، دار الفكر، بيروت، د.ت. ح. 6، ص: 58، 59.

2- ابن خلدون، مرجع سابق.

3- نفسه.

4- نفسه.

5- ابن عذاري: البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقية والأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق محمد زبيرو

محمد حجي، ص: 403

على بن يدر (صاحب إمارة في الجنوب) بالخلاف في بلاد السوس ونقادت له بعض عرب الشمامات وبني حسان وذلك قبل أن يتصارع حلفاء الأمس سنوات خمس وسبعمائة.

وفي عهد المرينيين أئخن فيهم يعقوب بن عبد الحق 656-685 هـ/1258-1286م وحاصروهم يوسف بن يعقوب 685. 701 هـ/1286-1306م وأئخن فيهم ثانية سنة 786 هـ مما اضطرهم للتقدم جنوباً¹.

ويذكر ابن حامد أن أولى الحروب التي خاضها الحسانيون ضد صنهاجة كانت من جهة منطقة إكيدى الواقعة شمال آدرار

واستطرد بهذا الشأن رواية الشيخ محمد الخليفة الكنتي حول فصول صراع أولاد الناصر ضد إيدوكل اللمتونيين، وكيف انتصر أولئك بدعم وسند روحي من سيد محمد الكنتي، على إيدوكل وحولوا أغلبهم إلى أتباع، ثم تقدم أولاد الناصر وبنو عمومهم من قبائل بني حسان الأخرى فأصاحوا بحكم إديشي في آدرار، والأباط في تكات والركيبة وانيرزيك في الكيلة².

وكانت من نتائج هذا الصراع أن عمق بنو حسان التراثية الاجتماعية من خلال بنائهم سهرم اجتماعي كانوا هم أنفسهم في قمته، واحتكروا اسم العرب، ويأتي في وسطه فئة الزوايا القيمة على الخطط الدينية والثقافية، ثم تأتي في أسفل السلم، القبائل التي تدفع لمغرم (الضرائب الإجبارية) وسموها: أزناكة أو: اللحمة، هذا بالرغم من أن صرب المغارم قد يشمل أي حساني أو زاوي أهكته الحروب أو اضطر لطلب الحماية، أو كان يصدد الانتجاع في مجال محتكر.

واستطاع بنو حسان، بعد مسار تاريخي معقد، أن ينشروا لهجتهم العربية الملوحة الحسانية على كافة الوادي والمدن، حيث اختفت، تقريباً، اللهجات البربرية الخالصة مثل الصنهاجية وانقرضت اللهجات البربرية السودانية المشتركة مثل اللهجة المسماة: كلام أزيرو

1- راجع: أبو ضيف (أحمد): أثر العرب في تاريخ المغرب، ص: 222_224.

2- ابن حامد، مرجع سابق، ص: 61 وما يليها

(= الأزيرية) وهي مزيج من الصنهاجية والسونكية اردهر في مدن الساحل على طريق الملح بين بلاد السودان جنوبا وبلاد الصحراء شمالا (بلاد الخوض في الجنوب الشرقي صعودا إلى آدرار في الشمال الموريتاني) إبان ازدهار التجارة بين تجار الذهب السونكيين والجمالين المسوفين. وقد كان هذا اللسان رائجا في تيشيت ووادان وشنجيط. وتراجعت كذلك لغة السونغاوي التي كانت رائجة في ولادة مع عهد الرحالة الحسن الوزان (ق 16 م).

ونشر بنوحسان أيضا عادات تناقض موروث البربر الصحراويين: مثل إطالة شعر الرأس بدل حلقه، وحسر اللثام بدل إلزامه، وكان ذلك مما ساعد على تميز الركاب الحجية التي التي بدأت تنطلق دوريا من المدن الصحراوية على نحو مستقل بعد أن كانت تندمج في ركاب حاج السودان المسماة الركاب التكرورية¹.

وندل أوصاف الرحالين الأجانب، والمسلمين، على أن بني حسان كانوا، قريبا من نهاية القرن 9 (هـ/15م) قد أحكموا قبضتهم على المجال الموريتاني وصاروا يراقبون تجارة المدن ويفرضون الإتاوات على قبائل صنهاجة. ثم استمروا في الانتشار حتى سيطر فرعهم الرئيس: المغافرة، وهم عدة قبائل، على جُلّ البلاد الموريتانية، وأسسوا بها إمارات وراثيات قوية: مثل إمارة أولاد مبارك في بلاد الخوض وبلاد الرقبة للشرق الموريتاني الحالي، إمارة لبراكنة [الجنوب الموريتاني]، إمارة الترزة [أقصى الجنوب الغربي الموريتاني]، إمارة يحيى بن عثمان [في الشمال الموريتاني]، وراثية أولاد الناصر وراثية أولاد داود وكلاتهما في بلاد الخوض من الشرق الموريتاني.

وشير إنتساب بني حسان إلى المحدث القرشي تسولات عديدة بعضها ينسب الإنتساب من جذوره، ويربط المعنيين مباشرة بالنسب اليميني المذحجي!

أما الأطروحة المدافعة عن الأصل اليميني فأساسها ما صرح به ابن خلدون ونصه: "أما أسابهم - يعني بني حسان - عند الجمهور فخفية وبهولة، ونسابة العرب من هلال، يعدون عرب المعقل من بني هلال، وهو غير صحيح، والمعقل يزعمون أنهم من أهل البيت، إلى

1 - يراجع: ابن حامد، التاريخ السياسي، النسخة المرقوة، دار الثقافة، نواكشوط، صص: 63_65.

جعفر بن أبي طالب، وليس ذلك أيضا بصحيح، لأن الطالبين والهاشميين، لم يكونوا أهل بادية ونجعة، فالصحيح والله أعلم من أمرهم، أنهم من عرب اليمن. فإن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بـ "المعقل" ذكرهما ابن الكلبي وغيره¹.

وقد أثار هذا الرأي ردودا حادة لدى المتأخرين منها رد أحمد بن خالد الناصري السلاوي ت1315هـ/1897م، في كتابه "طلعة المشتري في السب الجعفري"، وبين سقوط استدالات ابن خلدون بحوصلتها في سبح حجج²:

1 أن المعقل دخلوا في عدد قليل وهو دليل قرشيتهم وكونهم ليسومن بني الحارث بن كعب الذين كانوا "جمرة العرب" وأحوال العباسيين ولا حاجة بهم للنجعة.

2. انتقال بني جعفر من الحجاز سببه الحرب مع بني عمهم.

3 انتقالهم من الصعيد للمغرب سببه ضيق العيش في البلاد الصعيدية واتساعها في المغرب. كونهم استكثروا بمن انضاف إليهم دليل جعفريتهم لما يرون من مزيتهم.

4. أما كون سبهم مجهول عند الجمهور فمردود لأن من سبقهم من النسابة لا يعرفهم ومن عاصرهم لم يدون عنهم شيئا

5. أنهم في عصره كانوا ينتسبون لجعفر بن أبي طالب.

6. أن الهاشميين والطالبين لم يكونوا أهل بادية ونجعة، مردود لأن الحرب لم تكن بينهم إلا وهم في بوادي الحجاز.

7. أما وجود اسم المعقل في اليمنيين فلا عبرة به شرعا أو عقلا.

وحذا حذو الناري في نفي كلام ابن خلدون عن المعقل، المختار السوسي في كتابه "إيلينغ قديم وحديثا".

1. ابن خلدون، العبر، ج6، ص59 و60

2. راجع أحمد وسن سيدي، موريتانيا: الماضي المتحرك والمكان المؤثر...، نواكشوط، 2004.

وقفاه النسابون الموريتانيون مثل: محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري وهو من علماء قبائل بني حسان في كتابه "الْحَسَنَةُ النَّسَابِيَّةُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ الْحَسَّابِيَّةِ". وافتحربداك النسب في قصيدته الفخرية الشهيرة، ومنها¹:

فَإِنْ تَسْأَلُوا عَنِّي سَوَالَ مُبَادِرٍ أَنَا أَنُّ أَمِيرَ الرُّكْبِ مِنْ آلِ نَاصِرٍ
قَدْ اتَّسَبُّوا مِنْ جَعْفَرٍ لِابْنِ زَيْنَبٍ كَمَا صَحَّحَ الْأَعْلَامُ أَهْلُ الدَّفَاتِرِ
وَقَدْ مَآ رَفَعَتْ فِي الْمَغَارِبِ مَعْقِلًا زَمَانَ سَلِمٍ أَوْ هَلَالَ بَنِّ عَامِرٍ

لكن الدارسين المعاصرين يرون أن النسب القرشي لبني حسان مستحيل غاما، لأن معقل لا يُعرف في أنساب القرشيين وفروعهم التي تداولها النسابون العرب قديما وحديثا، كما أن الرجل الذي ينتسب له معقل لم يكن له عقبٌ ياجماع النسابين !

وبعض عن هذا الجدل المستفيض، فإن يمانية المعقل إنسابا أو هجرة مع الهالين، واقع تاريخي ثابت لامراء فيه، وهو ما يهمنا في هذا العرص.

1 - أحمدو بن سبي: نفسه .

دور القبائل الليبية واليمنية في عروبة تشاد

د. محمد محمد الطوير

شكلت بحيرة تشاد منطقة جذب هامة للقبائل العربية منذ العصور القديمة والوسطى والحديثة، إذ وصل إليها العرب في شكل هجرات كبيرة منذ القرن السابع الميلادي، وبذلك كانت القبائل اليمنية أول من وصل إلى محيط بحيرة تشاد حتى أصبح العرب يشكلون الأغلبية السكانية على الضفاف الجنوبية للبحيرة ثم امتد استقرارهم إلى غرب نهر شاري وشرق وشمال البحيرة مثل مجموعة قبائل الغوالم (Ghawalme) والسلمات (salamat) والحمادية (Hemmadiy) وبني صيد (bana sayd) الذين تركوا تربية الجمال وانجهوا لتربية الأبقار¹.

وتمتع سكان جنوب بحيرة تشاد من العرب بالاحترام والتقدير من بقية السكان بسبب أصلهم ولغتهم العربية مما ساعدهم على الاحتفاظ بشخصيتهم الحذابة في المجال الاجتماعي². وتشير الروايات التاريخية في كانم، الواقعة إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، إلى أن بطلاً عرساً قدم من اليمن هوسيف بن ذي يزن، وسيطر على الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، ثم بسط نفوذه على عدد من القبائل أصبحت تعرف لاحقاً باسم "الكنوري" أو شعب كانم؛ هذا وقد ظلت هذه الأسرة السعيدية أو اليزيدية تحكم منذ القرن التاسع الميلادي حتى سنة 1846م. وقد تحكموا طوالها بطريق القوافل الذي كان يصل كام بطرابلس الغرب وغيرها من المناطق الإفريقية الأخرى، وهو طريق قديم منذ أيام القرطاجنيين ولرومان³.

1- jean- claude zeltner, histoire des arabes sur le rives du lac ichad, annales de l'université d'abidjan, f, 2- 2, 1970, p. 110

2 - ibid p. 110-111

3 - أمين الطسي، "وصول الإسلام وانتشاره في كانم - نرو بال سودان الأوسط" مجلة الدعوة الإسلامية،

العدد الثالث، ص 180 - 181.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن دخول الدين الإسلامي إلى كاتم كان بالطرق السلمية ، وعلى أيدي التجار والفقهاء القادمين من شمال إفريقيا ؛ ويفضل هذه العملية اعشق السلطان حمي محمد الإسلام في كاتم في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وصار أهل كاتم مسلمين ، ويسود بينهم مذهب الإمام مالك ؛ كما كان لعلماء والفقهاء مكانة مرموقة في البلاد ، واتخذ السلطان لقب خليفة ، إنه ويفضل هذه التغيرات ظهرت مدارس في كاتم تميزت بمجودة مستوى الدراسة الفقهية والقرآنية والكتابة باللغة العربية مما ساعد على تدوين المراحل التاريخية لبلادهم¹.

وفي أعقاب انتقال سلاطين كاتم إلى برونوفي أواخر القرن الرابع عشر استمر الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة المالكة في برونوحتى أنهى السلطان علي حاجي (1476 - 1503) الصراع الأسري وأسس عاصمة جديدة في حوالي 1484 ، وأقام إمبراطورية كاتم برونوالتانية ، وأخذ علي حاجي لقب خليفة في دولته . وتم ربط علاقات إمبراطورية كاتم- برونوالتانية مع دولة المغرب الأقصى في عهد السعديين والدولة العثمانية بشمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر².

وبصفة عامة فإن القبائل العربية قد وجدت طريقها إلى تشاد (السودان الأوسط) سواء من طرف القبائل القديمة من اليمن والتي استقرت أكثر داخل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد وخاصة القبائل اليمنية في الوقت الذي دخلت فيه بقيه القبائل العربية إلى تشاد عن طريق السودان ومصر وليبيا وتونس وغيرها ، ولم تقم أي ممالك خاصة بها ولكنها ساهمت في تكوين حكومات في وسط إفريقيا مثل واداي ودارفور ، وكاتم ، وقد كانت على هيئة حمس مجموعات :

1. عرب جهينة الذين قدموا مباشرة من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر ،

كردفان ودارفور

1 - المرجع نفسه ص 181 - 182

2 - المرجع نفسه ص 187 - 188.

2. عرب الحساونة : قدموا من شبه الجزيرة العربية عن طريق مصر وطرابلس.
3. القبائل القادمة من ليبيا عن طريق تبستي.
4. " ابو مجور" (Toundjours) قبيلة عربية منحدرية من بني هلال.
5. " الجلابية" (Djellabas) أتوا مع مجموعات " راسح" (rabe) من منطقة النيل الأعلى.

وكان عرب جهينة وعرب الحساونة يعرفون باسم "عرب شوا" (Arab chaa)، في حين كان العرب الليبيون يعرفون باسم عرب فزان، بينما عرف عرب التونجور والجلابة باسمهم الأصلي ولا يقولون عنهم اسم العرب، وعرب جهينة هم الأكثر، ويرجع نسبهم إلى عبد المطلب جد محمد ﷺ، وعرب الحساونة أقل عدداً من جهينة، ومن أهمهم بني وائل والدقانا والأسالي، وهم يقولون بأنهم ينحدرون من علي بن أبي طالب، عن طريق ابنه الكرك الحسني، وقدموا إلى تشاد بعد جهينة، واحتفظوا بسمات أكثر صفاء: أما عرب التونجور فيعتقد انحدرهم من عرب بني هلال وقدموا من تونس، ويتكلمون العربية والكانورية والقورانية، وهم مستقرون في جنوب شرق كاتم وفي الوادي؛ أما عرب ليبيا فقد وصلوا إلى تشاد في هجرتهم الأولى عام 1842 بعد معركة قارة البغلة والتي قتل فيها عبد الجليل سيف النصر علي أيدي القوات العثمانية في حين وصلت الهجرة الثانية سنة 1931 بعد معركة لكفرة ضد القوات الإيطالية الغازية مورعين على عدة قبائل رئيسية هي: أولاد سليمان والمقارحة والحساونة والحسون وورفلة والقذاذفة¹.

والعرب في تشاد يصفون أنفسهم بالإبالة وهم الذين يربون الإبل، والبقارة وهم الذين يربون البقر وهم نصف حضر، ويعملون بالزراعة، وتتأثر حياة العرب في تشاد بالظروف الاقتصادية والسياسية، ويسكنون الخيام ويعرفون السرير لطبيعة الأرض بالمناطق الاستوائية، ويتلاءم أعداد السكن وفق ما هو موجود من أنواع الأشجار والصوف ووبر

ibid, pp 5-7. - 1

الحيوانات ، أما اللباس فإن الليبيين احتفظوا كثيراً باللباس الطرابلسي كالجرود والطاقيّة ، ولكن الملابس الأوروبية أخذت تحل محل الملابس المحلية¹ .

والعمل الأساسي للعرب في تشاد يقوم على تربية الماشية ومزاولة النجارة في برنو والسودان في الوقت الذي يزاول فيه أعمال الحدادة والخشب رحال من طبقة خاصة غير العرب² .

وساعد الإسلام على زيادة الارتباط بين سكان تشاد المسلمين والعرب ، لأن القرآن الكريم كما يصفه المؤرخ الفرنسي "جين شابيل" (jean chapelle) بقوله : "القرآن هو قمة القمم لأنه يمثل كلام الله تعالى الذي نزل في العرب ، وهو هبة السماء للأرض ، وهو فضل الله الذي نشره أولئك لمسلمون الذين كانت لغتهم الأصلية هي اللغة العربية لغة القرآن وهم سارعوا التأثير بجماله وشاعريته"³ .

وتحمل اللغات المحلية الكلمات العربية المتعددة ، وإن كانت محرفة كالتهجيات والسلام وعلامات التعجب وحركات الصلاة . والتعليم في بلاد تشاد كان تعليمياً دينياً يتم فيه معرفة الحروف الهجائية ثم حفظ سور القرآن الكريم ، ودراسة علوم اللغة والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف سواء داخل المساجد أو الزوايا واكتاتيب ، ولكن مع بداية الغزو الفرنسي لتشاد في سنة 1898 بدأت تظهر المدارس الحديثة مصحوبة باللغة الفرنسية

1 - ibid,p,8.

2 - انظر jean chapelle,le peuple tchadien editions l'harmattan, 7,rue de l'ecole- polytechnique 75005 paris, 1980., pp.146 - 149 .

والذي يشير إلى جملة عدد العرب في تشاد سيكون 450 ألف نسمة بين بدو وحضر وشبه حضر في سنة 1978 بينما كان عدد العرب القادمين من ليبيا بحوالي 6000 نسمة وخاصة لأشخاص الدين ينسبون في أغلبهم إلى قبلية أولاد سليمان ، وكانت تقديرات عدد سكان تشاد في سنة 1978 على النحو الآتي . المسلمون 2.200 مليون نسمة ، الروحانيون 1.420 مليون نسمة ، المسيحيون 380 ألف نسمة . المجموع الكلي 4 مليون نسمة .

3 - ibid, pp.146-148.

والحروف اللاتينية، ومما ساعد على انتشار المؤسسات الدينية في تشاد طبيعة المساني ووجود أدوات الكتابة كأعواد القصب والصمغ. وساهمت الروايات أيضاً في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي والطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية حيث ساهم الفقهاء والطلبة في القيام بتحصيل القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية في تشاد¹.

وما زالت العديد من الزوايا التي تم تأسيسها من قبل بعض الليبيين في تشاد تقوم بتقديم خدماتها القيمة كنشر اللغة العربية والمواظب الإسلامية عن طريق الفقهاء والشيخوخ الذين تخرجوا من الزوايا وأخذوا ينتقلون بين المدن واقروى كاشيخ أبرعمر عثمان بن علي الحضيري المتوفي في سنة 1701، وعمل بالتدريس والفتوى والتأليف بتشاد، والذي من أشهر مؤلفاته: شرحه منظومة شيخه محمد بن ناصر الدرعي المسماة نيراس الظلام². وارتحل الشيخ حسن بن محمد الحضيري إلى كاتم ورنو، وظل يؤدي دوره العلمي حتى وفاته في أواخر القرن التاسع عشر، ودفن ببلدة كوكة وشيد له مقام ظل يقصده الزوار من كل مكان³.

وقدم من طرابلس الغرب إلى تشاد الشيخ رمضان بن أحمد من فران وعمل في التدريس والتأليف وله قصائد على رواية البخاري بالإضافة إلى وصول العديد من العلماء والفقهاء الليبيين إلى تشاد والذين مازالت مخطوطاتهم موجودة بكثير من المكتبات مثل مخطوط الشيخ عبد الله محمد بن عمر الغدامسي، ومخطوط الشيخ العطار بن محمد بن آدم الفندكي الذي تناول علم الفلك بعنوان "الخيرات وتقويم الكواكب السيارات" بالإضافة إلى مخطوط آخر بعنوان "الإعلان بتاريخ كنو" تناول فيه أخبار تاريخ كاتو وملوكها، ومخطوط آخر بعنوان "تسهيل الأمر شرح الجبر في علم الحهر" أشار فيه إلى أسماء فقهاء من غدامس مثل

1- شعبان محمود محمد راشد، القائل العربية الليبية في السودان الأوسط ودورها في تاريخ المنطقة (1795-1911) مشورات الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2003، ص 182-184

2- المرجع نفسه ص 185-186

3- المرجع نفسه ص 186.

الشيخ سعد بن أحمد الغدامسي والشيخ عبد القادر بن الحاح الغدامسي¹.

وتمثل دور الليبيين في بناء الزوايا التي لعبت دوراً في نشر الثقافة العربية بتشاد ما يلي:

1. الزاوية الأسمرية بمدينة كانو.

2. زاوية برني بمدينة زندر.

3. الزاوية السمانية بمدينة كانو.

4. زاوية شمدور

5. زاوية عين ككلة.

6. زاوية بشر علالي.

7. زاوية فاي.

8. زاوية وجنقة الكبرى والصغرى.

9. زاوية قرو.

10. زاوية ون بشمال تشاد.

11. زاوية وداي.

12. زاوية الشيخ عبد الفتاح بزندر.

وكانت هذه الروايات وغيرها تقوم بتعليم الأهالي، ومنح الطلاب الإحازات العلمية بعد

حصولهم على العلوم الكافية كعلم الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية وآدابها².

وبفضل الدور البارز للعلماء الليبيين تم انتقال المؤلفات الليبية من مخطوطات ونحوها إلى

تشاد، وصارت المكتبات بلمدن التشادية وغيرها بالسودان الأوسط ترخر بالعديد من النسخ

1 - المرجع نفسه والصفحة

2 - المرجع نفسه ص 187 - 188.

لبعض المخطوطات المتداولة لمؤلفين عاشوا في طرابلس أو تنسب إليهم من المؤلفين المعتمدة مؤلفاتهم في التدريس كمراجع علمية بالبلدين مثل مؤلفات الشيخ أحمد زروق، والشيخ ابن سليم الأوحلي، والشيخ محمد بن محمد طالب السباعي الغدامسي، والشيخ أحمد بن محمد الدردير مؤلف كتاب "شرح الدردير على الخليل"

وترتب على انتشار الثقافة العربية في تشاد انتقال العديد من أبناء هذه البلاد إلى طرابلس الغرب لتلقي العلوم في رواياها ثم عودتهم إلى بلادهم للعمل في نشر التعليم باللغة العربية مثل الشيخ عبد الله سك الفلاحي والشيخ أبوبكر بن الحاج عثمان، والشيخ علي بن الحاج عثمان، والشيخ محمد الأمين الكامي الذي تلقى علومه براوية ميزران على أيدي علماء من أمثال: الشيخ محمد أبي طبل والشيخ عبد الله بن غلبون¹.

وساهمت حالات الزواج بين السكان العرب القادمين إلى تشاد مع السكان المحليين في انتشار الثقافة العربية، ووجدت أهدافهم وحملت من الصعب التفريق بينهم في حب الوطن والدفاع عنه، كما حدث أثناء مقاومة الغزو الفرنسي 1898، ولغزو الإيطالي 1911 على الأراضي الليبية حينما وفدت مجموعات مقاتلة من تشاد لتتجهز إلى جانب الليبيين في الوقت الذي سالت فيه دماء المهاجرين الليبيين في معارك الدفاع عن تشاد ضد الغزو الفرنسي بداية من 1898.

الخلاصة:

إن دور أبناء اليمن وليبيا في عروبة تشاد يتميز بالكثرة ولا يخفى عن أحد، مما أدى إلى انصهار الدماء العربية بالدماء الإفريقية، وصارت تشاد تمثل أقرب الدول إلى الأقطار العربية والإسلامية رغم المحاولات الاستعمارية السابقة التي كانت تهدف إلى فصل الثقافة العربية عن الثقافة الإفريقية بمنع الكتابة بالحروف الهجائية العربية والكتابة بالحروف اللاتينية واللغة الفرنسية بدلاً من اللغة العربية.

1 - المرجع نفسه ص 188 - 189.

المنصور بن أبي عامر والبربر بالأندلس في آخر عصر الخلافة

د. محمد حناوي

لماذا المنصور بن أبي عامر والبربر؟

إن الهدف من هذا الموضوع هو إثارة تساؤلات لها علاقة مباشرة ببعض القضايا التاريخية الأساسية التي ما تزال في حاجة إلى البحث والاهتمام؛ من أهمها:

1 - خريطة التوزيع البشري أو التوطين القبلي بالأندلس وعلاقته بالسلطة السياسية القائمة.

2- علاقة هذا التوزيع البشري بوضعية الأرض ونظم استغلالها، علماً أن الأندلس أوشبه جزيرة إيبيريا إقليم خصب وغني كما تذكر المصادر.

3 - البناء العسكري المتبع في هذا الإقليم الذي يقع في أقصى غرب "دار لإسلام" أوفي أقصى الثغور بالنسبة للخلافة الإسلامية.

ولا يستقيم الحديث عن طبيعة سياسة المنصور بن أبي عامر والبربر بالأندلس في آخر الخلافة الأموية دون الإشارة إلى علاقة البربر بالمكونات البشرية الأخرى. ونقصد بها القبائل العربية والصقالبة لأنها مكونات لعبت دوراً أساسياً في تثبيت سلطة ونفوذ الأمويين بالأندلس.

أ. القبائل العربية: لا شك أن القبائل العربية والبربرية قد استقرت في شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتوحات الإسلامية. وقد اعتمدت الخلافة الأموية على القبائل الشامية التي استوطنت مناطق وأقاليم غنية كما يتضح من المصادر التي فصلت في الحديث عن الجهات التي نزلت بها الكور المجندة¹ القادمة من المشرق. ولا شك أنها استفادت من امتيازات

1 - قدوم مصطلح "الكور المجندة" من المشرق أيام الفتوحات الإسلامية ويعكس الأجناد العربية التي =

اقتصادية متعددة مقابل الخدمة لعسكرية التي تقدمها للسلطة الأموية، ولكنها كانت في وضعية محسد عليها من قبل القبائل العربية والبربرية التي التحقت بها في إطار هجرات متعددة. وقد أدى ذلك إلى دكاء صراعات مختلفة لا تخدم مصالح السلطة ولذلك كلفت هذه الأخيرة بعض ولايتها أمثال أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (125 هـ - 127 هـ) كي ينظر في توزيع القبائل ويجد توازناً قليلاً أو اجتماعياً يحفظ مصالح الخلافة ويبعد الفتنة كما تذكر المصادر¹.

ومن المفيد الإشارة إلى قوة ونفوذ الرعامات القبلية العربية في ظل الأمويين بالأندلس. لقد فصل ابن حيان الكلام في الموضوع مبيناً ما سماه "خاصة قريش ووجوه الموالي وأهل البيوتات"². وأيده العذري³، وغيره في بيان بعض أهم تلك انقيادات في الأقاليم الأندلسية المختلفة. ولا شك أن النفوذ العربي القوي ظل قائماً إلى آخر الخلافة على الأقل كما يتضح من إشارات متعددة. يقول المقرئ في هذا المعنى: "إن عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر"⁴.

ب. الصقلية: إلى جانب القبائل العربية اعتمدت الخلافة الأموية بالأندلس على قوة أخرى قادمة من تحوم أوربا. ودون الدخول في تفاصيل تهتم كيفية مجيء الصقلية إلى

= استقرت بالأندلس. انظر تفصيل حولها في.

- ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق أ. الأبياري، القاهرة، 1982. ص 108.
- حيان (القرطبي)، المقتبس من أخبار بلد الأندلس، تحقيق الحجي، بيروت، دار الثقافة، 1965.
- 2- ابن الخطيب (لسان الدين الورير)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، دار المعارف، 1956، ج 1، ص 108.
- 3- ابن حيان، الحجي، ص 30.
- 4- العذري (أحمد بن عمر بن أس العذري)، ترصيع الأخبار وتويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص 99.
- 5- المقرئ (الثلثماسي)، نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إ. عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج 1، ص 293.

الأندلس¹؛ نقول إنهم شكلوا سنداً سياسياً وعسكرياً مهماً خاصة في ظل الخلفتين عبد الرحمن الناصر (ت. 350 هـ) وابنه الحكم المستنصر (ت. 366 هـ). يكفي الإشارة، إلى أن هذا الأخير قرب إليه الصقالبة ربما بشكل كبير، بدليل أن المصادر تتفق على أنهم من المقربين جداً ومن حفظه الأسرار في البلاط. ولذلك كثيراً ما يتم التفاوضي عن سببائهم وعن محاوراتهم في قضايا تهم السلطة نفسها لقد قال بصددهم الخليفة الحكم دات مرة: "هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفق في معاملتهم"². أكثر ذلك أدى تواطؤ الصقالبة وتدخلاتهم في شؤون البلاط الأموي إلى الاعتقاد "أن لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم"³. انطلاقاً من ذلك يهم لماذا كثروا بيعة احليفة هشام المؤيد الذي تولى المنصور بن أبي عامر حجابته.

لقد انتبه هذا الأخير إلى سطوة الصقالبة وتطاولهم على السلطة ولذلك لم يتردد في إعادهم ووضع حد لنفوذهم. يقول ابن عداري في ذلك، "أول عروة قصمها لابن أبي عامر من عرى المملكة عروة الصقالبة الخدم بالقصر، موضع الخلاف، وكانوا أبهى حلل المملكة"⁴.

لم يقف ابن أبي عامر عند تحجيم دور الصقالبة وإعادهم عن الشؤون السياسية والعسكرية الهامة، بل سعى، أيضاً، إلى تقليص نفوذ القيادات العربية. وتكشف النصوص المصدرية عن محاولاته ونجاحه في «تأخير العرب وإسقاطهم عن مراتبهم»⁵.

1- انظر ذلك في حناوي (محمد)، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، (فصل الكور المجدة)، الرباط، دار أبي رقرق، 2003.

2- ابن عداري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأنندلس والمغرب، تحقيق كولان (ج س)، ل. بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 2، ص 259.

3- نفسه، ص 263.

4- نفسه، ص 259.

5- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958، القسم الثاني، المجلد 4،

ح. البربر وابن أبي عامر: دفعت عملية إضعاف وإعادة القيادات العربية والصفلية بابن أبي عامر إلى اعتماد العنصر البربري الذي فتح له باب الأندلس على مصراعيه بعد أن خبره في موطنه الأصلي أي في العدو المغربية أوما سماه ل. بروفنسال بـ "بلاد البربر الغربية"¹، والتي شكلت خزاناً بشرياً لا ينضب من الرجال.

سبقت الإشارة إلى أن العناصر البربرية الأولى قدمت الأندلس منذ الفتوحات لكن أعدادها كانت قليلة نسبياً، مقارنة بالقبائل العربية وذلك على امتداد عصر الولاة والإمارة ومستهل الخلافة². ومن الملاحظ أن الهجرات البربرية لم تنقطع، ولكن تحكمت فيها ظروف وتوازنات مختلفة. لقد قيل: إن الدولة الأموية منذ بدايتها كانت أميل إلى بربر زناة منها إلى صنهاجة. ويرر الأستاذ محمود علي مكّي هذه المعادلة بالإشارة إلى أن الزناتيين في شمال إفريقيا عدة ما يوالون، الأمويين، أما صنهاجة فكانت عماد الحركات الشيعية³.

دون مناقشة هذه الفرضية التي تبدو نسبية، إن لم نقل غير واقعية؛ نشير إلى أن الخلافة الأموية كانت في بداية أمرها، أي في عهد عبد الرحمن الناصر تحتاط من البربر. ويعدنذ عمل الخليفة الحكم على استمالة العنصر الزناتي كما تشهد ذلك المصادر. يقول أبو مروان الوراق في هذا الصدد: "(...)" بنو برزال فخذ من زناتة من بني يفرن، كانوا قاطنين بالراب الأسفل من إفريقية، فوصفوا

ص 319.

1- Lévi-Provençal (E), Histoire de l'Espagne musulmane, T 2, le Califat de Cordoue, Paris, Maisonneuve, 1950, p. 261.

2 يصعب الخوض في فصية الأعداد طرّاً للمبالمات التي تطع أرقام المصادر والاحتلافات بصدها انظر التفصيل في محمد حاوي: النظام العسكري، مرجع سابق من المعيد الإشارة إلى أن بعض الدارسين يقلل من دور البربر بالأندلس. بل يشك في أصله وذلك بنيرة لا تخلو من عنصرية. انظر على سبيل المثال. Martinez-Gros (Gab), L'idéologie omeyyade, la construction de la légitimité du Califat de Cordoue (X-XIe siècle), Madrid, 1992.

3- انظر مقدمة ديوان ابن دراج القسطلبي، تحقيق محمود علي مكّي، المكتب الإسلامي، 1389 هـ.

لأمير المؤمنين الحكم بالشدة والشجاعة في الحروب، فأمر بمكاتبتهم، فكانوا جنده¹.

لعل صفات الإقدام والفروسية رفعت من إعجاب هذا الخليفة بقتال الزناتيين ومخيلهم. وقد نقلت المصادر ما كان يردده من شعر في شأنهم كان يقول:

فكأنما ولدت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها²

وتعزز الأمثال الشعبية أو العامة المتداولة بالأندلس هذا المعنى، إذ تقول إحداها: "لا حر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي"³.

يبدو أن نجاح البربر في الحروب والفروسية في فترات تاريخية محددة جعل البعض يردد بصددهم: "لا يقتل الأعداء إلا بهم ولا تعمر الأرض إلا بجوارهم"⁴.

لكن، في المقابل، قد يحل السوار بواسطة حروبيهم⁵ في فترات أخرى حسب الزعيم البربري ابن بلقين. مع ذلك فإنه، وبعد الحكم المستنصر، انفتح المنصور بن أبي عامر أكثر على البربر من زناته وفروعها وغيرها كما أكد ذلك ابن خلدون بقوله: "(...) تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده... ولما خلا له الجومن أولياء الخلافة رحع إلى الجند، فاستدعى أهل العدو من رجال زناته والبرابرة، فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة

1- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق ل. بروفنسال، الرباط، 1934، ص 34.

2- ابن حيان، الحجي، مصر سابق، ص 188.

3- الزجالي (أنور مجي)، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق محمد بن شريفة، فاس، 1975، ج 1، ص 207.

3- لعل تأثير الإنسان بطرق قتال الزناتيين وفروسيتهم يعكسه احتماطهم بكلمة "Jinete" التي تعني الفارس الزناتي، أمثال العوام، نفسه، ص 207.

4- ابن بسام (الشتريني)، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إ. عباس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1975، المجلد الأول، ص 21.

5- ابن بلقين (عبد الله)، كتاب التبيان، تحقيق أمين توييق الطيبي، الرباط، دار عكاظ، 1995، ص 45.

ومغراوة وبني يفرن ، وبني برزال ومكاسة وغيرهم".¹

وأكد ابن عذاري في السياق ذاته أن العامري كان "يستدعيهم [البربر] ويتضمن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس".²

إن استخدام البربر واعتماده بشكل أوسع من قبل ابن أبي عامر كان إيذاناً لخلخلة وتعكير البنيات السياسية والعسكرية القائمة في عصر الخلافة لقد أحدث المنصور تغييرات هامة في تركيبة الجند وتراثيته وطريقة توفير وتأمين أرزاقه ولذلك نعت ما أقدم عليه بالإصلاح العسكري العامري. هذا كما يمكن النظر إلى هذا الإصلاح من زوايا أساسية لها علاقة مباشرة ببنية الجند ورواتبه وعلاقته بصاحب الإصلاح نفسه إذ أقدم ابن أبي عامر على قلب المعادلة أو هرم التراتبية العسكرية الذي حرصت الخلافة على بثه. لقد حول هذا الهرم القائم على القيادات العربية والصقلية إلى آخر احتل فيه الجند البربري الصدارة. بناء عليه وصف بعض الدارسين هذا الانقلاب بأوصاف لا تخلو من بعض المغالاة. فقد لاحظ Gab. Martinez-Gros³ أن استقبال العامريين للبربر أدى إلى مصادرة الفوز العسكري العربي الذي تمتعت به الخلافة. وفي الأمر إقصاء للعربية الأموية، مما جعلها تحقد على البربر. وأشار باحث آخر إلى أن "رفع البربر إلى رأس الهرم أصرم الفتنه والكره ضدهم من قبل الأرستقراطية لعربية الإقطاعية والصقلية البيروقراطية".⁴

ودون الخوض في تفاصيل وأوصاف هذا الانقلاب⁵؛ ربما من المفيد الإشارة إلى بعض الأسباب الرئيسية التي دفعت إلى هذا التغيير يقول ابن بلقين وهو المصدر القريب من الفترة بأن ابن أبي عامر كان يهدف إلى: «أن تكون أحتاده قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقة... إن هم أحد

1- ابن خلدون، كتاب العبر، مصدر سابق، ق. 2، م 4، ص 319.

2- ابن عذاري، البيان...، ح 2، ص 279.

3- Martinez-Gros (Gab), L'idéologie omeyyade.. op. cit., p 158.

4- الطاهري (أحمد)، عامة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط، دار عكاظ، 1989، ص 172.

5- اطري: محمد حناوي، النظام العسكري...، مرجع سابق.

الطوائف بخروج عن الطاعة، غلبها بسائر الفئات".¹ ومن شأن هذه الخطه تصادي الإخلال بشؤون الدولة الذي قد يتسبب فيه الجند إذا كان "صفاً واحداً"² يصعب الارتكان إليه.

يفهم مما سلف أن ابن أبي عامر ربما تأثر بما جاء في مضمون بعض كتب الأحكام السلطانية القديمة القائلة بالمبدأ المشهور "فرق تسد". "ويكفي العودة إلى ما كتبه ابن المقفع في رسالة الصحابة"³، وهي دستور الدولة العباسية في هذا الباب للتأكد من ذلك؛ أو ما أشار إليه ابن رضوان حين ذكر: "يستحب لسلطان أن يكون جنده أجناساً متفرقة وقبائل شتى، بحيث لا يتهماً منهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف"⁴.

هذا وإذا كانت سياسة اصطناع الصقلية من قبل الخلافة تهدف إلى ردع الزعامات العربية أو إيجاد نوع من التوازن معها على الأقل، فإن اتخاذ البربر وتقديمه إلى الواجهة من قبل المنصور أبي عامر كان هدفاً أيضاً لتقليص نفوذ القيادات العربية والصقلية معاً. وهما قوتان تصارعتا بشكل مستمر من أجل امتيازات سياسية وعسكرية واقتصادية. إنها صراعات ثنائية تحولت إلى ثلاثية امتزجت فيها المصالح ما بين العرب والصقلية والبربر.

بعد قلب المعادلة على المستوى الاجتماعي والعسكري، أحدث ابن أبي عامر تغييراً آخر، لا يقل أهمية، مرتبط بوضعية الأرض وأرزاق الجند. لقد قرر ألا يشغل الجند الذي اصطنعه إلا بالقضايا العسكرية؛ ولا ينصرف إلى الشؤون الدنيوية الأخرى التي قد تبعده

1- ابن بلقين، كتاب التبيان...، مصدر سابق، ص 57.

2- نفسه، ص 57.

3- تحدث ابن المقفع عن طبيعة العلاقات ما بين الجند والسلطان قائلاً: "يجب أن يكون «القوم أخلاطاً من رأس مقرط غال، وتابع متحيز شاك، ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الواقعة في الرأي...»".

انظر: الأدب الكسر والأدب الصغير ورسالة الصحابة، تحقيق يوسف أبو حنقة، بيروت، مكتبة لسان، 1964، ص 194.

4 ابن رضوان (أبو القاسم المالقي)، الشهب اللامعة في لسياسة الباعة، تحقيق علي سامي النشار، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص 379.

عن اختصاصه. وربما تأثر العامري بوصايا بعض كتب الأموال والسياسة التي تنصح الحاكمين ألا يشركوا الجند في أمور لا تهمهم كالمستعلات والتاجر¹ كما يذكر ابن أبي النور أو الاهتمام بالفلاحة التي قد تعطل المطلوب من الجند أي الاستعداد للدفاع عن مصالح المسلمين ورد الأعداء عنهم²، لقد حرص ابن أبي عامر على أن تكون "جميع أحناده من الفرسان خاصة من سائر الطبقت والأحرار جميعهم مرتفقون في الديوان"³.

كيف نظم المنصور أرزاق الجند في الديوان كي يضمن له الاستمرارية والانصراف إلى الشؤون العسكرية وحدها؟ يبدو أنه وضع نوعاً من المعاهدة مع الفلاحين والعامّة أعفاهم بموجبها من الخدمة العسكرية مقابل ضرائب تدفع كل سنة رواتب للجند. تشير الإشارات المصدرية المتوفرة إلى أن الفلاحين كانوا لا يرغبون في هجرة أرضهم وفلاحتها والانصراف إلى الحروب. ولذلك رفعوا شكواهم إلى ابن أبي عامر. يقول ابن بلقين في هذا المعنى: "... وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم، ولم يكن القوم أهل حرب فقاطعهم عسى أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطوا كل عام ما يقيم به من أجناد من يكملهم ذلك... فضرب عليهم الإقطاع، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس وكسرها عليهم، وفرض بينهم ما لا يرتزق منه الجيش"⁴ كما تجمع المصادر على أن ابن أبي عامر استغنى عن الفلاحين والمطوعة الذين يشاركون في الحروب والحملات العسكرية التي تنظم ضد المسيحيين. وفي المقابل لقد تمّ الاعتماد على الجند البربري المتخصص والمدرّب على القتال والذي أشرف عليه بشكل مباشر أما العامّة والفلاحون الذين وُصفوا بأنهم ليسوا "أهل حرب" فعليهم العناية بالفلاحة وإعالة من يتوب عنهم في الحروب

1- ابن أبي النور (إبراهيم عبد الواحد)، سياسة الأمراء ولاية الجند، مخطوط الاسكوريال (مريد)، 719/8.

2- إبراهيم (المصري)، إحارة الإقطاع، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، 216 ضمن مجموع.

3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق ل. بروفيسال، القاهرة، دار الكشف، 1956، ص 165

4- ابن بلقين، التيان، ص 58.

يبدو أننا أمام تحديد مهم أو اختصاصات بعض الفئات الاجتماعية حسب إمكانياتها على غرار ما حدث في أوروبا¹ الفيودالية². وربما يكون ذلك مفيداً لأن استنفار الملاحين والعامّة إبان الحملات والصراعات العسكرية قد يؤدي إلى فساد الاقتصاد من جهة، وإلى ارتفاع تكاليف الحرب من جهة أخرى، ناهيك عن انعدام التجربة في القتال لدى هؤلاء مما قد يجر الهزائم.

هل نجح الإصلاح العسكري الذي بناه المنصور بن أبي عامر؟

بتضح للوهلة الأولى أن ما أقدم عليه المنصور كان مغريباً من الراوية التنظيمية فلا شك أنه نجح إلى حد كبير في قلب التوازنات الاجتماعية والعسكرية التي أرسّتها الخلافة. لقد اعتمد الجند البربري باعتباره أداة عسكرية قوية، ونجح في إخضاع جل المجال الجغرافي بالأندلس والشمور كما يتبين من نتائج الحملات العسكرية الكثيرة التي وجهها ضد المسيحيين².

رغم ذلك يمكن القول إن هذا الإصلاح لم يكر شاملاً أو بنوياً كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين. إنه لا يعدو أن يكون شخصياً وظرفياً أو مؤقتاً. وتعبير آخر ارتباط بالطرفية السياسية والعسكرية التي عاشتها الأندلس في آخر لخلافة، أكثر من ارتباطه بتحويلات اقتصادية واجتماعية جذرية. والدليل على ذلك أنه انهار بعد غياب صاحبه مباشرة ولتدعيم هذه الملاحظة يمكن إعادة قراءة بعض لنصوص المصدرة بإمعان لأنها تكشف عن بعض التناقضات الأساسية التي عصفت به.

ومن ذلك مثلاً:

1- في الوقت الذي دفع فيه ابن أبي عامر بالفلاحين، إلى الاهتمام بالأرض والفلاحة وتقديم ضرائب سنوية تكون بمثابة أرزاق الحند المثبت في الدبون، لم تحدد طسعة تلك الضرائب ومقاديرها وأوقات نأديتها وكم عدد الذين يؤدونها. مع الإشارة إلى أن النصوص

1- نظر بعض التفاصيل في محمد حاوي، النظام العسكري، مرجع سابق

2- انظر تفاصيلها في: العذري، ترصيع الأخبار...، مصدر سابق. ابن عذاري، مصدر سابق، ج 2

تشير إلى كثرتها وثقلها ولا شرعية بعضها. وفي لوقت نفسه لا تقدم المصادر إشارات واضحة عن النسب التي يتقاضاها الجند منها كرواتب وهي مخصصة له.

2- يبدو أن الإصلاح الذي همّ الفلاحين بالدرجة الأولى لم يمس أصحاب الامتيازات الكبرى بدليل واضح أن صاحب الإصلاح عمد إلى مصادرة الأراضي بما "لا يرجع إلى قلوب"¹. وأكثر من ذلك أفدم ابن أبي عامر بنفسه على توزيع الأرض كإقطاع على المقربين منه ذكر ابن عذاري أنه لما انتقل إلى مدينة الزاهرة عام 370 هـ: "أقطع ما حولها لوزرائه وكتاب وقواده وحجابه، فاقتوا بأكنافها الدور...، واتخذوا خلالها المستغلات المعيدة... وكثرت فيها لأرفاق، وتنافس الناس في النزول في أكنافها والحلول بأطرافها"² وقد اعتنى البعض من الأراضي التي وفرها له المنصور بن أبي عامر. فهذا أحد كبار الجند يقول رداً عليه: "أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني منها"³.

رغم ما ينم عنه هذا المثال من مبالغة واضحة فإنه يبين أن الإصلاح العسكري العامري أئسم بالولاء وبالطاعة لصاحبه وحده كما يكشف عن ذلك ابن عذاري حين يذكر أن ابن أبي عامر "استرق الجند بإحسانه"⁴. ويضيف: "أخلص له الجند لما رأوا منه من كثرة حوده وكرم عشرته وسعة مائدته، فأحبوه والتفوا حوله"⁵.

إن الأمثلة السابقة كافية للدلالة على التعامل بمعايير أو بمكاييل مختلفة مع الملكية العقارية. ولا يهم هذا السلوك عصر المنصور بن أبي عامر وحده، وإنما يبين أن وصية الأرض في تاريخ الإسلام ما تزال يشوبها الكثير من العموض والتعقيد.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الإصلاح العسكري العامري تميز بالطابع الشخصي المؤقت

1- ابن الخطيب، أعمال الأعلام...، مصدر سابق، ص 98

2- ابن عذاري، البيان...، ج 2، ص 276.

3- المقرئ، النفع...، ج 1، ص 579.

4- ابن عذاري، السان...، ج 2، ص 293.

5- نفسه، ص 279.

لأنه بمجرد موت المنصور بن أبي عامر تفرقت الجماعة المستفيدة منه وعادت الأزمات والعرات والصراعات الاجتماعية والقبلية إلى الواجهة، وانقلبت الأمور بسرعة ضد البربر الذين اتهموا بإشعال نار الفتنة بالأندلس. وهكذا أصبح البربري الزناتي الفارس الذي تغنى الأندلسيون بإقدامه وشجاعته يُعت "البربري"¹، احتقاراً له. وهو ما تؤكد الأمثال العامة المتداولة² بعد غياب ولي نعمة البربر.

ورغم محاولة دولة غرناطة في شخص زعيمها البربري الأمير عبد الله ابن بلقين إعادة الاعتبار للبربر الزناتي والصنهاجي من جديد، فإن محاولاته وإمكاناته كانت محدودة ومرهونة بظروف سياسية وعسكرية أخرى. لقد حدث منها المظاهر الطائفية وانعرات العربية البربرية والصقلبية إلى جانب الصراعات مع المسيحيين وأطماعهم بالأندلس بعد أفول نجم الخلافة وابن أبي عامر في منتهى القرن الرابع الهجري.

1- الزجاني، أمثال العوام...، ج 1، ص 207.

2- تقول بعض تلك الأمثال: "كل ما يحي من الغرب مليح إلا ابن آدم ولريح"، "اعطي للبربري شبر وطلب ذراع"، "البربر والنار لا تعلمهم باب الدار"، أمثال العوام...، ج 1، ص 207.

الهجرة العربية الكبرى إلى المغرب الأقصى

في عهد يعقوب المنصور الموحدي

د. محمد المغراوي

مقدمة:

توافد العرب على المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي سنة 62 هـ في مناسبات عدة، لكن أهمها دخولهم إليه في عصر المنصور الموحدي.

ينقسم دخول العرب إلى المغرب الأقصى إلى مرحلتين اثنتين:

تمتد المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي إلى القرن الخامس الهجري: تميزت بدخول عدد محدود من العرب سواء من قادة الفتح الإسلامي، أو الجنود الذين كان أغلبهم من أصول يمنية، أو بعض المهاجرين والدعاة الذين كانوا يقصدون البلاد لأهداف مختلفة، وقد حالف النجاح بعضهم فأسسوا دولا مثل دولتي الأدارسة والفاطميين، أو بعض.. وكان المهاجرون العرب الفيروانيون من القيسية والأزد ويحصب ومذحج والصدف الساخطين على الأغلبية قد جاؤوا إلى فاس في عهد إدريس لثاني وبالتحديد سنة 805/189، وكان عدد فرسانهم 500 فارس بينما بلغ عدد بيوتهم بفاس ثلاثمائة بيت¹، فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي وولى الكتابة أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي واستقضى عامر بن محمد بن سعيد القيسي². كما استقبل المغرب الأقصى أيضا مجموعة من المهاجرين العرب الأندلسيين الذين استوطنوا مدينة فاس في نفس العهد، قدر ابن أبي زرع عددهم بشماية آلاف بيت³، كما كان من عرب اليمن أيضا بنو صالح الحميريون الذين أسسوا إمارتهم بالريف والتي

1- ابن أبي رزق القاسمي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، دار المنصور، 1973، ص 47.

2- الحزنائي، زهرة الأس، 13، ابن الخطيب، إعلام الأعلام، ق 3/200، الناصري، الاستقصا،

3- الأنيس المطرب، ص 47

استمرت عدة قرون. وقد نتج عن هذه المرحلة تأثير على المدن المغربية خاصة سواء في الثقافة أو العمران أو الإدارة، فاصطبغت بطابع مشرقى بين، وسارعت إلى تعريب هذه المجالات إضافة إلى تعريب المدن بنسبة كبيرة.

المرحلة الثانية بدأت في عصر المرابطين ولكنها بلغت أوجها في عهد يعقوب المنصور الموحدى، ويتعلق الأمر بالاستعانة بعرب إفريقية خاصة من قبائل بني هلال في جيش المرابطين والموحدين، ثم حركة التفرغيب الكبرى التي تمت سنة 1188/584، والتي أدت إلى تغيير ملامح مناطق عديدة بالمغرب.

ورغم الأثر البالغ لهذه الموجة الثانية فإنها لم تحظ مسألة ترحيل العرب إلى المغرب الأقصى في عهد يعقوب المنصور الموحدى باهتمام كبير في المصادر التاريخية سواء منها الإفريقية أو المغربية وعملت كحدث عادي لا يزيد على كونه مجرد تأديب السلطان لقبائل عربية في التسبب والفوضى. رغم أن هذا الترحيل يعد من أكبر التحركات البشرية التي عرفها تاريخ المغرب الوسيط، ويبدو لمتتبع المصادر أن تركيزها الأول كان على ما يقع في الضفة الشمالية حيث كان الصراع بين القوى الإسلامية والنصرانية مصيريا بالنسبة لوجود الدولة الموحدية أول للوجود الإسلامي بالأندلس هذا بالإضافة إلى آثار الوجود الهلالي في الغرب لم تظهر بشكل أقوى إلا في مرحلة لاحقة، إضافة إلى أن ذات القبائل قد ارتبط دخولها إلى إفريقية سنة 430/ بالدمار وتخريب الديار.

فمن هم بنو هلال، وما هي ظروف تفرغيبهم إلى المغرب الأقصى ؟

من أبرز قبائل بني هلال التي دخلت المغرب الأقصى الأثح ورياح وزغة وجشم وسفان.

ينتمي بنو هلال وبينهم بنو سليم إلى عرب الشمال أو العرب العدنانية، وينتسبون إلى جد أعلى يدعى هلال بن عامر. وكانوا يحكم مجاورتهم للأزد من العرب القحطانية بمنطقة نجد بوسط الجزيرة العربية في نزاع دائم معهم، جعل عصيتهم متأججة على الدوام، ومن المحطات الخطيرة في تاريخهم انخيازهم إلى القرامطة حيث صاروا جندا لهم في البحرين

وعمان ، وقدموا معهم إلى الشام في خلافة المعز لدين الله الفاطمي. وبعد انهزام القرامطة على أيدي العباسيين نقل الفاطميون بني هلال وسليم إلى صعيد مصر وتبعثهم قبيلة بني المتفق¹، وقد انضمت إليهم قبيلتا زغبة ورياح اللتين كانتا قد سبقتهما إلى غرب مصر بمحاذاة إقليم بركة².

أما انتقال هذه القبائل إلى إفريقية فقد تم على إثر إعلان الأمير المعز بن باديس انفصاله عن الفاطميين سنة 1051/443 ، فقرر الفاطميون في سابقة خطيرة إغراء القبائل العربية من هلال وسليم وزغبة ورياح بالتوجه إلى إفريقية ودعموهم بالأمول والعتاد، أما زغبة ورياح فقد استقر بهم المقام في بركة وطرابلس ، وأما بنو هلال وسليم فقد وصلوا إلى إفريقية سنة 1105/449 ، وهزمت جيش الزيريين بالعرب من الفيروان ، واستولت عليها وخربتها على ما في الخبر المشهور، ثم تجاوزوها إلى منطقة تونس وإلى الغرب منها أيضا. وبذلك تمكن الفاطميون من تحقيق هدفين اثنين ؛ أولهما هو التخلص من قبائل غير منضبطة، والثاني هو معاقبة الإمارة المفصلة. وقد أدت هذه الهجرة إلى تدمير خطير لإفريقية وخاصة لقاعدتها القيروان التي ظلت لقرون مركز إشعاع علمي وثقافي قوي بالغرب الإسلامي كله، الشيء الذي أدى إلى تحامس الكثير من المؤرخين على الأعراب بسبب هذه الحادثة خاصة منهم ابن خلدون، الذي لا زالت مواقف المؤرخين المعاصرين رهينة تصريحاته بين مؤيد ورافض. وقد وجدت مواقفه ابن خلدون هوى في نفوس عدد من المؤرخين الأحناف وبعض الشعوبيين المعاصرين فعمموها على الجنس العربي ولم يقفوا بها عند حدود أعراب بني هلال وبني سليم

بعد هذه العزوة لم يعد سلطان الدولة الزيرية يتجاوز عاصمتهم المهدية. ولحماية ما تبقى من مملكتهم اضطروا إلى مصانعة الأعراب والقرب منهم. وبالتالي استطاع العرب أن يؤسسوا إمارات في بعض مدن إفريقية لكنها ظلت محدودة التأثير.

1- ابن الأثير، الكامل، 369/9؛ ابن خلدون، المعبر، 72/6.

2- مصطفى أبو ضيف أحمد، القبائل العربية، 57.

ونظرا لشوكة وقوة عصبية العرب الطارتين على إفريقية فقد طرح فقهاء الأندلس بعد أكثر من عقدين من وصولهم إمكانية الاستنجد بهم عندما اشتد ضغط النصارى على الأندلس في عصر الطوائف ، قبل أن يقرروا التخلي عن الفكرة والاستنجد بالمرابطين بدلا عنهم سنة 475 م. وقد استبعدت فكرة الاستنجد بالأعراب لخوف الأندلسيين من بقاء الأعراب في الجزيرة الأندلسية أوقيامهم بالإفساد فيها كما عاثوا فسادا من قبل بالقيروان.

وعندما مد يوسف بن تاشفين سيطرة دولته إلى حدود جزائر بني مزغنا اتصل بمحدود دولتي بني زيري وبني حماد الصنهاجيتين ، مقتريا أيضا من مضارب القبائل العربية ، وهكذا دخلت أعداد من العرب في ظروف لم تفصح المصادر عن طبيعتها إلى الجيش المرابطي حيث شاركت أعداد محدودة سببيا منهم في لجوار الثاني ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 1097/490 ، وتناعت مشاركتهم في عدد آخر من معارك الجهاد في الأندلس ويبدو أن هذه القبائل ظلت خلال العصر المرابطي ترحف عربا حتى وصلت إلى حدود تلمسان.

فما هي إذن التطورات التي حصلت لعرب مع محيي الموحدين ؟

بعد أن أخضع عبد المؤمن المغرب الأقصى يمم شطر المغرب الأوسط سنة 547 / 1154 فوفدت عليه وفود من العرب المقيمين بها من الأثنج وجشم فبايعوه ، وشاركوا معه في فتح بجاية ، لكنهم سرعان ما غيروا مواقفهم خوفا على استقلالهم فتحالفا مع صنهاجة إفريقية وقلبوا ظهر المحس للموحدين ، الشيء الذي دفع عبد المؤمن إلى توجيه حملة قوية بلغ تعداد جنودها 30 ألفا لمعاقتهم وقد التأم حلف العرب من الأثنج ورغبة ورياح وبنو قرة وأعرضوا عما كان يبيهم من أحقاد ، وجمعوا جمعهم وتقدموا لمحاربة الموحدين ، وقد تبين لروجار صاحب صقلية أن انتصارهم إن حصل سيكون درعا ورداء له من الموحدين فعرض عليهم خمسة آلاف من الروم فرفضوا لما كانوا يأملونه من النصر ، وقد التقى الجمعان بنواحي سطيف سنة 1153/548 فدارت الدائرة على العرب ، وفروا على وجوههم في الصحراء لا يلبون على شيء ، وأتبعهم عبد المؤمن بجنوده إلى حدود حيان الأوراس ، وغنم الموحدين من أموالهم وسيبهم الشيء الكثير ؛ لكن بالرغم من هذه الانتصارات فإن عبد المؤمن وهو الخبير بهندسة العصبية القبلية قد عالج الظرف بتدبير سياسي بعيد الغور ، فأمر

ياحاطة نساء زعماء العرب وأولادهم بعناية خاصة حتى وصلوا إلى مركش فأكرم نزلهم، وأرسل إلى العرب يخبرهم بأنه قد بذل لهم الأمان وأحاطهم بالعفو، فوفد عليه عدد من زعمائهم فسرّح لهم نساءهم وأولادهم، ومنحهم أموالاً جزيلة وصرفهم إلى بلادهم رغبة منه في استمالتهم إلى خدمته أو على الأقل مهادنة دولته.

لقد تظن عبد المؤمن بن علي إلى أهمية العنصر العربي في توازن العصبيات بالمغرب، خاصة بالنسبة للعصبة المصمودية التي كان عليه أن يصانها منذ البداية. كما تظن إلى قدرة هؤلاء العرب المتفلتين على خلق مشاكل عويصة في أطراف الدولة التي كانت تطمح إلى توسع جارف.

يدوأن هذا السلوك لم يكن عفويا بقدر ما كان مقدمة سياسية لما سيأتي فيما بعد من رغبة في إشغال العرب في عمل عظيم باستثمارهم للجهاد في الأندلس، فعندما عاد عبد المؤمن إلى إفريقية على رأس الجيش الموحيدي إلى إفريقية سنة 553 / 1159 تمكن من القضاء المبرم على عدد من الإمارات العربية المستقلة بها وفصح إفريقية كلها وجاءته بيعة بعض القبائل من ناحية طرابلس. وخلف الانتصار أصداء واسعة فامتدحه الشعراء، وبما قاله الكاتب عبد الملك بن عياش القرطبي :

وإنما بعثت من جشها نملا ألقى نفائسه في كف منتهب
صدرت بالعرب العرباء وانقلبت عن الحسام رياح شر منقلب

وقد ظهر للخليفة منذئذ أن ينقل العرب معه إلى المغرب الأقصى ليكون في مأمن من تقلب ولائهم، فأحلف رعماءهم على مصحف عثمان على السمع والطاعة له، وعلى الاشتراك في الجهاد في الأندلس إلى جانب الجيوش الموحدية، فوافقوا على ذلك لكنهم تراجعوا عندما وصلوا إلى نواحي وهران وقرروا العودة إلى ديارهم، فشرط عبد المؤمن عليهم اصطحاب ألف شخص من كل قبيلة بعيالهم إلى المغرب الأقصى وكانوا من رياح وجشم وبني عدي، وأشار المؤرخ ابن صاحب الصلاة إلى كثرة عدد هؤلاء فذكر أنه "ضاق

بهم الفضاء ونافسوا الحصى والذباب في كثرته¹.

يتضح أن استجابة أعداد كبيرة من العرب لطلب عبد المؤمن تدل على نجاح خطته، كما أن تراجعهم يدل على ارتباك موقفهم وضعف إرادتهم أمام الانتصارات العسكرية والحنكة السياسية للموحدين. وكتعبير عن ترحيبه باستجابتهم فقد صير هؤلاء جندا له²، وقد حددت رسالة رسمية موحدية سبب عجزهم بالافتقار على "خدمة الأمر العزيز... ومخافة الغزو ومصاهرة الجهاد"³. وذكر ابن الأثير أن عدد العرب الذين طلبهم عبد المؤمن بلغ عشرة آلاف⁴، بينما أشار ابن أبي زرع إلى عدد الأسرى الذين حووا إلى المغرب وهم ألف أسرة دون أن يشير إلى عدد المحاربين من بينهم⁵.

لقد لعب زعماء العرب دورا سياسيا خطيرا إلى جانب عبد المؤمن عندما اقترحوا عليه مبايعة ابنه بولاية العهد، وكان من قبل قد اتفق مع أبي حفص عمر الهشاني أقوى رجل في المصامدة على أن يلي الحكم بعده، الشيء الذي يدل على أن تخطيط عبد المؤمن في الاستفادة من العرب قد بدأ يؤتي أكله. وكان العرب من السابقين إلى مبايعة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الذي عمل هو أيضا على تقريبهم والإحسان إليهم، وقد شجع هو الآخر العرب على الالتحاق بالجهاد في لاندلس، وأمر الفيلسوف ابن طفيل في استنفار حميتهم بقصيدة مشهورة قال فيها:

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب	اغزو الأعادي واقتساء الرغائب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنا	ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم	على الهول ركاب ظهور المصائب

1- المن بالإمامة، 144.

2- المعجب، 157.

3- مجموعة رسائل موحدية، نشر ليفي بروفصال، ص 118-119.

4- الكامل، 246/11.

5- القرطاس، 199.

ومنها قوله :

ألا قابضوها همة عربية تعز بأطراف القضا والقواضب
أفرسان قيس من هلال وعامر وما جمعت من ضاعن وضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها بطاعة أمر الله من كل جانب¹

وكانت مشاركتهم في حروب الأندلس في عهد يوسف مشهودة، فقد شاركوا بفعالية في الصراع بين الموحدين وابن مردنيش بشرق الأندلس²، وأول مشاركة بهم في هذا الصراع ذكرتها المصادر كانت في الحملة التي قادها السيد أبو حفص سنة 560 /، والتي أدت إلى نشوب معركة فحصر الجلاب، لتي أبلوا فيها البلاء الحسن بحكم انبساط المنطقة التي حصلت فيها المعركة، وقد لاحظ قادة جيش ابن مردنيش أهمية مشاركة العرب، فظموا هجوماً على الجناح الغربي للجيش للجيش الموحد الذي كان مكوناً منهم، الشيء الذي أدى إلى مقتل سبعة من شيوخ العرب في هذه المعركة³. كان للعرب طرق خاصة في القتال، كانت تعتمد أساساً على الكر والفر⁴، وتعتمد بشكل أساسي على الفرسان⁵. وكان هذا الأسلوب يؤدي إلى خسائر كبيرة في الحيلوش النظامية لأن المهاجمين يهاجمون أطرافها، ولا يلتحمون ببقية الجيش ثم يتراجعون في حالة الشعور بضغط العدو. وكانت هذه الطريقة تسجّم مع حروبهم في الأراضي الصحراوية المبسطة. لذلك فإن الطبيعة الجغرافية لبلاد الأندلس لم تكن دائماً لمصلحة المحاربين العرب، فقد تعذر على المشاركين منهم في حملة يوسف بن عبد المومن على وبدة الاستمرار في المشاركة عندما عانوا مكان المعركة معتردين

1- المن بالإمامة، 70.

2- رسائل عزوي، 81- 89، عنان، 17/2

3- أخبار المهدي، 165/اليان، 89- 90/ عنان، 16/2- 17

4- العبر، 212/6

5- مرمول، 113/1

بأن "حربهم تحتاج إلى انفساح حيث يروحون ويتصرفون"¹. وبسبب مشاركتهم في الحروب بالأندلس استقرت أعداد منهم هنالك، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن "بالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم محومين خمسة آلاف فارس سوى الرجال"².

ورغم كل المحاولات التي بذلها عبد المؤمن وابنه يوسف في استمالة العرب وتقريبهم فقد تابع من بقي من العرب بإفريقية قراقوش الغزي الذي وصل إلى منطقة طرابلس سنة 570/، ويبدو أن مشاركتهم إلى جانب هذا المغامر قد ألهم في نفوسهم الرغبة في الشغب، إذ سرعان ما انضموا إلى علي بن غانية المعروف بالميورقي الذي ظهر بها سنة 580/ وهي نفس سنة وفاة يوسف بن عبد المؤمن. كان انتقال بني غانية إلى إفريقية تحولا استراتيجيا مفاجئا للموحدين دعاهم إلى التحرك على جناح السرعة، خاصة وأنه استطاع السيطرة بسرعة على بحاية ثم على ملانة وقلعة بني حماد، وحاصر قسنطينة، وأظهر العرب الخذلان للوالي الموحد بن أبي الربيع سليمان بنضمامهم أثناء معركة استرجاع بحاية إلى ابن غانية. لذلك قرر الخليفة المنصور التوجه بنفسه على رأس جيش الموحد بن رعم حساسية الظرف الذي استلم فيه الحكم حتى لا يتقوى التحالف الصهاجي الهلالي الذي التأم بسرعة بسبب التقاء مصالح الطرفين.

ورغم أن العرب كانوا حاضرين في بيعة الخليفة يعقوب المنصور سنة 580/1184، بحيث كان أول من بايعه أعيان زغبة تلمسان ومن معهم من العرب بقصر مصمودة وهو في طريقه إلى مراكش. إلا أن بني عمومته في الطرف الآخر كان بعضهم في جانب بني غانية. وبعضهم مثل قبيلة زغبة صاروا بدا واحدة مع بني يادين من رناة في حماية العرب الأوسط من بن غانية وأتباعه"³.

نظم الخليفة المنصور حملة برية وأخرى بحرية واسترجع المدن التي احتلها ابن غانية،

1- ابن صاحب الصلاة، 418

2- المعجب، 226

3- ابن خلدون، العبر، 48/6

وأمام ضغط القوة الموحدية توغل ابن غانية في صحراء الجريد، واكتفى الموحدون بهذا النصر دون أن يغامروا في تعقب فلول المنهزمين في الصحراء وقد أعاد ابن غانية ترتيب صفوفه بدعم من العرب الهلالية خاصة من جشم ورياح فاستطاع بواسطة هذا الدعم احتلال توزر وقفصة والتوغل في اتجاه طرابلس إلى أن التقى بقراقوش الغزي الذي كان يسيطر على مناطق شاسعة من طرابلس تمتد إلى زويلة وفزان، فتكون بذلك حلف ثلاثي محركه هو العداء للموحدين، وقد دفع هذا الخطر الذي انتصب وجه الموحدون من جديد الخليفة المنصور إلى التفكير الجدي في كسر شوكة، فاشتغل منذ عودته إلى المغرب في إعداد حملة قوية لحسم شره، فتوجه سنة 583/ على رأس جيش قوي بلغ تعداداه 20 ألف رجل، وعندما نما خبر الحملة إلى بني غاسة تراجعوا قليلا إلى الصحراء فأتبعهم المنصور بقطعة من جيشه بقيادة ابن عمه أي يوسف فانهزمت بواحي قفصة هزيمة نكراء قتل فيها أغلب الجند والقادة، فقرر الخليفة التوجه على رأس جيشه فتمكن من هزيمة ابن غانية وحلفاءه في معركة الحامة في شعبان 583/1187 وتبع حلفاء ابن غانية فحاصر قراقوش في قابس حتى استسلمت، واسترجع توزر وقفصة وهدم أسوارها، وتبع مضارب القبائل العربية بالتخريب. وتقرر لديه تغريب القبائل التي تمكن منها عقابا لهم على موافقهم، فأنزلهم بمنطقة سهلية في الغالب حصبة الأراضي كثيرة المياه، وورعت قبائلهم على الشكل الآتي نزلت رياح من بني هلال ببلاد البيط الممتدة إلى شمال نهر لكوس وسهل أرغار على ساحل البحر، وأنزل قبائل حشم ببلاد تامسنا الممتدة من نهر أبي رقراق إلى نهر أم الربيع والتي كانت قبل ذلك مجالا لبرغواطة ودكالة¹.

أسكن الموحدون القبائل العربية في أراضي كانوا يعتبرونها أراضي مفتوحة ملكا للدولة ويبدون أن الموحدون قد منحوا للعرب حق الانتفاع في هذه الأراضي مقابل الخدمة العسكرية وأداء الزكوات الشرعية لبيت المال. لكن لا نملك معلومات عن طرق الاستغلال التي اعتمدها العرب، ويظهر أنهم احتاجوا لكثير من الوقت للتكيف مع الظروف الجديدة والتحول من رعاة رحل إلى زراع مستقرين. أما علاقتهم بسكان هذه المناطق من الأمازيغ

1- الاستقصا، 168/2 - 169

فلم تشر إليها المصادر مما يجعل باب التساؤل مفتوحا على مصراعيه حول ظروف القرار الموحدى وملابساته، وحول طبيعة العلاقات التي نسجها العرب الوافدون مع مجالهم الجديد.

بكن كل ما قام به الموحدون في هذه الحملة لم يبلغ خط الحسم لأن المنصور اضطر إلى الرجوع إلى مراكش لتدارك تحرك بعض قرابته الذين أظهروا الانتزاع ورغم اختفاء علي بن غانية عن مسرح الأحداث بعيد ذلك بوفاة غامضة، فإن تولي أخيه يحيى لشؤون بني غانية قد أعاد تكوين الحلف مع الأعراب وقراقوش وطل يحارب الموحدين لعدة عقود بعد ذلك، وعززت صفوفه بوصول الجماعات الأولى من بني سليم إلى إفريقية قادمين إليها من برقة وشرق طرابلس. وكان من أبرز زعمائها المرحلين مسعود بن سلطان البلط¹، ولا نعرف الظروف التي تمكن فيها هذا الرعيم من العودة من المغرب إلى إفريقية في عهد محمد الناصر، وتحالف من جديد مع بني غانية ضد الموحدين، كما أنه هاجم القبائل العربية التي تخلت عنه قبل ذلك، إلى أن تمكن القائد الموحدى أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص من هزيمته سنة 1205/600.

وإذا استثنينا استعانة الموحدين بالعرب في الأندلس، فقد أصبحوا متوجسين منهم فلم يكونوا يصحبونهم معهم في حروبهم داخل المغرب، حيث لم ترد إشارات إلى ذلك في المصادر. لذلك لم يستصحب المنصور العرب في جيشه في حملته إلى إفريقية سنة 582 خرفا من غدرهم والتحاقهم ببني عمومتهم "إلا بعضا من أشياح رياح كبني ريان، رعياء لقدم هجرتهم، وقيضا بتصحيحهم"²

كيف توزع العرب في البلاد؟ لا نعتقد أن توزيع العرب بالمغرب الأقصى قد تم برغبتهم، بقدر ما كان قرارا سياسيا للدولة الموحدية التي كانت شديدة التمرکز، حريصة على ضبط استراتيجيتها الأمنية، فاختيار المنطقة الساحلية من بلاد الهبط إلى نهر أم الربيع قد

1- برانشفيك، إفريقية في العهد الحفصي، 38/1.

2- بيان، 186

تحكمت فيه عدة أمور منها البعد الأمني بحيث تكون هذه القبائل في متناول الحركة السلطانية التي كان تحركها في هذه المناطق أسهل من أي منطقة أخرى إذا ما ظهر منها ما يستدعي التدخل. ثانيا البعد الجهادي، فهذه المنطقة كانت مطروقة من طرف الحملات الموحدية بشكل دائم في نردها على الأندلس، ومن هنا يسهل على الموحدين تجييش أعداد كبيرة من المحاربين من أبناء القبائل العربية.

تبدو مسألة رغبة الخلافة الموحدية في توظيف القبائل العربية في تحمل قسط من العبء الأندلسي مقبولة إلى حد ما في فهم ظروف نقلها إلى المغرب على مراحل، وهذا يحيل على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار للتحليل الديمغرافي والاجتماعي للسكان المغربية، التي لم تكن تزيد في أحسن الأحوال عن بضعة ملايين، لكن مع ذلك فإن التحليل المتأنى للمسألة في سياقها التاريخي يدفع إلى طرح عدة تساؤلات من قبيل هل كان توظيف القبائل العربية بسبب قلة السكان أم أن الأمر يتعلق أكثر بالظروف السياسية المضطربة التي أحاطت بالدولة الموحدية حتى في أزهى مراحل تاريخها فحرمتها من نعمة الاستقرار، حيث ظلت الجهات مشتعلة، تارة بالرحف الصراني في الأندلس، وأخرى باضطراب القبائل أو ظهور الثوار، وثالثة بظهور متزبن من البيت الموحي نفسه، الشيء الذي كان يؤدي إلى استنراف أي قوة عسكرية مهما كان حجمها.

ولعل المنصور في محاولته لإدخال القبائل لعربية إلى المغرب الأقصى كان يهدف إلى تحقيق أكثر من هدف؛ فمن جهة أرد إنهاء القلاقل التي خلقها الأعراب للدولة الموحدية بصحراء إفريقية ومما ألتهم للقوة المناوئة للموحدين سواء منها فرغوش العزي أو بني عانية؛ ومن جهة أخرى أراد الاستفادة من طاقة بشرية محاربة في حروب الموحدين بالأندلس.

لقد أدت الهجرة الهلالية إلى تعريب مناطق بدوية شاسعة في السهول الأطلسية والمناطق المجاورة لها، لكن التعريب توقف عند حدود أقدم الجبال. ومع ذلك فقد تأثرت عربية عرب النخوم ببعض التأثيرات الأمازيغية. لقد تفاعل العرب لهاليون بشكل قوي مع الدولة والحال وسكانته، أكثر من عرب معقل الذين ساعدهم الأعرال في الصحراء على الاحتفاظ بكثير من مقومات هويتهم بما فيها اللغة

يبدو أن أعراب إفريقيا قد أعرتهم الرحلة إلى المغرب، فهاجرت أعداد أخرى منهم واستقرت بالجهات الشرقية والجنوبية¹.

يظهر مما تقدم أن التاريخ المتقلب لمقائيل العربية ومحاولة إعاقتها للتجربة وحدوية الموحدية كان يتطلب موقفا صرما من الخليفة الجديد، خاصة وأن الإيديولوجية الدينية والسياسية للموحدين كانت تنطوي على الرغبة في تأسيس خلافة قوية تعيد للإسلام مجده ليس في الغرب وحده بل في المشرق أيضا، وكانت أصداء هذه النوايا قد وصلت إلى المشرق، فبادر بعض المتنفذين في دولة اناصر صلاح الدين الأيوبي إلى إرسال قراقوش الغزي بجيش قوي إلى منطقة طرابلس ليكون حاجزا بين مصر والموحدين. وقد استفاد قراقوش في مغامرته كثيرا بالمقاتل العربية التي يبدو أنها قد حكمت على نفسها بمعاكسة التاريخ والسير في اتجاه مغاير تماما لمخطط الموحدين في تأسيس دولة مركزية قوية بالغرب الإسلامي.

1- العبر، 69/6 - 70

استقرار قبائل صنهاجة بتانسيقت

الحدث وبعض أبعاده المجالية

د. محمد رابطة الدين

المنطلق والغاية:

منطلق هذه الورقة حدث سياسي ترتبت عنه تحولات عميقة في الغرب الإسلامي امتدت على مدى أربعة قرون، وغايتها الوقوف على بعض مظاهر هذه التحولات في المجال الخاص بمراكش ومحيطها، كحالة تسمح بتدقيق النظر في مساهمة الفعل السياسي في إنتاج حياة الاستقرار في وسط جغرافي لم تكن مميزاته الطبيعية تؤهله بذلك، وسوف نركز على مظهرين فقط من مظاهر هذه التحولات هما السكان والتعمير.

تحديد المجال:

يقع مجال تانسفت¹ بين دبر الأطلس الكبير الغربي ومرتفعات الحсилات، وبهم موضوعنا القسم الأوسط من خريطته، وبالذات الإطار الجغرافي الذي يمتد من مراكش ومحيطها جنوباً إلى الضفة الجنوبية لوادي تانسفت شمالاً.

تحديد الإطار الزمني:

يغطي الإطار الزمني للموضوع الحقبة الممتدة من منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، إلى أواخر العقد السادس من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وإن كانت بداية الحقبة لا لبس فيها ولا غموض، فإن نصلها الأخير قد يشير

1- يعرف أيضاً باسم "الحوز"، وقد أثربا استعمال الإسم الأول، لسبقه الزمني في الاستخدام وتأخر

تداول الثاني الذي يرجع إلى منتصف العقد الثاني من القرن السادس عشر، أنظر: Gaston

Deverdun, Marrakech des origines à 1912, tome 1, Rabat, 1959, p. 1, citation

[°] 1, Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, tome 1, Rabat, p. 24.

تساؤل التأمل لكونه يقع خارج زمن حكم المرابطين. ويرجع الحرص على إدخال هذا الحيز الرسمي في الاعتبار إلى ما تمثله هذه الحلقة من تقديم لسابقتها إذ بها اكتملت مراحل تعمير المجال، وبلغ فيها تنوع عناصر السكان ونموهم الديمغرافي وخريطة توزيعهم أقصى درجاته في العصر الوسيط.

أسباب اختيار المجال والزمان:

أما أسباب اختيار المجال والزمان المؤطرين للموضوع فيمكن اختزالها في ملاحظتين هما:

- تميز الفترة بظهور دولتين مركزيتين بالغرب الإسلامي هما على التوالي دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ثم دولة بني عبد المومن الموحد في بداية العقد الرابع من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وكل تجربة سياسية منهما كانت سبباً مباشراً لتحرك بشري ضخم إلى المجال، الأول مع قبائل صنهاجة، والثاني مع مصامدة الجنوب وبيالدات قبائل الأطلس الكبير المغربي.

- اختيار كلا الدولتين الإطار الجغرافي المشار إليه من مجال تانسيقت موقعا لعاصمتها مراكش التي أسستها الدولة الأولى، وبلغت توسعتها القصرى في العصر الوسيط مع الثانية، وكانت لهذه الوظيفة السياسية للمدينة، عامل جذب بشري إليها من مختلف أنحاء الغرب الإسلامي ومن حارجه.

الإطار البشري للمجال قبل استقرار قبائل صنهاجة:

ينتمي هذا المجال قليلاً إلى وحدة مصمودة الجنوب وبيالدات إلى قبيلتي مزمية وهيلانة¹، يقع الحيز الترابي الأولى بين مراكش شرقاً وركراكة غرباً، ويمتد حيز الثانية بين مراكش غرباً

1- ابن عداري، البيان، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1967، ص. 19؛ مجهول، الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، البيضاء، 1979، ص. 15.

ومواطن قبيلة مسفيوة اليوم¹ ويمثل وادي إغزر² الحدود الطبيعية الفاصلة بين مجالي القبيلتين³. وحسبما يفهم من الإشارات المتداولة فإن انتماء هذا المجال إلى القبيلتين المذكورتين كان انتماء تملك دون استيطان لأنه كان فارغاً بشرياً⁴ غير أن أهميته الاقتصادية كانت واضحة عند الأهالي، فهو منطقة رعي⁵. وهذا النشاط الاقتصادي جعل منها مجاًلاً حيوياً لسكانة السفح الشمالي للأطلس الكبير الغربي⁶.

حدث الاستقرار وسياقه:

ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، عرف مجال تانسيقت وصول واستقرار كتلة بشرية ضخمة، قدمت من الجنوب شكلت قبائل صنهاجة عناصرها الأساسية، لا يتعلق هذا المجيء وما ترتب عنه من جهة، بمزاحمة على المجال وتنافس عليه بين القبائل التي تمتلك تاريخياً حق التصرف فيه، وشرعية الانتفاع من خيراته وهي هيلانة وهزميرة، وبين قبائل أخرى تجمعها بها وحدة الانتماء إلى الأصل المصمودي والجوار، والتقدير المشترك لقيمتها الاقتصادية وجدواها، وتطلع هذه القبائل إلى الاستفادة

1- أس الربات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، البيضاء، 1984، ص. 142 هامش 209، ص. 213 هامش 276.

2- يعرف اليوم بوادي إسيل، ويقع خارج الواجهة الشرقية من أسوار مراكش. راجع: التشوف، ص. 341 والهامش 52 من نفس الصفحة.

3- Voir Marrakech des origines, 1/ 52; Le Haouz de Marrakech, 1/ 373.

4- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد رعلول عبد الحميد، البيضاء، 1985، ص. 210؛ البيان، 19/4؛ الخلل الموسوية، 16.

5- البيان، 19/4؛ الخلل الموسوية، 16؛ محمد رابطة الدين، مراكش على عهد الموحدين - جوانب من تاريخ المجال والإنسان، أطروحة دكتوراه الدولة في الآداب، شعبة التاريخ، تخصص التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002 (مرفوعة)، ص: 9 - 14.

6- Ali Sadki, Le montagne Marocaine et le pouvoir central un conflit séculaire mal élucidé, Hespéris- Tamuda, volume XXVIII, fascicule unique, Rabat, 1990, p. 18.

منها بتصيب. ولا يتعلق من جهة ثانية بكتلة بشرية طرء عليه ، لا تربطها بأهله لحمه العصبية أو أحلاف المصالح. بغيتها غلب أصحابه على ما في أيديهم وانتزاع أرزاقهم ، أو الرغبة في توسيع المجال التي يعديها النزوع الطبيعي إلى استكثار مصادر الحصول على احييات. والمؤكد أن هذا الحدث جاء في سياق ظرفية تحول سياسي عميق ، كان ظهور الدولة المركزية بالمغرب صلب مضمونها

عناصر السكان:

بدأت عملية التعمير وإعادة تشكيل الإطار البشري للعاصمة مباشرة عقب دخولها من طرف الموحدين ، و بقيت مستمرة بوتيرة غير متجانسة الخصوصيات ساهمت كلها في تنويع عناصر تركيبة ساكنة المدينة ، وإحداث تموجات وذبذبات على منحنى تطورها الديمغرافي ويبدو أن معالجة المؤشرات التي أمكن رصدها في المصادر المتداولة تسمح باختزال عناصر هذه الساكنة في مجموعات ستة واضحة هي :

1- مجموعة مغربية:

تتكون أساساً من مصامدة الجيوب وتمثل لقاعدة العريضة للسكان. ميرانان تحكمت فيهما ظرفية دقيقة مجملها إقصاء تجربة سياسية وميلاد أخرى ، ومن شأن وضعية من هذا النوع أن ترفع درجة لمشاغل الأمية ، وتقوي عناصر الترقب والحذر. ومن المرجح أن تقدير الأمور بهذا الحجم لم يكن غائياً من حسابات الحكم الجديد ، ولعل إبعاد النظر في طبيعة تركيب الإطار البشري الجديد وحجمه ومهامه لا تستبعد ذلك ، فالمؤكد أن هؤلاء السكان الجدد شكلوا درع الحكم الفتني وسده الأول ، وأداة تأمين سلامته خاصة في هذا الطرف الدقيق بالذات. ومهام تميرت بهذه الحساسية القصوى استلزمت في الغالب وضع شروط ضمانها ودوامها ، منها ما هو نوعي ويتجلى في الولاء السياسي ومهما ما هو كمي وقوامه : الحضور البشري الكثيف المنتج للقوة.

هذه الملاحظات تجعل في المقام الأول قبائل الموحدين المجموعة المرشحة لتشكيل القاعدة البشرية لسكانه المدينة ، مما يقوي ذلك تطلعها أيضاً إلى الاستفادة من بعض امتيازات الوصول

إلى الحكم. ومعلوم أن مكونات هذا العنصر كانت تشمل هرعة وأهل تنمل وهتاتة وكنفيسة وكدميوه وبعض قبائل صنهاجة وهسكورة¹. وقد قدم البيدق لائحة بأسماء الوحدات التي دخلت المدينة تتضمن ستة، منها أربعة تنتمي إلى صنف قبائل الموحديين وهي: أهل تنمل وهتاتة وصنهاجة وهسكورة، ثم عبيد المخزن والقبائل²، ومن المرجح أن عدم ورود أسماء الوحدات الأخرى في لائحة البيدق لا يعني غيابها لحيثيات مختلفة منها نعتة الداخلين الجدد إلى العاصمة بالموحديين، ومنها عدم استبعاد خطة في توزيع المسؤوليات بين هذه الوحدات تجعل البعض منها بعيداً عن مواقع الأبواب التي تم منها الدخول إلى مراكش بعد انتهاء الحصار، ومنها ذكر سقائف خاصة بهم في حومة الصالحة فيما بعد³.

2- مجموعة من المغربين الأوسط والأدنى:

لعل أبرز مكونات هذه المجموعة تكمن في مجيء قبيلة كومية وحلول عدة أسر تنتمي إلى هذا المجال بالعاصمة الموحدية، لذلك يبدو مفيداً تناولها من خلال التمييز بين العنصرين:

أ- قبيلة كومية:

دخلت هذه القبيلة الزناتية إلى مراكش واستوطنتها عام 557 هجرية / 6211 ميلادية، وقدر ابن أبي زرع عدد أفرادها بأربعين ألف نسمة⁴. رقم مثير ما في ذلك من شك، خاصة إذا تم استحضار مميزه النوعي المتمثل في كون هذه الإحصائية تهتم فقط بالفرسان،

1- المعجب، ص 340. وقد أضيفت إليه قبيلة كومية بعد دخولها إلى مراكش.

2- أخبار المهدي، ص 64. وفيما يخص القصد بالقبائل عد الموحديين، من المرجح أن الأمر يتعلق بقبائل مسمودية كانت تستوطن الدير الشمالي للأطلس الكبير العربي مثل: إيلان وركراكة، وأخرى كانت مواطنها تقع في أجراء من السصح الشمالي لنمس المجال مثل أوريككة، أهل نفيس وهزرجة. انظر في هذا الصدد: البيدق، المقتبس من كتاب الأساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن مصور، الرباط، 1971، ص 49 - 50 والمعجب، ص 341.

3- محمد المنوني، ورقات عن الحصار المغربية، الرباط، 1979، ص 303.

4- ابن أبي زرع لغاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، طبعة دار المصور، الرباط، 1973، ص 201.

وهو مؤشر له قيمته في فهم ظرفية حلول هذه الطاقة البشرية، وكيفما كان حجم المبالغه الذي يمكن أن يلحق هذا التقدير، فالملاحظة التي تبدو موضوعية أكثر هي وجاهة الجانب الكمي من المسألة، إذ المرحح أن الأمر يتعلق بحضور كثيف: تعتبر هذه الخصوصية فيه بالذات أداة ربط عضوية بين وجود كومية في مراكش والغاية منه¹

1- تسمح معالجة مجموعة من الجرائنات المتعلقة بالفترة بترجيح أهمية القبيعة العددية لأهل كومية الذين قدموا مراكش، كشرط أساسي في مكونات هذه الوحدة القبلية يجعل منها طاقة بشرية ذات قوة مؤهلة للقيام بما جاءت من أجله، وهو الاسهام في دعم وحماية البناء السياسي لحكم بني عبد المومن. وهو الاختيار الذي فرضه عبد المومن=

= والقائم على وراثة الخلافة في عمه، وهيمنة الأسرة على معظم مقاليد السلطة المركزية وغير المركزية. ومن غير المستبعد أن يتم تحول مصيري من هذا الحجم في بنية النظام الموحد دون أن يشير إما بشكل مكشوف أو مضمحل حساسيات الخلاف والرفض لما يحالف تقاليد التشاور في اختيار الزعامة السياسية كما جرت العادة بذلك في تربية عبد المومن. ففي الخطوة تهميش لأهل العشرة، وإقصاء للرجل الثاني بعد عبد المومن في هذه الطبقة من الهرمية الموحدية أو المؤهل للولاية بعده، إذ تم استحصار أسلوب "النراصي" الذي تم على قاعدته تعيين عبد المومن على رأس هرم الحركة الموحدية، إلى جانب هذا ودانك ففي الخطوة مؤشر تحويل مقاليد الحكم من يد أهل الأطلس وهم الذي قام بهم أمر الموحدين، إلى يد إطار قبلي غريب عن المجال وأهله والتجربة السياسية التي ولدت فيه ولعل في طسعة بعض الأحداث التي وقعت خلال تاريخ قدوم كومية نالذات ما تستشف منه مؤشرات هذه الحساسيات منها ردع رموز بارزة في التجربة بعدما أبانت عن مخالفتها، ويتعلق الأمر بأهل هرعة وأهل تنمل، وقتل أخوي المهدي وأنباعه وقرية بصلتين وفي غياب ما يلزم من عناصر لفهم موضوعي لهذه الأحداث، يمكن التساؤل على الأقل عن وجود روابط بين الخطوة من جهة وهذه الأحداث من جهة ثانية أليس في طبيعة الرد واتخاذ الخطوة خطاباً للترهيب والترغيب يقطع الطريق أمام كل معارضة أي كان مصدرها؟. وفي وضعية سياسية من هذا النوع تصح الاشتغالات الأهمية ذات أهمية قصوى، وتصدر الحفاظ على ميزان القوة أولوية الأولويات في عمل لحكم القائم ولعل هذا السياق يسهم في فهم دواعي انتقال كومية إلى مراكش والاستقرار بها، وفي ترجيح الأهمية العددية لهذه الكتلة البشرية.

يراجع في هذا الإطار: أخار المهدي، ص. 76، 78-79؛ القرطاس، ص. 194، 201؛ الخلل، ص 151؛ العبر، ج 6، صص 260 - 261.

ب- أسر من المجال:

استقرت بمراكش في هذه الفترة بالدات مجموعة من الأسر ذات أصول جغرافية إما من المغرب الأوسط أو إفريقية ، وحسبما يبدو فقد كانت وراء انتقالها في أغلب الأحوال إما أعراض مخزنية¹ أو أهداف علمية² ، وفي بعض الحالات التقى الأول بالثاني³ . وإذا لم تسعف الإمكانيات المرجعية المتداولة في الرهان على الوصول إلى تقدير تقريبي لعدد هذه الأسر وحجمها الديمغرافي ، فإنها تؤكد الاستقرار الدائم لها بالعاصمة ، من المؤشرات الدالة على ذلك تقلد عدد من الأفراد داخل الأسرة الواحدة لمهام مخزنية مثل أسرة ابن دافال الوردميشي التلمسبينية التي اشتهرت بتولي خطة القضاء⁴ ، ومثلها في ذلك أسرة ابن منصور الجنب من المهديّة بإفريقية ، التي كانت لها مقبرة خاصة بها عند باب تغزوت⁵ .

ويقدم الجدول التالي لائحة بأسماء بعض من هذه الأسر:

اسم الأسرة	أصلها الجغرافي	المصدر
اس دافال الوردميشي	تلمسان	الذيل : 254/1/8
الللخمي	تلمسان	الذيل : 266/1/8
الهمذاني	وهران	الذيل : 339/1/8
ابن منصور الجنب	المهديّة	الذيل : 286/1/8
ابن صمغ القرشي	تونس	الذيل : 220/1/8

1- ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة ، تحقيق محمد بن شريفة ، السفر الثامن ، القسم الأول ، الرباط ، 1984 ، ص 266.

2- الذيل ، 220 / 1 / 8.

3- الذيل ، 254 / 1 / 8 - 256.

4- الذيل ، 254 / 1 / 8 - 256.

5- الذيل ، 286 / 8.

3- مجموعة أندلسية:

توفر الإشارات المتداولة المتعلقة بهذا العنصر إمكانية الوصول إلى خلاصة محتواها: أهمية الحضور الأندلسي ضمن نسيج ساكنة العاصمة الموحدية، وهي ملاحظة يمكن رصد بعض تجلياتها في جوانب متعددة من مكونات المدينة، تكفي الإشارة إلى ثلاث منها: أولاها وجود حومة كان أكثر سكانها حسبما يبدو من أهل الأندلس وسبته وهي حومة البتّين^[1]، وثانيها حضورهم البارز في مواقع مختلفة ضمن أجهزة المخزن وخططه وشؤونه من ذلك المهام الإدارية² والقضائية³ والعلمية⁴ والطبية⁵، وثالثها تشكيلهم لأحد عناصر الجيش وهو الصنف المعروف بجند الأندلس⁶.

اسم الأسرة	أصلها الجغرافي	المصدر
القرطبي	قرطبة	القرطاس: 206، 216
القرطبي	قرطبة	الذيل: 18/1/8
ابن زهر	إشبيلية	القرطاس: 207
السماعي	إشبيلية	الذيل: 26/1/1 - 324
اللحمي	إشبيلية	الذيل: 75/2/5 - 477
الريدي	رندة	الذيل: 19 / 1 / 8

1- السان المغرب، ق.م: 352.

2- الذيل، 264/1/8.

3- المعجب، 247.

4- ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد، أحمد أحمد بدوي، بيروت، 1955، ص 232 - 233؛ الذيل، 228 / 1 / 1.

5- محمد المتوني، حضارة الموحدين، البيضاء، 1989، ص 90 - 91.

6- المن بالإمامة، 313؛ التشوف، 320؛ البيان، ق.م: 101.

4- مجموعة شرقية

يمكن التمييز داخل هذه المجموعة بين أصناف ثلاثة هي:

أ- العرب¹:

يصعب حداً نفياً وجود عربي ضمن ما بقي من سكان المدينة بعد الحصار، وكيفما كان الأمر، فإن الحصيلة التي يمكن أن تبقى، لا يظهر أن لها قيمة ديمغرافية ذات شأن. أما في فترة حكم الموحدين فيبدو أن تشكيل هذا الصنف تم عبر قنوات متعددة منها: السبي خاصة النساء منه²، والرحلات العلمية التي تطلبت من أصحابها إقامة طويلة³، والعمل في الجندية حيث كانوا يدخلون في مكونات تركيبة الأجناد المستقرة على الدوام بمراكش⁴.

2- الغز⁵:

لا نعرف ولو على وجه التقريب الحجم الديمغرافي لهذا العنصر خلال هذه الفترة، غير

1- يبدو أن حجم المجموعات العربية التي استوطنت المغرب الأقصى خلال هذه الفترة كان مهماً. ومن الملاحظ أن طرفية دخول هذا العنصر تحكمت فيها أيضاً المشاغل المخزنية المرتبطة ببناء التجربة الموحدية وكان من ضمن ما بهجته كأسلوب وحنارته كآليات لتحقيق ذلك: تنوع عناصر الحد ونوسيع حجم العناصر غير المصمودية في مكوناته بهدف التخفيف من ثقل أهل مصمودة الجنوب، وتحرير أمر الحكم القائم انظر: Victoria Aguilar Sebastian, Apportation de los Arabes nomadas à la organizacion militar del ejército Almohade, Al-Qantara, vol. XIV, Madrid, 1993, pp 393-415

2- أخبار المهدي، 75؛ البيان، ق.م - 346.

3- العباس بن إبراهيم: الإعلام لمن حل مراكش وأغصان من الأعلام، الرباط، الجزء الأول: ص 153، 168، 169، الجزء الثامن: 198، 200، الجزء العاشر: 212 - 214.

4- المعجب، 241؛ البيان، ق.م: 101.

5- العز: "طائفة من مماليك الترك المصريين"، نرجع أصولهم الجغرافية إلى أقصى الشرق على نفوذ الصين دخلوا المغرب الأقصى على الأرجح في بداية عهد الحليفة اسصور، ومن المرجح أن دخولهم كان وراء طلب مخزني غايته تنويع عناصر الحد وتقوية مكوناته الشرية غير المصمودية. انظر المعجب: 256؛ الشوف: 347.

أن تأمل بعض المؤشرات المحدودة يوحي بوجود معتبر لهم أولها: مساهمتهم في تشكيل عناصر الجند، ثم توزيعهم فيما يبدو على أكثر من جهة بالبلاد¹، وأخيراً حضورهم في إضعاف المخزن خاصة في فترة حكم المرتضى²، ودون شك فإن طائفة منهم تم توطينها في العاصمة، على الأقل ضمن مكونات الجند الموجودين بشكل دائم في مراكش³.

عناصر أخرى ذات أصول شرقية:

يبدو من خلال بعض المعطيات المتناثرة، استقرار لعناصر أخرى ذات أصول شرقية - فارسية وتركية في الدرجة الأولى، لكن بنسبة محدودة جداً، وترجع دواعي وصولها واستقرارها إلى أسباب مختلفة منها الرحلة في طلب العلم، ولا يستبعد الاسترقاق أيضاً، من نماذج الأول عمر بن مودود بن عمر السلماسي من أهل سلماش من بلاد فارس⁴، ومن أمثلة الثاني زوجة الوزير ابن حاتم التركية الأصل⁵.

5 أهل الذمة:

تتكون هذه المجموعة من عنصرين بارزين هما:

أ- التصاري:

شكلت هذه الطائفة إحدى الأقليات الدينية في النسيج الشري لمراكش، وقد ارتبط وجودها بالخدمة العسكرية التي أدتها لصالح الحكم الموحد منذ وصوله إلى السلطة⁶، ومن المرجح أن يكون تكوينها تم على حساب ما تبقى من جند الروم الذين كانوا يعملون في جيش

1- المعجب: 289 - 290؛ التشوف 347

2- القوطاس: 258.

3- ورقات 303.

4- الذيل. 550 - 549 / 8/5.

5- الأعلام، 1/ 273.

6- الحلل. 146.

المرابطين، خاصة وأنها ساهمت في إنجاح عملية اقتحام المدينة بعد الحصار¹.

ويبدو أن تطور الحضور المسيحي في العاصمة الموحدية قد اتخذ منحى عكسياً لتطور الحكم نفسه، ففي فترة قوة هذا الأخير تميز وجود النصارى بمحدوديته وبتقنين دقيق لشروط الإقامة داخل مجتمع المدينة²، بينما عرفت فترة التراجع تزايداً ملحوظاً في قيمة هذا الحضور ابتداء من زمن حكم المامون³، ولعل بعض مؤشرات هذه الوضعية يمكن رصدتها في عناصر أربعة، منها ما له صبغة قانونية ومنها ما له صبغة تنظيمية، أولها انتزاع حق إشهار ديانتهم وممارسة شعائهم بكل حرية⁴ بعدما كان أمراً محظوراً، ثانيها: إقامة كنيسة لهم داخل العاصمة⁵، ثالثها: تخصيص مقبرة لهم لدفن موتاهم⁶، رابعها: تحويل أسقفيتهم من فاس إلى مراكش في عهد حكم الرشيد⁷.

1- Marrakech des origines: 1/288.

2- المعجب: 305.

3- يمكن اختزال الظرفية التي أنتجت هذه الوضعية الجديدة للطائفة المسيحية في الأزمة التي كان المخزن الموحد يعيشها منذ هزيمة العقاب، وما تولد عنها خلال هذه الفترة بالذات من انقسامات عميقة داخل هياكل الحكم، أدت ببعض الأطراف المتصارعة إلى أن تحط بد القوى المسيحية الإيبيرية قصد دعم جانبها في هذا الصراع ضد المسلمين وبالشروط التي كانت ترضي هذه القوى. ولعل من أبرز انعكاسات هذا الوضع أن أصبح جند الروم في جيش المامون - حسب ابن عذاري - « عمدته في إصداره وإيراده » بل لا يسبغ حضور أيادي قادتهم في توجيه شؤون المخزن خلال العقود الأربعة الأخيرة من تاريخ حكمه. انظر: القرطاس: 250، 251، 254، 255؛ واليان. ق م. 298، 360.

4- القرطاس: 251 - 250.

5- القرطاس: 250؛ العبر: 531 - 530 / 6؛ Pierre de cénival, L'Eglise Chrétienne de

Marrakech au XIII Siècle, Hespéris, VII, 1927, pp. 69-83.

ظهر ضريح القاضي عياض، ضمن أعمال ندوة من جامعة ابن يوسف إلى جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 1990، ص 31 - 33.

6- كيف ظهر ضريح القاضي عياض: 31.

7- Marrakech des origines, 1/ 292.

2- اليهود:

يبدو أن العاصمة الموحدية لم تعرف في بداية حكم بني عبد المومن وجوداً كمياً ذا قيمة هامة للطائفة اليهودية ضمن مكونات عناصر سكانها لسبب وجيه محتواه: الخطر الذي كان مفروضاً على اليهود فيما يخص المبيت بالمدينة منذ عهد حكم علي بن يوسف¹ وبوصول الموحدين إلى الحكم يبدو أن الوضعية تغيرت، ولربما من الرصيد الشرعي لهذا العنصر من سكان أغمات إيلان تشكلت نواة هذه الطائفة بمراكش².

1- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة الجزائر، 1957، ص 59.

2- أورد Gaston Deverdun مقتطفات من مرثية لشاعر يهودي يسمى ابراهيم بن عزرا، وصف موضوعها بمذابح الموحدين مشيراً إلى أن الشاعر تعرض بإسهاب إلى "الاضطهاد" الذي مارسه عبد المومن، وكانت من بين عواقبه إبادة التجمعات اليهودية الكبيرة في المغرب خاصة في درعة ومراكش. وفيما يخص هذه الأخيرة وأمام سكوت المصادر عن ذات الموضوع، يرى Deverdun أن تاريخ الإشارات الواردة في المرثية يوافق تاريخ حصار المدينة. مرجحاً أن يكون اليهود قد لادوا، بالأسوار طول مدة فترة الحصار، ولجأ منهم حسبما يبدو أولئك الذين تظاهروا باعتناق الإسلام. لعل هذه الكيفية التي تعامل بها Deverdun مع موضوع اليهود بالخصوص تقتضي إبداء بعض الملاحظات:

- إن توسيع وإغناء الإطار المرجعي لعمل المؤرخ، اختيار في البحث محمود ومطلوب، ويفرض في الباحث التسليح بما يلزم من أدوات التحليل المناسبة لطبيعة الجنس الأدبي للمصادر، ولخصوصيات الموضوع ذاته، وما تستلزمه من الحفاظ على مسافة كافية لحماية الدارس من أن يتحول إلى تابع، تحكمه وتوجهه طبيعة مادة موضوعه وبوعية الخطاب الذي تحمله، وحسبما يبدو، فإن هذه الضوابط والشروط غير حاضرة في هذا الجانب بالذات من عمل Deverdun.

- وصف هذا الأخير ما تعرض له اليهود من طرف عبد المومن بأوصاف يبدو أن استخدامها لا يخلو من مسالفة مثل: المذابح، الإبادة... إلخ، ولعل مصدر المسالمة سابع من اعتبارات منهجية وأخرى تهم الموضوع، منها مصدر المادة ذاته. صحيح أن المؤلف عاصر الأحداث حيث توفي في بداية حكم أبي يعقوب يوسف، لكن لا نعرف هل هي معاصرة مشاهدة، أو مجرد سماع أو اعتماد مصدر كتابي؟ ومنها انتماء الشاعر إلى الطائفة اليهودية، وقراءة أعماله كما هو الحال بالنسبة لأعمال المسلمين عن اليهود يجب أن تتم في سياق ما ميز العلاقات بين الطرفين في دار الإسلام ومنها المغرب في الفترة موضوع

وإذا لم تتمكن من تكوين فكرة ولو مجملة عن حجمها الديمغرافي، فمن المرجح أن هذا الحجم لم يعرف الانكماش، من جهة للأهمية الاقتصادية للمدينة، خاصة بعدما تم توسيع خريطتها التجارية بفتح أسواق وفنادق جديدة وتعزيزها بقيسارية عظيمة¹، ومن جهة ثانية لثقل وزن يهود المغرب آنذاك في حركته التجارية². وإذا كان هذا النشاط الاقتصادي أحد المفاتيح إلى فهم الحجم البارز لسكانه سجلماصة وفاس من اليهود، فإنه يبقى وارداً أيضاً بالنسبة لمراكش، إذ من غير المستبعد أن هذا العمل بالذات ساهم في تمتع الطائفة اليهودية بوجود بشري له قيمته، وما يقوي ذلك إشارة لابن أبي زرع تتعلق بصحايا دخول يحيى بن الناصر إلى مراكش سنة 629 هجرية / 1232 ميلادية وكثرة من شملهم القتل من يهود المدينة³.

4- العبيد:

مما لا شك فيه أن هذا العنصر من السكان لم يكن لأفراده أصل جغرافي واحد إذ الاسم ذو مرجعية اجتماعية قانونية وفقهية، قاسمها المشترك حرمان الإنسان من الحق في الحرية والتصرف الطبيعي اليومي في حياته ويمكن اختزال أسباب التنوع الجغرافي للعبيد في العاصمة الموحدية في اتساع مجال سيادة المخزن الموحدية، والجوار مع النصارى، والعلاقات التجارية مع السودان. وهكذا شكل الإطار الجغرافي مورداً لإنتاج العبيد من خلال أسرى الحروب

البحث، تجنياً لتدخل الحسابات - وليست بالقليلة - سواء في انصر أو في مشاغل القارئ، ومنها أن النص متن شعري يعثر الخيال جزءاً من مكونات شاعريته، ولعل هذه الخاصية وحدها تفرض على الباحث التعامل بحذر متزايد مع ما يتضمنه من إشارات لها صلة بالتاريخ، ومنها استبعاد وجود اليهود في مراكش خلال زمن الحصار من جهة لعدم السماح لهم بالإقامة فيها ليلاً، ومن جهة ثانية عدم سماح ظروف الحصار لهم ولغيرهم بالانتقال من أغصان إيلان إلى مراكش، علماً بأن أعمات هي الأخرى كانت تمر من حالة حصار ابن عبد الملك لمراكشي، لذبل والتكملة، السفر الخامس، الجزء الأول، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 304؛ 277. 1/ Voir, Marrakech des origines,

1- الاستبصار. 210:

2- الاستبصار. 210:

3- الفرطاس. 253:

المسلمون منهم¹ والنصارى² من جهة، وعمر التجارة السودانية التي كان الرقيق السوداني يدخل ضمن مواد مبادلاتها³ من جهة ثانية.

وبينما أن مراكش كانت خلال هذه الفترة تمثل مركزاً بارزاً لاستقرار العبيد، اعتباراً للحاجة إلى خدماتهم، فمراعاة بسيطة للمعجم الخاص بالرق في المصادر المتداولة لا يكشف فقط عن هذه الرغبة، بل ويعطي انطباعاً بالقمة الكمية لحجمهم الديمغرافي رجالاً ونساء، واتساع دائرة تملكهم لتشمل أوساطاً اجتماعية متنوعة ابتداء من المخزن⁴ إلى أهل اليسر⁵ والمتصوفة⁶ إضافة إلى تقديم مراكش كمركز لرواج تجارة الرقيق ووجود تجار متخصصين في ذلك وبعض المؤشرات المتعلقة بالأئمة⁷. ولعل بعض عوامل هذه الحالة نكمن في الملاحظات التالية :

1- الحروب

ساهم هذا العامل في تسهيل عملية انزلاق الأحرار المنهرمين إلى العبودية دون مراعاة للجنس أو العمر⁸، والحروب خلال هذه الفترة كانت متلاحقة وخريطة واسعة، والعبدة فيها كانت في أغلب الأحوال لصالح الموحدين، خاصة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وبذلك شكل هذا العامل مصدراً لتغذية تجارة الرقيق في العاصمة⁹.

1- أخبار المهدي، 77 :

2- Marrakech des origines: 1/ 293-294.

3- الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 134.

4- الذيل 8/1/ 252 :

5- التشوف، 405 :

6- التشوف، 241 :

7- التشوف، 224 :

8- أخبار المهدي: 67، 69، 77؛ الذيل: 228/1/1، البيان: ق.م: 346؛ الخلل، 143.

9- لا يستبعد أن يكون تعامل الموحدين مع أسرى الحرب كعبيد، يدخل أيضاً في إطار خطاب التهيب والترغيب، من جهة كتحفيز وتشجيع للعناصر التي اعتمدتها المخزن في قوته، ومن جهة ثانية كتحذير

2- أغراض اجتماعية:

شكل العبيد الرجال منهم والنساء قوة إنتاج خدمات يومية لصالح أصناف اجتماعية مختلفة من أهل المدينة في لدور وأماكن العمل¹، وبدوا أن الاقتصار على فرد واحد في الدار لم يكن هو القاعدة، إذ يستفاد من المؤشرات المتداولة وجود أكثر من هذا العدد كحالة عادية على الأقل عند الأصناف الاجتماعية الأكثر يسراً في المدينة².

3- أغراض عسكرية:

شكل العبيد فيما يبدو عنصراً من مكونات جد لموحدين³، وما يهم صلب موضوعنا الصنف المعروف باسم عبيد المخزن لعلاقة وظيفتهم بدعم أمن الخلافة، وهو ما يتجلى في إسناد عدد من المهام الدقيقة لهم من خصوصياتها التدخل لحماية الخليفة وحاشيته من الأخطار الطارئة، وهي ملاحظة ترجح استقرارهم الدائم بالمدينة⁴.

يبين إذن أن المدينة عرفت إعادة تعمير ذات قيمة في جانبها النوعي بما تراكم من أفراد وجماعات وقبائل ذات انتماءات جغرافية متباينة وأشكال عيش متنوعة، وفي جانبها الكمي بتكوين إطار بشري أتيح ساكنة ساهمت في إعادة تنظيم مجال العاصمة الموحدية.

لمن كان له مراع معارض ولعل بعض الصور التي قدمها كل من البيدق وابن عبد الملك عن هذه العملية، تسمح بعدم استبعاد ذلك؛ فقد جمع الأول في خانة واحدة بين الأسرى والمأشية، واعتبر الثاني العملية مطابقة للكيفية التي يتم بها تعامل المسلمين مع الأسرى المشركين. انظر: أخبار المهدي: 77؛ الدليل، 1/1/228.

1- البيان: ق م: 313، 329

2- الدليل، 8/1/251:

3- لقرطاس: 224، 240.

4- أخير المهدي؛ البيان: ق م: 405

المحور الرابع

التمازج البشري وأهميته في ربط المغرب بالشرق

الوجود اليمني بالأراضي الليبية

ودوره في ربطها بالشرق

د. محمود أحمد أبو صوة

جامعة افاتح - ليبيا

يسمى هذا البحث إلى مناقشة جزئية تبدل للوهلة الأولى داعمة ومؤيدة للتفسير الكلاسيكي الغربي الذي يتعمد إغفال تاريخ بلدان المغرب المحلي وإبراز تبعيته. فالعديد من الدراسات الغربية التقليدية ومن نحى نحوها لا تنفت كثيرا إلا للأحداث الكبرى: كالفتوحات الكبرى، وقيام الدول والإمبراطوريات واضمحلالها. وبالنظر إلى أن التفسير التي تضمنتها هذه الأعمال كانت قد ذهبت إلى أن المنطقة لم تدخل التاريخ إلا بقدم الفينيقيين، فقد ترتب على ذلك تجاهل شبه تام للمراحل السابقة والتي اعتبرت غير جديرة بالاهتمام. والأخطر من ذلك أن إصرار هذه الأعمال على هذه الوجهة دعم أطروحتها القائلة بأن المغرب بلاد بلا عباد. وحين تتلطف هذه المدرسة وتتواضع فإنها تذهب إلى أن له تاريخ، ولكنه تاريخ محل وساكن! فهو عبارة عن تاريخ للصراع بين قوى الخير الوافدة المتحضرة (الرومان على وجه التحديد) وقوى الشر المحلية المتوحشة (البربر). ولأن المحليين غير قادرين على التأسيس وبالتالي الاستقرار فإنهم كانوا وباستمرار في حاجة لمن يسوسهم، ويقوم بالعمل، بما في ذلك تحرير الأرض، عوضا عنهم!؟ فالرومان، يقول جوتييه في هذا السياق، طردوا الفينيقيين، والبيزنطيون ورثوا البلاد بعد طردهم الوندال، أما العرب الذين طردوا البيزنطيين فقد ورثهم العثمانيون الذين طردهم الفرنسيون!

لذلك فالتطرق، على سبيل المثال، لتاريخ الأراضي الليبية في العصر الوسيط وانطلاقا من دور لوافد، في هذه الحالة اليمني، يجعل المرء يرتاب في هذا التناول وينفر منه. والسؤالان اللذان يقفزان للذهن في هذا السياق لماذا الكتابة إذا في موضوع قد يؤكد من حيث التناول

والتحليل دور الوافد ويتجاهل من جديد تاريخ المحليين؟ وماذا يمكن أن يضيف هذا التناول لتاريخ المنطقة المغربية بصفة عامة ولتاريخ الأراضي الليبية على وجه الخصوص؟

في الحقيقة إن محاولة كتابة تاريخ "ليبيا" الوسيط بل والقديم أيضا خارج دائرة التبعية أمر عايب في الصعوبة. فالوثيقة، وكما يقول ابن خلدون لا توجد إلا في خزائن السلطان! وبالنظر إلى أن المنطقة لم تشهد قيام سلطة سلطان في العصر الوسيط¹، خيم الصمت حول هذا التاريخ وتضاعفت بالتالي عتمته. لذلك فإنه لا مفر من اللجوء، عند كتابة تاريخ ليبيا الوسيط، ليس فقط لتاريخ الوافد، بل ولتاريخ المناطق المحاورة للأراضي الليبية، إفريقية من ناحية الغرب، ومصر من ناحية الشرق. وهذا الوضع المعقد يزداد تعقيدا حين يتصفح المرء الأعمال القليلة التي عالجت تاريخ ليبيا بصفة عامة وتاريخها الوسيط بصفة خاصة. فهذه الأعمال وبالإضافة إلى أنها تؤكد هذا التناول الذي يكاد يقصر تاريخ المنطقة على تاريخ التواجد الأجنبي، فإن أصحابها لم يشغلوا بالهم بالنتف التي ترد في هذه الأعمال والتي تنوه عرضا بحياة الأفراد وبملاقاتهم بالوافد. فالأعمال الغربية التقليدية، الفرنسية والإيطالية على وجه التحديد، كانت حريصة على إبراز تاريخ المنتصرين²، بمنحوا الغرب بطبيعة الحال في المنطقة، وتهميش تاريخ المحليين، ولكنها كانت تصطر من حين لآخر للتنويه ببعض أنشطة السكان المحليين وبعض عاداتهم. وبدحول المسلمين المنطقة لم تتغير استراتيجية التناول إذ استمرت هذه الأعمال في تبني المنهج نفسه معبرة لتواحد الإسلامي تواجدا غربا وأولته كالعادة اهتماما خاصا ولكنه اهتمام لا يرقى بطبيعة الحال إلى مستوى اهتمامها بالوافد

1 - ففي دائرة السلطان لا تتوفر الوثيقة فحسب، بل وفرصة الثراء، والاهم من ذلك شيوع لذكر، يقول

الحافظ بأن "السلطان سوق! وإنما يجب إلى كل سوق ما يفيق فيها، وقد نظرت في التجارة التي اخترتها والسوق التي أقمته فلم أرها شيئا يفيق إلا العلم والبيان عنه"، فلا عس، الدكتور علي

أومليل، السلطة الثقافية والسلطة لسياسية، بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية، 1996، 100

2 - وكيف لا يرر تاريخ الآخر / الوافد والعرب متكرر المقولة التقليدية الشهيرة "للمنتصر تعود كل

المنائم" - (To the victor belong the spoils))، ولعل أهم ما تنوه به هذه المقولة ونصر عليه في

بحال الذاكرة، أن التاريخ حين يكتبه العرب / المنتصر يكون على الدوام في شكل غير قابل لسقد؛ وفي

هذا الشكل / إعادة التشكيل، يكون المنتصر دائما على صواب!

الأوروبي. ففي أغلبية هذه الأعمال لا الإسلام ولا المسلمون يرقيان إلى مستوى المسيحية والمسيحيين.

وشح المعطيات الخاصة بالعصر الوسيط، واعتماد فرضية التبعية، فضلا عن التنويه بتاريخ الوافدين هي قضايا لا تلام عليها الأعمال الغربية بمفردها، فالمصادر التاريخية الإسلامية الأولى تحمل نصيبها من هذا الوزر، فالتفاصيل ذات العلاقة بدخول المسلمين المنطقة في القرن الأول للإسلام والتي صاغت المصدر الإسلامية بعد قرنين على الأقل، اختزلت تقريبا في المقاومة التي أبدتها بعض المدن. وبالنظر إلى أن هذه الأخيرة كانت تحت السيطرة البيزنطية، فقد تم التركيز على هؤلاء، أما مدن المحليين وأنشطتهم فقد تم تجاهلها. واللافت للنظر أن هذا التوجه استمر حتى بعد دخول كل لأراضي الليبية في الإسلام. فالاهتمام بتاريخ المناطق المختلفة من الأراضي الليبية كان بقدر علاقته بالآخر/ الوافدين، إذ أن المتصفح للمصادر الأولى يكاد لا يعثر فيها على أسماء المدن المحلية أو الزعامات المحلية. فبالنسبة لمرحلة الفتح، وفي الوقت الذي نوهت المصادر بمدن ساحل الأراضي الليبية الواقع تحت النفوذ البيزنطي (بنطابولس، أي المدن الخمس في شرق الأراضي الليبية، وإطرابلس، أي المدن الثلاثة في الغرب) فإن توقفها عند مدينتي برقة وزويلة كان نتيجة استقرار عقبة بن نافع فيهما قبل انتقاله إلى مدينة القيروان! أما الزعامات المحلية، وعلى الرغم من أن هذه المصادر أشارت إلى بعض هؤلاء في سياق تطرقها لمقاومتهم لعقبة بن نافع، فإنها غفلت عن ذكر أسمائهم!! لذلك فإن المرء، وبعد أن أصححت كل الأراضي الليبية مسمة بمجد صعوبة حقيقية في العثور على عباد في هذه البلاد، فما يعثر عليه الباحث بوفرة نسبية هو أسماء ولاية مدينة طرابلس الذين يتبعون والي القيروان، أما برقة وبالنظر لحسن طاعتها فإنها تعاقب من أجل ذلك ولا تلتفت إليها المصادر! فهذه الأخيرة، وإن كانت تلمح لتبعية برقة لمصر، فإنها

3- ففي سياق تطرق ابن عبد الحكم لحمة عقبة بن نافع التادية في جوب الأراضي الليبية ذكر بأن هذا الأخير، عاقب ملك جرمة ومن غير أن يذكر اسمه. أنظر: فتوح مصر والمغرب، حققه وقدم له الدكتور علي محمد عمر، القاهرة. مكتبة الثقافة الدينية، 2221995؛ والأمير نفسه يتكرر حين يتطرق لجميع مؤرخي الإسلام الأول إلى بقية المدن الليبية.

تصر على تجاهل من كان يقوم على إدارتها من المحليين أ وحتى من الوافدين . يقول البلاذري بأن أهلها كانوا " يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث ، فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة " ¹ . لذلك ، وفي ظل شح المعلومة ، اضطر النفر القليل من الباحثين المعاصرين الذين انبروا للكتابة عن هذا التاريخ بالتزود بالنتف التي تضمنتها المصادر العربية الأولى ، والأخذ بتأويلات المدارس الغربية ، الفرنسية الإيطالية .

من الطبيعي أن لا تتطرق الدراسة لكل هذه المشاكل التي احتلت حيزا كبيرا في أعماله السابقة . غير أن اللجوء لدراسة تاريخ المنطقة من خلال النواجد اليميني أزعم أن له غاية مغايرة . ففي الوقت الذي لا ننفي الحاجة المستمرة للتعميل على تفاسير الأعمال غير المحلية ، وعلى دراسة تاريخ ليبيا من زاوية تبعية هذه الأراضي لإفريقية ومصر ، فإن الحرص ، في الوقت الحاضر على الأقل وبسبب شح المعطيات ، على إظهار دور المحليين المسكوت عنه ، سيخفف من شدة وطأة ظاهرة البعية من ناحية ، وسيلقي المزيد من الضوء حول ظاهرة التكامل التي لم تشهدها من قبل المنطقة من ناحية أخرى ² .

1 - البلاذري ، أبو الحسن ، فتوح البلدان ، بيروت ، دار مكتبة الهلال ، 1983 ، 222 .

2 - يجب التذكير هنا بأن منطلقي لا يمت بصلة للنقاش الدائر بين الماركسيين والتمركسيين حول نظرية التبعية و علاقتها بنظرية المراكز والأطراف ، فضلا عن إمكانية أو عدم إمكانية توظيفها لفهم المرحلة السابقة للرأسمالية ، فما ود لفت النظر إليه هو أن العلاقات المشرقية العربية تميزت ، ومنذ القرن الأول للإسلام ، بعلاقة تكاملية نقلت المنطقة من مرحلة التجزئة إلى مرحلة الوحدة ، وهذا التحول عبر مرحلية تعرضت لها بشيء من التفصيل في كتاب مقدمة في تاريخ العرب الاجتماعي والاقتصادي ، لم تكن أحادية ؛ فهذا التحول لم يكن ، في اعتقادي ، مقتصرا على الجانب الاقتصادي فقط وكما يذهب إلى ذلك الكثير من الماركسيين ؛ أو أنه كان بسبب عامل التبعية السياسية الناتجة عن هيمنة المراكز الأيديولوجية على الأطراف ، إن هذه العوامل وغيرها كانت حاضرة ، ولا يمكن تجاهلها ، ولكن التفاصيل ، في ذات الوقت ، عن العامل الداخلي أراه تسبب في تعميم تاريخ المنطقة المحلي وأكد فكرة تبعيته المزمة ؛ بناء عليه فإني أزعم بأنه لا يمكن اقتراح تفسير شامل لهذه الظاهرة أو لغيرها من الطواهر ذات العلاقة بتاريخ المنطقة في لعصر الوسيط من غير أن يتم لتتويه بالعامل الداخلي المحلي لذلك فإنه وفي الوقت الذي لا تقلل من قيمة المحااجة المقترحة من الماركسيين ومن غيرهم ، فإننا نحرص على =

بادئ ذي بدء ، يعلم الجميع بأد الفتح الإسلامي للأراضي الليبية شرع فيه مباشرة بعد انتهاء عمرو بن العاص من فتح مصر (20هـ). وفي الوقت الذي لم تشهد منطقته برفه مقاومة تذكر ، فإن منطقة طرابلس لم ترحب بالجيش الإسلامي الذي ظل محاصرا للمدينة ولمدة تجاوزت الشهر تقريبا. وانطلاقا من فرضية المركز والأطراف التي قمت بتوظيفها في العمل الخاص بتاريخ المغرب ، أكاد أجزم بأن اكتفاء المسلمين باختراق أسوار المدينة والعودة إلى مصر من غير أن يتركوا حامية في طرابلس سببه تبعية هذه الأخيرة الطرف ، لإفريقية المركز. لذلك فإن توغل جيش عبد الله بن أبي سرح فيما بعد (سنة 27هـ) في الأراضي الليبية لم يواجه بمعارضة تذكر إلا عند اقترابه من مدينة طرابلس. ولكن ولأن هذا الأمير كان على دراية بعلاقة هذه الأخيرة بإفريقية فإنه لم يلتفت إليها وواصل مسيرته باتجاه إفريقية. وعلى الرغم من أن مركز الخلافة كان يواجه في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان مشاكل حقيقية ، فإن جرائد الخيل التي تغير على إفريقية كانت ترسل من مصر وحتى ولاية معاوية بن حديج سنة 46هـ.. وباستكمال عقدة بن نافع بناء مدينة القيروان سنة 55هـ والانتها ، من فتح إفريقية في فترة لاحقة على يد كل من حسن بن النعمان (سنة 78هـ) وموسى بن النضير (سنة 86هـ) ، أصبحت بلاد المغرب خالصة لمركز الخلافة بدمشق.

غير أن هذه التبعية لم تنتج عن نسق واحد الأمر الذي يجعل البعض يستبعد أهميتها وبالتالي قدرتها على تفسير الأحداث التي واكبت عمليات الفتح وما تولد عنها من تغيرات اجتماعية واقتصادية وبالضرورة سياسية. فالمتعمن ، على سبيل المثال ، في أحداث فتح الأراضي الليبية يخلص إلى أن هذه الأخيرة نعمت ، وبسبب بطلا فتح إفريقية وبقيّة بلاد المغرب ، بعلاقة مع بلاد المشرق تآرجحت ، ومنذ وقت مبكر ، بين اتعاود والتكامل. بناء عليه تميزت تبعية المنطقة بمرونة سمحت لها بحرية إدارة العديد من المناطق ؛ وغياب هذا العامل في المغربين الأوسط والأقصى ، أي سرعة الفتح ، أفقداهما استقلالهما وفرض عليهما علاقة أقل ما توصف بها أنها علاقة تنافرية. ولكن الأمر الأكيد بالنسبة لي أن في الحالتين لجأت القيادة الإسلامية لاستراتيجية المركز والأطراف. واختلاف ردود الفعل وتنوعها ، في اعتقادي ، هو الذي جعل الكثيرين يصرفون النظر عن هذه الجزئية ويغالون في

تأويل الأعراض ! فالمناطق التي رحبت بالمسلمين ، تذهب الأغلبية إلى القول بأن هذا الترحيب ناتج إما عن تطابق خلفيتها العرقية وخلفية القادم الجديد ، أو عن قلة إمكانياتها ، وبالتالي حيلتها ؛ أما المناطق التي قاومت الفتح ، فسبب مقاومتها ، وبكل بساطة ، أنها تختلف عرقيا عن القادم الجديد ! إن تبسيط عمليات الفتح المعقدة ، والإصرار على تبسيط معظم التغيرات اللاحقة لهذه الظاهرة أفرزت تعتيما أوقع العديد من الباحثين في شرك التفسير العربية التي اعتبرت تاريخ المغرب في العصر الوسيط تاريخا مظلما (جوتيه) ! والقول بعدم صلاحية هذه الرؤية الفرضية لا يلغي في ذات الوقت وجود مقاومة في بعض أجزاء الأراضي الليبية (طرابلس على وجه التحديد) أوفي بقية بلاد المغرب. إن المقاومة المسلحة وما نتج عنها من تنافر هي حقيقة لا يمكن لأي باحث رصين أن يتجاهلها ، ولكن الإصرار على تفسير هذه الظاهرة من منطلق عرقي صرف هو أمر لم يعد من الممكن اللجوء إليه واعتماده في تفسير أحداث تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

مرة أخرى ، إن لجوء المسلمين لاستراتيجية المركز والأطراف وحسن توظيفها في فتح بلاد المغرب كان بهدف الحصول على نتائج أكيدة ، أي فرض الهيمنة على هذه المناطق وجعلها بالتالي تابعة لمركز الخلافة في دمشق. ولكن خصوصية بطل الفتح في بعض الجهات وسرعتها في جهات أخرى أفرزت على الأقل نوعين من التبعية. ففي الوقت الذي ساهم ، وكما سبق القول ، بطل الفتح في تأسيس تبعية المنحصر ، إلى حد كبير ، دورها في تخفيف تنافر الأقاليم المحلية لليبيين (ساحل وداخل ، وبدو وحضر) وفي تطوير علاقة الليبيين بالمشاركة ، فإن حرص القيادة العربية ولجوها المبالغ فيه للعنف (عقبة بن نافع ، وموسى بن نصير على وجه التحديد) عند قيامها بفتح بلاد المغرب ، أفرز تبعية استهجنها المنطقة ؛ لذلك فالنزوع نحو التخلص من هذه التبعية المنافية ليس فقط لتعاليم الإسلام ، بل وللتجربة الإسلامية في الأراضي الليبية ، كان قد انطلق من المغرب الأقصى (ثورة ميسرة). وانتشار الثورة في إفريقية وطرابلس لاحقا لا علاقة له بما كان يدور في المغرب الأقصى ، بل كان بسبب ضعف الأسرة الأموية خاصة بعد وفاة هشام بن عبد الملك (125هـ) ، وبسبب انتزاع الأسرة الفهرية بأمر إفريقية (127 - 140هـ). ويدخل العباسيين إفريقية سنة 144هـ ، الذين عجزوا عن مد

نفودهم على بلاد المغرب والأندلس، انحصر هذا النفوذ في إفريقية وطرابلس وتأكدت العلاقة التكاملية بين الإقليمين. لذلك، فإنه وفي إطار الخلفية التاريخية هذه يمكن التحول الآن لمعالجة مسألة الوجود البيني في الأراضي الليبية.

سبق التلميح لمشكلة شح المعلومات ليس فقط الخاصة بدور الليبيين في أحداث القرن الأول للإسلام، بل وبدور المسلمين وبخفيتهم أيضا في هذا الشأن. فالمعطيات التي تتضمنها المصادر التاريخية الأولى تكاد تقتصر على ذكر أعمال وأسماء بعض الفاتحين، وعلى بعض أعوانهم، أما بقية الأفراد والإنجازات فعلى امرء الذي يريد رصدها أن يتسلح بمبادئ التخمين، والاستنتاج، وفي أفضل الحالات البرهان بالمماثلة. فتحن نعلم على وجه اليقين بأن الحضور البيني في الجيش الذي فتح مصر كان ميمرا من حيث لكم والكيف¹. ويكاد المرء

= إبرر الدور المحلي / الداخلي، والمتمثل في هذا السياق في اختيار هؤلاء لشريك، ولأول مرة في تاريخهم، لا يستهجنون سيادته؛ فيفضل هذه الشراكة التي أنتجت بدورها نوعا خاصا من التهمة يقرر سكان المنطقة اعتبار بداية هذه العلاقة الشراكة البداية الحقيقية لتاريخهم! ففي سياق تطرق بعض المصادر المغربية لتاريخ دخول أناء لمنطقة لإسلام ذكر بأن الوفد الذي قدم على الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح الأراضي الليبية، كان محلقا الرؤوس " فقال لهم عمر مالكم محلقو الرؤوس؟ فقالوا: شعر نبت على الكفر فأحسا أن ندل شعرا في الإسلام" أنظر: أبو زكرياء، يحيى بن أبي بكر، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985، 53-54.

1- إن أهمية التواجد البيني في جيش عمرو نكسه مساهمة أفراد في أهم الأحداث المصاحبة لفتح مصر؛ ففتح الحصن الذي سب وفق رواية عثمان للربيع، شارك في فتحه وفق رواية سعيد بن عفير، شرحبيل بن حجة المرادي؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، 85-86، كما أنه وبالإضافة إلى أن القائد الذي فتح الإسكندرية كان مديبا، أي يمينيا، فإن الذي نقل خبر فتح الإسكندرية كان هو الآخر يمينيا، معاوية بن حديج السكوبي؛ ليس هذا فحسب، بل إن بلي، ثلث فصاعة، يعقوب ابن عبد الحكم كانت تقف "عن يمين راية عمرو بن العاص"؛ المصدر نفسه، 143؛ كما أن التمكن في أسماء المقطعين الذين كانوا في جيش عمرو يخلص إلى أن كثافة هذا التواجد لا تضاهيه أية كثافة قبلية أخرى، أنظر: المقريري، الخطط، الجزء الأول؛ ابن دقماق، كتاب الانتصار، الجزء الرابع، القفشندي، صبح الأعشى، الجزء الثالث؛ أخيرا إن أهمية التواجد البيني في جيش عمرو تؤكد من خلال رواية ابن عبد الحكم الخاصة بفتح برقة. فعدد الرواة الذين اعتمدهم هذا الأخير في روايته خمسة، شكلت نسبة =

يجزم بأن بعض هذا الجيش كان قد دخل الأراضي الليبية رفقة عمرو بن العاص، وربما استقر البعض منه بها منذ ذلك التاريخ. ففيما يتعلق بجزئية دخول البيهقيين للأراضي الليبية ضمن جيش عمرو بن العاص فهو أمر يقره المنطق وبعض الشواهد أيضا؛ فالمصادر تجمع على أن فتح مدينة طرابلس سنة ثلاث وعشرين كان على يد رجل يعني من بني مدلج¹. غير أن استقرار بعض هؤلاء بعد رحيل عمرو بن العاص لا يمكن للمرء الخوض فيه إلا من خلال الاستنتاج، والتوسع في تأويل بعض التنف الواردة هنا وهناك فالمصادر تعتمد تجاهل القائل التي استقرت بالأراضي الليبية صحة عقبة بن نافع الذي ظل ينتقل بين برقة وزويلة لأكثر من عشرين سنة. فاللاذري مثلا والذي ذكر العديد من التفاصيل المهمة والمتعلقة بالمعاهدات التي أبرمها عقبة بن نافع مع وجهاء المنطقة لا يذكر أسماء هؤلاء ولا حتى أسماء أوخلمية من كان في صحبته من المشاركة؛ فهذا الأخير يذكر بأن عمرو بن العاص كتب "إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ زويلة وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدتهم بالخزبة، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بيته وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ويأخذوا الخزبة من الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل انصالح صلحهم"². إن هذا الوصف مبالغ فيه لا محالة إذ من غير المعقول أن تتحول المنطقة وبمجرد دخول جيش عقبة إليها من منطقة مناوئة لمنطقة ليس فقط مسالمة بل مسلمة. وأعتقد أن رواية البكري تؤكد هذا الرأي فهذا الأخير يقول بأنه ويدخل عقبة بن نافع جنوب طرابلس "صار ما بين برقة وزويلة للمسلمين"³.

إن مسألة تنقل عقبة بن نافع وبعض جنده بين برقة وزويلة تلقي المزيد من الضوء على مناطق تجاهلتها المصادر الأولى، وبالكاد تلتفت إليها الأعمار الحديثة. فتقول هذا الأخير

= الرواة البيهقيين فيها أكثر من ثلاثة أرباع

1 - أنظر على سبيل المثال: البكري، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثاني، 655

2 - البلاذري، فتوح البلدان، 222.

3 - البكري، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثاني، 650.

الذي أدى إلى توحيد المنطقة وبالتالي ربط مصالحها بمصالح مصر، كان قد مكن من كان في صحة عقبة من الاستقرار في بعض المدن التي تفصل الشمال (برقة) عن الحبوب (زويلة). وهب أيضاً لا تسعفتنا المصادر العربية الأولى كثيراً، وكان علينا اللجوء لبعض الأعمال الجغرافية المتأخرة سيبيا. فنص البكري، والذي يعود تاريخ وضعه للقرن الخامس للإسلام، يلمح إلى أن الجيش الذي دخل المنطقة صحبة عقبة بن نافع كان قد استقر بعضه بمدينة ودان. والأهم من ذلك أن نسبة الذين فضلوا البقاء بهذه المدينة شكلت النصف! يقول البكري بأن المدينة ودان "قلعة حصينة، وللمدينة دروب، وهي مدينتان فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون، فتسمى مدينة السهميين دلباك، ومدينة الحضرميين بوصى"¹. إنه وبفضل توحيد عقبة ومن كان وفي صحبته المناطق الجنوبية أصبح من الممكن الآن، خاصة بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها وجعلت معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين، التوجه نحو المناطق الشمالية.

تذكر المصادر بأن أول من دخل إفريقية في حلافه معاوية بن أبي سفيان سنة 46هـ كان معاوية بن حديج السكوني، أي اليمني. وفي هذه المرة أيضاً لا تتفق المصادر حول عدد هذا الجند وحول خلفيته؛ ففي الوقت الذي يذكر ابن عبد الحكم في رواية أولى أن في غزوة ابن حديج هذه كان "معه جماعة من المهاجرين والأنصار" وفي رواية ثانية أنه خرج معه "من المهاجرين والأنصار بشر كثير"²؛ فإن ابن عذاري، والذي يعتمد على روايتي الطبري والرياق يذكر في مرة أولى أن معاوية بن سفيان وحده "معاوية بن حديج في عشرة آلاف مقاتل" أما في المرة الثانية فقد اكتفى بالقول بأن هذا الجيش كان كثيراً³. نعلم إذاً بأنه دخل مع هذا الأمير جيش، ولكننا لا نعلم يقيناً الشيء الكبير عن تركيبته القبلية؟ أمام هذه المعضلة، معضلة شح المعلومات، نجد المرء نفسه مرة أخرى مضطراً للأخذ بمبدأ التخمين فهل يمكن

1- المصدر نفسه، الجزء الثاني، 658-659

2- فتوح مصر والمغرب، 211.

3- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة كولان، وليمي برونسل،

بيروت، دار الثقافة، 16، 17.

القول بأن وجود أمير يعني يفترض تشكيل جنده من أعليه يمينه ! إن لفكرة معربة حاصه وأن العادة جرت ، طوال سنوات الفتح الأولى ، أن نوكل مهمة قيادة الجيش أوبعض فصائله إلى بعض رؤساء العشائر. فالعشيرة ومنذ أن انطلقت الجيوش العاتمة باتجاه العراق ولشام كانت تمثل أساس التنظيم الإداري والمالي والاجتماعي والسياسي. بناء عليه فوجود قادة من عشيرة معينة " قد يكون دليلا على اشتراك العديد من أفراد عشائريهم معهم"¹. ورواية المالكي تدعم في حقيقة الأمر هذا المقترح. فقد ذكر هذا الأخير وفي سياق حديثه عن حملة عبد الله بن أبي سرح بأنه كان مع كل واحد من وجوه وأشراف جيشه " جماعة من قومه"² هذا وتجدر الإشارة إلى أن التوجه نحو مناطق ليبيا الساحلية ، واستقرار بعض القبائل اليمنية بها كان متزامنا وحملة ابن حديج الأخيرة على إفريقية. ففي هذا السياق تذكر إحدى المصادر بأن " رويغ بن ثابت الأنصاري كان عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس سنة ست وأربعين ، فغزا إفريقية من طرابلس سنة ست وأربعين وفتح حرية ، والله أعلم"³. كما يفيد البكري بأن عملية التوجه نحو منطقة الساحل الليبي والاستقرار به لم تتوقف بعد رحيل معاوية بن حديج. فصاحب المسالك يذكر ، على سبيل المثال ، بأن عقبة بن نافع ، وقل توليه أمر المغرب ، خرج صحبة بسر بن أرطاة وشريك بن سحيم المرادي ، أي اليميني " فأقبل حتى نزل مغلامس من سرت ، فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس

1 - العلي ، صالح أحمد ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، بغداد ،

مطبعة المعارف ، 1953 ، 129

2 المالكي . أبو بكر عبد الله ، رياض النفوس ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، 1951 ، 10 ، هذا

وتجدر الإشارة إلى أنه وفي الوقت الذي لا تذكر المصادر خلفه عند عقبة ، فإنها تشير ، وفي سياق تطرقها للمجد الذي كان صحبة عبد الله بن أبي سرح كان مكونا من ألعي مقاتل من اليمين " كانت مهرة .. وحدهم ستمائة رجل . وغنث من الأردن ستمائة رجل ، ومن هيدعان سبعمائة ، وميدعان من الأزدي " أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، 211 ، 2.

3 - ابن أبي دینار ، أبو عبد الله محمد الرعياني ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تونس ، نشر مطبعة

الهضة ، 1350 هـ ، 23 3

لبلوي"¹. إن الحضور اليمني في المناطق المختلفة لم يكن بكل تأكيد على حساب سكان المنطقة. صحيح أن المصادر تتجاهل وجود هؤلاء²، ولكن الأحداث اللاحقة تؤكد ليس فقط قيام علاقة وطيدة بين الطرفين، بل والأهم من ذلك تضافر جهودهما في تثبيت قدمي العروبة والإسلام ليس فقط داخل الأراضي الليبية، بل وخارجها أيضا.

فوفقا لما يذكره أحد الباحثين المعاصرين تجاوز تأثير الليبيين واليمنيين منطقة إفريقية وحتى قبل انتقال عقبة إلى إفريقية. فقلا عن (Jean Lethilleux)، يقول الباحث العربي بأنه وبفضل التعاون الليبي اليمني تم تأسيس مدينتين إسلاميتين في المغرب الأوسط! وهذه المعلومة التي لم تذكرها المصادر التي بين أيدينا، يقول الباحث بأن ليشو ستمدها من "وثائق ليست معروفة، ولأول مرة يعتمد عليها" وهذه الوثائق³، يستطرد صاحب العمل "تذكر

1- السكري، كتاب المسالك، الجزء الثاني، 660.

2- إن الضرر الذي سببت فيه المصادر العربية الأولى حين تجاهلت تاريخ السكان المحليين هو ضرر لا يمكن التغليل من شأنه، وبالتالي السكوت عليه، ولكن الأمر اللافت للنظر أن بعض لأعمال العربية الحديثة، والواقعة تحت تأثير المدرسة الغربية التي ترغم بأن المغرب بلاد بدون عباد، لا تكتفي بتجاهل تاريخ المحليين الذين لا تلتفت إليهم إلا عرضا، بل تراها تقصر علاقة بني أمية بالموالي في إفريقية بالموالي الذي هم من أصول مشرقية! صحيح أن الدكتور عز الدين عمر موسى، على سبيل المثال، أشار إلى أن قبائل التراكات قد التحقت بالمسلمين وساهمت في الفتوح، وهي إشارة تذكرها المصادر العربية الأولى ولا تتجاهلها الأعمال الفرنسية! ولكن حرص هذا الأخير على استبعاد المحليين في إدارة البلاد ومن الفتوح (باستثناء طارق، والاستثناء يؤكد القاعدة) وحصر علاقة بني أمية في إدارة البلاد بالموالي ذوي الأصول المشرقية، يؤكد استمرار سريان مفعول الفرضية العربية القائلة بأن المغرب بلاد بدون عباد لمن يريد الإطلاع على وجهة نظر الدكتور عز الدين عمر موسى بحيله لمقاله الموسوم "قراءة في علاقة بني أمية بالموالي: ولاتهم وعمالهم في إفريقية"، المنشور في: مجلة التاريخ العربي، العدد الخامس، شتاء 1418هـ - 1998م، ص 231-244.

3- إن ما يعنيه المؤلف بالوثائق هي مخطوطات وضعها ثلاثة من مؤرخي المدينة، ثم يسبق لأحد أن اعتمد عليها! إن أول هؤلاء سليمان بن إبراهيم بن بارج، وكان قد ولد في سدراته سنة 293هـ \ 905م، وتوفي في وارجلان سنة 407هـ \ 1006م، وفي حين يفضل صاحب العمل عن تحديد تاريخ مولد ووفدة ثاني هؤلاء (أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، فإنه يكتفي بتاريخ تأليف الكتاب=

بأن عددا لا بأس به من المسلمين كانوا مقيمين في طرابلس سنة 23هـ وتوغلوا في جبل نفوسة ثم قاموا سنة 27هـ بملاحقة فرق باتريس البيزنطي (قريقوار) في ضواحي سبيطلة، وقاموا بغارات متعددة. وحسب باستشري¹ فإن سبعة من المسلمين استقروا في جبل نفوسة، ثم اتجه اثنان منهم إلى وادي مية. ولا يعرف هل وصلا إلى الوادي كزوار فقط؟ أم كانت نيتهم الاستقرار خاصة وأن المنطقة معروفة بنشاطها التجاري. ومهما يكن من أمر فعن طريق القوافل القادمة من زنجبار والسودان وصل في 7 رجب 39هـ (658) عبد الرزاق بن عبدان بن عبد الحق المولود بمحضر موت، وأسس مدينة أطلق عليها اسم تيعيمون. وفي سنة 41هـ (661-662) وصلت جماعات أخرى إلى وادي مية قاد إحداها أبو حفص عمرو بن فتح الغار من جبل نفوسة، نتيجة عدم الاستقرار، فقام هؤلاء الوافدون ببناء مسجد ثم بنيت حوله المساكن، وبذلك ظهرت سدراته كمدينة للوجود².

إن تحول المركز من الأراضي الليبية³ إلى القيروان بعد استكمال عمليات الفتح في

= الثالث (656هـ\1257) لصاحبه باستشري؛

- 1- هو باستشري بكر بن هود بن صاح بن قاسم بن عيسى وهو أحد المؤرخين الثلاثة الذين اعتمد على وثائقهم لوثيو.
- 2- مزهودي، مسعود، الإنصاف في المغرب الأوسط، القرارة، نشر جمعية التراث، 1996، حاشية 4، ص ص: 36-37؛ هذا ونجد الإشارة إلى أنه يتوجب أخذ هذه المعلومة بشيء من الحذر خاصة وأنه لا أبا ولا المرهودي كما قدر رجعا للأعمال التي رجح إليها لثيو. من ناحية أخرى، إن ما يؤكد عملية الحذر أن عملا خاصا ببلاد ورقلة صدر سنة 1975، أي ثمان سنوات قبل صدور عمل لوثيو، أفادت صاحبة العمل بأن سكان المنطقة يرددون رواية شفوية معادها مقومة أهل ورجلان، على وجه التحديد، لجيش عقبة بن نافع الذي توغل في المغرب الأوسط في نهاية القرن السابع، أنظر: Rouvillois-Brigol, Madeleine, Le pays de Ourgla (sahara algerien) Paris, 1975, 11-12.
- 3- إن المتصفح، على سبيل المثال، لنصي البلاذري وابن عذاري يرى بوضوح كيف أن الدواوين كانت في بادئ الأمر بالأراضي الليبية (ولابتي عمرو وعقبة)، ثم انتقلت بعد هزيمة الكاهنة في لقائها الثاني بحسان بن النعمان إلى القيروان؛ في المرحلة الأولى، وكما تنص على ذلك رواية لبلاذري صراحة، تولت هذه الدواوين ليس فقط القيام بمراسلة الخليفة وإجباره بما تحقق من نصر على يد القادة المسلمين، بل وبمحافظة الوثائق المتعلقة بالانفاقيات بين الطرفين؛ فبسبب حملة عقبة النأديبية في جوبي =

المغربين الأوسط والأقصى، فضلا عن فتح الأندلس، لم ينتج عنه بالضرورة تحول كل اليمنيين المقيمين في مدن الأراضي الليبية الداخلية والساحلية إلى المناطق الحديثة¹. بكل تأكيد، انتقل العديد منهم، ولكن أعداد أخرى فضلت البقاء في هذه الأراضي². وهذا التواجد الذي تغفل المصادر عنه مرة أخرى طوال الفترة الفاصلة بين انتهاء مرحلة الفتوحات (92هـ) وقيام ثورة ميسرة (122هـ)، يعود للظهور في الأراضي الليبية مباشرة بعد ثورة ميسرة. ففي سنة 126هـ قاد عبد الله بن مسعود التجيبي (اليمني) أول ثورة في طرابلس ضد الأسرة الفهرية. وعلى الرغم من أن هذا الأخير أخذ "وضرب عنقه"³، فإن التحالف الليبي اليمني يجتمع في

- الأراضي الليبية أن ملوك هذه المناطق أحلوا بالاتفاقيات المبرمة بينهم وبين سربر أرطاة؛ مخلص من هذا أن الدواوين يتم إنشائها مباشرة بعد الوصول إلى اتفاق ينظم إدارة المنطقة؛ بناء عليه، فإنه من المنطقي أن لا تدون الدواوين في إفريقية إلا بعد انتصار حصاد عسى الكاهنة؛ يقول ابن عذري بأنه وبعد أن حسم "إسلام البربر وطاعتهم وذلك في شهر رمضان سنة 82. استقامت بلاد إفريقية لحسان بن نعمان فدون الدواوين"، أنظر: البيان المغرب، الجزء الأول، 38.

1- يمكن الاستشهاد بحيرة الصحابي أبي رمعة البلوي؛ فهذا الأخير دخل إفريقية في حملة معاوية بن حديج الأولى سنة 34هـ، وبالنظر إلى أن الجيش الإسلامي لم يستوطن إفريقية بعد، فإنه من المنطقي أن يستقر هذا الصحابي بالأراضي الليبية؛ وحين استقر الوضع بالقيروان انتقل من بين من انتقل إليها وأقام بها حتى وفاته؛ حول سيرة أبي رمعة أنظر: أبو العرب، محمد بن أحمد بن عبيد القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباق، تونس، 1965، 76-77.

2- إن المصادر لا تسعف الباحث كثيرا لدعم هذا المقترح، ولكنها لا تخل عليه في ذات الوقت ببعض التنف التي تؤكد ما تم التلميح إليه في هذه الدراسة. فلتواحد اليمني كان في اعتقادي على درجة كبيرة من الأهمية في طرابلس في المرحلة اللاحقة لفتح المغرب والأندلس؛ وهذه الأهمية يستشفها المرء من اختيار أحد صحابة رسول الله موطنًا له. فالمتنذر لـ"صحابي" يمني من مذبح أو من كندة. وقد صحت النبي صلى الله عليه وسلم "اتخذ مدينه طرابلس موطنًا له؛ فهذا الأخير، يقول الشيخ الطاهر الراوي، قرر البقاء في طرابلس بعد رجوع موسى بن نصير إلى المشرق سنة 95هـ ولم يغادرها إلى أن توفي وقبره مشهور لا يختلف فيه اثنان" أنظر: ولاية طرابلس من بداية لفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، 1970، 32.

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 252.

منطقة طرابلس في السنة نفسها تحت قيادة كل من عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي ويحجر والي عبد الرحمن بن حبيب، حميد بن عبد الله العكي على مغادرة طرابلس. ولدراية ابن حبيب بأهمية هذا التحالف لا يكتفي بإرسال والي جديد لطرابلس من أصل يمني (يزيد بن صفوان المعافري)، بل ويرسل في الوقت ذاته بشخصية مغربية أغلب الظن من أصول لينة تدعى مجاهد بن مسلم الهواري ليستألف "الناس ويقطع عن عبد الجبار هواره وغيرهم"¹. وعلى الرغم من أن عبد الرحمن بن حبيب "اجتمع إليه جمع كثير، فزحف بهم إلى عبد الجبار والحارث بن تليد فلفيهم بأرض زناته"²، فإن عمرو بن عثمان، صاحب جند ابن حبيب انهمر "واستولى عبد الجبار والحارث على طرابلس كلها"³. ومع أن خليفتهما إسماعيل بن زياد النفوسي عظم "شأنه وكثر بيعه"، فإن الصراع من أجل السلطة والسابق لتوحيه والذي نتج عنه قتل عبد الجبار والحارث، تسبب على ما يبدو في تأجيل أمر استحواد هذا التحالف على إفريقية.

صحيح أن منطقة طرابلس شهدت العديد من الثورات قبيل سقوط الأسرة الأموية، ولكن الأمر الأكيد أنها، وبسبب الهدوء الذي عرفته طوال فترة الحكم الأموي، لم تسارع إلى محاربة ولادة هذه الأسرة كما فعل مغاربة المغرب الأقصى، ولكنها ترفض وعلى التوالي سلطان الأسرة الفهرية، والأسرة العباسية⁴. ولكن ولأن سكان الأراضي الليبية كانوا

2- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 252.

3- المصدر نفسه، 252.

4- المصدر نفسه، 253.

5- إن التركيز على التناحر الاجتماعي، وفق ثنائية جامدة (عرب ضد بربر و ستر ضد برانس، و قيسية ضد يمنية) فضلا عن التركيز على اختلاف المذاهب وتنوعها (خوارج وسنة تارة وسنة وشعة وخوارج تارة أخرى) فوئا على الجميع فرصة فهم موقف سكان الأراضي الليبية على سبيل المثال من الأسرة الفهرية في بادئ الأمر، ثم في مرحلة لاحقة من الأسرة العباسية. بسبب التكامل الذي تحقق بين الليبيين والمشاركة طوال عمليات الفتح لم يكتف سكان المنطقة بإعلان الثورة على العباسيين، بل براهم، وبعد استقرار الإمامة الرسمية بناصر، يعضلون التعامل مع شريك الأمس (الأسرة الأموية) الذي أقام ملكا بالأندلس.

ويفضل التعاون الليبي المشرقى بصفة عامة، ومنذ أن دخل عمرو بن العاص هذه المنطقة، على صلة وثيقة بالمشرق فقد تمكنوا ليس فقط من الانتقال إليه والاستقرار به منذ فترة مبكرة، بل والمساهمة في تسيير بعض شؤونه. فالكندي يذكر بأن العديد من المغاربة (أعلب الظن من الأراضي الليبية) كانوا قد انتقلوا لمصر وأقاموا سوى لهم بالفسطاط قبل الشروع في فتح إفريقية¹. هذا كما يمكن الاعتقاد بأن أبناءهم كانوا قد انتقلوا لبلاد الشام والجزيرة طلباً للعلم وللمغامرة أيضاً. ولتصبح المقترح الأخير بالإمكان الاستشهاد بالحدثين التاليين: يتمثل الأول في تمكن سابق بن عبد الله البربري، على أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ) من تولي قضاء مدينة الرقة². أما الحدث الثاني فهو يتعلق بتولي معربي باسم وضاح قيادة الجيوش الأموية في المشرق وفي خلافة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ)³. وعلى الرغم من أن المصادر لا تشير في حقيقة الأمر إلى موطن هذا القائد المغربي، فإنه، وبالنظر إلى أن الأراضي الليبية كانت قد تميزت في هذه المرحلة عن غيرها بالتعاون التام وبسهولة التحول والاستقرار، فإنه من غير المستبعد أن يكون هذا الأخير أيضاً من أصول ليبية.

لكل هذه الأسباب أعتقد بأنه كان على الليبيين وبفضل رسوخ هذه التقاليد أن يسعوا إلى توثيق نجاحهم هذا بعد سقوط الأسرة الأموية، حليف هؤلاء بالأمس، مع جهات مشرقية غير رسمية تؤمن لهم مصالحهم وتوازرهم عند الضرورة. من ذلك فإنه وبعد فشل

1- الكندي، أبو عمر محمد، كتاب الولاة وكتاب العصابة، بيروت، 13051908

2- ابن عسكرو، تهذيب تاريخ ابن عسكرو، دمشق، 1349هـ، 38-39 وللتأكد من تمكن هذا المغربي من اللغة العربية ومن صاعة لشعر بالإمكان الاستشهاد بالقصيدة الشعرية التي أشدها أمام الخليفة عمر بن عبد العزيز:

ويتما المرء أمسى ناعماً جذلاً في أهله معجباً بالعيش دا أنى
غرا أتيج له من حينه عرضاً فما تلبث حتى مات كالصعق.

أنظر الأصمغاني، أبو العرج، كتاب لأعاني، الجزء الخامس، بيروت، دار صعب، 1500

3- Norris, H T, The Berbers in Arabic Literature. London Longman and New York, 1982, 9.

سكان الأراضي الليبية في السيطرة على منطقة طرابلس قرر بعض وجهائها التحول إلى مدينة البصرة صحبة بعض وجوه منطقتي إفريقية والمغرب الأوسط من المخالفين لحكم الأسرة الفهرية. ومن حق المرء أن يسأل عن سبب توجه هؤلاء للبصرة دون غيرها؟ إن أهمية هذه المدينة ليست بخافية عن أحد. فللبصرة يقول ابن حوقل "من استغاضة الذكر بالتجارة والمتاع والمجالب والجهاز إلى سائر أقطار الأرض ما يستغني شهرته عن إعادة ذكر فيه"¹. كما أن استراتيجية الموقع وانفتاح المنطقة على الحضارات الشرقية المتنوعة من ناحية، واجتماع عناصر الاستقرار بهذه المنطقة من ناحية أخرى، أهلها لأن تحتضن جل التجمعات والتيارات السياسية والمذهبية المناهضة للسلطة المركزية خلال القرن الأول للإسلام. فهذه المدينة التي ساندت علي بن أبي طالب في محاربه طليحة وعائشة في موقعة الجمل، أصبحت تعرف في فترة لاحقة بميلها إلى العثمانية. كما أن الخوارج الذين اتخذوا الكوفة في بادئ الأمر مقر لهم، انتقموا بعد مقتل عبد الله بن الزبير لهذه المدينة. بناء عليه، فإنه ويسبب هذا التنوع الاقتصادي / التجاري، والمذهبي / السياسي، اتجهت أنظار الليبيين والعديد من المعاربة لهذه المدينة التي مكنتهم ليس فقط من الاستقرار في هذه المدينة، بل ومن التعامل مع أقصى أسواق العمورة. ففي سياق حديث الشماخي عن ورع بعض أتباع المذهب الإباضي في مدينة البصرة أفاد بأن بعض هؤلاء كان في القرن الثاني للإسلام من تاجر الصين².

إن مقومات بهذا الحجم ما كان لأبناء الأراضي الليبية الذين اشتهروا عبر العصور بالتجارة تجاهلها. بناء عليه يرسلون في مرحلة أولى أحد وجهاء جبل نفوسة (أبو عبد الله عبد الحميد الجنائني) والذي يمهّد لعلاقة أوثق تبنّاها هذه المرة مجموعة من الأفراد تطلق عليها الأعمال الإباضية مصطلح حملة العلم³. تأسس على ذلك، فإنه وما أن يعود الجنائني حتى

1- ابن حوقل، أبو القاسم، كتاب صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979، 214.

2- الشماخي، كتاب السير، طباعة حجرية، قسنطينة، 103، 94.

3- إن ما يقصد باصطلاح "حملة العلم" هو سفر بعض وجهاء المنطقة من أتباع المذهب الإباضي للمشرق للقاء أئمة المذهب والترود من علمهم غير أن المتمعن في الأحداث اللاحقة يتيقن من أن سفر هؤلاء لم يكن بفرض الترود بعلم هؤلاء فحسب، بل والأهم من ذلك للحصول على التأييد المادي والمعنوي =

تسارع هذه المجموعة المكوبة من وجهاء طرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط (إسماعيل بن درار الغدامسي، وعاصم السدراتي، وأبوداود النزاوي، فضلا عن عبد الرحمن بن رستم الفارسي) بالرحيل إلى البصرة حيث تقيم حوالي خمس سنوات. ولأن الطرف الليبي، وبفصل التعيرات التي عرفت المنطقة طوال مرحلة الفتح، كان أوثق صلة بالشريك الشرقي توكل لإسماعيل بن درار الغدامسي مهمة وظيفة تفوق في الأهمية دور بقية مهام أفراد حملة العلم. ففي الوقت الذي كلف أبو عبيدة التميمي أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري بالإمامة، فإنه ينزل عند رغبة إسماعيل الذي أراد أن يتولى القضاء. يقول الشماخي بأن إسماعيل هذا "هو السائل لأبي عبيدة عند الوداع - بعد أن تعلمو خمسة أعوام - عن نحو ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام. فقال له أبو عبيدة: أردت أن تكون قاضيا يا ابن درار! فقال له: أرايت أن ابتليت بذلك يا شيخ؟ فابتلى بالقضاء".¹

إن هزيمة أتباع أبي الخطاب المعافري، وانسحاب عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط لم تضع حدا للتآلف الليبي اليمني. فبعد ولاية محمد بن الأشعث على إفريقية والتي دامت "ثلاثة أعوام وعشرة أشهر في خلافة أبي جعفر المنصور"²، تتجدد مقاومة التحالف اليمني الليبي ضد الوجود العباسي. فوفقا للشماخي أنه وبعد أن أوقع ابن الأشعث بأتباع أبي الخطاب المعافري، اجتمع أتباع أبي حاتم يعقوب بن حبيب التجيبي، أي اليمني "في حير طرابلس. عام أربعة وخمسين، فأرسل إليهم والي طرابلس حمسمانة فارس، فقاتلهم أبو حاتم فهزمهم.. وأتاه جيش ثان من إفريقية فتلقاهم قرب قابس فهزمهم. ودخل طرابلس

= لذلك فإنه وما أن "بلغوا بلادهم وأنسوا من أنفسهم قوة، اجتمع من أهتم بأمر المسلمين ومن له النظر من الشيوخ وتشاوروا بموضع يقال له صياد، غربي مدينة طرابلس، فاتفق رأيهم على تولية أبي الخطاب المعافري" أنظر: الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، 25 الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس هـ، تحقيق ودراسة محمد حسن، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 251995.

1- الشماخي، كتاب السير، تونس، 47. 1

2- ابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الأول، 73. 2

مع هزمهم وبقي بها شهرا... ثم أرسل أبو جعفر يزيد بن حاتم.. عام خمسة وخمسين ومائة.. فلما التقى الجمعان مات أبو حاتم وتوفي أهل البصائر من أصحابه ومن يلتبس الشهادة¹.

وعلى الرغم من أن الأسرة الرستمية أقامت إمامتها بالمغرب الأوسط بعد مقتل أبي حاتم التجيبي (إمام الدفاع)، فإن الليبيين (من سكان جبل نفوسة) وبعض اليمنيين الذين انتقلوا إلى الجبل لم يدعموا هذه الإمامة في المغرب الأوسط فحسب، بل وساهموا في اقتطاع الأراضي الواقعة خلف شريط طرابلس الساحلي وضمها لسلطان صاحب مدينة تاهرت. واستمرار تأثير التواجد اليمني بمنطقة الجبل (جبل نفوسة) حتى بعد تأسيس الإمامة الرستمية بتاهرت سنة 161هـ، يستشعره من الرواية التالية. ففي إمامة عبد الوهاب بن رستم (171-208هـ) طالبه أهل المنطقة بتولية السمع بن أبي الخطاب المعافري عليهم؛ وعلى الرغم من أن هذا الأخير كان وزيرا لعبد الوهاب وكان به "ظنينا (إنه) آثرهم على نفسه وقدمه عليهم"². ليس هذا فحسب، بل ولأن التواجد اليمني الليبي بجبل نفوسة لا يزال قويا حتى إمامة عبد الوهاب بن رستم، فإن هذا الأخير يلجأ، وبسبب كثرة الفتن في مدينة تاهرت، إلى الجبل حيث يقيم فيه لمدة سبعة أعوام³.

بعد هذا العرض الموجز لبعض الشواهد ذات العلاقة بالتواجد اليمني في المنطقة، وبدور الليبيين في تغيرات القرون الأولى للإسلام من حق المرء أن يسأل عن الفائدة المرجوة من هكذا عرض؟ أكاد أزعم بأن قراءة تاريخ ليبيا الوسيط على هذا الحويصيف بعدا تم تجهله عن وعي تارة ومن غير وعي تارة أخرى؛ فقد جرت العادة، وكما سبق التنويه في مقدمة

1- الشماخي، كتاب السير، تونس، 36-40.

2- المصدر نفسه، 272.

3- إن الشماخي، وعلى الرغم من أنه يستعرض مجموعة الاشقاقيات التي عرفتها الإمامة الرستمية عدداً تولية عبد الوهاب بن رستم أمر تاهرت (معارضة ابن فدين، وظهور الكار والمعتلة)، فإنه يزعم بأن تحول هذا الإمام إلى جبل نفوسة كان بسبب عزمه على الحج فمنعوه خوفاً من المسودة أن يسكوه. فأقام بجبل نفوسة في تلك التوبة سبعة أعوام، أنظر: كتاب السير، 53-66.

العمل ، على اعتبار كل بلاد المغرب بلاد بدون عباد ، فهي مسرح تتصارع فوقه قوى أجنبية يعمل اللاحق منها على طرد السابق. وهذه الفرضية ساهم في بنائها باحثون فرنسيون في مرحلة الاستعمار ؛ صحيح أنه وكما ذهب إلى ذلك الخطيبي أن مما " لا شك فيه أنه كان يوجد علماء من ذوي النيات الحسنة ، ولكن وحوود نظام كالنظام الاستعماري يملك إدارة قوية ، ومنطقا سياسيا جعل المؤرخين وعلماء الاجتماع يكونون عرضة للاستخدام بطريقة أو بأخرى"¹. واللافت للنظر أن عدوى هذه الرؤى تسربت العديد من عناصرها لأعمال زعم أصحابها بأن هدفهم كان تعرية هذه الأطروحات ودحضها. من ذلك أن عبد الله العروي الذي انتقد بل وانتقص في كتابه القيم "تاريخ المغرب" هذه الأطروحة ، لا يكتفي بتصنيف العرب ضمن الشعوب الوافدة ، بل ويزعم بأن استراتيجية الفتح الإسلامي لا تختلف على غيرها من استراتيجيات الحبوش التي تمكنت في السابق من احتلال المغرب ، فالعرب ، يقول هذا الأخير ، تصرفوا " كالوندال والبيزنطيين ، أي كورثة ، ومن يدعي أنهم خرموا عقد سيرورة المغرب فإنما يتذرع بشيء غير موجود لإبداء أحكام واهية"². ليس هذا فحسب ، بل نراه يستطرد قائلًا بأنه وعندما يراجع " المرء وقائع الفتح العربي ويقارنها بأحداث الغزوالونداني والغزوالبيزنطي لا يمكن إلا أن يسأل : أي حديد في كل هذا ؟".

في الختام إن صعوبة البحث في تاريخ ليبيا الوسيط ، فضلا عن دور سكانه في ربط بلدان المغرب بالشرق ، يجب أن لا تنبينا عن الاستمرار في بحث هذه الجزئية التي أراها على درجة كبيرة من الأهمية. والأهمية التي أعتبها لا علاقة لها بالتعصب لهذا الإقليم أو لغيره من الأقاليم فأخر شيء أفكر فيه ، في حقيقة الأمر ، الدخول في مهارات إقليمية مهمتها الترويج لتراعات إقليمية معاصرة ! من ناحية أخرى من يذهب إلى تفسير جزء كبير من تاريخ الأراضي الليبية من منطلق فرضية التبعية ، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتبنى أطروحة منافية لظروف العصر ، أو العصور قيد الدراسة.

1- عبد الكبير الخطيبي " لتاريخ وعلم الاجتماع بالمغرب : مذكرة حول مشكلة الإيديولوجية " في : البحث العلمي ، 1967 ، 139

2- مجمل تاريخ المغرب. الربط ، مطبعة المعارف الجديدة ، 1984 ، 114.

إن الغرض من إبراز دور ليبيا والليبيين بالنسبة لي له أكثر من مبرر. فجل المهتمين بتاريخ المغرب العربي من مشاركة ومغاربة أيضا كانوا قد درسوا ما اصطلح على تسميته بتاريخ دول شمال أفريقيا دون أن تشكل ليبيا جزءا من هذه الدول. وهذه الرؤية غير العلمية التي نسجت خيوطها مدرسة الإستشراق الفرنسية لم تكن وليدة الصدفة. فجهود فرنسا كانت تنصب في المقام الأول على إنتاج دراسات تتعلق بعادات وتقاليد سكان كل منطقة من مناطق المغرب الواقعة تحت سيطرة فرنسا¹. وهذا الحرص المؤسس على الفرضية التجزئية، يتأكد من خلال اهتمام الباحثين الفرنسيين بتاريخ هذه البلدان السياسي. بناء عليه أصبح تاريخ تونس في العصر الوسيط هو على التوالي تاريخ الأغالبة والفاطميين والحفصيين! وفي الوقت الذي لم تركز الأعمال الفرنسية كثيرا على تاريخ الجزائر السياسي لمرحلة ما قبل القرن التاسع عشر، ولأسباب ليست خافية، فإنها نوهت كثيرا بتاريخ المغرب الأقصى المتمثل هو الآخر في تاريخ بعض أسره الحاكمة (الأدارسة، والمرابطون، والموحدون)؛ وبالنظر إلى أن ليبيا لم تقع تحت نفوذ فرنسا، ولم تحظ باستضافة أي من الأسر المشرقية التي أسست معظم دويلات بلدان المغرب، أصبح تاريخها غامضا، وبالتالي غير جدير بالاهتمام.

من ناحية أخرى إن لفت النظر لتاريخ ليبيا، أولغبرها من البلدان التي لم تحظ بتاريخ سياسي يستمد شرعيته من كيان سياسي محلي، له هدف إضافي مهمته دحض المقولة الشائعة من أن المرء لا يقرض غير الموسر (One lends only to rich) فنحن نعلم الآن بأن غياب حروب حقيقية فوق الأراضي الليبية طوال مرحلة الفتح، وبطأ فتح إفريقية وانتقال الدواوين

1 - ففي هذا السياق يمكن للمرء أن يذكر مما فعلته فرنسا في المغرب الأقصى؛ ففي سنة 1904 أنشأت بعثة علمية في مدينة طنجة هديها "البحث في عين المكان عن الوثائق التي تسمح بدراسة لمغرب وتحديد تنظيمه وحياته، ليس فقط بواسطة الكتب والمخطوطات ولكن أيضا بالمعلومات الشفوية، وبواسطة تقاليد القضاة والروايات والعائلات... ومن أجل إنشاء بوثائق المعربة فقد كان من اللازم إقامة جدول للمغرب وبقائله ومديه وزواياه والعنور على أصولها وتسمياتها وصراعاها ونحالفاتها، ونتيجها في التاريخ عبر مختلف العائلات المالكة ودراسة نظمها وأعرافها وباختصار معرفة الميدان الذي قد ندعى للعمل فيه يوما ما وذلك حسب قدر المستطاع". أنظر: الخطيب "التاريخ وعلم الاجتماع بالمغرب"، 140.

للقبروان في فترة لاحقة ، فضلا عن غياب مركز سياسي في هذه المنطقة ، تسبب مجتمعة ليس فقط في تعميم جوانب مختلفة من تاريخ الأرض الليبية ، بل وفي نسب العديد من إنجازات القرن الأول للإسلام لمنطقة إفريقية ؛ فبالنظر لقيام أسر تمتلك الدواوين والعلماء (الفقهاء ورجال الدين) ، فإن نسب أي حدث مجهول الهوية لإفريقية لا تجابهه عادة أية معارضة ؛ في المقابل ، تقوم المعارضة ولا تقعد حين تنسب هذه الحوادث لمناطق لم تتمتع بمراكز كبرى ! فدخل التاريخ ظل مرتبطا بوجود كيان سياسي ، أو وكما عر عن ذلك الجاحظ "سوق السلطان" ، لذلك فإن لفت النظر إلى تاريخ ليبيا والليبيين ، وفق هذا المقترح ، يمكن أن ينجز ، والأهم من ذلك أن يمكن الباحث من حسن استغلال وبالتالي توظيف العديد من التصوص والوثائق التقليدية والتي أعدت في الأصل للتنويه بتاريخ الوافد ، أو بتاريخ المركز لإعادة كتابة التاريخ ، وفي هذا المعنى تأويله وبكل تأكيد ليس تغييره ، ممكنة حتى في غياب المكتشفات الأدبية والأثرية الجديدة.

مرة أخرى ، إن التركيز على تاريخ الليبيين في عصر يسبب المرء فيه أكثر ما ينسب إلى الأسرة ، أو القبيلة ، أو المهنة ، وفي أفضل الحالات للمدينة القرية قد يفهم منه أنني أسعى ، ومن منطلق التناوب القطري أنني أعمد إلى تطويع الوقائع وبشكل تعسفي ، وإلى تضخيم دور الليبيين في القرن الأول للإسلام وجعل مساهمتهم المساهمة المحورية والأساسية لأحداث ذلك القرن بكل تأكيد ليس هذا ما أهدف إليه ، فمن يذهب إلى أن الأراضي الليبية كانت تابعة لمصر وإفريقية في العصرين القديم والوسيط ، وأن تاريخ المنطقة بصعب فهمه خارج هذه العلاقة ، لا يمكن أن يكون العدا التفسير القطري ملاذ. فاللجوء إلى هذه التنف وتضخيمها ، فضلا عن مدأ اللجوء للبرهان بالمماثلة هي من الأمور التي يمكن التعويل عليها لمن أراد كتابة تاريخ منطقة خلت من كيان سياسي ، ولكن هذا أكيد لم تكن خارج التاريخ.

فالمتمعن في تاريخ المنطقة للمرحلة السابقة لدخول المسلمين يخلص إلى أن جهود سكانه في الحد من النفوذ الأجنبي ، فضلا عن المساهمة في تقليص نفوذه في إفريقية على سبيل المثال ، كانت متواضعة ، ولكن لا يمكن لباحث محايد تجاهلها. فالأعمال الغربية والتي تشير في

حيا، إلى نظم الأراضي الليبية الداخلية السياسية والاقتصادية، تذهب إلى أن تجارة العبور كانت عمالة العمود الفقري لاقتصاد الليبيين. وسيطرة هؤلاء على هذه التجارة على ما يبدو أزعمت روما كثيرا الأمر الذي جعلها توفد (Balbus) سنة 21 قبل الميلاد إلى جنوب الأراضي الليبية لتضع بذلك حدا لهذا المنافس وتسيطر على مدينة جزمة¹. ولأن لهذا المجتمع دينماكيته، وهي ديناميكية يصعب في حقيقة الأمر تجاهلها، فإن الجغرافي الفرنسي، جوتييه، يضطر للاعتراف بحبويه أفراده التي مكنتهم من السيطرة على طرق القوافل التي كانت تصل البحر المتوسط بإثيوبيا². وسيطرة بهذا الحجم لا بد وأن رافقتها اتفاقيات مع سادة الأسواق الداخلية، وبالضرورة مع سادة الأسواق الخارجية. ودون حاجة ما للعودة لتاريخ العلاقات الليبية المصرية، على سبيل المثال، فإن الأمر الأكيد أنه وكما كانت مصر أهم معاير انتقال الأفراد والمعدات من الشرق إلى الأراضي الليبية، ومن ثم إلى بقية بلدان المغرب عبر ليبيا الليبيين في العصرين القديم والوسيط. فإن انتقال المغاربة إلى الشرق مصر في العصر الوسيط على وجه التحديد كان يتم من خلال الأراضي الليبية، والأهم من ذلك بفضل حسن إطلاع الليبيين على هذا الشرق.

إن هذه الخلفية المسكوت عنها هي التي استوجبت هذه الوقفة. لذلك فالتطرق للتواجد اليمني بالأراضي الليبية وفق وجهة النظر المقترحة لم يكن له من عاية سوى إلقاء بعض الضوء على تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي والذي لم تنصفه الأعمال الأولى وبالكاد تلتفت إليه الأعمال المعاصرة كما أن السعي إلى إبراز علاقة الليبيين باليمن على أكثر من مستوى له غاية محددة. ففي الوقت الذي تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور الليبيين في ربط المشرق بالمغرب على المستوى الرسمي (من خلال تعاملهم مع الفاتحين الأول الذين اتخذوا

1 - R C C Law " The Garamantes and the trans-saharan enterprise in classical times". In: Journal of African history, VIII, 2, 1967, 190.

2 - E F, Gautier, L'islamisation de l'Afrique du nord' Les siecles obscures du

Maghreb. Paris, 1927, 190

تجارية مهمة تربط مدينة لبة بمدينة غدامس؛ أنظر. Anciennes voies du commerce transsaharien. In: Geo Ann. Stockholm, 1935.

برقة ورويلة مركزا لإدارة المغرب) فإنها تبرر، وفي نفس المرحلة تقريبا، علاقات غير رسمية تمهد في فترة لاحقة لظهور تعاون تجاري، وفقهي / مذهبي وسياسي بين الليبيين وبقية سكان بلدن المشرق من خلال مدينة البصرة. لذلك فإن التواجد الأجنبي (اليمني في هذه الحالة) والذي أقام بين أظهر سكان المنطقة في أقليم الساحل واصصحراء والجل، عجل في التخفيف من مخاوف السكان المحليين من الوافد الجديد الذي تعود في الماضي على التمرکز في ساحل المنطقة¹. فما يلاحظه المرء، على استراتيجية الوافد الأجنبي (الأوروبي تحديدا) أنها كانت، وعلى الدوام، تسعى إلى استغلال مقومات المنطقة وعزل سكانها، ثم اتهامهم بتهم شتى فهم همج تارة، وبربر تارة أخرى. وحتى تعزل القوى الوافدة هؤلاء عن مناطق نفوذهم المتحضرة والمحضرة، يلجأ بعضهم (الرومان) لبناء تخوم "الليمس" مهمتها فصل فقراء لمنطقة ومنوحشيتها / بربرها عن أثرياء المنطقة الأجانب ومتنوربيها. واللافت للنظر أنه وبعد مضي أكثر من ألف وسعمائة سنة تلحاً إسرائيل، الوافد الغريب للمنطقة، لنفس الاستراتيجية! فحتى يثبت هذا الوافد حدوده داخل الأرض الفلسطينية يقوم ببناء جدار يفصل المحليين عن الوافدين. لذلك فالقول بأن استراتيجية التواجد الإسلامي / المشرقي في المنطقة لا تختلف عن استراتيجية اوافد الغربي هي في حقيقة الأمر مغالطة يجب الكف عن ترديدها. بناء على كل ما تقدم فإنه على من أراد الحديث عن المنطقة (ليبيا وبقية بلدان المغرب) في ظل التواجد المشرقي، وبصرف النظر عن نشابه\ طابق خلفيات المشاركة والمغاربة أو اختلافها، يجب أن لا ينسى البديهة التالية، وهي أن المنطقة لم تنعم على المستوى الاجتماعي من قبل بحول شبه تلقائي مكنها. غداة دخول المسلمين اسطقة، من الانتقال من مرحلة الجربة إلى مراحل

1 - أصطرهما ولمرة الثانية عسى الأقل للفت النظر إلى فرصة عبد الله العروي المتأثرة بالأطروحة الفرنسية؛ فقد أن يؤكد هذا الأخير بطبق الاستراتيجية لعربية واستراتيجيات الوندال والبيروطين يعود ليؤكد هذه الفرضية في مكان آخر من الكتاب وفي موضوع مكمل لأول، يقول العروي بأننا "نستطيع أن نتكلم على مجاح عربي إسلامي إذا أدخلنا في حسابنا النتائج البعيدة لعمليات الفتح، لكن إذا اقتصرنا على الفترة المحدودة بالقرنين السابع والثامن رأينا بوضوح أن العرب لم يخصصوا مغرب الوسط وإنما اكموا بإخضاع تلك المنطقة التي كان يراقبها من سيقهم وتكاليف أقل أحيانا" أنظر: مجمل تاريخ المغرب، 118.

التعاون والتكامل والوحدة¹.

كلمة أخيرة، صحيح أنني تعمدت في هذه الدراسة التركيز على العامل الاجتماعي والمتمثل في انصهار الليبيين واليميين فوق الأراضي الليبية منذ العقد الثالث للإسلام وعملهم معا طوال القرون الأولى للإسلام. ولكن تحول المنطقة وسكانها من مرحلة الضعف والتشردم إلى مرحلة القوة والتوسع، تدين لعوامل أخرى يعوق بعضها العامل الاجتماعي المنوه به في هذه الدراسة. فبالإضافة للعامل الاقتصادي الذي قمت بتوظيفه في عديد الأعمال السابقة، فإن العامل الديني أراه يحتل مكانة لا تضاهيها أية مكانة أخرى وإذا ما تعمدت في هذه الدراسة تجاهله فسبب ذلك أن هذا العامل يحتل حيزا كبيرا في الدراسات التقليدية، الغربية على وجه التحديد والحديثة، العربية وغير العربية.

1 - يمكن في حقيقة الأمر تفسير هذا التحول من منطلقات مختلفة، ولكن وحتى لا أزج بنفسى مجددا في محاجة قد لا ينتج عنها غير الإطالة، رأيت الاكتفاء بما يذكره الحايري في سياق حديثه عن أهم مقومات بناء الدولة العربية وانتشار مؤسساتها في العصر الوسيط: فهذه المقومات تتكون من ثلوث حضاري يهدف إلى التوحيد والوحدة، وإلى التمصير والتعدين، وإلى العقلنة أنظر: "المجتمع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات" في: مجلة الوحدة، السنة الأولى، العدد السادس، 1985.

اليমানيون في إفريقية (البلاد التونسية) في القرن الأول والثاني للهجرة

د. راضي دغفوس

أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة اتونسية

المقدمة:

تندرج العلاقات بين اليمن وشمال إفريقيا - لا سيما البلاد التونسية - في إطار الهجرات العربية - بصفة عامة (الهجرات السامية) من شبه الجزيرة العربية - بما فيها اليمن - نحو منطقة الشرق الأوسط (الهلال الخصيب) وكذلك نحو شمال إفريقيا والقرن الإفريقي. وترجع هذه الهجرات إلى الألف الرابع قبل الميلاد وقد تواصلت في العهد الوسيط في إطار حركة الفتوحات الإسلامية التي أسميتها من جهتي الانتشار الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة دون اعتبار الهجرات الأخرى.

وسوف أدرس في هذه الورقة النقاط التالية :

- أولا : التذكير بالأصول المشتركة من حيث الإنتماء بين سكان اليمن وسكان تونس.

- ثانيا : اليمانيون ومساهماتهم في الانتشار الإسلامي في بلاد المغرب بما فيها إفريقية (البلاد التونسية) في القرن الأول للهجرة.

- ثالثا : دور اليمانيين في تاريخ إفريقية الوسيط.

1-الأصول المشتركة :

أشير قبل كل شيء إلى أن العرب ينتمون إلى الشعوب السامية التي لها صفات مشتركة من ناحية اللغة واللهجات. فاللغات السامية - منها العربية والعبرية وكذلك اللغات العربية الجنوبية المختلفة تتشابه في جذور الأفعال والأصوات وأصول المفردات كما هناك تشابه بين الساميين في ميدان التنظيم لسياسي والاجتماعي والديني وفي مجال العادات والتقاليد

الاجتماعية والطقوس الدينية.

ودون الرجوع إلى مختلف النظريات التي صاغها العلماء حول الوطن الأصلي للساميين فالمفت للاشبهاء هو النظرية الخامسة التي تؤكد على أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الساميين وأن الساميين هاجروا منها واستقروا في منطقة الهلال الخصيب ومصر وإفريقيا الشمالية والقرن الإفريقي لعدة أسباب منها الجغرافي (الجفاف وتغير الجو) ومنها السياسي (ضعف الحكومات) ومنها الاقتصادي (تغير طرق التجارة الشرقية).

انطلقت هذه الهجرات منذ الألف الرابعة قبل الميلاد في شكل موجات مختلفة وبصفة مستظمة إلى حدود القرن السابع بعد الميلاد. مذكر خاصة .

- هجرة الأكاديين إلى بلاد الرافدين

- هجرة الكنعانيين إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وريوع الشام

- هجرة الآراميين نحو الشام والعبرانيين نحو فلسطين.

وفي حدود سنة 500 قبل الميلاد جاءت الموجة الخامسة التي حملت الأنباط إلى شمالي شبه الجزيرة العربية حيث أقاموا دولة عاصمتها التراء كما نزل التدمريون في شرقي حمص وأقاموا دولة تدمر.

ولعل الموجة الأخيرة من هذه الهجرات تهتم بجموع لعرب الذين خرجوا من الحجار ونجد وعمان واليمن وحضرموت ليشاركوا في عملية "الفتوحات الإسلامية" أو الانتشار الإسلامي في غصون القرن السابع للميلاد وقد استقروا في كل من الشام والعراق ثم مصر وبلاد المغرب وكذلك الأندلس.

وللحديث عن العلاقات بين اليمن وإفريقيا لشمالية . بما فيها ابلاد التوسية - لا بد من الرجوع إلى النظرية الإفريقية التي أكد أصحابها - منهم ركس سميث بختصوص - على أوجه الشبه العرفية وكذلك التشابه في اللغة وانسجام التجاوب الاجتماعي بين العرب والبربر. ومم يذكر هو أن علم الأجناس والدراسات الإثنية تؤيد الفكره القائلة بأن شمال

إفريقيا هو مهد لساميين. أما الدراسات الأنتروبولوجية فتطرح قصة أصل الإنسان وأصل الجنس الأبيض ومن ضمنه الساميين أي العرب والبربر.

بالنسبة للعلماء العرب لا بد من الإشارة إلى نظرية ابن خلدون التي عرصها في المقدمة وفي تاريخ البربر وأكد فيها بالخصوص على العلاقات القديمة بين بربر شمال إفريقيا (أوالمغرب) وعرب شبه الجزيرة العربية ومنهم أهل اليمن.

يعتبر ابن خلدون أن "أخبار التباينة ملوك اليمن وجريدة العرب الذين يغرون إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب أخبار عريقة في الوهم والخلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة". ويذكر في هذا الإطار قصة إفريقش بن صيفي في عهد موسى "الذي غزا إفريقية وأنخن في البربر وأنه سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه"¹. ويواصل بن خلدون أن إفريقش "لما انصرف من المغرب حجز هالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتمة". ويؤكد في هذا المضمار أن ابن الكلبي والطبري والمسعودي وكذلك لبكري وابن الأثير ثم سبابة البربر فيما بعد يشاطرونه هذا الرأي الذي يقول إن أصل البربر من الشام وأنهم طردوا من فلسطين أيام داود الذي قتل ملكهم جالوت". أما المؤرخ المسعودي فيشير إلى "أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل إفريقش وكان على عهد سليمان غزا المغرب ودوخه وكذلك ابنه ياسر الذي بلغ وادي الرمل ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل مرجع". هذا ويضيف ابن خلدون "أن إفريقش بن صيفي من ملوك التباينة غزا المغرب وإفريقية وقتل جرجيس وبنى المدن والأمصار وباسمه سميت إفريقية وما رأى أن هذا الجيل وسمع رطانتهم قال: "ما أكثر بربركم" □ فسموا البربر" والبربرة معناه اختلاط الأصوات غير المفهومة.

ومما تحذر الإشارة إليه أن البربر شعبان: برنس ومادغيس الملقب بالأبتر.

أما البرانس أولاد برنس فهم من نسل مازيغ بن كنعان. والبرهم بنو بر بن قيس بن

1- لمقدمة، دار الفكر، بيروت، 16- 17.

2- تاريخ العبر والمبتدا والخبر، الجزء السادس، 117

عيلان وهذا رأي النسابة البربر الذين قسموا قبائل البربر - على منوال التقسيم العربي للقبائل العربية (انظر ابن الكلبي وابن حزم وغيرهم من كتب الأنساب) - إلى مجموعتين كبيرتين البتر والرانس من أب واحد وهوير أو بربر (حسب الصولي). يذكر ابن الكلبي من جهته أن كتامة وصنهاجة من شعوب اليمانية التي تركها إفريقش مع من نزل. وتفيد رواية أخرى أن البربر أوزاع اليمن. ويرى المسعودي أن البربر هم من غسان الذين تعرفوا بعد حصول سيل العرم في اليمن واستقروا في عدة أماكن خارج اليمن. أحيرا يؤكد ابن عبد السر أن البربر أصلهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ. أي من أحماذ قحطان - الجد الأعلى للقبائل اليمانية.

من خلال استعراض آراء المؤرخين والنسابة العرب نلاحظ وجود اختلاف كبير بينهم بخصوص أصل البربر وسبب تسميتهم. لكن ابن خلدون قد فند في نهاية المطاف الرأي الذي يقول إن البربر "أبناء إبراهيم عن طريق كنعان بن حام بن نوح" وبالتالي فإنهم أقارب للفلسطينيين وليسوا منهم. وقد اعتبر أحد المؤرخين العرب المحدثين (د. سعد زغلول عبد الحميد) أن الفرضية القائلة أن أصل البربر من الشام فيها شئ من الحقيقة على أساس أنها تعبر عن الهجرات الفسيقية التي استقرت في المغرب وفي إفريقية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد وقامت بتأسيس مرافئ بحرية ومحطات تجارية على السواحل التونسية مثل أوتيكا (سنة 110 قبل الميلاد) ثم قرطاج (سنة 814 قبل الميلاد).

إن هذه الإشارات التاريخية - رغم الطابع الأسطوري التي يميزها - تبين قدم العلاقات بين اليمن والبلاد التونسية كما تطرح قضية الأصول المشتركة بين سكان البلدين : حمير من ناحية والبربر من ناحية أخرى. ولسؤال المطروح هو كيف تطورت هذه العلاقات في العهد الإسلامي وما هي مساهمة اليمانيين في حركة الانتشار الإسلامي في المغرب وإفريقية ؟

2- اليمانيون ومساهماتهم في الانتشار الإسلامي بإفريقية

بعد ظهور الإسلام في بداية القرن السابع للميلاد وتأسيس دولة المدينة سنة 622 م حصلت هجرات من الجزيرة العربية في اتجاه منطقة الهلال الخصيب وإفريقيا الشمالية وذلك في نطاق حركة الفتوحات الإسلامية أو الانتشار الإسلامي. وشارك عدد كبير من

اليمنيين (أفراد وقبائل) في هذه الهجرات التي أدت بهم إلى الاستقرار في الأمصار الجديدة (البصرة والكوفة بالنسبة للعراق والفسطاط بالنسبة لمصر) وكذلك في الأحاد الشامية. وتذكر المصادر العربية - من كتب تاريخ وكتب فتوح وبلدان وكتب أموال - أن نسبة اليمنيين في معارك الشام والعراق (اليرموك والقادسية خصوصا) كانت هامة من حيث الحجم مما يدل على قيمة المشاركة اليمنية في هذه الحركة¹

كما أن اليمنيين شاركوا أيضا بأعداد وافرة في الانتشار في البلاد المصرية. وفي خلافة عثمان بن عفان شرع العرب المسلمون - بما فيهم أهل اليمن - في التوغل في بلاد المغرب: برقة وطرابلس ثم إفريقية. ويشير ابن عبد الحكم في هذا الإطار أنه تم إرسال - سنة 27 هـ / 647 م - ما لا يقل عن 2000 رجل من اليمن (600 من مهرة - 700 من غنث و600 من ميدعان) في الجيش الذي أسندت قيادته إلى عبد الله بن أبي سرح.

وشاركت أيضا في معركة سببلة عناصر يمنية من قبائل مراد وكدة ولخم وجذام ويلي إلى جانب الأنصار (وهم من الأردن) وصداء وبهراء واماقر. من ناحية أخرى نجد العديد من القادة اليمنيين الذين ساهموا في أحداث القرن الأول بإفريقية: معاوية بن حديج السكوني (من كندة) - شريك بن سمي الغطيفي المرادي (من مذحج) - ربيع بن ثابت الأنصاري وزيد بن الحارث الصدائي.

من جهة أخرى تذكر المصادر مشاركة عناصر يمنية تنتمي إلى قبائل كندة وحمير وسبأ ولخم ويلي وكانت مستقرة في مصر منذ عهد عمرو بن العاص في الحملة التي قادها معاوية بن حديج سنة 45 هـ / 665 م. ويشمل ذلك الجيش الذي يعد 10.000 مقاتلا شخصيات يمنية مرموقة مثل الأكدر بن حمام اللخمي - كريب بن الصباح الأصبحي - أبوزمعة السلوي - حنش بن عبد الله السبئي.

وقد بدأت عملية الاستقرار الحقيقي في البلاد التونسية في العهد الأموي لا سيما بعد

1 - أنظر دراستنا بالمربسية حول اليمن الإسلامي، مطبوعات الجامعة التونسية، جردان، 1995؛
ودراستنا بالعربية حول إشكاليات الانتشار في الإسلام المبكر، مركز لنشر الحامعي، تونس، 2001

تأسيس القيروان سنة 50 هـ / 670 م. ومن المعلوم أن الجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية تحت قيادة عقبة بن نافع القهري سنة 62 هـ / 681 م يشمل مقاتلين يمانيين من بلي وحضرموت وحمير وغسان والأنصار كما نجد ضمنه بعض الوجوه الكبرى مثل خالد بن حيان بن الأعين الحضرمي وأوس الأنصاري.

وبعد نهاية الفتنة الثانية في المشرق كلف الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 73 هـ حسان بن النعمان الغساني - أحد أشرف أهل الشام من أصل يمني - بإنهاء المقاومة البربرية وإتمام عملية فتح إفريقية وإخضاعها للنفوذ الأموي وقد شمل الجيش الذي أعده لهذه المهمة 40.000 رجل منهم عدة عناصر مستقرة في الأجناد الشامية وتنتمي إلى قبائل غسان والمعاقر.

أما القائد موسى بن نصير الذي كلفه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بإنهاء فتح كامل بلاد المغرب فقد أرسل العديد من الحملات البحرية في المتوسط منها الغزوة على مدينة سرقسطة في جزيرة صقلية قادها رجل من حمير اسمه عياش بن أخيل والغزوة الثانية في جزيرة سردينيا بقيادة يمني آخر من الأزد يسمى عبد الله بن حذافة.

إذا نجح العرب المسلمون في فتح إفريقية وكامل بلاد المغرب في عهد حسان بن النعمان وموسى بن نصير قبل أن يتحولوا صحبة البربر إلى الأندلس في حدود سنة 93 هـ / 711 م. وقد لاحظنا أن القبائل اليمانية - بمختلف بطونها وعشائرها - لعبت دورا رائدا في عمليات الانتشار في إفريقية والمغرب والأندلس.

وبعد فتحها أسدت ولاية إفريقية تارة إلى تيسيين وتارة أخرى إلى يمانيين والملفت للإنتباه في هذا الشأن هو السياسة المرنة التي انتهجها الولاة اليمانيون إزاء السكان البربر وهي سياسة أساسها تأليف القلوب وإدماج العناصر المحيية البربرية مع العرب المسلمين في إطار مجتمع متسجم لا تفرقة فيه بين مختلف الأجناس.

من ناحية أخرى تواصل استيطان اليمانيين في إفريقية في القرن الثاني للهجرة. ولعل خير برهان على ذلك ما جاء في بعض المصادر - من كتب تراجم وطبقات - حول أسماء العناصر

اليمانية التي استقرت في عدة مواقع بإفريقية مثل خالد بن حيان بن أعين الحضرمي وخالد بن أبي عمران التجيبي والأكرن بن حمص اللحمي والفيقي بن محب بن حي المعافري وسعيد بن مسعود التجيبي وزباد بن أنعم المعافري وعمران بن عبد المعافري وعبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري غيرهم.

كما نجد في نفس هذه المصادر عدد كبير من العناصر التي تحمل نسبة حميري وتجيبي ومرادي ومعافري وصدفي وحضرمي وهودليل قاطع على كثافة الهجرة اليمنية وأهمية الاستيطان اليمني في ربوع إفريقية خلال القرنين الأول والثاني للهجرة. أما الدليل الثاني على نفس الظاهرة فيتعلق بأسماء المواقع الموجودة في منطقة مجردة والوطن القبلي التي ربما لها علاقة بالجموع التي أقرها والي القيروان يزيد بن حاتم بعد تسريح قسم من الجيش الأموي الذي ساهم في عمليات الفتح. نذكر بالخصوص لزدين - كلبين - مهران - بلي والأنصارين وهي أسماء مواقع ربما اشتقت من أسماء قبائل الأزد وكتب ومهرة وبلي والأنصار التي تنتمي كلها إلى المجموعة اليمنية.

وتقدر مجموع العناصر العربية ومنها اليمنية التي استقرت في إفريقية في العهد الأموي بحوالي 50.000 شخص. أما الجيوش التي أرسلها حلفاء بني أمية ثم بني العباس من الشام ومن العراق ومن فارس لقمع الثورات البربرية فيقدر عددها بين 150.000 و180.000 رجل وإذا استثنينا منهم القتلى في مختلف المعارك يبقى حوالي 110.000 استوطنوا بإفريقية وتحول ما يقارب 40.000 رجل إلى الأندلس ليستقروا بها.

إذا أصبح العنصر المضري أكثر حضورا في إفريقية في العهد العباسي وذلك على حساب العنصر اليمني الذي كان مسيطرا قبل ذلك. وقد كان البمايون مستقرين بالخصوص في المدن مثل القيروان وتونس والزاب وكذلك سوسة وصفاقس وقاس وقسطنطية. يذكر اليعقوبي أن القيروان " فيها أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم من أهل حراسان " ومن أهم البطون اليمنية نذكر كلب والمعافر وتجيبي والصدف وغيرها. من ناحية أخرى أنشأت حول القيروان قرى يمنية مثل قرية الجهنيين (من جهينة) وقرية صدف (من كندة) وغيرهما. أما في تونس فنجد

حضورا قويا بالنسبة لبعض القبائل اليمنية مثل نجيب والأزد والمعاقر وتنوخ والأنصار إلى جانب كندة وبلي والصدف. وفي منطقة الزاب تواجدت عناصر من الأزد وكلب. كما نجد عناصر من غافق والصدف وتنوخ (في صفاقس)، من رعين (في سوسة) وأخيرا من الأنصار في (قابس وبلاد الجريد). أما مدينة الأريس - وهي عبارة عن معقل حربي هام يقع على تخوم جبال أوراس العامرة بالبربر من كتامة وجراوة وغيرهم - فقد استقرت فيها بعض العناصر اليمنية من غافق والكلاع الذين يرجع دخلوهم لإفريقية إلى عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

3- دور اليمنيين في تاريخ إفريقية الوسيط :

بعد الانتشار ثم الاستقرار في إفريقية لعب اليمنيون أدوارا متعددة في تاريخ البلاد التونسية خلال العهد الوسيط.

... من الناحية العسكرية :

شاركت العناصر اليمنية في الحملات البرية والبحرية التي قادها العرب المسلمون من إفريقية في اتجاه المغرب الأوسط من ناحية وجزر المتوسط من ناحية أخرى كما ساهم اليمنيون - كما أسلفنا القول - في عمليات فتح بلاد الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. وتوضح المصادر حضورا لعدد منهم في جيش طارق الذي بلغ عدده 12.000 رجل كما تبين انتمائهم إلى قبائل الصدف ولخم وسبأ والسكاسك وحمير والأنصار.

أما القادة فتذكر منهم علي بن رباح اللخمي وسيب اللخمي وعياش بن أكيل الحميري وحنش بن عبد الله الصنعاني إلى جانب أسماء ثلاثة قادة آخرين شاركوا في الحملات التي استهدفت مواقع في جنوب بلاد غالة وشرق أسبانيا. السمع بن مالك الخولاني الذي فتح مدينة نربونة وعنبسة الكلبي الذي قاد عدة غارات في اتجاه منطقة البروفانس وبلنسية وأخيرا عبد الرحمان الغافقي الذي عينه الخليفة هشام بن عبد الملك واليا على الأندلس والذي بقي اسمه مرتبطا بمعركة بلاط الشهداء ضد القائد الإفرنجي شارل مارطال.

- من الناحية الاجتماعية :

كون اليمانيون في إفريقية أرسقراطية حقيقية بمختلف درجاتها لا سيما في المدن مثل القيروان. والجدير بالذكر أن القبائل اليمانية اختلطت في العاصمة الأفريقية منازل ومساجد صغيرة تحمل أسماء مجموعة من الشخصيات المتميزة مثل أبي عبد الرحمان الحبلي المعفري وحنش الصنعاني وعبي بن رباح اللخمي. كما توجد باقيروان عدة مواضع تحمل أسماء يمنية كرحبة الأنصار وحارة يحصب ومقبرة البلوية. مما يدل على أهمية الحضور اليماني في المجال الحضري.

من جهة أخرى أنشأ بعض قادة الجيوش أسرا أصبح لها جاه وسلطان بالقيروان ومن هذه البيوت والأسر تذكر المصادر بيت بني معاوية بن حديج الكندي وبيت أبي حسان اليحصبي وبيت بني مسلمة بن سودة الجذامي وبيت يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري.

- من الناحية الإدارية :

تواجد اليمانيون بكثافة في دواليب الحكم بإفريقية سواء بالنسبة للولاية والدواوين أوفقية الوظائف مثل الحجابة والكتابة والشرطة والجباية والقضاء. كان عدد ولاية المغرب اليمانيين في العهد الأموي خمسة من مجموع عشرة. وفيما يلي أسماؤهم : موسى بن نصير ثم ابنه عبد الله بن موسى ، بشر بن صفوان الكلبي ، عقبة بن قدامة التجيبي ، حنظله بن صفوان الكلبي ؛ أما في العهد العباسي فقد أحصيا سبعة ما بين سنة 144 وسنة 184 ناريج تأسيس الدولة الأغلبية. وفيما يلي فائمتهم : محمد بن الأشعث الكندي ، عمر بن حفص المهلب ، يزيد بن حاتم المهلب ، روح بن حاتم المهلب ، حبيب بن نصر المهلب ، محمد بن مقاتل العكي ؛ كما تواجد اليمانيون بكثرة في سلك العمال في المناطق الإفريقية (طرابلس وازاب بالخصوص) وفي الدواوين التي أنشأها حسان بن انعمان وطورها من بعده موسى بن نصير.

تولى اليمانيون كذلك خطط الحجابة والكتابة وصاحب الشرطة والجباية والقضاء. وقد

تفردت كتب الطبقات والتراجم بذكر القصاة اليمانيين مثل عبد الرحمان بن رافع التنوخي ويزيد بن الطفيل التجيبي وعبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري وماتع بن عبد الرحمان الرعيني وأبو كريب المعافري وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ولعل أشهرهم سحنون بن سعيد التنوخي. إذا هذا الحضور الهام في المؤسسات الإدارية والسياسية بإفريقية يدل بصفة واضحة على المساهمة الفعالة لليمانيين في تركيز الحضارة العربية الإسلامية في كامل الجناح العربي للخلافة

- من الناحية الاقتصادية :

لعب اليمانيون أدواراً هامة في عملية إعادة توزيع الأراضي وتغيير النظام العقاري بإفريقية. وتشير المصادر إلى دور حسان بن النعمان الذي استحوذ على الملكيات الشاسعة التي كانت بأيدي الإمبراطور ورجال الإدارة والحيش البيزنطي وقام بتوزيعها على العرب ومواليهم وعلى البربر الذين أسلموا

كما أن موسى بن نصير الذي وسع مساحة الانتشار وزع أراضي جديدة مما سمح بتكوين نظام عقاري يعتمد على الملكيات الكبرى. وقد أفرز هذا النظام بدوره أرسقراطية عربية في أغلبها يمانية. وساهم الوالي يزيد بن حاتم المهلبى في تدعيم الملكية الكبرى حيث سرح عناصر الجيش الأموي بإفريقية وأقرهم في الأراضي الرراعية الممتدة في الشمال على ضفاف نهر مجردة.

في ميدان الحرف مارس اليمانيون عدة مهن واعتنوا بالتجارة ويعود الفضل إلى لوالي اليماني يزيد بن حاتم الذي قام بتنظيم أسواق العبروان وحص كل تجارة بموق وعين على رأس كل سوق منها أمينا يقوم بمراقبة البضائع ومنع الغش

- أما من الناحية الدينية :

مثل اليمانيون أكثر من نصف أعضاء البعثة التي وجهها الخليفة عمر بن عبد العزيز في بداية القرن الثاني للهجرة لتعليم أهل إفريقية أصول الدين الإسلامي ونشر مبادئه بينهم. والملاحظ أن هذه البعثة العلمية تعد عشرة فقهاء منهم سبعة من اليمن :- أبو عبد الرحمان

عبد الله بن يزيد المعافري - أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي - موهب بن يحيى المعافري -
أبو ثمامة بكر بن سودة الجذامي - أبو سعيد حثل بن هاعان بن عمير بن الشوب الرعيني
إسماعيل بن عبيد الله الأنصاري - أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي وبالتالي يمكن
المول إن اليمانيين ساهموا بصفة فعالة في عملية التعريب وأسلمة البربر بإفريقية منذ القرن
الثاني للهجرة ووصلوا إلى تكوير عدة أجيال تحمظ القرآن ونلم بعلوم الشريعة.

- من الناحية الثقافية :

تميز اليمانيون الذين استوطنوا في المدن التونسية بالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم التي
قلوبهم معهم إلى جانب غط عيشهم. كما ساهموا في العهد العباسي في نقل علوم العقل
والكلام التي تعتمد على الجدل والمناظرة. ويرجع الفضل الكبير للوالي يزيد بن حاتم المهلب
الذي جلب العلماء من المشرق إلى إفريقية فأصبحت القيروان في عهده قطبا أساسيا من
أقطاب الثقافة العربية الإسلامية. ونذكر على سبيل المثال الحوي عوانة الكلبي واللغوي
قتيبة الجعفي والأديب أبو مالك أبان بن الصمصامة بن الطرماح الذين وفدوا على القيروان
ورسخوا فيها إبداعات اللغة العربية.

من ناحية أخرى رحل عدة علماء يمانيين من إفريقية والمغرب إلى المشرق طلبا للعلم
منهم عبد الله بن عاتم الرعيني وعبد الرحمان بن أشرس الأنصاري وعبد الله بن أبي حسان
الأنصاري وزكريا بن محمد بن الحكم المخمي وسخنون بن سعيد التنوخي.

وللتدليل على كل هذه الخصوصيات التي تميز اليمانيين عن بقية العناصر العربية التي
استوطنت بدورها بإفريقية يمكن لنا التوقف قليلا عند الثورات البربرية التي اندلعت في القرن
الثاني وأهمها الثورات الخارجية ضد الحكم الأموي ثم العباسي.

ما يهمنا ليس استعراض أحداث هذه الثورات ولكن نريد فقط الإشارة إلى أن
اليمانين شاركوا في هذه الثورات وساندوا البربر في مطالبهم المتعلقة بطرح الضرائب المسلطة
عليهم والتي يعتبرونها مخالفة للشريعة الإسلامية. نذكر بصفة خاصة ثورة سنة 126 / 744
في منطقة طرابلس وثورة سنة 131 / 748 بقيادة عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن

تلد الحضرمي. وخلال ثورة الإباضية في طرابلس سنة 140 / 757 وقع تعيين أبا الخطيب لمعفري إماما لأول دولة إباضية في المغرب.

إن اليمانيين أصبحوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع الإفريقي في العصر الوسيط ولا شك أنهم ساهموا إلى حد كبير في عمليات الأسلمة والتعريب ونقلوا من جهة أخرى العديد من تقنياتهم لا سيما في الميدان المعماري. ولعل السائح الذي يزور الجنوب التونسي اليوم يلاحظ الشبه الكبير في نوعية البناء وأساليبه وأدواته في واحات لجريد مع البناء الموجودة في عدة مدن يمانية مثل صنعاء وشبام وغيرهما.

الختام:

إن الهجرات اليمانية إلى بلاد المغرب بما فيها إفريقية تندرج إدا في حركة أوسع تهم التحركات البشرية بصفة عامة منذ مئات السنين لكن هذه الهجرات كانت لها نتائج عديدة أهمها تعريب المنطقة المغربية وشر الإسلام ومبادئه في هذه الربوع التي تعاقبت عليها حضارات مختلفة وديانات متنوعة مثل اليهودية والنصرانية لكنها لم تصمد أمام الدين الإسلامي. كما ساهم اليمانيون بشكل مكثف في عمليات الانتشار ثم الاستقرار في إفريقية والمغرب في القرنين الأول والثاني للهجرة ونجحوا إلى حد كبير في صهر السكان وإدماجهم في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية.

التواصل الفكري بين المشرق والمغرب وأثره في بناء دول المغرب خلال العصر الوسيط - ابن تومرت والدولة الموحدية نموذجاً -

د. صالح معيوف مفتاح

جامعة سبها

المدخل المنهجي لموضوع الدراسة :

إن دراسة تراثنا الفكري الإسلامي يحتاج منا استخدام الأدوات المنهجية الممكنة والتي تنسجم والرؤية الموضوعية لهذا التراث دون أن نمارس النقد من الخارج أو ما يسمى بجلد الذات وتطبيق رؤى المدارس الغربية على هذا التراث ؛ وهذا لا يعني عدم الاستفادة من أدوات هذه المدارس ولكن بالقدر الذي يتناسب والذهنية العربية الموضوعية ، صحيح أنه لا يمكن أن نتجرّد من العاطفة تجاه هذا التراث ولكن لا يجب أن لا تهيم هذه العاطفة على أحكامنا في نقد التراث وتنقيته مما لحق به من موروث تمثل في جانب كبير منه وخاصة السياسي والديني ، فضلاً عن في توظيف الرؤية الفقهية لخدمة الحاكم الأمر الذي جعل الفقه كمفهوم عام ينساق وراء مطالب الحاكم السياسي ويصل به إلى درجة التأليه والقداسة وهو ما يسمى بالخطاب التبريري الذي يسوقه الفقهاء برضاء لرغبة الحاكم وتبريراً لأفعاله إن هذا التوجه أوقع الخطاب الديني في إشكالية التناقض ، إذ اعتبر الرأي الفقهي هونص مواز للنص الديني القرآن الكريم والحديث الصحيح الأمر الذي ترتب عليه قطيعة معرفة مع النص الديني والانسياق مع الخطاب الفقهي التبريري الذي استباحه الحاكم وفق متطلباته الذاتية ورؤيته السياسية لتغليب أعماله برؤية دينية تستمد مشروعيتها من الله تبارك وتعالى وفق نظرية التفويض الإلهي التي نادى بها أبو جعفر المنصور في بداية العصر العباسي ؛ وقبل ذلك وظفت بأشكال مختلفة الأمر الذي ترتب عليه أن كل أعمال الحاكم هي أوامر إلهية يجب

احترامها والخروج عنها خروج عن الدين وليس معارضة سياسية.

هذا الخطاب الفقهي التبريري الذي نجده يتعايش مع مستجدات كل عصر هو الذي خلق الأزمة السياسية بدء من تأويل النص إلى استبعاد النص أحياناً واخذ الرأي الفقهي المبني على القياس الأمر الذي ترتب عليه التصيق في دائرة المباح ووضع سياج من المحرمات والمنوعات، ومثل ذلك إعادة القراءة التاريخية لبعض الأحداث الكبرى في تاريخنا الإسلامي واعتبار ذلك من المسكوت عنه وعدم التعرض له بالتحليل أو إعادة القراءة، مثال ذلك الفتنة الكبرى وما شابها من مغالطات ظلت تصخم عبر التاريخ إلى أن أصبحت أحداثها تكتنفها حالة من القداسة غير المبررة، وكذلك حروب الردة الأمر الذي جعل المؤرخ العربي يتعامل بحذر مع هذه الأحداث.

وللوصول إلى موضوعنا يمكن القول :

أن حركة التواصل الفكري والمذهبي بين جناحي الدولة العربية الإسلامية المشرق والمغرب ما فتئت تتفاعل بشكل مستمر وسلسل بعد أن توطد الإسلام في أرجاء بلاد المغرب ومن ثم الأندلس حيث تحدثت كتب الرحلة والتراجم عن الأعداد الكبيرة من طلبة العلم الذين وفدوا من المغرب والأندلس إلى المشرق مكة والمدينة ودمشق وبغداد.

كما أن هجرة المشرقيين إلى بلاد المغرب والأندلس كان لها طبع سياسي في أغلب الأحيان تمثلت في حركات المعارضة السياسية للدولة المركزية وخاصة الدولة الأموية التي أسست نظامها السياسي من منتصف القرن الأول على مبدأ النظام الوراثي الاستبدادي الذي من خلاله تم استبعاد أي مشاركة سياسية من القبائل أو الفئات الأخرى.

‘مام وطأة الدولة المركزية ويطشها بكل معارضيتها الذين سموها بالخوارج - حسب تسمية مؤرخي السلطة وإطلاق النعوت الدينية حسب الرأي الفقهي الذي تم توظيفه لصالح الخليفة أو الحاكم - كما أسلفنا - فإن هذه المعارضة التي استعملت نفس أدوات السلطة وهي توظيف الدين في الدعوة لأهدافها السياسية حيث رفعت شعارات دينية متعددة لتجد قبولها لدى عامة الناس مثل - لا حكم إلا الله - وأن الأمر شورى بين المسلمين وبذلك

ظهرت فرق متطرفة مثل : الأزارقة وأخرى أقل تطرفاً مثل الصفريه و فرق معتدله مثل الإناصية التي وجدت لها قبولاً ليس في بلاد المغرب فحسب إذ أن أول دولة قامت على المذهب الإباضي كانت في جنوب الجزيرة في عمان 138هـ قبل لدولة الإباضية الخطابية في طرابلس 140هـ الأمر الذي يؤكد رؤيتنا في موضوع هذا البحث بأن الحركات السياسية التي قامت في بلاد المغرب لا تخرج عن كونها معارضة سياسية نظام السلطة المركزية ، فالمذهب الإباضي على سبيل المثال نشأ وترعرع في الصرة في بلاد العراق على يدي إمام المذهب أبو عبيده مسلم بن أبي كريمة ولكن نتيجة قمع السلطة المستمر لهذه المعارضة تسرب إلى الأطراف عن طريق الدعاة حيث تضعف الدولة المركزية ، كما أن دعوات هذه المعارضة تجد صداها بل قبولاً لها في الفئات الاجتماعية التي تعاني من عسف الولاة إضافة إلى أن الأسلوب الذي اتبعه الأمويون في إدارة السلطة المركزية اعتمد بشكل كبير على العصبتين القسبية واليمينية ، إن احتلال المعاملة بين العصبتين وتغلب إحداها على الأخرى تجد صداها في ولايات الأقاليم ، الأمر الذي خلق حالة من عدم الاستقرار السياسي والظلم الاجتماعي بإرهاق العامة بمختلف أنواع الجبايات.

كل هذه العوامل و لظروف المتأزمة تركت المجال مسيحاً لأن تتبنى قبائل المغرب هذه الأفكار السياسية المعارضة وتقاتل من أجلها ، خاصة أنها تدعو إلى مبدأ مشاركة في الحكم ، وفق مبدأ اشورى بغض النظر عن اللون أو الجنس ولا ينحصر الحكم في قريش وفق أحاديث القرشية _ التي ثبت وضعها _ وعدم مطابقتها للواقع لتاريخي.

ومنذ أواخر القرن الأول الهجري بدأت هذه الأفكار تتسرب إلى الأطراف ومنها إلى بلاد المغرب ؛ ويسبب الظلم السياسي والاجتماعي الذي كانت فئات واسعة من المجتمع تعاني منه وجدت هذه الأفكار طريقها بين العديد من القبائل المغربية. إن تأزم الموقف هذا والذي تجاهلته الأسرة الأموية أدى إلى اندلاع ثورة الصفريه في قبائل زناته سنة 122هـ بقيادة ميسره المطفري ضد عبيد الله بن الحجاب والي المغرب ، الأمر الذي نتج عنه فوضى سياسية عارمة في كل بلاد المغرب

وحالة المغرب هذه و ظهور حركة الخوارج بها لم يكن حالة منعزلة عن بقية أوضاع

الدولة العربية الإسلامية ؛ غير أنه يتوجب التنبيه إلى أن هذه الثورات لم تكن دعوة للاستقلال أو رفضاً للوجود العربي كما يزعم بعض الآراء بل كانت عبارة عن ردود فعل استوجبتها وضعية سياسية معقدة تمتد جذورها بعيداً في التاريخ السياسي الاقتصادي للدولة العربية الإسلامية وهي مبدأ الحاكمية وكيفية اختيار الحاكم أو النظام الوراثي الاستبدادي الذي كرسه معاوية مؤسس الدولة الأموية.

إن النظام الاجتماعي سواء في الجزيرة العربية أو في المغرب يرفض بل يأنف من الخضوع لحاكم سياسي نتيجة لطبيعة البدوي الذي يعيش طليقاً في الصحراء دون قيود سياسية أو اقتصادية، مفضلاً عنها قيود قيمية أخلاقية تتماشى وعرف قبيلته. بناء عليه فإنه، ونتيجة انتشار هذه الأفكار بين العديد من القبائل المتضررة، رفع السلاح في وجه السلطة الأموية في المركز وفي الأطراف وهكذا وتحت ضربات هذه القبائل، ضمن عوامل أخرى، انهارت الأسرة الأموية سنة 132هـ ؛ وللافت للنظر أن هذا التغير، سقوط الأسرة الأموية وقيام العباسية، لم يوقف ظاهرة المعارضة، إذ استمرت هذه الأخيرة متسببة في طهور دول مستقلة. وهكذا ظهرت في المغرب كيانات سياسية مستقلة مثل الصخرية في سجلماسة سنة 142هـ، والإباضية في المغرب الأوسط سنة 160هـ، فضلاً عن قيام الإمارة الأغلبية سنة 184هـ في القيروان والتي كانت في حقيقة الأمر تابعة لبيدار، ولكنها كانت تبعية اسمية.

كما أفرزت حركة التواصل هذه لوناً آخر من الدول. فالفكر الشيعي كان هو الآخر يجتذب الأنصار في نقاع مختلفة من دار الإسلام. وكما شنت الخوارج عديد المعارك ضد الأمويين فإن الشيعة فعلت الشيء نفسه. ولكن قيام العباسيين، أبناء عمومة رؤوس الشيعة، لم يمهّد معارضة هؤلاء. لذلك فإنه وبعد وقعة فخ التي تعرض فيها العلويون إلى شبه إبادة على أيدي أبناء عمومهم العباسيين فر من نجا منهم إلى خراسان شرقاً، وإلى بلاد المغرب. وإلى هذا الأخير دخل أدريس بن عبد الله بن الحسن والذي سمي فيما بعد بأدريس بن عبد الله الأكبر تمييزاً له عن ابنه الذي حمل نفس الاسم. ويدخله أرض المغرب وجد ترحيباً كبيراً من بعض القبائل المغربية وخاصة قبيلة أوربة التي كانت تتطلع من خلاله إلى تحقيق مشروع سياسي لبسط الهيمنة على بقية قبائل المغرب. ونظراً لما يمثله من رمز ديني وأهلية في الحق

السياسي بانتسابه للبيت النبوي وما كان يمثل ولازال هذا النسب للبيت النبوي من وقع في نفوس المغاربة، تمكن من إقامة إمارة في المغرب الأقصى.

هذا ملخص مختصر للمرحلة الأولى للأوضاع السياسية أما فيما يتعلق بمودج الدراسة أو المرحلة الثانية من البناء السياسي لدول المغرب فهو وإن أئسم بخصوصية مغربية إذ أن نسيجه الاجتماعي كان مبنيا على أساس قبلي (صنهاجة الصحراء بالنسبة للمرابطين والمصامدة بالنسبة لموحدين) فإن هذه الدول لا تخرج عن كونها تعبيراً عن وضعية سياسية متأزمة للدولة العربية الإسلامية ومحاولة إصلاحها من الأطراف. ومن خلال تتبعنا لخطوات ابن تومرت التي قام بها من أجل قيام الدولة نخلص إلى أنها تنصب في إصلاح وضعية سياسية ودينية. والخطوات هذه بالامكان الوقوف عليها من خلال عرضنا لمجموعة من المعطيات

1- الأوضاع السياسية في المغرب زمن ظهور ابن تومرت

لقد كانت دولة المرابطين تسيطر على المغرب وحاضرتها مراكش التي أسسها يوسف بن تاشيف في سنة 454هـ على أرجح الروايات بعد أن قدمت، من وراء جبال الأطلس من صحراء شنتييط، قبائل صنهاجة الصحراء المتكونة من أكثر من سبعين قبيلة، من أهمها لتونة وجدالة ومسوفة وحسب ما ذكره بان خلدون فإنها كانت تدين بدين المخوسية في بدء أمرها. وبعد مجيء الداعية عبدالله بن ياسين وخذ كلمة هذه القبائل وصحح إسلامها وفق المذهب المالكي وأصبح ابن ياسين الزعيم الروحي لصنهاجة الصحراء التي انتقلت إلى المغرب في سنة 436هـ. وكان المرابطون قوم متقشفون جببوا على الجهاد ومحاربة القبائل المارقة ويحترمون الجندي كعقيدة حيث ساهم المرابطون في توحيد الأندلس ومحاربة النصارى الأسبان والانتصار عليهم في معركة الزلاقة الشهيرة، ولكن نتيجة اتساع رقعة الإمبراطورية وكثرة الحروب الداخلية والخارجية في جبهة الأندلس والمغرب الأوسط بدأ بناء هذه الدولة يهتز من لداخل وخاصة بعد وفاة مؤسسها الفعلي يوسف بن تاشفين. فبتولى ابنه علي إمارة المرابطين، والذي كان مترددا ضعيف الشخصية، الأمر الذي مهد لسيطرة أشياخ المذهب المالكي، الذين استغلوا ورعه وتواضعه، على مقاليد الأمور في الدولة وكونوا طبقة غيبوبة حاكمة من علماء المذهب الذي كان يعتمد في أساسه على علم الفروع دون الأصول. إنه وفي

ظل هذه التغيرات تعرضت إمارة المرابطين لمزيد من الضعف الذي سيهيأ الأرضية لداعية سيتمكن من تأسيس إمارة على أنقاض هذه الإمارة. ولكن وقبل التطرق لهذه الإمارة الجديدة أرى من المناسب التوقف عند الأوضاع في المشرق.

2- الأوضاع السياسية والفكرية في المشرق الإسلامي

قبل أن يتوجه ابن تومرت¹ إلى المشرق لتلقي علومه على عدد من أساتذته تجدر الإشارة إلى الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها دولة الخلافة في بغداد ففي نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين الموافق لنهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلاديين كانت الخلافة العباسية تواصل تدهورها تحت وصاية السلاجقة الذين استلموا هذا الدور بعد إقصاء البوهيين الشيعة عن هذه الوصاية ولم يحافظ السلاجقة على وحدة العالم الإسلامي بل دفعوه إلى أقصى حدود التفتت، وقامت دويلات إقطاعية حقيقية من الأتابكة الذين هم عبيد للسلاجقة استغلوا ثقة أسيادهم لاقتطاع أوصال الدولة الإسلامية إلى إقطاعيات يحكم كل إقطاعية أثبك "الأب الأمير باللغة التركية" وبحولها إلى إمارة وراثية، وكان هذا الإقطاع العسكري نتيجة عجز الخلافة في بغداد عن سداد مرتبات الجند الذين عوض قادتهم عن ذلك بإقطاع مدن وأقاليم من جسم الدولة العباسية. الأمر الذي ترتب عنه قيام دويلات داخل دولة لم يبق منها إلا رموز باهتة هي الدعوة للخليفة مع السلطان السلجوقي على المنابر. كذلك كانت الخلافة الفاطمية في مصر في طور الانهيار رغم هيمنتها على قسم كبير من المشرق الإسلامي، إذ وصلت في بعض الأحيان إلى بغداد عن طريق

1- هو عدائه محمد بن عدائه بن تومرت، المعوت بالمهدي الهرغي، ينسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من جبل السوس ونشأ هناك وتلقى علومه الأولى. يقول ابن خلكان في الوفيات على النحو التالي محمد بن عد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن قدام بن عدنان بن صعوان بن سعيان بن جابر ابن يحيى بن عطاء بن رياح بن سار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن ابن طالب. أما من حيث تاريخ مولده فقد تضاربت الآراء حول ذلك فمنها ما يجعله 463هـ ومنها من يصل به 472هـ ونجد روحه لوطورتو يرجع التاريخ الأخير.

الوزير البويهى الشيعي الإسماعيلي " البساسيري" الذي حكم بغداد باسم الخليفة الفاطمي لمدة عام ، كما كانت تمارس سياسة التخريب بعنف شديد على أيدي طائفة الحشاشين ، أحدي أخطر الجماعات الإرهابية. في هذا المناخ الذي تفككت فيه وحدة الدولة الإسلامية في المشرق واحتدمت انصراعات الداخلية ، وصارت الدولة الإسلامية اضعف من أى وقت مضى ، وانتشرت الانهزامية والإحباط والتشاؤم ، في هذا المناخ تعرض العالم الإسلامي لمحنة شديده وهي الحملة الصليبية الأولى التي شنت على الدولة الإسلامية عام 489هـ /1092م ومكث الصليبين من الاستيلاء على عدد من المدن في سوريا وفلسطين واغتصبت بيت المقدس عام 496هـ /1099م حيث نصبت للسكان المسلمين مجزرة عظيمة قتل فيها أكثر من 70 سبعين ألف مسلم حسب المصادر الصليبية واستبعد من لم يمس منهم واغتصبت النساء ثياب وأبكاراً وكون الصليبيون أثر هذه الحملة أربع إمارات صليبية : 1- إمارة بيت المقدس وبحكمها جودفري ؛ 2- إمارة انطاكية وبحكمها بوهمند ؛ 3- إمارة صرابلس وبحكمها ريمند ؛ 4- إمارة ارها وبحكمها بلدوين.

ولقد كانت المدارس الفكرية في المشرق تتمثل في المذاهب الدينية التي اصطبغ بعضها بروية فكرية عملية مثل المعتزلة والسنة المعتدلة وكذلك الشيعة التي كانت لها رؤية سياسية في نظام الحكم ، إضافة إلى المذهب الأشعري الذي يتقي مع المعتزلة في عدد من الأفكار ، إذ نجد الفكر المعتزلي اعقلي تنكبي عليه بعض المذاهب الأخرى ولويدرجات متفاوتة مثل الشيعة والأشاعرة.

في هذا الجو السياسي المضطرب والمشحون بكل صنوف التفهقر والانهزام ، كان لابد من بروز أفكار وحركات ديسية إصلاحية تدعو إلى التوحيد وجمع الكلمة لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية كما لا يغرب عن بال الجميع من ظهور أفكار تدعوللنكوص والتفوق والانعزال عن واقع الناس ومعدناتهم.

كان المشرق آنذاك يحتاز مرحلة حافلة بالنشاط الثقافي ، وكان الإسلام يواجه منعطفاً خطيراً في تاريخه ، وهكذا فإن القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي يعد في تاريخ الفكر والأدب الإسلاميين من أكثر القرون إنتاجاً وازدهاراً ذلك أن صراع السنة مع مذاهب

لأقليات، والشيعية وغيرها بالشرق الإسلامي كان فيه أقوى حافر على تجديد النشاط لعلمي وتقويته فظهر جيل من الأساتذة، وتميز في نفس الوقت بمحذفة في الجدل وتجدد في العلم، وأسست مدارس مثل النظامية التي أسسها الوزير بطام الملك (ت. 485هـ / 1092م)، فكانت تعمل على نشر تعليم رفيع المستوى، فضلاً عن انتصارها للمذهب السني في صيغته الأشعرية. وليس من باب الصدفة أن استدعى مفكراً كالفراحي الذي كان يربط "أحياء" علوم الدين وهودخل فلسفة صوفية في تأويل الرسالة الإسلامية، كان الفزالي يربط بين الروحي والزمني باحتفاظه بنظرة واقعية معينة وبقائه قريباً من الحياة اليومية.

3- رحلة ابن تومرت العلمية

تلقي ابن تومرت تعليمه الأول في منطقة السوس بالمغرب من خلال المساجد والكتاتيب وكان أول ما تعلمه القرآن الكريم ثم انتقل إلى الأندلس لتلقي العلم على أيدي علماء اللغة العربية والفقه وعلم الكلام حيث حددت تلك الفترة بسبع سنوات في بعض الروايات رغم عدم وجود تفاصيل وافية عن هذه الفترة الطويلة نسبياً التي قضاها ابن تومرت في الأندلس.

ولكن على عادة طلاب العلم في المغرب والأندلس فإن الرحلة العلمية إلى المشرق تصبح ضرورية ولازمة من وجوه كثيرة أولها الوقوف على مصادر السبع والالتقاء بمختلف المدارس الفقهية والكلامية وثانيها التعرف على أحوال المشرق الاجتماعية والسياسية والالتقاء بعلماء لم تتح لهم ظروفهم السفر إلى أبعد من بغداد أو مكة أو المدينة

لقد كانت رحلة ابن تومرت في بداية القرن السادس 502هـ، وكما أشرنا فإن الأوضاع السياسية في المشرق عندئذ كانت متردية. ومن الطبيعي أن ينشأ عن هذا الوضع رد فعل فكري وحماس ديني يستهض الهمم ويحفز النفوس لمواجهة الخطر المحدق؛ وقد التقى ابن تومرت بكوكبه من هؤلاء العلماء أوالتقى بأفكارهم مثل: الكيا الهراسي، وهو متكلم من الدرجة الأولى كان يلقي دروسه في المدرسة النظامية ببغداد ولا شك أن ابن تومرت استطاع بفصله أن يتوسع في معرفة عقيدة الأشعرية التي كان الأمام الفزالي أحد مظهرها وقد أخذ العقيدة الأشعرية خطاباً تبريراً ينساق والمسجديات التي حلب بالدولة العباسية بعد

تعلب السلاجقة عليها التي كان فيها انفعيه دور خطير رسمته له السلطة المتغلبة وهم سلاطين السلاجقة وهوم يسمى بإمامة الاستيلاء.

فالفقيه في نظر الإمام الغزالي هو الواسطة بين الخليفة والسلطان والرعية ، لإقناع الرعية بطاعة لسلطان لذلك أدرك السلاطين السلاجقة ضرورة إرضاء الفقهاء فما أن قامت الدولة السلجوقية حتى عولت على استرضاء فقهاء السنة وعلى رأسهم الغزالي الذي نجح في عهد أواخر الوفاق بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة الأوائل ، والحق أن الغزالي كان مؤهلاً لهذا الدور فهو فقيه أشعري على مذهب الشافعي في الفقه. ومعلوم أن الأشعرية كانت "أيديولوجية الحكام" كما أن انطواءها على قدر من العقلانية بدعماً المنطق الأصولي الذي أسسه. لشافعي يمكن بأن يحقق الغاية المنشودة والظفر في صراع جدلي مذهبي مرتقب.

لم تتوان السلطة السلجوقية في تأسيس المدارس "النظامية" وتشيد الخواصق لتسهما معاً في توطئة الرؤوس بالطاعة للسلاطين وقد كان الغزالي أحد الأساتذة في المدرسة النظامية في بغداد التي تركها في آخر القرن الخامس هـ إلى فارس.

لقد دخل الغزالي معترك السياسة ، لكن من باب التبرير لسلطان الجائر المتغلب ليسوغ حكم حاكم غير مستوفي الشروط مبرراً ذلك بأن "الضرورات تبيح المحظورات بل أوجب طاعة المتغلب حتى ولو كان جائراً. منظومة الغزالي إذن قوامها الخليفة والسلطان والفقيه ، فهم يضمن "بقاء الشريعة" فالخليفة بعده الغزالي "ضرورة من ضرورات الشرع الذي لا يمس"¹

سفننا هذه المقتطفات من آراء الغزالي للربط بين ما كان الغزالي يدعوا إليه وما وجد فيها ابن تومرت من أفكار تبرر العمل الذي سيقدم عليه وهو تعدد الحاكمية وحوار إمامة المتغلب الأمر الذي جعل بعض المؤرخين مثل البيدق يقرر بأن الإمام الغزالي التقى بابن تومرت وحاووه في أمر المرابطين وفتوا بتغيير حكمهم رغم أن هذا لا يتفق مع السياق التاريخي حيث تذكر المصادر أن الإمام الغزالي غادر المدرسة النظامية في بغداد سنة 500 هـ أي قبل وصول

1 - اسماعيل ، محمود ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي "طور الإنهيار" 2

ابن تومرت إليها بأربع سنوات 504 على أرجح الروايات .. ولكن ليس بمستبعد أن يكون ابن تومرت قد استعمل أسم العزالي كوسيلة من وسائل الدعاية لمذهبه وهذا لا ينفي أنه أطلع على كتبه واستفد منها².

كما استفاد ابن تومرت من نظرية الشيعة في الإمامة ، والشيعة ، وكما يعلم الجميع هم الذين شايعو علماً وقالوا بإمامته نصاً ووصية أما جلياً أو خفياً ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده... قالوا: وليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصيبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه للعامة... وثبتت عصمة لائمة وجوباً عن الكبائر والصغائر³.

ولا شك أن ابن تومرت أخذ من الشيعة مبدأ الإمام أو المهديونية وهنا لابد من الإشارة إلى المهدي والمهديونية لنعلم الأسباب التي جعلت ابن تومرت يتعلق بهذا اللقب ويدعيه لنفسه باختصار شديد صارت فكرة المهدي تدور حول المهدي الذي سيأتي في آخر الزمان لكي يعود بالمسلمين إلى طريق الحق ، بعد أن تكون الأرض قد امتلأت ظلماً وحوراً ، فيقيم دولة مترامية الأطراف ويخضع لسلطانها العرب والعجم ويقيم لعدل بعد هذه الفترة من الظلم والفساد. وساعدت المؤثرات النفسية والاجتماعية والسياسية مثلة في ظلم الحكام واضطهاد المحكومين على ظهور هذه الفكرة ، وازدهار المهدي باعتبارها الأمل الذي يتجدد كلما اشتد الظلم بالاساس ، وكلما دعت الحاجة إلى مصلح يقود الناس إلى طريق العدل ويرشدهم إلى طريق الهدى تطبق ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة⁴.

كما يشير ابن خلدون في المقدمة الجزء الثاني إلى أمر العاطمي "أعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر العصور، أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل

1 - زنيبر، محمد، المغرب في العصر الوسيط "الدولة. المدنة الاقتصاد"

2 - المرجع نفسه ، 120.

3 - الشهرستاني، كتاب الملل والنحل، 145.

4 - عبد الرازق، عبد الله، الطرق الصوفية في أفريقيا.

البيت يؤيد الدين ويظهر العدل يستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى المهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من شروط الساعة¹. وبورد حملة من الأحاديث والأسانيد التي أشار فيها إلى ضعف روايتها وأسانيدها أو الطعن في بعض الرواة إلا أنه أشار إلى قاعدة صحيحة متعة في صحة الأحاديث حيث قال إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل، فإذا أوجدنا طعنا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو بضعف أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن فيه.

وقد تبنى ابن تومرت هذه النظرية وأكد عبيها ليشيع طموح العامة في وجود مصلح ينتقم من ظلم المرابطين وخاصة أنه أذاع ذلك في قبائل المصامدة المناوئة لقبائل صنهاجة المرابطين أصحاب الدولة وهذا توقيت ذكي من ابن تومرت لتحقيق الإجماع حول مهدويته معتمداً في ذلك على بلاغته ووعظه ويذكر مؤلف كتاب الحلل الموشيه "مؤلف مجهول" ولما كان بالسوس الأقصى قام فيهم خطيباً وقال احمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء، لا راد لأمره ولا يعقب لحكمه وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يبعثه الله إلى نسخ الناطل بالحق وأن يبي مكان الجور العدل، والمغرب الأقصى منتهى زمانه آخر الزمان يقول البيدق: - " سمعت الخليفة عبدالمؤمن يقول لما فرغ الإمام المهدي من كلامه هذا بادر إليه عشرة رجال من أتباعه الملازمين له كنت أنا واحداً منهم فقلنا له، يا سيدي هذه الصفة لا توجد إلا فيك فأنت هو المهدي فبايعناه في أثناء ذلك على ما بايع به الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكونوا بدأ واحدة على القتال والدفاع، فبايعه أصحابه تحت شجرة حروب... وسمى أصحابه بالمهدية².

أعلن ابن تومرت نفسه إماماً للإمامة الإسلامية بل أنه ذهب إلى أهد من ذلك إذ أضفى على نفسه صبغة العصمة من الخطأ في الفكر والظاهر والفعل واتخذ لحركته شعار التوحيد،

1 - المقدمة، الجزء الثاني.

2 - نقلاً عن: روجي لي تورنو كتاب حركة الموحدين في المغرب ص 33.

فأتباعه هم الموحدين وهوامام الموحدين ، لأن ابن تومرت ينفي لصفات عن ذات الله تعالى وهو في هذا متأثر بالمعتزلة بل أنه أخذ منهم هـ المدأ.¹

كما نعت ابن تومرت المرابطين بالمجسمة والحرزامة وهي جاءت من الحرزامة وهو طائر أسود وله جناحان أبيضان وابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحث فقط ، ولا كن رجل سياسة فقط ، بل أنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة فهو في دينه ، ذهب في عبادته ونقشفه إلى درجة التصوف وبعثر ابن تومرت رجل سياسة لأنه هو الأول الذي خطط لقيام دولة الموحدين.²

وابن تومرت كان خليط من الأفكار من المعتزلة الأشاعرة والشيعة ولم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه ولا هو تعصب لإحداها بل أن استقرأ تراثه الفكري وتفحص أعماله السياسية ومؤثره اندية يبين لنا بجلاء بأنه أخذ من كل مدرسة من مدارس الفكر والمذاهب الفقهية ، وما يتواءم ومعتقداته ويتلاءم مع أهدافه.

ولما كان ابن تومرت موحداً على طريقة المعتزلة ، ويذهب إلى تأويل الآيات التي تتصل بذات الله ، كوجه الله ويد الله والاستواء على العرش أحداً في هذا بطريقة المعتزلة الذين يناقشون مثل هذه الآيات ويؤولونها متخذين في ذلك ماسح علم الكلام ، فإنه هاجم المرابطين الذين لا يؤولون مثل هذه الآيات ، واتهمهم بالتجسيم والكفر لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية للذات الإلهية.³

4- عودة ابن تومرت ومواجهته للمؤسسة الدينية المرابطية

عندما أحد ابن تومرت طريقة في الرجوع إلى بلاده كان قراره قد حُسم ، لقد عزم على أن يكون داعياً ومرشداً للناس باسم الدين الصحيح بدأ عمله بمصر وترك هناك عدة تلاميذ ،

1- مراجع عقيله ، سقوط دولة الموحدين ص 34.

2 - المصدر السابق ، ص 38.

3 - المصدر السابق ، 40.

وعلى ظهر السفينة العائدة به إلى المغرب أخذ يعظ الركاب ويلومهم بشدة على ميلهم لارتكاب المعاصي، وشوهد في مدن المغرب التي توقف بها مدة في طريق العودة وهو يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هكذا كان نشاطه في تونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان، فلم يكن يتورع عن البوح بنقده للحكام والأعيان في كل بلد، ولم يكن يتردد في تحدي الجماعات بل الجماهير، بمناسبة الاحتفال بالأعياد ويعنفهم على التماخر بمظاهر الزينة والتبدير، فكانت السلطات تتأذى من دعوته فتطارد في كثير من الأحيان وتخرجه من البلد. إذا كان الحكام يدهو يرون فيه عنصراً خطراً ومشوشاً فلم يكن كذلك موقف بعض الفئات الاجتماعية التي كانت متذمرة من لإدارة القائمة، وكان هناك عدد من العلماء والطلاب المتأثرين بالمذاهب الفكرية الواردة من الشرق مثل الأشعرية والتصوف، يدرسون نوعاً آخر من المعارضة للحكم المرابطي¹.

في مواجهة فقهاء المالكية:

كان تحرك ابن تومرت يركز على شعار واحد ما فتئ يذكر به لتبرير أفعاله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو مبدأ أساسي في الإسلام يحظى بالقبول والتأييد لدى جميع المؤمنين على اختلاف نرجاتهم. قام ابن تومرت يدعوا إلى هذا المبدأ خلال عشر سنوات من 514 - 524 هـ سنة وفاته بقرية تامل.

أدرك ابن تومرت وهو يشرع في دعوته أن المرابطين كانوا فوق كل اتهام في أعين الناس، فعلى المستوى الديني كانوا يحظون بمساندة أكر الفقهاء في المغرب الإسلامي مثل ابن رشد وابن الحد وعياض قاضي سبتة المشهور. وكانت دائرة على بن يوسف "الأمير المرابطي" بمراكش تتكون أساساً من علماء فقهاء مالكيين وكان الشعب تعود على احترام تلك الشخصيات واتباعها دون اعتراض، لأنهم كانوا يتكلمون باسم الدين.

فرأي ابن تومرت أن لابد من البدء بالقضاء على تلك الهالة التي تحيط بالفقيه، فتؤثر

1 - زبير، محمد، المغرب في العصر الوسيط، 121.

على عقول العامة وتجردها من كل حس نقدي¹. فالتقوى عندهم كانت هي التعرف على
الفقه المالكي وتطبيقه ولم يكن يشوش بالهم الامتيازات الخاصة التي كان يحصل عليها
أصحاب المناصب الدينية من فاض، وإمام، وأستاذ، التي كانت تجعل منهم طبقة محظوظة
داخل المجتمع، ولم يكن في طاقة المرابطين على أي حال أن يوقفوا مثل هذا التطور، ذلك أن
الفقهاء أصبحت لهم اليد الطولي في شؤون الدولة، وكان نفوذهم يمتد من الدوايب الكبرى
إلى الصغرى في الإدارة، على كل المستويات.

في مثل هذه الظروف كان من الممكن للمصلحة الخاصة أن تلتبس بالمصلحة العامة،
والذي كان يجوز فيه استعمال الدين كقاعدة للدنيا، لم يعد امر تومرت حججاً لصالح
دعوته حيث:

1- ندد بوقوف فقهاء المالكية عند حد الجانب الشكلي إذ لم يكونوا يهتمون إلا
بالفروع في حين كانوا يهتمون روح الدين الحقيقي وذلك بسبب تخليهم عن البحث في أصول
الدين وأصول الفقه وهذا يعني أنهم لم يكونوا يأخذون من تعليمهم الديني إلا ما يتعلق
بالمعاملات الدنيوية.

2- ندد بموقفهم الفكري كشكل من أشكال التجسيم أو التشبيه وهو ما يتنافى في نظره
مع عقيدة التوحيد في الإسلام، فهؤلاء العلماء الذين وصعوا أنفسهم في خدمة المرابطين
كانو عاجزين عن تصور لإلاه في حقيقته، وهذا ناتج بصورة منطقية، عن جهلهم بعلم
الكلام، وهو العلم الذي كانت دراسته آنذاك مهمة في المغرب بدعوى أنه علم خطير.

3- ندد بتعصبهم السي ظهر بالخصوص في الاستقبال العدائي الذي استقبلوا به
تأليف الغزالي، وبالأخص كتابه المشهور "الأحياء"، فقد لوحظ أن أولئك الفقهاء مارسوا
ضغوطاً مختلفة على الأمير علي بن يوسف حتى يصدر حكماً على ذلك الكتاب في قرار
رسمي².

1 - المرجع نفسه، 122.

2 - ربيير، المغرب في العصر الوسيط، 123.

وعندما وصل ابن تومرت إلى مدينة فاس أظهر ما كان يظهره في كل رحلته وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم وكان جل ما يدعوا إليه علم الاعتقاد على الطريقة الأشعرية، وكان أهل المغرب ينفرون من هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه.

فجمع والي المدينة الفقهاء واحضره معهم، فجرت مناظرة كان فيها التفوق لابن تومرت، لأنه وجد جواً خالياً والقي قوماً صيماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم المروء، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي المدينة بإخراجه لئلا يفسد عقول العامة، فأمره والي البلد بالخروج، فخرج إلى مراكش حاضرة المرابطين، وكتب يخبره إلى علي بن يوسف أمير المسلمين، فلما أحضر بين يديه وجمع له الفقهاء للمناظرة، فلم يكن فهم من يعرف ما يقول، حاشاً رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد أخذ من كل العلوم بنصيب إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان.

ولما سمع مالك بن وهيب ما قاله ابن تومرت في حاضرة أمير المرابطين علي بن يوسف أشار على الأمير بقتله، وقال: هذا رجل مفسد لا تؤمن عائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا من شره كثير - عبدالواحد المراكشي¹.

وهنا يتبادر السؤال الأساسي لماذا بلاد المصامدة؟ لقد عرف مالك بحسه مدى لمعارضة التي تبديها قبائل المصامدة لدولة المرابطين الصنهاجية الأمر الذي يجعل التغاف المصامدة حول رجل منهم يحمل هذه الأفكار أمراً في غاية الخطورة وهو التقاء العصبية والدين لدعم شوكة الحاكم "ابن تومرت" على رأي ابن خلدون.

يمكن أن نجتز طرفاً من هذا الحوار الذي دار بين ابن تومرت وعلماء المالكية في دولة المرابطين بحضرة علي بن يوسف عندما وصل ابن تومرت إلى مراكش أخذ في نشر أفكاره حيث بدأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكسر المعازف وإراقة الخمر والتعرض لنساء المرابطيات اللاتي كن يخرجنا سافرات الأمر الذي لفت نباه رجال الدولة والفقهاء فقرر

1 - المراكشي، عبد الواحد، كتاب المعجب، 272.

الأمير علي بن يوسف استدعاء هذا الداعية ومناظرته من قبل العلماء في دولته قال الملك سلوا هذا الرجل ما يعني منا؟ فانتدب له قاضي المربة وأسمه محمد بن اسود، فقال ما هذا الذي يمل عك من الأقوال في حق الملك العادل الرحيم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟

قل بن تومرت أما ما نقل عني فقد قلته، وسي من ورائه أقوال وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد إلى الحق.. فهل بلغك يا قاضي أن الحمرة تناع جهاراً وتمشي الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى..؟ وعدد من ذلك شيئاً كثيراً، فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ففهم الحاضرون من محوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه ولما رأوا سكوت الملك والمخداعه لكلامه لم يتكلم منهم أحد فقال مالك بن وهيب، وكان كثير الاجترأ على ملك أيها الملك إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم بأمن غائلتها فقال الملك ما هي. قال إني حائف عليك من هذا الرجل وأرى إلك بعقله وأصحابه وتنفق عليه كل يوم ديناراً لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتسفق عليه خرائك كلها ثم لا ينفعك ذلك¹.

فقال الأمر علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم تعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل ولكن فأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء كانت تلك نصيحة أحد كبار فقهاء الدولة المرابطية وهويان بن عثمان ولكن نتيجة لقصر نظر الأمير ومحاولة بطانته التخلص من الحرج الذي وقعوا فيه أمام ابن تومرت وجرأته في حضره علي بن يوسف تقرر أن يطرد من مراكش ولكن إلى أين يذهب لم يتم تحديده المكان باختيار ابن تومرت مكانه المناسب للاتجاء فيه وهي مدينة تنمل في جبال الأطلس حيث توجد قبائل مصمودة التي منها قبيلته "هرغة" إذ بعد هذه المناظرة وسقوط الخطاب المرابطي من الصرية الأولى انفتحت أمام بن تومرت أفق أخرى للدعوة وتكاثر اتباعه خاصة بعد أن علموا بعجز فقهاء الدولة المرابطية عن مناظرته وإفحامهم أمام هرم السلطة ورئيس الدولة والطبقة الحاكمة إذا هذه

1 - المراكشي، المعجب، 273.

المضطرة أدت هدفها السياسي قبل أن تؤدي هدفها الديني حيث ضربت النواة الأساسية لدولة المرابطين المتمثلة في المؤسسة الفقهية المسيطرة¹.

خلاصة:

وفي ختام هذا البحث يمكننا الخروج بالقراءة التالية:

- إن التابو الذي وضعته السلطة المركزية من دوة لخلافة سوى الأموية أو العباسية جعلته في منزلة القداسة الدينية وطوقته بحملة من الآراء الفقهية جعلت من الممنوعات من المحرم مناقشة مبدأ المشاركة في السلطة الأمر الذي جعل المعارضة تستخدم نفس الأدوات وهي توظيف آراء فقهية مغايرة لتحقيق مطالب سياسية تراها مشروعة من خلال طرح ديني لها يجد صدى لدى العامة أي محاربة السلطة بنفس أدواتها.

- إن التواصل الفكري مع المغرب كان تعبيراً عن هذه الأفكار وبلورتها في مشروع سياسي عام لا يخص إقليم المغرب ذاته بل يدعو إلى إصلاح المؤسسة السياسية المركزية نفسها.

- المهدي ابن تومرت كان صاحب مشروع سياسي وديني إصلاحي عام ليس الهدف منه تفويض بناء دولة المرابطين وحسب بل تغيير كامل البنية السياسية والعودة إلى الأصول الدينية في النظام السياسي للدولة العربية الإسلامية بدليل إدعاؤه المهدوية والدعوة لها، كذلك نلاحظ من توسع لدولة الموحدية شرقاً والوصول إلى إفريقيا كان يرمي إلى ذات الأهداف التي رسمها الموحدون للدولة الإسلامية وما وجود الدولة الحفصية في تونس الإنتاج لهذا الهدف وهو الوصول إلى المشرق.

- إن عدم القراءة الدقيقة لأحداث هامة في التاريخ الإسلامي قدنا إلى التسرع في إطلاق أحكام تتسم بعدم الموضوعية أو الدقة فهناك وقفات يجب أن نقف عندها بتجرد وموضوعية دون المس بالثبوت العقدي في الدين.

- وأمثلة ذلك الوقوف على حروب الردة وإعادة قراءة أحداثها وفق منهجية

1 رنسر، المغرب في العصر الوسيط.

معاصرة، كذلك اجتماع السقيفة وما جرى فيه من خلاف بين المهاجرين والأنصار بسبب النظام السياسي.

- كذلك توظيف بعض الأحاديث أو وضعها بالأحرى لخدمة أغراض سياسية ثبت عدم توافقها مع الواقع التاريخي بينما رسخت في أذهان العامة كمسمات دينية دون المساس بها.

وبذلك فنحن بحاجة لغريلة هذا التراث بمختلف تنوعاته السياسية والفقهية ولا يبقى في دائرة المسكوت عنه.

الهجرات الهلالية

من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة¹

د. محمد الشريف

جامعة عبد الملك السعدي - تطوان

أثارت هجرة القبائل العربية نحو بلاد المغرب - وما تزال - نقاشا مثيرا بين المؤرخين منذ القرن التاسع عشر الميلادي²، وما فتئت نتائج هذه الهجرة وانعكاساتها على التطور

1- قدم هذه الدراسة في ندوة (التحركات البشرية والهجرات اليمانية الى الشام وشرق وشمال إفريقيا قبل الاسلام وبعده) التي نظمها كلية الاداب بالرباط يومي مع المركز العالمي لدراسات والبحاث الكتاب الاخير طرابلس - ليبيا، المركز العربي للدراسات لاستراتيجية دمشق .

2- تتوفر على بيبليوغرافية عربية مهمة حول الهجرة الهلالية إلا أننا لم نعتمدها كثيرا في هذه الدراسة امركة على الكتابات الفرنسية حول الموضوع انظر على سبيل المثال - يوسف عبد الحميد، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، القاهرة، 1956؛ محمود حسين، "العرب الهلالية في إفريقيا ودورهم في الحروب الصليبية"، الكراسات التونسية، عدد خاص 117-118، 1981، ص 73-90، الشيخلي صباح، "الهلاليون في المغرب"، المحلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 70، 71، 1982. مصطفى أبو صيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين، الدار البيضاء، 1982؛ محمد حسن، القبائل والأرباب المغربية في العصر الوسيط، تونس، 1986. فيقة عبد الرحمان، عن أقاصيص بني هلال، تونس، الدار التونسية للنشر، 1987؛ عمرو أبو نصر، تعرية بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب، بيروت، د. ت.؛ التقى العلوي، "أصول المقاربة القسم الثاني. الهلاليون بالعربين الأدنى والأقصى"، مجلة البحث العلمي، الرباط، العدد، 33، ص 69-125، عدد 35، 1985، ص 385-436، سير -ة بني هلال، أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية، تونس، 1990، راضي دغفوس، "معركة حيدران والنصر/نوفمبر الزيري الهلالي"، الكراسات التونسية، عدد خاص 169-170، 1995، ص 11-26؛ أمين توفيق الطيبي، "بنو هلال ودورهم في الجهاد في إفريقيا والأندلس إلى نهاية القرن السادس، الثاني عشر"، صم كتابه: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، =

الخصاري لبلاد المغرب وهويته الحضارية تغدي جدلا حادا بين الباحثين المعاصرين، وهو جدل لا يخلو من اعتبارات إيديولوجية في بعض الأحيان.

ومن المعلوم أن القبائل الهلالية السليمية ظلت تنتجع بالواحات الغربية في خط لتماس بين بلاد المغرب ومصر منذ أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ويرجع تواجد زغبة بجهة طرابلس إلى سنة 429 هـ / 1030 م، وقد ذكرت وقتذاك عند الحديث عن نزاع بينها وبين أحد رؤساء زناتة¹. ويفهم هذا الأمر إذا نظرنا إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي بمصر وبلاد المغرب وقتذاك².

وتعزو الرواية التقليدية أسباب ترحيل القبائل العربية الهلالية نحو بلاد المغرب إلى رغبة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الانتقام من نائبه على إفريقية، المعرب بن باديس، بعد إعلانه الانفصال والاستقلال التام عن الدولة الفاطمية في مصر منذ سنة 441 هـ / 1049 م³.

وما لا شك فيه أن شظف لعيش قد دفع بهذه القبائل إلى الهجرة نحو بلاد المغرب قبل سنوات الأربعين من القرن الخامس الهجري / 11 م ويبدو أن نسقها كان سريعا وحجمها كبيرا إلى حد أن الجموع الأولى بلغت جهة طرابلس، وبالتالي فإن تسرب عرب الهلالية إلى بلاد المغرب سبق معركة حيدران (443 هـ / 1052 م) التي انهزم فيها الجيش الزيري، وكان مسارا بطيئا شمل البلاد الليبية منذ بدايات القرن الخامس الهجري / 11 م انطلاقا من

- 1997، ص 73- 86، نوره محمد عبد العزيز التومجري، "استخدام القبائل العربية أداة سياسية في يد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي"، مجلة لتاريخ العربي، الرباط، عدد 29، 2004، ص 81-130

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص 145

2- انظر التفاصيل في محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى، 1999، ص 28

3- ابن شرف، رسالة الاستقصاء، تحقيق حسني عبد الوهاب، دمشق، 1320 هـ ص 110؛ ابن عذاري، البيان لمغرب، ج 1، ص 278؛ ابن الأثير، لكامل في التاريخ، ج 9، ص 217-220.

الواحات العربية ، وتزامن مع حركتي البدو والواقعتين في أطراف ابلاد العربية ، السلاجقة مشرقا والمرابطين معربا¹. وبذلك يحتمل أن يكون بنو هلال قد وصلوا طرابلس قبل سنة 441 هـ من تلقاء أنفسهم بحثا عن الكلأ كما هو طبعهم، أو أن تحركهم، شأنه في ذلك شأن تحرك قبائل المرابطين المثلثين، قد ارتبط بالرغبة في السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربي، التي كانت تحكم فيها القبائل الإباضية من زناتة وغيرها²، وبذلك يُعتقد أنه قد لا تكون ثمة علاقة بين نزوحهم من مصر وإجراء المعز بن باديس³.

ومهما كانت أهمية العوامل الاقتصادية، فإن الدولة الفاطمية حاولت الاستفادة سياسيا من هذه الهجرة ونأطيرها. فقد خضع انتشار القبائل إلى خطة مسبقة⁴، منحت بموجبها البلاد إقطاعات للقبائل⁵. ولعد أسفرت "غزوة بني هلال وبني سليم الكبرى" عن نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كان لها الأثر الكبير في تاريخ المغرب وحضارته.

ومن المعلوم أن أغلب المصادر التاريخية العربية التي تتحدث عن الهجرة الهلالية تعتبرها "زحف حراد" و"كارثة" حلت ببلاد المغرب، أو هنت اقتصاده، وأتلفت معالمه ومنشأته الحضارية، وأوقعته في هوة سحيقة⁶. ويستمد هذا الموقف جذوره من روئيات المعاصرين

1- محمد حسن، المدينة واسادية بإفريقية في العهد الحمصي، م. س. ص 31

2- نفسه

3- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ح 2، امدار البيضاء، 1994، ص 93

4- انظر رأيا مخالف لهذا عند اتقي العلوي، "أصول الفارسية..."، م. س. ص 388، حينما يكتب "تلاحظ ان غزاة بني هلال في زحفهم هذا لم يتفيدوا بأية خطة مرسومة مسبقا من خطط العزو المنظم..."

5- يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "واقسمت الأعراب بلاد إفريقية سنة 466 هـ وكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرداس بن رباح باحة وما يليها، ثم اقتسموا البلاد ثانية، فكان لهلال من تونس إلى المغرب وهم رباح وزغبة والمغل وجشم وقرة والأنج والخلط وسفيان". (ابن خلدون، كتاب العبر، ح 4، ص 32)

6- G Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècles, Constantine, Paris,

للحدث من أمثال شعراء القيروان ومؤرخيها، وخاصة الحصري وابن رشيق وابن شرف القيرواني وأبو الصلت¹. أما المصادر الأخرى التي تحدثت عن الهجرة الهلالية وانتشارها، فإنها جاءت في الغالب متأخرة (الإدريسي، ابن الأثير، ابن عذاري، التيجاني، ابن خلدون... الخ).

ومن الواضح أن هذه النظرية لم تتضح إلا بعد ثلاثة قرون أو أكثر من تاريخ قدوم الهلاليين لأفريقية، ونجسدت في ما كتبه ابن خلدون في إطار نظريته العامة عن علاقات البدو والحضر. وهذا الأخير لا يعبر عن الحقيقة كاملة بقدر ما يترجم عن مواقف متباينة لأهل عصره تجاه الأعراب، لا تخلو من الإعجاب تارة، والإدانة أخرى². فصلا عن كونه يشيد بأسهم وسجيّتهم وعلو أخلاقهم، فإن ذلك لم يمنع ابن خلدون من وصفهم بوحشية لا مثيل لها، إذ قال "سارت قبائل ذياب وعوف ورغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المسر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين"³.

وما شير التعليق انطلاقاً من موقف صاحب المقدمة الذي كتب تحت تأثير الأزمة الخانقة التي كانت تتخطى فيها بلاد المغرب في القرن الثامن الهجري / 14م هو قراءة بعض المؤرخين الفرنسيين للهجرة الهلالية ونتائجها على ضوء موقف صاحب المقدمة، واحتلافهم في تقييم نتائجها وأثرها في تزيخ بلاد المغرب وحضارته، إذ تحدث البعض منهم عن "الكارثة الهلالية" التي لم تقتصر انعكاساتها على الفترة التي عرفت الزحف الهلالي مباشرة (خاصة بعد هزيمة حيدر سنة 443هـ)، إنما سحبت على الفترة اللاحقة من تاريخ بلاد إفريقية والمغرب.

1913; Id. La Berbérie musulmane et l'orient. au Moyen Age, Aubier, Paris (nouvelle éd. Afrique Orient, Casablanca, 2003)

E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1952

1- راجع H. R. Idris, La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris, 1962

2- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى، 1999،

Jacques Berque, " du nouveau sur es Bani Hilal?", Studia Islamica, 2

XXXVI, 1972, p. 100-101

3- ابن خلدون، تاريخ، ج 4، ص 31.

وعلى عكس ذلك ، اعتبر مؤرخون آخرون أن قدوم الهالبيين قد سرّع فقط صيرورة الهير افريقية البريرة التي كانت "على شفة هاوية" ، وذهبوا إلى أن نظرية الحدث الخامس ، أو "الكارثة الهلالية" ، غير قادرة على تفسير التحولات الكبرى التي عرفتها البلاد المغربية ، والتي ابتدأت في القرن الخامس الهجري / 11 م ، وتواصلت تفاعلاتها أكثر من قرنين من الزمن. ومن نافلة القول أن الهجرة الهلالية لا تشكل الموضوع الرئيسي في مقدمة ابن خلدون ولا في كتبه "العبر" ، وإنما أشار إليها بن خلدون ضمن عدد كبير من أسباب الاضطرابات الأخرى.

التوظيف الإيديولوجي لنظرية ابن خلدون عن علاقات البدو والحضر:

اعتبرت أغلب المؤرخين الفرنسيين ورواد السوسيولوجية الكولونيالية أن دخول العرب لبلاد المغرب عقب "الغزوة الهلالية" ، هي -إلى جانب اعتناق البربر للدين الإسلامي- الحدث الحاسم في تاريخ المغرب. وبذلك أصبحت الموضوع الأساسي لتاريخ شمال إفريقيا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وبالأدوات منذ بدايات استعمار الجزائر¹ ، وغالبا ما اعسروا تلك "الغزوة" نكبة الكرى وبلية (Fléau) انتلى بها المغاربة ، ونقطة تحول سلبية في تاريخ المنطقة.

فقد كتب (جورج مارسلي) يقول بخصوص قدوم العرب لبلاد المغرب : "لقد أحسّت إفريقيا الشمالية بالم عميق ، وإلى الأبد ، بهذه النكبة" وي مكن آخر يصرح قائلا : "إن أسلمة بلاد البربر تطرح قضية تاريخية ، لا أمل لنا في حلها"² ، وتساءل (كريستيان كورسوا) من جهته عن الأسباب التي أدت ببلاد البربر لكي تكف / تتخلى شيئا فشيئا عن

1- A. Carette, Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique septentrionale. Exploration scientifique de l'Algérie, Paris, 1853 E. Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale, Paris Constantine, 1875. Id. Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française, Paris, 1888

2- Georges Marçais, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946, p 35

"رومانيتها"¹، وهو بذلك يريد أن يكمل البحث الذي بدأه (إيميل فليكس غوتيي) الذي رح يبحث عن تفسير الكيفية التي أصبحت بها إفريقيا الشمالية أرضاً "مشرقية"، أي أرض إسلام، ولما لم تتمكن من أن تصبح دولة مغربية مستقلة بعد انهيار سلطة خلفاء المشرق². ونفس الباحث رأى في الزحف لهلالي مجرد تبديد "للشروات الهائلة التي كان قد تم حلقها على عهد السيطرة الرومانية"³.

أما بالنسبة لـ (شارل أندري جوليان)، فإن الصحرة الهلالية تمثل "هجمة شعب بدوي مغرب"، وهي الحدث الأهم في العصر المغربي الوسيط⁴، يقول: "كانت زحفة بني هلال بلا منازع أخطر⁵ حدث عرفته بلاد المغرب أثناء القرون الوسطى. فهي التي أثرت أكثر من الفتح الإسلامي تأثيراً طبع لمغرب بطابع لم تمحه القرون. ذلك أن هذه البلاد كانت قبل مجيء الهلاليين إذا استثنينا الإسلام، بربرية اللغة والعادات في أعماقها. وكانت تسترجع شيئاً فشيئاً التقاليد السياسية البربرية كلما تخلصت من سلطان المشرق...". ويضيف فائلا: "وأفسد مجيء الهلاليين هذا الاسجام بين نمطين من الحياة يفرصها مناح المغرب وتضاريسه، وبهم عمّت البداوة، وتحولت الأراضي المعدة لزراعة الحبوب والخصر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له، واحتنقت قرى ومدن صغيرة وحريت"⁶.

1 - Courtois, Les Vandales de l'Afrique, Paris, 1955, p. 7, 91 et ssq., 126- 130, 359

2 - E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1973, pp. 129- 130, 247

...ld., Mœurs et coutumes des musulmans, Paris, 1931.

3 - E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du nord' Les siècles obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1937, p. 422.

4 - Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris, 1936, p. 374

5 في الترجمة العربية للكتاب وردت كلمة "أهم"، وهي ترجمة غير دقيقة (شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، 1983، ص 97- 98)

6 - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، 1983، ص 97- 98.

ولقد وظف المؤرخون وعلماء الاجتماع بعض المعطيات لتاريخية التي تتضمنها مقدمة ابن خلدون وكتابه "العبر" حول البدو والعرب، ليقيموا صرحاً نظرياً بخصوص ثنائية العربي - البربري، وتناحر البدوي - الحضري. وإلى ذلك يشير (جاك بيرك) بقول إن. "تناقض العربي والقبائلي، قد أصبحت حيزاً مشتركاً سنة 1845"¹، كما نبّه (إيف لاكوست) بدوره إلى أن "الأكثرية الساحقة من المؤرخين الفرنسيين لإفريقيا الشمالية، قد وقّعوا على موضوعه الغزوات العربية في القرن 11م .. ويواجهون بطريقة منهجية، البدوي، الذي يشبهه عادة (وخطأً) بالعربي، أي الغازي الأجنبي، ويعارضون، بالحضري البربري، المواطن الأصيل، وصحية الغزو"².

والواقع إن الإيديولوجية كانت حاضرة في صميم الأبحاث التاريخية الفرنسية التي اتخذت تاريخ بلاد المغرب وحضارته موضوعاً لها، ولم يعد خافياً مدى تسخير البحث التاريخي والسوسيولوجي لخدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية ببلاد المغرب ذلك أن معارضة البدوي بالحضري، سرعان ما أصبحت عنصر محورياً في الكتابات الفرنسية، وقد كرستها بجلاء كتابات (إميل فيليكس غوتبي)، أحد ألمع منظري الاستعمار، و"واضع نظرية النزاع البدوي والحضري، وغزوات العرب"، والذي يصفه (إيف لاكوست) بأنه "تمكن من أن يكون للولب الإجماري لكل تمكبر تاريخي حول إفريقيا الشمالية وحول النظرية الرسمية"³. إن تاريخ إفريقيا الشمالية بأسرها، بالنسبة لـ (غوتبي)، ليس منذ القدم سوى مبارزة شاسعة ودائمة بين "جسدين متعارضين أساساً من وجهة بولوجية، في تصرفهما الأبدي .. فخلال ألفين كاملين من السنين، ومنذ القدم حتى يومنا هذا، كان المغرب دائماً مقسماً قسمين لا يتحدان، هما البدو والحضر"، ذلك لأن "غرائز البدوي الأصيل تختلف تماماً (عن غرائز الحضري)، فهو شيوعي من خلال نمط حياته... أم من وجهة سياسية،

1- Jacques Berques, " Cent vingt ans de sociologie maghrébine ", Annales E.S.C , -1
N° 3, 1956

2- إيف لاكوست، بن خلدون، م. س. ص 83- 84

3- إيف لاكوست، بن خلدون، م. س. ص 94

فهو فوضوي، عديم وعميق الاختيار للتخريب الذي يفتح له آفاقاً. إنه المدمر، المنكر، حتى انتصاره ليس بمنجزة¹

ومن نافلة القول أن أطروحة (جورج مارسلي) الموسومة بـ (العرب في بلاد البربر)² - وهي سابقة على أطروحة غوتي³ - ، هي التي قدمت المادة التاريخية لجل الأعمال التاريخية اللاحقة. إلا أنها في الحقيقة أطروحة كامنة ومتضمنة في كتابات (ميسيني)⁴ ، وبصفة خاصة في كتاب (كاريط) : "بحوث في أصول وهجرات قبائل الرئيسية بإفريقية الشمالية"⁵ الذي صدر سنة 1853. وفي هذا الكتاب تطرق كاريط للـ "غزوات العربية" ، قائلاً : "كان هجوم العرب الفاتحين كالإعصار يقتنع لأشجار ويهدم المنازل ، وهجوم الهلاليين كالحريق البائل الذي يذر الأشجار والمساكن دماراً تذروه الرياح. فما أبقاه الإعصار قضى عليه الحريق".

ولقد لاحظ عبد الله العروي⁶ وغيره⁷ . كيف أن المؤرخين الفرنسيين ، والمتأخرين منهم خاصة يخلطون عن عمد بين "العربي" و"البدوي" ، فهم "لا يقتنعون بالوصف بل يتعدونه إلى الاتهام. لا يكتفون بالقول : هذا ما فعله البدو لرحل ، بل يؤكدون إن هذا هو ما فعله

1- مذكور في إيف لاکوست، م. س.، ص 84 - 85

2- G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècles, Constantine, Paris, 1913

3- E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du nord, Paris, 1937

4- E. Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale, Paris Constantine, 1875, Id. Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française, Paris, 1888

5- A. Carette, Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique septentrionale. Exploration scientifique de l'Algérie Exploration scientifique de l'Algérie. 1840-41, Paris, 1853

6- مجمل تاريخ المغرب، ج2، م. س.، ص 97

7- إيف لاکوست، ابن خلدون، م. س.، ص 83 وفي ص 84 نقرأ. "لقد استخدمت ترجمة مقدمة ابن خلدون سنة 1863 لتقديم لهذه الموضوع، التي أصبحت شبه رسمية ، تكريساً متألّفاً بوجه خاص من مثل القول بأن أحد أعظم المعكرين العرب يؤكد (أو يبدو أنه يؤكد) موضوعاً مؤرخي العصر الكولونالي)

العرب حيثما كانوا، رغم أنهم يعرفون أن ابن خلدون، أو الإدريسي، يقول العرب ويعني بهم الأعراب، أي البدو، وإن كانوا أصلاً من جنس آخر. لكن الأعراب تدفع كتاب عهد الاستعمار إلى استغلال الاشتراك في المعنى، ... مع أن التشابه عرصي فقط. كان دوسلان، مترجم مقدمة ابن خلدون¹، أول من تعمّد الخلط، فوضع كلمة عرب كلما وجد نغمة أعراب أوبدو أو رحل. ورسخ الفكرة أن العربي مخرب بطبعه. ويتساءل عبد الله العروي مستقداً المدرسة الكولونيالية: "بأي عصي سحري، مثلاً، يتحول البدوي محارب الأمصار وهادم الدول عندما يكون زناتياً أو هلالياً، إلى محطّ حواضر ومؤسس إمبراطوريات عندما يكون لثونياً أو مرينياً أو زيانياً؟"²

ولا يخفى أن العديد من الكتاب الفرنسيين المتأخرين كانوا يرمون من وراء كتاباتهم إلى إحياء العصبة البربرية، وغرس فكرة لدى الأجيال المغاربية مفادها أن العنصر البربري هو الأصل، وأن العرب هم الغزاة الدخلاء. وهي سياسة اعتمدتها الإدارة الفرنسية في تنفيذ مخططاتها الاستعمارية الرامية إلى تفكيك وحدة الشعب المغاربي وفصله عن واقع العربي الإسلامي³.

والواقع أن إرادة التقسيم، بصفته المحرك الأساسي في السياسة الاستعمارية الفرنسية هي التي تبنت "أطروحة" التعارض بين السوي (العربي) والحضري (البربري) ببلاد المغرب. "فهذه الأسطورة ليست ثمرة الصدفة - كما يقول إيف لاکوست - . وقد حيكت بوعي، واطبعت في إطار الإيديولوجيا الاستعمارية... فالجنرالات الفرنسيون منذ بداية احتلال

1- من المعلوم أن البارون دوسلان ترجم كتاب العمر إلى اللغة الفرنسية سنة 1852 - 1865 وصدر

بالجزائر في أربعة أجزاء، وأعيد طبعه بباريس سنة 1925، وسنة 1965 وترجم المقدمة سنة 1862

2- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، م.س. ص 103

3- ناصر الدين سعيدوي، دراسات وأبحاث في تاريخ الحرائر، الجزائر، 1984، ج1، ص 35، نفسه،

"التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الحرائر (1830 - 1962)", مجلة التاريخ

العربي، الرباط، العدد 32، خريف 2004، ص 107

الجزائر، جهدوا في تفريق "عرب" وأهل القبائل"¹.

ومن الواضح أن هذه "الأسطورة" كانت تهدف إلى إظهار العرب والإسلام كقوى استعمارية تسلطت على السكان الأصليين (البربر) لتسلب منهم ممتلكاتهم وهويتهم على الخصوص، ومن ثمة، يصبح دور الحماية الفرنسية هو الدفاع عن البربر المضطهد، الذي حافظ، رغم طول "الاستعمار الإسلامي" على أصالته، وعلى استقلالته². وتلح كتابات هؤلاء المؤرخين الاستعماريين على أن حواضر بلاد المغرب قد انكمشت والأراضي الزراعية تقلصت بفعل انتشار البداوة التي ارتبطت - حسب رأيهم - بالهجرة الهلالية³، وذلك حتى ينتهوا أخيرا إلى الحكم بأن "العهد الروماني" هو الفترة التي عرفت فيها بلاد المغرب الاستقرار، وتطور الزراعة وانتشار العمران. وتمثلها في ذلك فترة "الاحتلال الفرنسي" التي أعادت هي أيضا أمجاد رومة ووضع حدًا للفوضى والاضمحلال، بل تميزت كذلك بالاستقرار واتصفت بالرقى والتقدم. فبلاد المغرب (والجزائر بصفة خاصة) - حسب هذه النظرة المتحيزة - ما هي إلا قطعة من الغرب الأوربي عاشت فترات مظلمة تحت الاستبداد الشرقي (الإسلامي) قبل أن يسترجعها الفرنسيون الذين يعتبرون من خلال هذه الأحكام المتحيزة آخر الفاتحين وأكثرهم تحضرا وإنسانية⁴.

ومن البين أن موضوعه "احتلال العرب" لبلاد البربر ابتداء من القرن الحادي عشر، قد كانت لها في الإيديولوجية الاستعمارية أهمية مزدوجة. فهي من جهة تجعل الفرنسيين آخر المستولين على بلد عاش دائما في حالة عبودية، ويؤمل أن يبقى كذلك أبدا. وهي من جهة

1- إيف لاكوس، ابن خلدون، م.س، ص 97- 98

2- عبد الصمد الديالي، "ملاحم تطور السوسيولوجيا في المغرب" المستقبل العربي، 81، 1985، ص 74

3- انظر على سبيل المثال ما كتبه جورج مارسى في: La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, op. cit. pp; 208-214

4- ناصر اندين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، م.س، ص 35، نفسه، "التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830- 1962)"، مجلة التاريخ العربي، الربط، العدد 32، خريف 2004، ص 107

أخرى ، تقدم ضمانات تاريخية للسياسة التي ترمي إلى المعارضة المنهجية بين البربر والعرب¹ . أضف إلى هذا أن تجريم العرب ووصفهم بـ "المجتاحين المخربين المضرين" كان مجرد تبرير لإضفاء الشرعية على "الخصور الفرنسي" ببلاد المغرب ، واعتباره ينطوي على "مهمة فرنسا الحضارية" ، ولا شيء يعبر أحسن عن هذا التوجه من كتاب لويس بربراند² ، عضواً أكاديمية الفرنسية ، والمسند الرسمي للحكومة العامة في الجزائر ، الذي يتحدث عن "منطقة لبربر المسيحية" الرموز إليها بشخص القديس أوغسطينوس ، وقد بقيت ربما طويلاً خاضعة للمجتاحين الشرقيين ، ثم عادت بفضل فرنسا إلى حضن الغرب ، والدين المسيحي .

وقد تصدى لنقد هذه الأطروحات ودحضها ، عدد من الدارسين والمؤرخين ، عرباً وفرنسيين ، نذكر من بينهم (إيف لاکوست) الذي أبرز جلياً ثغراتها وتهافتها في كتابه "العلامة ابن خلدون"³ . فهو يعترض المقابلات بين العربي البدوي ، وبين لبربري الحضري ، مجرد تبسيطات مغلوطة ، و"أن سائر الدوليسوا عرباً ، وأن كل البربر هم بعيدون عن أن يكونوا سوى حضريين . فالمجموعات "العربية" الأصلية التي قدمت من الجزيرة العربية ، وأقامت في إفريقيا الشمالية ، لم يكن لها سوى فعاليات جد محصورة . والذين يسمونهم "عرباً" في المغرب ، ليسوا سوى بربر يستخدمون اللغة العربية... وإذا ما كان قسم من السكان المستمرين في استخدام اللغة البربرية حضريين فعلاً... فإن القسم الأخير ممن يتكلمون البربرية هم بدو أو أنصاف بدو... فعلاً يستند القسم الأكبر من موضوع مسؤولية العرب التاريخية ، من أجل محاولة تبديل هذه البدهة ، التي تنفي بشكل بارز معادلات العربي - البدوي ، والبرابرة - الحضريين .

1 - إيف لاکوست ، ابن خلدون ، م. س. ، ص - 98

2 - L. Bertrand, Un grand africain, le maréchal de Saint- Arnaud, Le sang des races, Paris, 1930, L'Islam et psychologie du musulman, Paris, 1923

3 - Yves Lacoste, Ibn Khaldoun: Naissance de l'histoire passé du tiers monde, Ed.

F. Maspero, Paris ، ترجمه دميشل سليمان وصدر بعنوان : ابن خلدون ، (دار ابن خلدون ، ط

2 ، 1978)

ويؤكد (روبير برونشفيغ) بدوره على "أن الفوارق العرقية لا تمثل إلا جانباً من أهم الاختلافات الموجودة، من حيث نمط العيش، لا سيما بين الرحل والمقيمين، أو من حيث الفئات الاجتماعية. فحياة الترحال ليست حكراً على بعض الأجناس البشرية، إنما هي منبثقة عن بعض الظروف الجغرافية المعينة المتلائمة على وجه الخصوص مع الصحراء والسائب، إلا أنها قابلة للتقدم أو التقهقر حسب الملابس التاريخية. على أن حياة الترحال لم تظهر في شمال إفريقيا مع العرب. فمند العصور القديمة السحيقة، كانت تظعن بتلك الربوع قبائل بأكملها، بحثاً عن المرعى لماشيتها المتكوبة من الغنم والمعز. ومع ظهور الإبل في عهد الإمبراطورية الرومانية، كانت بعض فروع من القبائل البربرية تظعن على ظهور الجمال، قبل مدة طويلة من قدوم العرب الأوائل، لا سيما في البلاد الجزائرية الحالية. ولكن في العهد الإسلامي، وخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، إثر نزوح أعراب بني هلال وبني سليم من الشرق، أحرز ذلك النمط من أنماط العيش، الدور الأول في تلك الربوع وحافظ عليه إلى عهد قريب"¹.

وعلاوة على طابعها الرسمي، فإن موضوع "مسؤولية البدوي التاريخية" ونظرية المعارضة الأبدية بين البدو والحضر، لتعارض مع عدد كبير من الوقائع التي تنشأ عن أكثر الملاحظات الجغرافية بساطة. إن التعارض البدوي الحضري، لوسلمنا بوجوده، لا يتعلق بالأقسام العرقية واللغوية. وفوق ذلك، يستطيع رعاة وقرويون أن تعايشوا داخل تشكيل سياسي واجتماعي بالغ التصغير، وتكون وحدته هي، مع ذلك، جد قوية. وقد بين (ر. برونشفيغ) مثلاً، أنه فيما يتعلق بإفريقية وجدت في العصر الوسيط قبائل متشكلة، متساوية الحقوق، وذات أقسام حضرية وبدوية، تكمل إحداها الأخرى². إن التعارض الأساسي

1 - Robert Brunsevig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, tome 2, Paris, 1947, p. 159

2 - وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان روبرت برونشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج 2، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص

المشهور بين الحضر والبدو يجب أن يعاد إلى قياس أصح. وليس أقل من أن نعرف بأن إفريقيا الشمالية عرفت مراحل اضطراب خطيرة بنوع خاص، وطويلة. فهل هي بالضرورة نتيجة "الغزو البدوي"؟ ولكن، هل حصل "غزو" حقيقة؟ ويضيف إيف لاكوست موضحاً: "إن سلاطين المغرب كانوا يجهدون في استجلاب القبائل العربية بدلاً من البحث عن كيفية صدها، وعاباً ما كانت القبائل مكرهة على التخلي عن الأرض التي تجتارها لكي نقيم في مناطق أخرى. ولم تكن الهزيمة الكبرى التي تكبدتها القبائل العربية على يد الخليفة الموحي في سطيف سنة 1152م بهدف قطع الطريق على هذه القبائل، بل كانت على العكس ترمي إلى دفعها للقدوم إلى مراكش والقيام بخدمته.

وهكذا فإن عبارة "الغزوة" غير صحيحة إطلاقاً، للدلالة على تقل القبائل العربية في القرن 11م عبر إفريقيا الشمالية إن عبارة "الإبعاد" بالرغم من إفراط معناها، تصلح أن تكون أساساً أكثر دقة. كما أن الأمر يعني، في أغلب الحالات، دعوة للقبائل، وتقيداً حقيقياً. وقد كتب جورج مارسيل يقول: "بخطيء الطن من يعتقد بأن سلاطين البربر كانوا في حالة عدوان دائم مع العرب... إن حضورهم كان معتبراً أحياناً بمثابة حدث مرغوب فيه".

ويضيف إيف لاكوست قائلاً: "إن التناحر الأساسي بين البدو والحضر، بين العرب والبربر، لا يتفق والحقيقة التاريخية. الأمر يتعلق بأسطورة. ولقد آمن بها مؤرخون رزينون، بالرغم من أن أبحاثهم تدحض هذه النظرية في العديد من النقاط الأساسية. إن جورج مارسيل، وهو أحد أهم دارسي قضية العرب والبربر، قد سجلها منذ البداية في مقدمة كتابه، بالرغم من أنه جمع من الوقائع ما يجعلها الدليل على أنه لم يكن ثمة "غزوة" حقيقة¹

إن هذه الأطروحات التي كانت لصيقة بالسلطات الاستعمارية الفرنسية، قد أحيها مؤرخا المؤرخ الهادي روجي إدريس في خاتمة كتابه حول "أفريقية الزيرية". ولئن حاولت أطروحة هذ الأكاديمي تحطي ابن خلدون واستغلال المصادر المعاصرة للحدث، فإنها تهول بدورها من حدث الهجرة الهلالية، وتلقي باللائمة على القبائل العربية فيما أصاب أفريقية

1 - إيف لاكوست، ابن خلدون، م.س، (في مواضع مختلفة).

من اضطراب والخلال. يقول :

"لقد شهدت نهاية عهد المعز بن باديس (442- 454 هـ / 1050- 1062م) كارثة سياسية واقتصادية لم يسبق لها مثيل ، ألا وهي "غزوة" أو "زحفة" بني هلال. ذلك أن الخليفة الفاطمي ، بناء على النصيحة المكيافيلية التي أسداها إليه وزيره (اليازوري) ، قد أسلم إفريقية إلى جحافل الأعراب الرحل الذين كانوا يضايقونه وفي ظرف بضع سنوات أصبحت نكبة الأمير الناکث للعهد أمراً مفروغاً منه"¹.

ولقد كرر الهادي روجي إدريس هذه النظرة الكارثية للتاريخ في خاتمة كتابه حينما كتب يقول : "ولا ريب أن غزوة بني هلال تمثل بداية عهد جديد. ولا حاجة لنا - عند ذكر هذه الكارثة الخارقة للعادة - إلى تأكيد أهمية استعمال الظرفين "قبل" و"بعد"².

وحسب الهادي روجي إدريس فإنه على عكس جميع الصراعات وجميع التخريبات التي سبقتها ، فإن "الأعراب الهلاليين الراحقين بأعداد غفيرة وبأقل فوضى مما كنا نعتقد ، قد استولوا على السهول وعلى عدد كبير من المدن التي خربت وأصبحت في وضع متخلخل ، وطردوا السكان المستقرين من البربر المستعربين والبربر الرحل والمنتجعين ، الذين فروا زرافات ووحدانا ، فانتجأ الأولون إلى الجبال والتجأ الآخرون إلى لمراكز القادرة على التصدي للغزاة"³.

ويجدر بنا التذكير بأن الهادي روجي إدريس هو تلميذ لـ (روبير برونشفيك) ، وحضر أطروحته تحت إشرافه ، وعلى هديه سار في تنظيم فصولها وأبوابها ، وربما تأثر ببعض

1- H. R. Idris, La Berbère Orientale sous les Zirides, Xe- XIIIe siècles, vol. I, -

Paris, 1962, p. 206 ، الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية - تاريخ إفريقية في عهد بني زيري

من القرن 10 إلى القرن 12م ، نقله إلى العربية حمادي الساحلي ، الجزء الأول ، دار الغرب

الإسلامي ، 1992 ، ص 245

2- H. R. Idris, La Berbérie Orientale sous les Zirides, Xe- XIIIe siècles, vol. II, -

Paris, 1962, p. 828 ، (الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، ج 2. ص 448)

3- Idem, p. 829 ، (الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، ج 2. ص 449- 450)

خلاصات أستاذه المشرف حول "مسؤولية العرب" الرحل فيما آلت إليه الأوضاع بإفريقية فقد كتب روبرت بروشفيك يقول: "وهكذا فقد ظهرت في إفريقية الحفصية، في أغلب مناطقها، بمظهر الأرض المخصصة لظعن البدو الرحل، أو الخاضعة لسيطرتهم. فقد أحلوا عددا كبيرا من السكان المستقرين، واكتسحوا جموعا غفيرة أخرى، ولم تستطع الدولة نفسها، التي هي دولة حضرية، من حيث الجوهر والغاية، إلا بشق الأنفس أحيانا، الخلاص من ذلك السيل الجارف المدمر والمندثر بالخطر.

ذلك أنه ينبغي أولا وقبل كل شيء إبراز ذلك الجانب المدمر من نشاطهم، لأنه يمثل أبرز وأقرب سمة للواقع. من طبائعهم ونشاطهم. فمما لا شك فيه أن البدو قد عملوا على تهجير الزراعات وتقلص عدد سكان المدن والقرى. إذ أن مجال تحركاتهم لا يتحمل سوى وجود سكان مشتتين، كما أنهم، هم أنفسهم، يشترطون التصرف في فضاء أوسع لاستيعاب عدد محدود من البشر نسيا وتبعاً لذلك فقد قلبوا الاقتصاد رأساً على عقب وخرّبوا، خلال توسعهم نحو الغرب، أكثر من مركز معمور، لا سيما في منطقة السباسب، وأكثر من منطقة زراعية كانت مزدهرة في أوائل العصر الوسيط. ولكن الأخطر من ذلك بدون شك، هو أن أعمالهم التخريبية لم تكن تتوقف أبداً عند المرحلة الأولى من غزوتهم، بل إن تلك الأعمال المريعة قد تواصلت وتكررت عبر العصور. وقد تسببوا إلى حد كبير في احتلال الأمن الذي كان يعاني منه السكان المقيمون والرحالون على حد سواء، وفي الفوضى السياسية التي انتشرت في أغلب الأحيان. ولقد ألح مؤلفو الرحلات والجغرافيون والمؤرخون في كتبهم، على العرب الذي أثاره العرب الرحل في إفريقية، ففي كتاب من كتب التراجم، مثل "معالم الإيمان"، وفي كتاب من كتب مناقب الأولياء الصالحين مثل "مناقب سيدي ابن عروس". يتكرر ذكر أسمائهم باعتبارهم مرادفاً للفوضى والدمار. وفي حياتهم اليومية نراهم يتمردون على الدولة لا يحترمون الزراعات ويسلبون القوافل، ويعبثون فساداً في الأرياف ويبدون استعدادهم دوماً وأبداً لاقتحام المدن. فكانوا بتلك الصورة يشيرون وبغذور في نفوس صحابياهم مشاعر الحقد والعيب. ويبدولنا وكأننا نجده عالمين متناهضين، يحاولان البقاء بصعوبة جنباً إلى جنب، وتعمل خلافتهما الجوهرية على الإخلال بالأمن الداخلي للسلاط

بدون انقطاع¹.

ولقد أثارت أطروحة الهادي روجي إدريس حدلا في أوساط المؤرخين ومن بين الذين تصدوا لنقدها يبرز إسم (جان بونسي) فقد ذهب في نقاشه إلى أن الهادي روجي إدريس لا يعمل سوى على تكريس الحكم السلبي حول أثر القبائل العربية التي بعث بها الخليفة الفاطمي إلى إفريقية الزيرية في القرن الخامس الهجري، والذي صاغه كل من ابن خلدون والتجاني في القرن الثامن لهجري / 14م، بعد ثلاثة قرون من ذلك الحدث. وأن خلاصاته لا تعدو أن تكون اجترارا للأطروحة التي رأت النور منذ (إميل فليكس غوتي) بصفة خاصة. والتي تستند على فحص "يخلو من الروح النقدية لكتابات ابن خلدون والتجاني". والاعتماد على مثل هذه المصادر المتأخرة، دون أخذ ما يجب من حيلة منهجية تجاهها، قد يوقع المؤرخ في مغالطات تاريخية، خصوصا وأن المصادر المعاصرة للأحداث لا تقدم مثل تلك الصورة السلبيّة عن القبائل الهلالية، بل حتى المؤرخين الفرنسيين السابقين أمثال (جورج مارسلي) وشارل أندري جوليان، لا يتبنون الأطروحة "الكارثية" للقبائل الهلالية، بل إن (غوتي) نفسه احتاط من إطلاق أحكام مطلقة عن الدور السلبي للهلاليين - حسب بونسي - وشبه أثر هجرتهم وزحفهم على البلاد الإفريقية "بخميرة في رغبة" وعن إسهام جديد للقبائل العربية الرحل². ودون أن يتبنى جان بونسي هذه الأطروحة، فإنه يشير إلى بعض المؤرخين الأفارقة الذين يتحدثون عن "زحف بطيء" لموجات الرحل، وعن تطور لا يشكل فيه قدوم القبائل الهلالية سوى "محطة نهائية"، وهوما يعند النظرة "الكارثية" التي يتبناها الهادي روجي إدريس، خصوصا وأن عددا من النصوص التي جمعها الهادي روجي نفسه، تنقض أطروحة "الكارثة الهلالية" من أصلها

1 R. Brunschvig, La Berbérie Orientale sous les Hafsides, II, pp. 159-161 روبر

برشميك، تاريخ إفريقية في العهد الحمصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج 2، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 162 - 163 (ويستشهد الهادي روجي إدريس بهذه القول في نقاشه لمتفديه كما سرى)

2 Jean Poncet, ' Le mythe de la catastrophe Hilalienne', Annales ECS, 1968, p. -2

وفي بحثه عن أصل المشكلة يعتقد جان بونسي إن القطيعة التي أحدثها أمير إفريقية الزيري مع الخليفة الفاطمي لعبيدي لم تكن سوى تكريس لفعل تمتد جذوره إلى رحيل الخليفة الفاطمي إلى مصر سنة 971 م. فقد صاحب معه مؤيديه من عساكر كتامة ورؤساء جندها، وعدد كبير من الأطر الإدارية العليا، والقوى البحرية التي كانت تضمن سيطرة العبيديين على البحر، كما صاحب معه كنوز عدة راكمها خلال وجوده بإفريقية، وهوما شكل نزيفا في مقدرات إفريقية الاقتصادية. الأمر الذي أثار حفيظة الطبقة التجارية والسكان الحضريين الذين رأوا بلادهم تنحدر إلى مرتبة ولاية، بعدما كانت مقر السلطة العليا.

ويرى جان بونسي أن ربط تخريب الزراعات، وطمس لأبار، ونسف الزروع، وإشعال الحرائق، وتخريب لأمصاف في الحواضر وفي القرى بالقبائل الهلالية، لهو رأي يتجاهل أن المخربين الحقيقيين المنظمين كانوا هم جماعات النهابين الباحثين عن إرهاب الساكنة الحضرية والقروية لابتزازها إلى أقصى حد، بإجبارها على أداء الإتاوات لهم، أو أنها في أغلب الأحيان، أعمال السلاطين أنفسهم، الراغبين في معاينة السكان النافرين، أو إرغام السكان المحاصرين على الاستسلام لهم من ذلك مثلا ما يذكره الهادي روجي إدريس نفسه. نقلا عن ابن الأثير، من أن تيمما حاصر قابس سنة 474 هـ / 1081 - 1082 م حصارا شديدا (دن أن يتمكن من احتلالها)، وضيق على أهلها، وعاث عساكره في بسايتها المعروفة بالغابة، فأفسدها¹. وعاثت القلعة بدورها من حصارات كثيرة وطويلة سيرها ملوًا القبروان وتم تحريب ضواحيها أكثر من عشر مرات، من قبل السلطان لا من قبل الهلاليين.

ويبرز (جان بونسي) كثرة التناقضات التي نجدها بين من يلقون المسؤولية على الهلاليين في جميع المصائب التي حلت ببلاد المغرب، وبين معطيات المصادر التي تتحدث عن الصراعات الداخلية، وعن هذه الفوضى المولدة للفتن من جميع الأنواع، والتي ترجع أسبابها إلى فترات سابقة، وبعضها أسباب خارجية عن إفريقية. ويبرز جان بونسي أسباب خراب القيروان وانحدار إفريقية الزيرية قائلا:

1- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 1، ص 342 (النص الفرنسي، ص 300)

"إن خراب الدولة الزيرية أوبعبارة أدق، هجران القيروان من قبل برجوازياتها ومن قبل من تبقى من حاشية السلطان، مع ثرواتها، يعكس لنا الانحدار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المرتبط بعوامل عميقة ومتشعبة¹. فقد خرجت المقاطعات الطرفية عن سلطة المركز، مثل جهة طرابلس والجريد، وبرزت "جمهوريات برجوازية صغيرة" يرأسها مجلس شورى، كما هو الشأن في تونس وسوسة وطرابلس. وفي أحيان أخرى نجد أرسقراطيات محلية لم تكن تريد البقاء في تبعية أمراء القيروان، وأداء الإتاوات وتقديم الهدايا لهم، تطلعت للاستقلال كما هو الشأن بالنسبة لصفاقس وقابس وبنزرت مثلاً وغالباً ما نسجت هذه الكيانات الصغرى روابط مع المحاربين الرحل لتأمين حمايتها عسكرياً، وحماية خطوط التجارة والتجار. وهذه الوضعية لا تختلف كثيراً عما ساد سابقاً من خروج للمناطق الهامشية عن سلطة الدولة المركزية.

فتوسط المراكز الحضرية الحديدية بالمناطق العربية والجسوب الغربي من بلاد المغرب، وغمورائها، وتسرب التأثيرات التجارية، والأنشطة الفلاحية المختلفة والمبادلات، والتقدم التقني، وظهور اقتصاد يقوم على المعاملات النقدية، والعلاقات الجديدة التي ربطت السكان بالخارج، وظهور واحات - موانئ للقوافل التجارية الصحراوية، ونشأة وتوسع عواصم جديدة، وظهور سلالات حاكمة جديدة، كل هذا يمثل الأساس الذي انبنى عليه الانحلال الزيري".

يضاف إلى ذلك النزاعات الداخلية محوضر افريقية بين الشيعة والسنة، والصراع الصنهاجي مع المحور الأموي - الزناتي، وتراجع قيمة الدينار والدرهم الزيريين، وما نجم عنه من ارتفاع الأسعار وازدياد الأزمة الاجتماعية، خاصة بعد هزيمة حيدران، لما تمكن الجنود الفارون ورقيق لأرض والبؤساء من الانقضاض على الأثرياء في المدن والأرياف، والقيام بعمليات سلب ونهب وقطع الطرقات، وهو ما حمل أهالي القيروان على الهجرة. يتزامن ذلك مع الضغط الخارجي وما عرفته الأوضاع بمحوض البحر الأبيض المتوسط

Poncet, Le mythe de la catastrophe hūlālienne, op. cit. p; 1118 - 1

من تغيرات ساهمت بدورها في الانحلال الزيري، ومنها تطور الجمهوريات الإيطالية - بيزة وجنوة وأمللي، والبندقية... - وتقوية الجانب النورماندي في جزيرة صقلية¹.

والواقع أن هذا التوصيف ينجم مع عدد من النصوص التاريخية، التي استشهد بها الباحث محمد حسن في أطروحته حول "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي"² - وكلها تفيد، بانحرام الوضع بإفريقية قبيل الهجرة الهلالية.

وفي سنة 395 هـ / 1004 م "كانت بإفريقية شدة عظيمه، انكشف فيها الستور، وهلك فيها افمبر وذهب مال العني وغلت الأسعار وعمدت الأقوات وجلى أهل البادية إلى أوطانهم، وحلت أكثر المنازل، فلم يبق لها وارث. ومع هذه الشدة وباء الطاعون، هلك فيها أكثر الناس من غني ومحتاج... وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية إلى جزيرة صقلية... وقين أن أهل البادية أكلوا بعضهم بعضاً"³

وفي سنة 409 هـ / 1018 م أي بعد ثلاث سنوات من استئصال شأفة الشيعة بالقيروان، ظهر الغلاء مصحوبا بالحروب الكثيرة، وأصبح قطاع الطرق ذارعين يمينا وشمالا بواحات الحرير وأريغ. وفي نفس تلك الحقبة، ومنذ سنة 408 هـ، دار الصراع بين زناتة وصنهاجة ناحية طرابلس، حتى أن عددا هاما من السكان أجلي من واحات الجنوب الشرقي، وتحول إلى وادي أريغ ووارجلان⁴.

وفي سنة 420 هـ بلغت زناتة مشارف القيروان، وأعادت الكرة ثانية بعد خمس سنوات، وبقيت الحرب سجالا بين الطرفين إلى حد سنة 428 هـ / 1036 م لما تمكن المعز من صد هذا الهجوم والتقدم إلى بلاد الزاب.

وفي سنة 430 هـ / 1038 كثر الخصب بإفريقية، لكن جهة طرابلس عرفت آنذاك

1 - J. Poncet, " Le mythe de la catastrophe hilalienne", op. c.t. , pp; 1102-1111

2 - محمد حسن، م. س.، ص 31 - 33

3 - السماخي، كتاب السير، تحقيق محمد حسن ص 294

4 - ابن عداري، البيان، 1، 269

هول الجوع والتشرد، في الحزر المتوسطة والواحات، حتى أن هذه الكارثة التي سميت "بسنة فراورا" ظلت راسخة في المخيال الشعبي، وأضحت مرجعية تاريخية. وفيها استولى هاجس الخوف لاستيلاء اللصوص على الطرقات وكثرة الغارات، وخراب العمران، كما برزت مسحة من التشاؤم لدى علماء العصر الذين أكثروا من "ذم أهل هذا الزمن".

ومن هذه النصوص إشارة هامة وردت في التويري، وتتعلق بما آلت إليه البلاد من وهن وتفكك عند وصول الهلالية إليها، إذ قال: "ودخلت العرب، فوجدوا بلادا خالية طيبة كثيرة المراعي، كانت عمارتها زناتة، فأبادهم المعز"¹.

ولقد تبنى (كلود كاهن) - وهو الذي ظل أسير "النظرية التقليدية" المعادية لبني هلال - هذه النظرية التمديدية التي دافع عنها جان بوسي، واعتبرها نظرية "مقنعة وصحيحة"².

ولم تزحزح هذه الانتقادات والاعتراضات من قناعة الهادي روجي إدريس حول الدور السلبي لقبائل الهلالية، بل دفعته للرد عنها في مقال بعنوان: "حقيقة الكارثة الهلالية"³، قبل أن يردفه بمقال آخر تحت عنوان: "الهجرة الهلالية ونتائجها"⁴ وفي كلتا الدراستين / الرديين نجده متشبها بالخلاصات التي دافع عنها في أطروحته / كتابه⁵.

ففي رده على كلود كاهن، ساق الهادي إدريس عشر ملاحظات، نجدها مفصلة في رده

1- انويري، نهاية الأرب، ج 24، ص 211

2- Claude Cahen, " Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme" Journal of Economic and Social History of Orient, 9, 1968, pp. 130- 133

3- Hady Roger Idris, "De la réalité de la Catastrophe Hilalienne", Annales ESC, 1968, pp. 390-396

4- H. R. Idris, "L'invasion hilalienne et ses conséquences", Cahiers de civilisations médiévales, 1968

5- وقد ساهم هنري طيراس بدوره في النقاش مسندا أطروحة الهادي روجي إدريس Henri Terrasse, " Citadins et grands nomades dans l'histoire de l'Islam", Studia Islamica, 29, 1969, p. 12, note 1

والجدير بالذكر أن هنري طيراس لا تنفصل عن المدرسة الفرنسية لاستعمارية

على جان بونسي¹، وهذه الملاحظات هي التالية :

- 1- كانت إفريقية "قوة عظمى حقيقية" قبل الفاطميين
- 2- كانت تعتمد على "موردها الإقليمية" أساسا، من دون إهمال الموارد المتأنية من المبادلات التجارية الخارجية.
- 3- "عدم نضباط المناطق الطرفية للسلطة المركزية" هي إحدى ثوابت تاريخ الغرب الإسلامي برونه.
- 4- من المفارقة التاريخية التصريح بأن "الإحساس بهذه الصعوبات كان يريد من صعوبة الإبقاء على تبعية سكان إفريقية للقاهرة، فوجود هذا الإحساس، وهو إحساس عصري، يحتاج إلى إثبات، فمن كان يحس به؟ إن التبعية للفاطميين لا علاقة لها بالاضطرابات الداخلية.
- 5- لم يكن هناك على عهد الزيريين "غلبة الفقهاء" أو غلبة "المذهب الإسماعيلي" مطلقا. ربما كان ذلك في البلاط، فتشيع صنهاجة كان تشيعا سطحيا أكثر من تشيع باقي السكان، وخاصة سكان القيروان، والمدن التي كانت ضد التشيع حتى الحجاج كانت تابعة للفقهاء والعلماء المالكيين.
- 6- أعترف أن الهلاليين لم يكونوا مسؤولين بصفة مطلقة عن الفوضى التي سادت البلاد. لنفترض أنها كانت في حالة كمون. فالصراع المستمر بين الرحل والمستقرين يؤكد ذلك. ولكن من ينكر أن مرضا ما بإمكانه - عندما يتعدى حدا معين - أن يهلك الجسم الذي كان قد تعود عليه فهشاشة التوازن بين نمطي الحياة يفسر قطيعته عقب الزحف الهلالي، وغلبة الترحال.
- 7- لا شيء يسمح بتأكيد أن "الأرستقراطيين المحليين" فضلوا التفاهم مع الزاحفين

1 H. R. Idnis, "L'invasion hilalienne et ses conséquences", Cahiers de civilisations médiévales, 1968

عوض البقاء خاضعين للزيريين. فالوفائع المتعلقة بهذا الجانب مرتبطه بعامة الناس لا بالأرستقراطية.

8- بن وثائق "الجنيرة" توحى أن هناك انخفاضا للتجارة الخارجية لإفريقية الزيرية قبل الغزو الهلالي ولكننا لا نعرف الأهمية المطلقة، ولا التنسية للمبادلات التجارية، ولا انعكاس ذلك الانخفاضا على اقتصاد البلاد وعلى المستوى المعيشي بصفة عامة.

9- من الواضح أن الرّحل حينما يخربون الزراعة، فإن ذلك يتم "من دون إرادة مسبقة" لفعل ذلك.

10- أوافق على الملاحظات المتعلقة بـ "البداوة - سياسيا على الأقل - لمجموع العالم الإسلامي في القرن العاشر والحادي عشر للميلاد وأدين "الذاتية" التي تدفع بالباحث إلى التركيز على هذا العنصر أوداك، من دون سند مصدري. ومن هنا، وللتخلي عن "أسطورة" الكارثة الهلالية، أطالب بالوثائق التي تدحض الفكرة، وأعجب على جان بونسي كونه لا يقدم أي سند مصدري لأطروحتة، ولا يحتفظ إلا بالأحداث التي تؤيد أطروحة مناقضة لكل الوثائق المستعملة، وكل ما تعلمه طيبة ثلاثين سنة من البحث حول عقيدة المجتمع المغاربي في العصر الوسيط الأعلى¹.

ولقد رد جان بونسي على حوب الهادي روجي إدريس في مقال مركز²، لم ير فيه الهادي روجي إضافة جديدة إلى النقاش

واعتبر (جاك بيرك) أن هذا "اجدل" يمكن أن يصبح عقيما طالما أنا لم نجمع، حول الحدث نفسه، وحول إطاره وآثاره، كمّا مصدريا ووثائقا واسعا ومباشرا³. ويتقد النظرية التقليدية التي تسين بني هلال وتعتبرهم سبب قطيعة في تاريخ بلاد المغرب، وبسببهم أصبح

1- H. R. Idris, " L'invasion hilalienne et ses conséquences", Cahiers de Civilisations médiévales, 1968, p. 357, note 5

2- Jean Poncet, " Encore à propos des Hilaliens La mise au point de R. Idris", Annales ECS, 1968, p 660- 662

1- J. Berque, " Du Nouveau sur les Beni Hilal," Studia Islamica, 36, 1972, p. 110

المغرب "بلد اقتصاد ضال"، حسب تعبير هنري تيراس¹ pays d'économie égarée الذي وجد الاستعمار صعوبة كبيرة في جعله يستقر على أسس متينة - كما يستشف ضمنا من هذه المقولة.

كما أنه ينتقد كثير من المؤرخين الذين "يدافعون، بالوكالة، عن الممالك الصنهاجية التي كانت قائمة، ويصفون الحكم الذي قام على أنقاضها بالفوضوي" ويتساءل في خاتمة مقاله مستنكرا: "لكن لماذا الحديث عن الفوضى، عوض الكلام عن التعدد، وعن العودة إلى الأصول؟"²

واضح أننا أمام نظريتين متناقضتين: "النظرية التقليدية" المعادية لبني هلال التي دافع عنها المؤرخون الفرنسيون المتأخرون وينعتها جاك بيرك "بالفكرة التاريخية الشائعة المبتذلة" "Une vulgate historique". وقد أحيها الهادي روجي إدريس؛ و"النظرية النقدية" التي يذهب أصحابها إلى أن الهجرة الهلالية لم تعمل سوى على تسريع الانهيار الزيري، وأن الأوضاع بإفريقية كانت متأزمة قبل قدوم العرب إليها.

يتصدى العروي لنقد التيارين معتبرا أنهما يسبحان في بحر العموميات ولا يبرحان أبدا مستوى الأنماط التبريرية. يصف الأول بالتبسيط والتلفيق، ويرى أن أصحاب التيار الثاني يظهرون "أن المجتمع المغلوب كان، قبل تفتته وانهياره أمام فائحه، جائرا استغلاليا، منقسما على نفسه، تحكم فيه أقلية دخيلة أغلبية ناقمة عليها ومغايرة لها في العقيدة أو اللغة أو العرق... ولذا نراهم يرددون، بعلم منهم أو غير علم، تلك البراهين التي عودنا عليها كل دارس يروم تبرير فتحا من الفتوحات،... وتتلخص في القولة التالية: كل فتح لا بد أن تسبقه أزمة عميقة في البلد المفتوح".

وبما أن الجميع يعتمد على نفس المصادر (الأخبار، المناقب، الأحكام الفتوى) التي

-2 H. Terrassa, "L'ancien Maroc, pays d'économie égarée", Revue de la Méditerranée, 1947

-3 Ibid, 111; "En lisant les nawazil Mazouna", Studia Islamica, XXXII, 1970, pp.

كتبها في الغالب فقهاء يعادون في نفس الوقت أمراء بني زيري وأشياخ القبائل الهلالية. فلا عجب إذا وجد فيها كل فريق ما يؤيد نظريته. فلا يمكن، والحال هذه، الفصل بينهما مهما طال النقاش"¹. وما يمكن في آخر التحليل أن يرجح كفة إحدى النظريتين حول المسألة المطروحة، حسب العروي، هو شهادة وثائق أصيلة عن تطور التجارة البعيدة في أواسط القرن الخامس / 11م... مثل وثائق الجنيزة القاهرة، التي تؤيد النظرية النقدية، بما أنها تتضمن رسائل تشير إلى نوع من الانحطاط الذي مس مجموع الغرب الإسلامي "سنوات عدة قبل وصول جحافل البدو والحجازيين"². وبالتالي فإنها تعتبر البداوة (بمعناها السياسي العسكري) نتيجة أكثر مما هي سبب وباعث.

ويرى كلود كاهن بدوره أن "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحده الذي يمكنه الفصل فيما إذا كانت مساهمة الأعراب الرحل في حياة إفريقية، ابتداء من منتصف القرن 5 / 11م قد خربت البلاد أم لا، قد حولت محاور التجارة الخارجية أولاً، وإن لم تكن الأزمة ترجع إلى عقدين من قبل قدوم العرب، وإن لم تكن ترتبط بأزمة عامة ضربت حوض البحر المتوسط برمتها"³.

خلاصة القول إنه يمكن التمييز بين اتجاهين كبيرين في أبحاث المؤرخين الفرنسيين المتأخرين والمعاصرين حول الهجرات الهلالية وآثارها المختلفة على بلاد المغرب: اتجاه أول يمثل "النظرية التقليدية" حول الهجرة الهلالية، وقد غلبت عليه النظرة السلبية لتلك الهجرات، كما هو واضح من كتابات جورج مارسلي وإيميل فيليكس غوتيي ومن لف لفهما، والتي يجب فهمها على ضوء الخلفية الإيديولوجية الكامنة وراءها، والانعكاسات المترتبة عن الترجمات غير السليمة للمصادر الأساسية حول الموضوع إلى اللغة الفرنسية. أما الاتجاه الثاني ويمكن نعتة بـ "النظرية النقدية"، ويمثله باحثون من أمثال جان بونسي وجاك بيرك وإيف لاكوست وكلود كاهن وغيرهم الذين تصدوا للأحكام والمغالطات الواردة في كتابات مؤرخي الاتجاه الأول.

1- العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، ص 97- 98

2- نفسه، 103

3- J. Berque, "Du Nouveau sur les Beni Hilal," *Studia Islamica*, 36, 1972, p. 110

المكتبة التاريخية اليمنية

www.yemenhistory.org

مختار محمد الضبيبي

إننا أبناء الأمة العربية مستهدفون جميعاً
بإستراتيجيات وتكتيكات بات واضحة
أنها لا تريد لنا عيراً، وهي تترصد بنا
وتحيك المكائد من حولنا وفي داخل
قلاعنا. وما قد اتضحت النوايا
واتضحت الصورة، ليس فقط على سبيل
ما يحدث في العراق وفلسطين، بل في
أجزاء كثيرة من وطننا العربي الكبير
ولعل من أسوأ الخطط وأبلغها أثراً تلك
التفرقة المفتعلة ما بين المشرق والمغرب،
وتلك النزعات التي تظهر هنا وهناك
داعية إلى مزيد من الفرقة والتمزق
وصرف الأنظار عن الخطر الخارجي
المُهدد بنا من كل جانب. ولعل هذا ما
يحفزنا إلى مزيد من الحذر والبحث
العلمي الموضوعي الجاد في ما يجمعنا
ويوحدنا كتلة واحدة كالبنيان
المرصوص يشد بعضه بعضاً.

